

عبداللہ قبرصی تیزکر

الطبعة الاولى 1982
جميع الحقوق محفوظة



مؤسسة فكر
للأبحاث والنشر
بيروت
ص.ب. 137/201

عبد الله قبرصي يتذكر

تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي وبدايات نضاله

الجزء الأول

يشكر المؤلف الصديق الكريم السيد و . أ . رزوق . لمساهمته
القيمة في نشر هذا الكتاب .

الاهتمام

والله المنة لئلا في سبيل الفضيلة العونية المقدره
وفي سبيل فضايا الحريه والقدم
رفقاء وحلفاء واهداء ومناصره

عبد قريشي

صدر للمؤلف

- وحي الظلام (شعر) ، 1945
- نحن ولبنان ، 1954
- مصرع السمنة ، طبعة ثانية 1970

كلمة رئيس الحزب الأمين انعام رعد في تقديم المؤلف

مسيرة تكاد توأكب مسيرة الحزب السوري القومي الاجتماعي منذ نشوئه ، هي مسيرة الأمين عبد الله قبرصي أحد قدامى المناضلين والقياديين في حزبنا لأنه تسلم أعلى المسؤوليات وأخطرها ، من مسؤولية أول عميد إذاعة النيابة الزعامة ، الى رئاسة المجلس الأعلى وعضوية هذا المجلس في أغلب دوراته منذ قيامه . لقد عرف الحزب وجماهيره الأمين عبد الله قبرصي أدبيا وشاعرا وحقوقيا ومناضلا .
وفي يومياته هذه ، في منكراته بعض تاريخ الحزب . وإذا كنا لا نعتمد بالنهج العلمي المنكرات وحدها مستندا لتاريخنا ، فانها تبقى ، خاصة إذا كانت منكرات القادة والمناضلين أحد أهم منائر الطريق في صياغة هذا التاريخ .

وتقديرًا من الادارة الحزبية لأهمية منكرات القادة ، فهي عاكفة على تشجيع وتبني كتابة منكراتهم التي تشكل بتكاملها أضاء على تاريخ الحزب ومسيرته .

ويزيد في قيمة هذه المنكرات لانفحات النضال التي تزخر بها فحسب ، بل هذا النفس الأدبي الذي يصوغ الكلمات فيها بنوق مرهف ، وهذه العفوية التي عرف بها الأمين قبرصي في سرد قصة الحياة بكل بساطة وبدون تعقيد حتى لو قسا على نفسه - وقد قسا على نفسه مرارًا في هذه المنكرات - دون تكلف لأنه يقبل على الحياة بكل إمتلاء .

إن أبرز ما يميز هذه السيرة النضالية أنها صادقة مع النفس ومع الآخرين .

إن الأمين عبد الله قبرصي أحد القادة الطليعيين في حزبنا

شباب وهو يفاضل ، دخل السجن ليلة عرسه وإستمر يحمل أكثر من جرح فوق جبينه في طريق الألام والجلطة سجننا وتشريدا وعطاء وتلبية . وكم نعتز في الحزب بهؤلاء القادة الذين شابوا وشاخوا في النضال . إنهم قذوة الصلابة والاستمرار . إنهم جزء أصيل من تاريخ أصيل .

والحزب الذي تقبل عليه أفواج وأرتال من الأشبال ويحتفظ في الوقت نفسه بشيوخ النضال فيه ، هو حزب الحياة بكل حلقاتها وأجيالها ، بكل شمولها .

رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي
إنعام رعد

29 حزيران 1981

مدخل

كاتب هذه الذكريات ليس حيادياً . انه عضو عامل في مجالس الحزب السوري القومي الاجتماعي القيادية . انه يدون مرحلة من مراحل نضال الحزب ونضاله ، يعود مطلعها الى ما يقارب النصف جيل . هذه الذكريات تستمد إذن قيمتها من قيمة الحزب الذي أثبت في عقيدته ومواقفه ومواقعه انه حزب طليعي رائد ، صارع ويصارع بالفكر والسلاح ، تتوحدن فيه النظرية والممارسة ويتعقدن القلم والبندقية .

وهي تستمد بعض أهميتها من كونها صادرة عن أحد قادة هذا الحزب منذ تاسيسه ، فهي شهادة وثيقة ، وهي بالتالي تسد بعض الفراغ ، لأن الكثير مما احتوته ليس محفوظاً في السجلات بل في ذاكرة الرعيل الأول من القدامى الذين يجب عليهم أن « يتذكروا » لتكون ذكرياتهم إحدى مراجع كتابة تاريخ الحزب . ونبادر الى القول أن عدم التسجيل لم يكن قصوراً من قيادات الحزب أو إغفالا بل لأن أكثر ما سجلناه جرفته موجات الاعتقال والتشريد المتعاقبة منذ عهد الانتداب التي كانت تجتاحنا مع كل دورة فلك بسبب نشاطنا الدؤوب المستمر سراً وعلناً .

لقد كانت لي أمنية عزيزة منذ عودتي من منفاه في فنزوا الاسنة 1969 أن أدون ذكرياتي قبل أن يطغى عليها الزمن فتضيع في ثنايا الذاكرة أو في عتمة القبور ، فاذا بعميد الاذاعة الاسبق في الحزب السوري القومي الاجتماعي الامين حافظ صايغ يدفعني إلى تحقيق هذه الأمنية ، إذ فتح لي صدر مجلتنا صباح الخير - البناء في باب عبد الله قبرصي يتذكر ، كأنما أكتب بأمر لا بد من تنفيذه ! ولقد تابرت من بعد على الكتابة طائعا مختارا - بل فرحاً وسعيدياً - إن أتاحت لي الفرصة للكتابة حتى أصبحت ذكرياتي بحجم هذا الكتاب .

إن ما أرويه ليس فقط حقائق بل دليل أن أحداً من رفقائي في القيادة لم ينتقص منه حرفاً أو يعترض على واقعة واحدة إلا أنه ليس كل الحقائق . لقد كان دوري في الحزب - وإن نضالاً ببناء - دوراً متواضعاً بالنسبة لدور الذين ترهبوا فيه ومن أجله وتفرغوا للعمل الحزبي ولا يزالون وكانوا في مراتب المسؤولية أرفع مني شأنًا ومرتبًا .

ثم إنني لا أبالغ - كما يمكن أن يقرأى للبعض - في وصف ما أصابنا من قمع وإرهاب وتنكيل وتعذيب . لقد عصتني الكلمات في كثير من المناسبات فلم أعبر تعبيراً دقيقاً عن فظاعة ما أصابنا فإذا بي أبالغ تحجيماً لا تضخيماً .

قد لا تكون المرحلة التي أتذكرها (من 1934 حتى 1948) في هذا الكتاب أهم مراحل النضال الحزبي ، فإمامنا من بعد أهم منها خاصة ثورة 1949 وإستشهاد سعادة علي أثرها ، والمحاولة الانقلابية سنة 1961 وأحداث 1975 التي لا تزال تدور رحاها في أعلى ذرى صنين .. إلا أن المرحلة التي ننشرها في هذا الكتاب ، لأنها مرحلة التأسيس تبقى حجر الزاوية في تاريخنا كله . هل تبني عمارة بدون أساسات ؟ بل إن مرحلة التأسيس هي المرجع الذي يجب أن يعود إليه تفسير ثورة 1949 وما تلاها فهي لها مقدمات ونتائج .

سيرى القارئ أننا منذ تأسيس حزبنا فرقة فدائيين سواء على التراب الفلسطيني أو اللبناني أو الشامي ، وإن طريق الصراع التي سلكناها ووحدها طريق إسترداد أرضنا الغصيب في الجنوب ، ووحدها سبيل تحقيق النهوض والفرح لشعبنا وامتنا السورية العربية (الهلال الخصيب) ووحدها المعبر إلى الحياة الجديدة والنظام القومي الإجتماعي العلماني على أكتاف الإنسان الجديد الذي تكاد نعيد تكوينه النفسي بما نتفانى في تربيته وتوعيته وإعادته للمهمات الكبار .

أعرف أنه سينبيري من يسألني في سره على الأقل : في هذا الزمن الرديء الذي يقتل فيه الأبرياء بالسلاح الأميركي - الصهيوني بأيدي الصهاينة أو المتصهينين ويسرح فيه القتلة والمجرمون ويمرحون ، ويتصدرون المجالس وأعمدة الصحف والمجلات والاذاعات والتلفزة ، في هذا الزمن الذي يقتل فيه المثاليون والثوار الاصيلون الابطال ، فيما يكافأ الخونة المارقون بائعو ضمائرهم إلى العدو ، في هذا الزمن الرديء ما نفع الكلمة كانت ذكريات نضال أو غير ذكريات ؟

هذا سؤال مجرح . أنا نفسي أكاد أطرحة على نفسي . ومع ذلك فالجواب عليه هو في نشر هذه الذكريات لا في طيها . ذلك لأن الماضي هو الذي يصنع الحاضر والمستقبل أو ينشره أو يبرره . لا يرتجل التقدم والتغيير إرتجالاً .. إنني أكتب وأنشر لجيلي ولأجيال لم تولد بعد لتحتدو الأجيال الآتية حذو جيلنا - القدوة لأنه جيل الأضاحي والتضحيات والشهداء . إنه جيل الفداء الحق .

نحن المناضلين في هذا الزمن الرديء كلنا شهداء سواء كنا تحت التراب أو فوقه ، إنكم من شهيد حي بيننا ، في كل بقعة من بقاع المعمور ... إننا نسير

على دروب الذين سبقونا في حرب التحرير والكفاح المسلح . إن نيران العدو تهدم بيوتنا فوق رؤوسنا أو تحرق أجسادنا بنيرانها من الجو والبر والبحر ولكننا بما نقاسي ونضحي ، نظل طريق النصر ، طريق التقدم والتغيير . الحضارات لم تصنع بأيدي الذين ينامون على الحرير ، بل بأيدي الذين ينامون على الأشواك والنيران الذين يولدون في الصراع ويستشهدون في الصراع .

صحيح أن هذه الذكريات لن تكون رصاصة توجه إلى صدر الأعداء ، ولا ذخيرة أو زاد للمناضلين ، إلا أنها قد تكون بلسما لجريح نجا من الموت ، أو سجين يكتوي بنار الحرمان والعبودية ، أو عزاء لمن فقد حبيباً أو عزيزاً في معارك الشرف والحرية .. يشعر الإنسان بأنه يفي ديوناً بعنقه لمن سبقوه ، إذا كانوا هم أسخياء في البذل والفداء .

وإلى اللقاء . في مسلسل الذكريات . إذا حاز هذا الجزء منها الرضى والقبول ..

وشكراً في الختام للرفقاء والأخوة من المواطنين الذين فتحوا لنا صدورهم وبيوتهم أيام الشدة والقهر ، أيام اليتيم والشقاء ، أيام الجهاد المرير ، في الكورة الخضراء وفي فنزواوكل المغتربات التي حللنا بها ضيوقاً في المنفى ، أو هارين من وجه المظالم .

حزيران 1981

عبد الله قبرصي

كيف يمكن للانسان ان يتذكر ، في هذه الايام العصبية ؟ كل شيء يشد على الذاكرة ، يطوقها ، كما يطوق النفس ، فاذا بنا نختنق دون ان نختنق . مرارا فكرت بان اذهب الى الجبهة ، لاقتل (بفتح التاء) لا لاقتل (بضم التاء) لان افضل نهاية للمناضلين ، بل النهاية التي يجب ان يتمنوها ، ان يشتهوها ، هي ان ينجيل دمهم بتراب الوطن الذي احبوه حتى العبادة ، دفاعا عن النهضة وعن الشعب ..

لم أعد اخاف على شيء - اذا كنت قد خفت يوما من شيء - فانا في نهاية المطاف . لقد كنت دائما ابشر ان الموت ، والانسان شامخ الأنف ، مرفوع الجبهة ، بعد ان أدى واجبه نحو أمته ، هو الموت الأملئ .. ان موت العاجز هو نوع من الاحتقار للحياة ، نوع من طلب الخلاص . اما موت القادر فهو نوع من الرقاد الطويل ، من الوداع بلا لقاء ، من التنازل عن البقاء في سبيل الحياة المستمرة بالمجتمع .

لم أعد اخاف على شيء ! هذه مبالغة . بلى اني اخاف على شيء واحد ، ان اغمض عيني الى الأبد ، دون ان اكتب مذكراتي او ذكرياتي ، لا من اجل التباهي والتفاخر والاعتزاز بالماضي ، بل من اجل المستقبل . ان ذكرياتي ليست تاريخ حياتي . انها جزء من تاريخ الحزب السوري القومي الاجتماعي ، ولانها هكذا تصبح ثمينة وعزيزة ، واخشى عليها من ان تدفن في عتمة القبر الباردة ! ..

انني لا اكتب مذكرات او ذكريات ، اني ادون وثيقة يصح الرجوع اليها لكتابة تاريخ حزبنا العظيم .. وتاريخ مشاركتنا في الحرب ضد الصهيونية والامبريالية والرجعية .

من هو عبد الله قبرصي ؟

لا اكتب عن نفسي ، لاسجل تاريخ حياتي . ذاك شأن ثانوي . ان الانانية الفردية - رغم انها محرك ومحرض فعال في الوجود - هي مصدر اكثر العلل

المستحكمة بشعبنا وبعالمنا العربي . وقد علمنا سعادته ان نمعس انانيتنا وان نذوب في مجتمعنا ، فما يذكر احدنا نفسه ، الا اذا كان هذا الذكر مفيدا او ضروريا لربط نتيجة ما بسببها المباشر او غير المباشر .

ان القارىء ، يجب ان يعرف الكاتب الذي يقرؤه ، خاصة في معرض النكريات والعودة الى الماضي . ان هذه المعرفة اساسية لانشاء الثقة ... فنحن لا نصدق ايا كان . اننا لا نصدق شهود الزور . اني اقدم نفسي ، ليدرك القارىء ، اني شاهد حق واني اشهد بالحق ، واذا اروي فالحقائق التي لمستها بيدي او سمعتها باثني .

لقد دخلت الحزب في خريف سنة 1934 واعتقد ان رقمي كان 71 او 31 . اي ان الذين سبقوني في الحزب قلائل ، لم يبق منهم على قيد الحياة الحزبية ، الا الامين جبران جريج . وبعد دخولي بأيام عينت عميد الاذاعة ، فانا اول عميد للاذاعة في الحزب .

في 16 تشرين الثاني 1935 دخلت السجن ليلة عرسى مع الزعيم وباقى العمدة والاركان والرفقاء بعد ان انكشف امر الحزب . وخرجت في 23 من نفس الشهر احمل في اطواء سترتي مرسوما من سعادته بتعييني زعيما بالوكالة . وقد عين الزعيم فيما بعد نوابا له ولكني الوحيد الذي عين زعيما بالوكالة .

ورحت رغم ضيق وقتي وضغط مسؤولياتي المعاشية اناضل قدر طاقتي ، فاصبحت في تشرين الاول سنة 1936 رئيسا لمجلس العمدة ، ثم اقلت بسبب خطأ اداري ارتكبته بعد اربعة اشهر ، ثم عينت خلال سنة 1937 ناموسا لمجلس العمدة برتبة عميد ، وقبل سفر سعادته الى المغتربات في ايار 1938 كنت عضوا في المجلس الاعلى ورئيسا لمجلس وكلاء العمدة الذي عينه قبل رحيله . وطوال غيابه كنت عضوا في المجلس الاعلى . وعندما اعلنت الحرب الكبرى الثانية واستطعت الفرار من وجه المظالم ، لجأت الى الكورة ومنها انطلقت لاسد الفراغ الاداري والدستوري ، في غياب رفقائي القادة في سجون بيروت ، فعينت نفسي « المسؤول الاول » وبهذه الصفة قمت ببعض الاعمال واتخذت بعض المواقف واشرفت على ادارة الحزب حيثما استطعت الاتصال والتحرك .

بعد عودة الزعيم في 2 آذار 1947 ظلت عضوا في المجلس الاعلى ، ورغم حل هذا المجلس ابقاني الزعيم رئيسا اسميا له ، لا ظل مسؤولا امام الحكومة ، لان النظام الذي كنا قد قدمناه رسميا ينص على ان رئيس المجلس الاعلى هو الممثل الشرعي للحزب تجاه الحكومة اللبنانية .

وخلال شتاء سنة 1948 أصبحت رئيسا للشعبة السياسية اللبنانية .

وفي 9 كانون الثاني 1955 انتخبت رئيسا للمجلس الاعلى الذي انتخب وفقا للمرسوم الثامن والذي كان يرأسه قبلي الامين الفقيه فؤاد ابي عجرم .

وبعد المحاولة الانقلابية سنة 1961 وتمكني من الفرار من وجه المظالم حتى بلغت اميركا الجنوبية ، تسلمت صلاحيات المفوض العام فيها . ولما رجعت الى ارض الوطن اولاني رفقائي الامناء من جديد ثقتهم فانتخبت عضوا في المجلس الاعلى . ثم عينت سنة 1972 عميدا للقضاء ثم استقلت بسبب لادستورية السلطات الحزبية آنذاك ومن جديد عينت عميدا للقضاء وبقيت حتى اواخر سنة 1975 .

اني اكتب هذه الفصول ، وانا رئيس للمكتب السياسي في الحزب - فكل هذه المسؤوليات الهامة التي اضطلعت بها عبر حياتي الحزبية وقد بلغت الآن الاثنين والاربعين عاما ، توحى لقارئتي بالثقة التي اشرت اليها في مطلع هذه المقدمة .

ولا بد لي ان اوضح ، ان ما اكتبه هو ذكريات لا مذكرات . فاننا اتكل على ذاكرتي ، لان كل ما دونته صار في حوزة السلطات الحكومية وفي ملفات التحقيق والمحاكمات من 1935 الى 1961 . سأذكر ما يزال عالقا في ذاكرتي انن ، مؤكدا مرة اخرى ان كل ما اشك بصحته سيكتب مع الاشارة الى هذا الشك كي يكون الصدق طابع هذه الذكريات العام .

مرحلة التأسيس

كيف دخلت الحزب السوري القومي ولماذا ؟

لم ابدأ حياتي الدراسية في المدارس الاجنبية بل في مدارس قرى الكورة من قرىتي دده الى بيترومين الى برصا الى القلمون ثم الى دير البلمند ومن بعدها الى مدرسة الصفا في فيع . في مدارس القرى كنا نتعلم اللغة العربية والحساب . كنت اكراه الحساب ولا ازال . احببت الشعر وانا وريقة وشغفت به عندما اصبحت غصنا ولما صرت ثمرة كنت قد اصبحت انظمه . معلمي سليمان نصر لا يزال حيا يرزق ، انه شاعر . معلمي الآخر نعمان نصر وقد توفي امامي في غرفة الدراسة كان شاعرا نابغة . كنت افيق مع الشعر وانا مع الشعر . واول قصيدة نظمته اعرف منها مطلعها : « وطني الجميل واجمل الاوطان » ... انن اولي قصائدي كانت تغزلا بوطني .

عندما اضطررت ، بعد وفاة معلمي الشاعر النابغة نعمان نصر - وكان قد نال

جائزة مجلة « المرأة الجديدة » في قصيدته الامومة – ان التحق بمدرسة الفرير في طرابلس في كانون الثاني سنة 1924 كنت قد اصبحت وطنيا ، فما تأثرت بالتبشير « الفريري » ولا برفقة زملائي التلامذة الذين كلنت فرنسا « امهم الحنون » ... نزعتي الاستقلالية كانت قد ترسخت ، بدليل بكائي بكاء مرا عندما شاهدت المغفور له عبد الحميد كرامي محاطا بالسنغاليين اذ كانوا يسوقونه يومذاك الى جزيرة ارواد . اجل ، كنت اتتبع خطى الوحدويين ، من عبد الحميد كرامي الى رياض الصلح الى رجال الكتلة الوطنية في الشام . وكان حلما من احلامي ان اكون في صفوف الشباب الذين كان يتزعمهم في دمشق فخري البارودي .

لم اكن اضيع وقتي في الصيف ، فقد كنت انصب خيمة امام بيتنا في دده – الكورة واعلم من هم نوني سنا . من تلامذتي وبيع عيسى ونور الدين الايوبي وعبد النوريزيك . هذا عدا تجوالي مع قريبي ورفيق صباي الرفيق جبران جريج ، في بشمزين وبطرام واميون نلقي القصائد والخطب ونحب كل حلوة نلقاها حبا طفوليا اكثر ما يشبه حب الازهار للثمار .

ما ان حصلت على الشهادة المعادلة للبكالوريا ، بمعزل جيد جدا ، تاركا ورأئي انتصارات دراسية باهرة – كنت رئيسا للنادي الادبي الفرنسي ونائب رئيس النادي الادبي العربي – حتى استدعاني مطران الروم الارثوذكس الكسندروس طحان الذي اصبح فيما بعد بطريرك انطاكية وسائر المشرق لتسلم ادارة مدرسة الصبيان . ومن اولى تظاهراتي الوطنية ، تظاهرة ضد وعد بلفور في 2 تشرين الثاني 1929 القيت فيها قصيدة وطنية نشرت في جريدة الحوادث الطرابلسية لصاحبها لطف الله خلاط والد القاضي المتقاعد جبرائيل خلاط .

عند التحاقني بمعهد الحقوق الفرنسي (معهد حقوق بيروت حاليا) كنت قد اخذت طريقي في العمل الوطني . كنت اؤمن بوحدة سوريا ولبنان اولا ثم بالوحدة العربية الكبرى . وقد صادفت على مقاعد الدراسة بين زملائي الطلاب من يؤمنون ايماني . وكان في طبيعتهم وجيه الحفار – الذي صار فيما بعد صاحب جريدة الانشاء الدمشقية – وهو ابن اخ لظفي الحفار احد اركان الكتلة الوطنية آنذاك .

بقيت في معهد الحقوق ثلاث سنوات متواليات نلت على اثرها شهادة الليسانس بمعزل جيد . وكان من المتفوقين في صفنا الاستاذ شارل حلو ، الذي اصبح رئيسا

للجمهورية اللبنانية بين 1964 - 1970 .

اطرف حادث جرى لي وانا في معهد الحقوق ، ولعله يختصر اتجاهاتي الوطنية ، هو التالي :

كان محظورا علينا ان نكتب او ان نخطب في الشؤون السياسية ، فانصرفنا الى الدرس والمتعة . تظاهرننا يوما لا من اجل الاستقلال بل من اجل تخفيض اجور السينما . ولكن ضمائنا لم تكن تحت ادارة وتوجيه الآباء اليسوعيين . الاحرار منا ظلوا احرارا ، فما نفع الضغط عليهم ولا اجدى . شارل حلو وكثيرون ممن تربوا على يد اليسوعيين كانوا ملكيين اكثر من الملك . اما انا ووجيه الحفار وشوقي الدندشي وماير مسعد فكنا على الضفة الاخرى .

سنة 1931 تعاهدت مع ووجيه الحفار ان امثل شباب لبنان ، في حفلة عيد الشهداء في السادس من ايار في دمشق . نظمت القصيدة المنشورة في مجموعتي الشعرية « وحي الظلام » ، ولما القيتها على ووجيه كبر لها وهلل . فرحنا نهجد الذهن لنبتكر طريقة نهرب فيها من معهد الحقوق ونظل فيه ، ففتقت لنا الحيلة ان نحضر يوم عيد الشهداء الدرس الذي كان يمليه الاستاذ « ارين » في الحقوق المدنية من الساعة الثامنة الى التاسعة صباحا ، وان ننطلق الى دمشق في سيارة ركاب تنتظرنا على الباب عند انتهاء الدرس - وان يكون اسمي في اول لائحة الخطباء ، فنعود حوالي الرابعة لنكون على مقاعدنا الساعة السادسة الى السابعة ، في درس الاستاذ جان فران Jean Ferrand وهو من مشاهير المحامين في لبنان .

نفننا الخطة بدقة عسكرية ، القيت القصيدة باسم شباب لبنان . لم يكن احد قد سمع باسمي من قبل خاصة في ربوع الشام . جاهدت لاصل الى المنبر . وما ان بدأت بمطلع القصيدة حتى استوليت على الساحة . بعيني شاهدت فخري البارودي يمسح دموعه وكذلك هاشم الاتاسي . وما ان نزلت عن المنبر حتى شق لي الجمهور طريقي وهجم علي البعض يقبلني . واتجهت صوب الكراسي الامامية ، فاذا بهاشم الاتاسي يتجه نحوي ويقبلني ايضا وكذلك اركان الكتلة .

بقائق والسيارة تعود بنا باتجاه بيروت ، نحضر درس الاستاذ جان فران في الاقتصاد السياسي .

دهشت ساعة قرأت في صحيفة القبس اسمي كاملا وبعض مقاطع من قصيدتي ،

وتولاني الخوف عندما وقعت في جريدة « لاسيري » على رسالة مراسلها من دمشق يصف فيها احتفال عيد الشهداء وينكر ان عبد الله قبرصلي مثل شباب لبنان والقي قصيدة ذات نفس ثوري ، قلت في نفسي : دقت ساعة الطرد .
ومر يومان طويلان .

وفي صباح اليوم الثالث ، استدعاني الاب المدير موتارد ، وقال لي :
« يا بني انت مجتهد ، وسلوكك حسن . فلماذا عرضت نفسك في ظهورك في عيد الشهداء في الشام والقائك قصيدة باسم شباب لبنان » ؟ ..؟
كنت مستعدا لتلك اللحظات الحاسمة في تاريخ حياتي ، فاجبت في قليل من الاضطراب :

« ماذا تقول يا ابت ، انا بالكاد اقرأ اللغة العربية واكتبها . ولقد كنت في السادس من ايار في المعهد . حضرت الدروس الصباحية والمسائية ، فكيف يمكن ان اكون في بيروت ودمشق في آن معا ؟ .. »

اخذ الاب « موتارد » جريدة لاسيري والقاهها بين يدي : من هو هذا عبد الله قبرصلي اذا لم تكن انت ؟ »

قلت : « شكرا لك ابت . راجع اسمي في السجلات . انا عبد الله قبرصي لا عبد الله قبرصلي ، هناك ال قبرصلي في صيدا وفي بيروت وفي مناطق اخرى من لبنان » .
« اعذرني يا بني » ، قال لي الاب موتارد . « عد الى دروسك . اعذرني تكرارا » .
وربت على كتفي علامة الرضى والبركة .

وعدت الى الصف وانا اخشى تحقيقا لاحقا فاضحا . ولكنني نجوت بفضل قناعة الاب موتارد الذي رفض كل توسيع بالتحقيق !..

في المحاماة والصحافة والادب

في 29 كانون الاول 1932 سجلت محاميا متدرجا في مكتب الاستاذين ابراهيم وفهيم خوري . وبدأت اتصالاتي بالصحافيين والادباء . كتبت في « الاحوال » و « المساء » وفي مجلة المعرض . دافعت عن امين نخله ضد خليل تقي الدين وحظيت بلقب « القنبلة »

من رشيد نخله . وكان دليلي الى الاخطل والى ابي شبكه الاديب الثائر فؤاد سليمان .

في يوم من ايام صيف 1933 كنت ضيفا على الدكتور موسى سليمان في فيع بمناسبة عيد مار سمعان . قال لي موسى عندما كنت اتأوه لاني لا اجد مجالا للعمل الوطني :
« هنالك حزب سري يعمل لوحدة سوريا ولبنان » .. « في بيروت سنلتقي في الخريف
ونتحدث .. » كنت أول مرة شممت فيها عبير الحزب السوري القومي الاجتماعي ،
فيما كان يعنيه حكما .
انتقلت في الخريف الى غرفة في شارع جان دارك في منزل جرجس سمعان الحداد
وكان يملك مطعما في شارع بلس محل « اليسار » اليوم .. وكان هذا المطعم ملتقى
الطلاب والاساتذة .

دعاني موسى الى الغداء في ذلك المطعم وفيما نحن على المائدة اقبل شاب نو لحية
سوداء حالكة وجلس الى الطاولة المحاذية لنا انكر انه اكل خيارا بلبن وبعض
الفاكهة . لفتت نظري لحيته لاني لم اكن معتادا الا على لحي رجال الدين . استغربت
حتى الاستهجان .. ولم اخف استهجاني ، فانتهرني موسى سليمان وقال لي :
« اسكت . ان هذا الشاب هو انطون سعاده انكى رجل في لبنان » ... فتهيبون
ان اقتنع .

في بيت جرجس سمعان الحداد كان ولده الاكبر فؤاد مكلفا على ما يبدو
باستدراحي . كان يريد اقناعي بسوريا وكنت اتشبت بالعروية . تحيا سوريا يصرخ
بي عاليا فأجيبه « يحيا العرب » .

ما كان يزيد شيئا ولا انا ازيد . كل منا في موقعه لا يتزحزح .

الى ان تلاقيت صدفة بانطون سعاده في دار معلمي في الحمامة الاستاذ ابراهيم
خوري في رأس بيروت . كنت مدعوا الى الغداء وكان مدعوا . كانت نقنه قد حطقت ،
فبانة تقاطيع وجهه الفياض بالرجولة والهيبة والحيوية . تعارفنا من جديد وجلسنا الى
المائدة متواجهين .

لاول مرة مع المعلم

كان لقاؤنا الاول الحقيقي في تشرين الاول سنة 1933 على وجه التقريب . عندما
تعرفت اليه سابقا في مطعم الحداد لم نتقابل ، مربي كالمجهول . اما في منزل ابراهيم
الخوري ، ويحضور التي كانت خطيبتني ثم زوجتي فيما بعد ، جورجيت بربر ، فقد

كان سعادته معلما جديدا لي .

نعمان نصر علمني قرص الشعر ، وعبد الحميد كرامي الكفاح من اجل الاستقلال والوحدة ، اما انطون سعادته فقد علمني قوميتي ومثلي العليا في الحياة .

رغم ان موسى سليمان قال لي عنه ، انه انكى شاب في لبنان ، لم اتهييه على تلك المائة . كنت اعتد بنفسي . كان الغرور قد اخذ مني مأخذا بعيدا . كنت قد ابتليت بعقدة التفوق . ففي مدرسة الفرير في طرابلس كنت على لائحة الشرف طوال حياتي المدرسية . الاول باللغة الفرنسية والاول باللغة العربية والاول باللغة الانكليزية . كنت احمل على صدري ثلاثة اوسمة . كنت اسبق الثاني الذي يليني احيانا بعشرين نقطة . كنت اتصور اني انا انكى شاب في لبنان فلماذا يكون انطون سعادته انكى مني ؟

وبدأنا الحديث ...

اذا قلت اني اذكر التفاصيل ، ازور . لقد تعهدت بأن اكون شاهد حق .

اني اذكر الانطباعات وانكر مواضيع الحوار العامة . وانكر كيف ان الحديث عن القومية كان بالنسبة لي نوعا من الكشف عما اجهل . ومع ذلك فقد كابرته وعضبت . ضريت الطاولة بيدي مرارا ووقفت مهتاجا . كان شعوري ان الرجل لا يحترمني ، اذ كيف يمكن ان يقول لي - لا - عندما كان يجب ان يقول - نعم - . كنت اتصور اني اعرف كل علم وكل فن وكل فلسفة ، فاذا بي اجهل كل ذلك !

واستمرت المناقشة بعد الغداء ، حول الطاولة . لقد بدأ غروري يتنازل من عليائه ، وقد وصفت - في مقال سابق - حالتي ، بعد الطواف في علم الاجتماع ، ومعنى الامة والقومية ، وكيف تنشأ الامم وتبنى الاوطان ، فنكرت بأن تلك المقابلة جعلتني اشعر كآني طفل امام مارد ! كتبت ذلك المقال في مجلة « المجلة » بتحريض من العميد جبران جريج .

اجل ، لم تدق الساعة الثالثة بعد الظهر حتى كنت مغلوبا على امري ، مستسلما . لقد تواضعت رغم انفي ... ومنذ ذلك اليوم ، رحمت اتسقط حديث المعلم اسعى اليه واشتاقه .

ولكن الحمامة كانت تستولي على كل وقتي . منذ بداية الطريق ، عندما كنت اشقها شقا وقبل ان ابدأ بتعبيدها المادي ، كنت مرهقا ماليا ... لقد خرجت من يتم الحياة

المدرسية الى يتم الحمامة في نواحيها المالية ايضا . فالحمامي المترج كان - ولا يزال -
يكسب معاشه بالجهد الجهد .

ما باح لي سعادته في اللقاء الاول بوجود حزب . ولا باح لي في اللقاء الثاني او الثالث .
اعطاني ثلاثة اعداد من مجلته وكان اسمها المجلة ايضا ، هي الاعداد الوحيدة التي
اصدرها قبل معرفتي به ، وهي المخطوطات الوحيدة آنذاك في شرح معنى الامة
ومقوماتها .

قرأت تلك الاعداد . حاولت ان اتفحصها بعد الشروح التي سمعت ، وان احفظها .
ما كنت اجد الى ذلك سبيلا . والسبب يكمن في تربيتي الثقافية . ففي مدرسة الفرير في
طرابلس ، ورغم علاماتي المتفوقة ورغم رئاستي للنادي الادبي الفرنسي ، لم يكن
يتسنى لي ان اطلع على ما ارغب . كنا نحن تلامذة الفرير محصورين او محاصرين في
سجن الكلية الرهبانية . كل الكتب كانت ممنوعة الا كتبهم . جئت مرة بكتاب
(جوسلين) من تأليف لامارتين Lamartine . شاهده الاخ جيلبار بين يدي . اخذه
واحرقه امام عيني ، مهيدا متوعدا . لم يكن على برنامجنا التعليمي الا الرياضيات
والاداب وكتب الجغرافيا والتاريخ التي الفها الاخوة المسيحيون انفسهم . لم نكن
تلامذة بقدر ما كنا اسرى وعبيدا لكليتنا واساتنتنا . كانوا يحاولون قولبتنا في قوالب
فولانية .. نقولا الشاوي ، احد قادة الشيوعيين اللبنانيين كان معي في نفس المعهد !

لا عتب علي اذا لم افهم فكر سعادته الفلسفي ، ولا آراءه في علم الاجتماع ، ولا
نظرياته العلمية حول نشوء الامم ، والاقتصاد القومي . كنت اجهل كل ذلك جهلا
مطبعا . كنت قد اتخمت من كورناي وراسين ولامارتين وهوغو ... كنا نعيش العصرين
السادس والسابع عشر في فرنسا وفي فرنسا فقط .

ليس عارا ان اقول الحقيقة . انه شرف لي ان الحزب كان الجامعة التي تخرجت منها
في العلوم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . ففي معهد الحقوق الفرنسي نفسه ،
وان درسنا الاقتصاد السياسي ، لم نستوعب كل ابعاده . كان قطب الدائرة في دروسنا
علم الحقوق . ما نون علم الحقوق وما على جوانبه لم يكن له ابني اهمية بنظرنا . لماذا
الاقتصاد السياسي ، كنت اسأل نفسي ، طالما انه ليس مادة للامتحان !.

ليس لي القارئ ان اعترف ، ان معلوماتي عن الشيوعية ، وعن الماركسية بوجه
عام ، كانت مجموعات من قراءاتي الصحفية او احاديثي مع اصدقاء متقفين . لم اقرأ

ماركس . لم اقرأ لينين الا بعد سنوات من دخولي الحزب . وقد كنت اقرأ الماركسية بروح العداء للشيوعية والشيوعيين . حتى تحول هذا العداء بيننا وبينهم الى عداء دام ، فازداد الجفاء والحقد والتناؤ والتناحر . كانوا يعتقدون اننا فاشيست ونبغدون انهم عملاء موسكو . لقد تفاهمنا حاليا ونحن في جبهة الاحزاب والقوى الوطنية ، نحارب معا الرجعية والانعزالية الطائفية في خنادق متوازية ان لم تكن خنادق واحدة .

اصرح بكل هذا ، ليفهم القارئ لماذا اكتشفت اني جاهل في اول لقاء جدي مع سعادته . وكيف رحبت اتابعه ، واسعى الى لقاءه ، لكي اتعلم ما لم اكن اعلم .

هو نفسه ، كان يطاردني ايضا ، كان بحاجة الى تلامذة وجنود . كان يهمل ان يتقف من يانس ان فيهم ميلا للثقافة . كان من مخطئه ان يهدي اصحاب الضمائر الطاهرة الذين ما افسدتهم المدنية ولا الانتداب ولا الرجعية ، فظلوا متحررين ، طامحين الى النهوض بوطنهم ، ولو لم يحدوه في اذهانهم تحديدا علميا سليما . كان يسعى الى ايقاظ الحوافز الخيرة عند الشباب وان يدفعها الى الثورة على الواقع ، ليصعد بها نحو المثل العليا الحضارية .

ظللنا نجتمع بضعة اشهر ، بضع مرات شهريا ، الى ان اقتنعت بالامة السورية والقومية السورية ، وبالمبادئ الاصلاحية ، وان لم استوعب كل ذلك استيعابا شاملا . فاتحني بأمر الحزب . سلمني دفتر فيه المبادئ الاساسية والمبادئ الاصلاحية والقسم . كان هذا الدفتر وشروح سعادته الشفوية كل تراثنا الحزبي . كان سعادته المعطي وكنا نحن الآخذين . امنت واقتنعت . عين سعادته جلسة لاداء القسم واكمال عملية الانتماء .

طلب الي رسما شمسيا . واملاء قسيمة بخط اليد ، عن هويتي وثقافتي وعنواني ويبدل اشتراكي الشهري .

الذي اسخطني الحزب هو نعمة ثابتة .

الذين شاهدتهم ليلة دخولي هم بهجت خولي وفؤاد سليمان وآخرون لا انكرهم .

كان ذلك في تشرين الاول 1934 . سعادته ينكر في رسائله الى غسان تويني اني انتميت الى الحزب في اواخر سنة 1934 . تحقيقاتي اثبتت ان هذا التاريخ اكيد . ولكنني استطيت التحديد اكثر . فقد دخلت في اوائل تشرين الاول من ذلك العام اي بعد

مرور عام على لقائنا الاول في منزل المحامي ابراهيم الخوري الذي اصبح خال زوجتي جورجيت بربير .

اقسمت بعد ان علمني نعمة ثابت كيف اقف الوقفة النظامية ، كيف ارفع يميني زاوية مستقيمة ثم علمني الاشارات السرية للتعارف . كيف نظرق الباب والطاولة . كيف نضغط على الكف عند السلام . كيف نضع الاصابع فوق الحاجب وحول الاذن ...

اقسمت اليمين وانا ارتجف . احسست اني ارتبط بالنضال القومي لدى الحياة . احسست اني وهبت نفسي لامتي ، بعد ان كانت كل مطامحي التفوق في الحمامة وبناء عائلة وشهرة شخصية . احسست اني اتنازل عن ذاتي لانصهر في ذات الحزب ، ذات الامة .

احسست ان انقلابا داخليا تم في كياني . احسست اني ولدت ولادة جديدة . ان عمري الحقيقي ابتداء ساعة اقسمت يمين الانتماء الى الحزب السوري القومي .

لقد كنت حرا في ما اقول واكتب واعمل ، فاصبحت ملتزما . صار لي محور واطر وحبود . لقد دخلت في عالم النظام . عالم الحركة المسؤولة . كنت في فراغ من الاهداف والغايات . فصارت اهدا في وغاياتي اهداف وغاية الحزب . لقد وجدت نفسي في ولادتي الجديدة ووجدت امتي ووجدت الحياة . بل وضعت حياتي في خدمة قضية عظمى فاصبح لحياتي ثمن كبير هو الكفاح في سبيل انتصار القضية !

من عمدة الاذاعة الى وضع مشروع الدستور

كانت العادة المألوفة ، ان يقسم المرشح للعضوية قسم الانتماء بون ان يعرف شخص الزعيم . الزعامة كانت مؤسسة لا شخصا . اقسمت يمين الانتماء ، وتأيد الزعيم وسلطاته ، بون ان اعرف انه كان انطون سعاده . الزعامة كما كانت مألوفة ، تسلط واستغلال واستعباد ، اما الزعامة في الحزب السوري القومي فقد كانت قيادة وبناء نفسيا واعدادا لوحدة الامة واقامة النظام الجديد .

على اني لم استغرب ولا اندهشت لما ادخلني نعمة ثابت من غرفة القسم الى مكتب الزعيم وقدمني اليه : الرفيق عبد الله قبرصي . خرج من وراء المكتب وضممني وقبلني ورحب بي . ولا انكر اني تفوهت بأكثر من كلمات واجفة ، متقطعة ومحرورة . بدعاني للحضور اليه في اليوم التالي مساء . اطلعتني على تشكيل مجلس العمدة . وكان برئاسة نعمة ثابت نفسه . كان مركز عميد الاذاعة شاغرا فأصدر مرسوما بتعييني عميدا للاذاعة . خلال سنة طويلة كان قد تفحص اختصاصي وميلي .

من اهم مزايا المعلم الادارية انه كان يضع الامكانية المناسبة في المكان المناسب . كنت معروفا بمواهبني الخطابية وبمقدرتي على التعبير عن نفسي بجرارة وحماس ، فلم يكن بين الرفقاء - وعددهم آنذاك لا يتجاوز السبعين على ما انكر - من هو اجبرمني بتحمل تلك المسؤولية فأسندها الي . اصبح مجلس العمدة الاول مؤلفا اذن من نعمة ثابت رئيسا وعميدا للدخلية ، سامي قربان عميدا للمالية ، وانا عميدا للاذاعة . وكان امين السر العام عمر اللبان . لم يكن سعاده قد اكتشف في محيط المحيط ان كلمة ناموس التي نستعملها تعني امين سر ! ...

كنت وفؤاد سليمان رفيقي صبا ، درسنا معا في مدرسة الصفاة (فيع) ثم في مدرسة الفرير ، ثم قدمنا الى بيروت ، فاكمل هو في كلية الفرير في بيروت فيما كنت انا في معهد الحقوق الفرنسي .

لقد كنت اكبره بعام او عامين ، الا ان ميولنا الابدية توافقت ، فهو يقرض الشعر

ويحبه وانا اقرض الشعر واحبه ، وكلانا من مدرسة جبران خليل جبران في السبك والادب الرومانسي .

لذلك ما ترددت ، بعد صدور تعييني عميدا للاذاعة ، في ان اقترح فؤاد سليمان أمين سر للعمدة ، فعينه سعادته على الفور .

هنا يتبادر للذهن سؤال : ما هي مهمة الاذاعة في حزب سري ؟ لا نشرة يصدر ولا يصدر مجلة ، لا جريدة له ولا اجتماعات اذاعية . يتلظى الاعضاء من منزل الى منزل تحت جنح الدجى اصطيادا لطالب او طالبة لا يصال المبادئ بشكل مبطن او مغطى بألف ستار وستار ؟ الاتصالات الاذاعية كانت من شخص لشخص . السرية كانت تفرض هذا المسلك .

والعميد في الحزب له دوران منذ تأسيسه : دور الوزير في مجلس الوزراء ، ودور الوزير رأسا لوزارته . دور سياسي ودور اداري .

كان علينا في بادىء عهدنا بالنشاط ان نضع دستورا للحزب شاملا ، لان دستورنا كان نواة لا بناء شاملا . وقد كلفت بوضع مشروع للدستور وبالفعل وضعته . وتبنى سعادته اكثر ما ورد فيه .

وما ان اطل علينا الدكتور جورج حكيم نائب رئيس الجامعة الاميركية حاليا - حتى كلف بوضع النظام المالي وهو جزء هام من دستورنا . ولا يزال نظامنا المالي الحالي هو نفسه الذي وضعه الدكتور حكيم وناقشناه في مجلس العمدة واصدره سعادته بمرسوم تشريعي .

اما المشروع الذي قدمته فظل عرضة للتعديل حتى ابرم في 21 تشرين الثاني سنة 1934 ثم صنف في كانون الثاني 1937 . وقد عيننا اول مرة في سجن الرمل عيد دستورنا في 21 تشرين الثاني سنة 1935 وسأصف في حينه تلك الحفلة « السجنية » الاولى عندما اكتب فصل انكشاف الحزب على يد جاسوس لا يزال اسمه موضع تقديرات مختلفة . وما عدا هذه الشؤون الاساسية ، كان شغلنا الشاغل التبشير والادخال واللقاءات مع من يقع عليهم الاختيار لمحاورتهم وبالتالي اقناعهم بالانتماء الى صفوفنا .

لم يكن لنا دخل مالي يذكر ، ليكون لنا ميزانية . ولم يكن لنا علاقات سياسية لنضع مخططات سياسية . كل اهتماماتنا اذن كانت ادارية . وكل اهتمامات سعادته ، عدا الحوار والبحث عن مرشحين للانتماء ، كانت تثقيفنا وتدريبنا وتربيتنا فكريا واخلاقيا

واداريا واعدادنا للنضال والجهاد . كنا نتعلم في مدرسة سعادة الصبر والجلد
والنضحية . وكنا نتعلم كيف نعلم بدورنا المبادئ والتعاليم لانها لم تكن متوفرة خطيا
فكنا نتسقطها من فمه يوما بعد يوم ، لنبني نفوس الآخرين كما انبتت نفوسنا .
كيف تم تأسيس الحزب

لاني لا اكتب يوميات ولا مذكرات ، اود ان اوضح من البداية نهجا اتبعه واسير في
دروبه الى النهاية .

سأفرد لكل ناحية من النشاط الحزبي فصلا مستقلا فاذا بحثت في الدستور الحزبي
مثلا ، استمر فيه لا وفق التسلسل الزمني ، فاتوقف عند سنة ، لاتابع ما جرى في
السنة الاخرى ، بل اتناول الدستور من الفه الى يائه ، الى ان اعطي صورة كاملة
للقارئ عن تطوره بلوغا به لوضعه الراهن ونصوصه النهائية الحالية . هكذا يصعب
ما اذكر شكلا من اشكال المرجع ، تسهل العودة اليه ، عند الحاجة .

ان تأسيس الحزب مستمر حتى يومنا هذا . الحزب حركة وحياة ، فهو في مسيرته
الخلاقة ، يستفيد من تجاربه ومن تقييمها ونقدها ، ويتكامل بالتطوير والتعديل
والاجتهاد . الحياة لا تعرف الجمود ، والحزب الجامد مرشح للتلاشي والتبدد
والانهيار . اقول هذا لكي يفهم قارئ ، بأن كلامي عن تأسيس الحزب في هذا الفصل
يعني بالضبط كينونته ثم انطلاقه في تأدية رسالته عبر الزمن صاعدا باستمرار نحو
الافضل والاكمل .

التأسيس هو وضع مداميك الاساس . هو انشاء الحزب بيتا . اما تشييده عمارة
ثم بولة ، فسيتضح تباعا ، بالتحقيق والانتاج والانجاز .

بناء عليه ، يجدر بي القول ، ان سعاده منذ وجوده في البرازيل ، وقبل عودته الى
لبنان سنة 1930 ، كان قد وضع خطوطا عريضة لانشاء الحزب ، ومن مراجعة كتاب
« ما قبل التأسيس » الذي طبع باشراف عمدة الثقافة مؤخرا ، تتأيد صحة هذا الزعم
وتبرز ، فكل ما نشر سعاده من مقالات ، يلقي اضواء عن اتجاهاته الفكرية في الشأن
القومي . فهو سوري قومي قبل تأسيس الحزب ووضع مبادئه ودستوره . وهنا تجدر
بنا الاشارة الى ان سعاده الذي يكتب وينشر في مجلة ابيه في سان باولو ، منذ مطالع
العشرينات ، آمن بالقومية السورية ، فيما كان ابوه المناضل والعالم الدكتور خليل
سعاده يؤمن بالقومية العربية .. لم يتأثر بأبيه على علو كعبه في الابد والكفاح القومي

بل حاول التأثير عليه لانه آمن بنفسه وبالحقيقة العلمية التي اكتشف وفق نواميس علم الاجتماع ونشوء الامم .

ويبدو لي ، من باب الاستنتاج ، ومن مقارنة ما كتب سعاده في مطالع العشرينات حتى عودته الى الوطن ، بغاية الحزب الوطني السوري الذي تأسس في سان باولو سنة 1921 (راجع كتابي نحن ولبنان صفحة 55 وما يليها) وخاصة بنظامه الداخلي ، ان الزعيم لم يكن غريبا عن ذلك الحزب ، وان لم يكن عضوا فيه . فاكثر الكلمات المستعملة في نظامه هذا ، استعملت في حزبنا واخص بالذكر كلمة « عميد » كما ان غاية ذلك الحزب ، وان تكن غير محتوية على نكر الامة السورية ، الا انها تتفق من الناحية الجغرافية بتحديدها كما وردت في دستور حزبنا . واكثر من ذلك ، نعرف من المراجع المتوافرة لدينا (دراسة قيمة للدكتور جورج عطيه في اطروحته عن سوريا) ان والد الزعيم اسس هو ايضا في سان باولو حزبا آخر هو الحزب السوري الديمقراطي .

اذن ، لم يغادر انطون سعاده مغتريه من اجل العودة فقط ، بل جاء وهو مصمم على القيام بعمل كبير كانت خطوطه العريضة ، راسخة وواضحة في ذهنه ولذلك كتب في مذكراته في 19 مايو 1929 « يجب ان انسى جراح نفسي النازفة لكي اساعد على ضم جراح امتي البالغة » .

الا انه لم يغامر . اراد ان يتعاون مع الاسماء الكبيرة التي كانت على مسرح النضال الوطني ، فقصدمشوق قلب سوريا وقلب العروبة - واشترك في تحرير جريدة الايام مع نصوص بابيل وعارف النكدي . ولكنه في احاديثه روى لنا مرارا ان ماخذه كانت جمة على الكتلة الوطنية وقادتها لدرجة انه سماهم شركة سياسية . محصل اقامته في دمشق سنة ونييف ، كان ان نفرض يده من التعاون مع الكتوليين والوطنيين ولم يجد من يتجاوب مع افكاره الا اربعة من الشباب ارسلني اليهم مع الاستاذ زكي النقاش فادخلناهم في الحزب في 26 شباط 1935 كما سيأتي بحثه .

كل شيء يثبت ان الاقطاعيين واصحاب الجاه والنفوذ والوجاهة وان جاهدوا في سبيل الاستقلال كانوا وطنيين على نوقهم ، نون تخطيط ولا قضية واضحة متكاملة . لقد كانوا يرتجلون ارتجالا . كل شيء يثبت ان سعاده عاد من دمشق بائسا ، مع رأي جازم ، بأن حقله لن يكون خصبا الا اذا اعتمد الشباب من الطلاب والمتقنين المجريدين من الخصوصيات والانانيات وحب الظهور . لذلك سكن في رأس بيروت ، وعلم اللغة الالمانية في الجامعة الاميركية ، بعد ان امضى صيف 1932 في اعداد مبادئ الحزب الذي نوى تأسيسه .

الزوبعة - علم الحزب ورموزها

وكان يمضي الصيف في « عزاله » في ضهور الشوير ، في المطل المشرف على صنين والوادي والمتن الاخضر ، والذي كان مركز تأمله الهاديء ، لبلورة افكاره وآرائه واتجاهاته في المبادئ الاساسية والاصلاحية للحزب السوري القومي (لم تضاف كلمة الاجتماعى الا في المغرب 1941) . وكان خريف ذلك العام في الوسط الجامعي في رأس بيروت خريف النشاط لطرح هذه المبادئ وتجسيدها . وكان اول الداخلين جورج عبد المسيح ، الرفيق الاول ثم الامين الاول ، ودخل بعده زهاء الدين آل حمود من الاردن ووديع تلحوق من جبل الدروز وجميل صوايا من ضهور الشوير وفؤاد حداد من بيروت . ويبدو ان هذه الداميك لم تكن متينة ولا متماسكة ، فدعاهم سعاده الى جلسة وتظاهر بأنه يحل الحزب فانفردت عقدهم ، ثم عاد مع عبد المسيح وحداد وصوايا ليبدأ من جديد . وكانت العناصر اللاحقة اصلب عبدا وامنع جانبا ، من امثال رجا خولي ووديع الياس وموسى سليمان وبهيج مقدسي و ... نعمة ثابت وفكتور اسعد وفؤاد خوري وسامي قربان ، ومن بعدهم جبران جريج وكامل ابو كامل وفخري المعلوف . ثم الحاج نقولا البربويل ورشيد ابو فاضل ويوسف تاج ... ويوسف النبس وزكي النقاش .. ووليم ابو خليل ...

اخبرني الدكتور موسى سليمان - الذي ترك الحزب منذ مدة طويلة جدا - ان نظام الحزب في بداية تأسيسه سنة 1932 كان عسكريا وان الزعيم كان يدعى القائد العام . اما عند دخولي فقد كان تركز نظامه على قاعدة الزعامة والتعاقد الثنائي ... نور بهيج المقدسي كان اساسيا . فالى جانب علمه واخلاصه وحرارة ايمانه ، كان يضم المقدره على الابداع . هو الذي ابتكر زوايا الزوبعة الاربعة المؤلفة كل منها من خط مستقيم وخط نصف دائري يلتقيان معا ليرمزا الى تلاقي الصليب والهلال . ورؤوس الزوبعة الاربعة ترمز الى مثل الحزب العليا : الحرية والواجب والنظام والقوة . ورجا خولي هو الذي وضع اول تصميم للباس ميليشيا الحزب الذي كان اول حزب في الشرق اعتمد تنظيما عسكريا بقصد انتزاع الاستقلال من الفرنسيين وتحقيق النهضة

بقوة السلاح وغرس فضائل الانضباط والمسؤولية في نفوس الاعضاء .

العميد الرفيق جبران جريج قام - بتكليف من الحزب - بكل الاستقصاءات حول هذه المرحلة الاولى من ولادة الحزب ونموه . لذلك اكتفي بهذا القدر من الايجاز لانتقل الى مرحلة التأسيس بعد دخولي .

الا انني لا اختم هذا الفصل ، نون ان اعرج على نقطة هامة . فعند ظهور الحزب وفي كل مرة قام فيها بعمل ثوري ما ، كانت سلطات الانتداب وعملاؤها تشن عليه هجوما عنيفا ، لا من الاعتقالات والمحاكمات فقط ، بل من الافتراءات والاتهامات . فقد استكتب الصحافي اسكندر الرياشي مقالا اكد فيه ان الحزب السوري القومي اسس بتحريض من الانكليز . وكان المحامي عزيز الهاشم - الذي ثبتت عمالته للاستخبارات الفرنسية - قد اتهم سعادته بالتعاون مع الطليان والالمان .

ان الحزب ، كما عرضنا ، نشأ بجهود رجل فرد ، صاحب عقيدة ورسالة ، هو انطون سعادته ، لم يستعرق عقيدته ورسالته لا من فيلسوف سبقه ولا من نولة او منظمة ، بل ابتدعها بتأملاته وتحليلاته وقناعاته الوجدانية والعلمية . ان الحزب نشأ من زخم هذه الامة وعبقريتها ومن لجل سياستها ونهوضها . انه نشأ بفعل وارادة وتصميم انطون سعادته وكأنه يلبي نداء الامة واستغاثتها .

وسنرى تباعا المتاعب والمصاعب والعراقيل التي تعرض لها الحزب وزعيمه في سياق هذه الذكريات .

لماذا كان الحزب سريرا ؟

لا بد قبل الانتقال الى نور الاذاعة في الحزب ، من سرد الاسباب التي حملت سعادته على انشاء الحزب سريرا والابقاء على هذه السرية حتى انكشاف امره مع التاكيد فورا ان هذه السرية لم تكن في ذهن المعلم الديمومة الى الابد . كان هو سيحدد ساعة الاعلان ...

● السبب الاول : السرية .

ان للسرية جانبية السحر . سعادته ادرك هذه الحقيقة وكان يقول ان الـ **Mysticism** (الميستيسم) وحدها تثير الشهية لمعرفة ما وراءها . ولقد قلت انا يوما ان الحياة تفقد الكثير من قيمتها ساعة يكتشف الانسان كل اسرارها . واذا راجعنا تاريخ حياة سعادته نجد انه كان ماسونيا لفترة من الزمن ، وقد يكون استفاد من تجربة الماسونيين في السرية واساليبها وفعاليتها .

● السبب الثاني : الانتداب الفرنسي

ان حزبا يعمل لوحدة سوريا الطبيعية ولاستقلالها وسيادتها واقامة نظام جديد يؤمن مصالحها ويرفع مستوى حياتها ويسعى لانشاء جبهة عربية ، اي حزب يقاتل الانتداب البريطاني على فلسطين والعراق . والانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان ، لا يمكن ان يحصل على ترخيص ، انه سيقاوم ويرفض . والفرنسيون الذين وضعوا ما اسموه قانون قمع الجرائم اي القانون II5 ل.ر. الذي يجرمون فيه كل اجتماع او تجمع يزيد على خمسة اشخاص يستحيل ان يجيزوا تأليف جمعية او حزب يضم المئات او الالوف من الاعضاء خاصة وان قانون الجمعيات والاحزاب الذي كان ساري المفعول - ولا يزال - صادر عن العثمانيين سنة 1909 !!

ان لجوء سعادته الى السرية كان من فعل العقل المدبر والنظر الثاقب والرؤية الصائبة للظروف الموضوعية السائدة .
● السبب الثالث : الخوف .

ان شعبنا - وخاصة في الكيان اللبناني - كان لا يزال واقعا تحت سيطرة الخوف من الاستعمار والمستعمرين . فالعثمانيون جوعوه واضطهوه وجاء من بعدهم الفرنسيون ، - وكان يرجى منهم الكثير - فهم ابناة الثورة الفرنسية ، ابناة فرنسا الحرة والمساواة ، والاخاء ، الا انهم كانوا في فرنسا شيئا ، وفي خارجها شيئا آخر . ان للمستعمر جلدين : جلدا يلبسه في بلاده ويخلعه ويتركه على ارضها ، والجلد الثاني هو جلد المستعمر الذي يربى تربية معينة ليتقن فن الاستعمار تشريعا وسياسة وادارة ، قمعاً واضطهاداً وارهاباً .

كان يجب انن ان ننتزع في الحزب ، نفسية الخوف والرضوخ ، ونغرس في النفوس حب الحرية وحب التضحية في سبيلها حتى بالحياة . وليس من الممكن ان تربي الابطال ارتجالا . ولم يكن بالامكان تريب الاعضاء علنا على هذه النفسية المتمردة الراقضة .

● السبب الرابع : الفردية .

الفردية مرض شعبنا العضال . الفردية قاتلة الشعور القومي ومدمرة كل انطلاقة للامة . كان على الحزب ان يظل سرىا ، لكي يشعر طالبي الانتماء انهم لا يدخلون الى جمعية خيرية ، بل الى حزب صراع وفداء وعطاء . الى حزب مسؤوليات جسام . الى حزب قتال وثورة مسند الى عقيدة واضحة وغاية عظمى .

في كثير من الاحزاب في لبنان ، او المنظمات التي تدعي انها احزاب ، يتسابق المواطنون للدخول لاجتناء المغنم واقتسام المرباح ، وللظهور في المجالس والصحف ، كأن الحزب وسيلة من وسائل الجاه والانتفاخ . قادة التشكيلات الطائفية مثلا هم الاقطاعيون الجدد ! ...

عندنا يدخل الانسان في الحزب لينوب فيه ، ليختفي في قلبه ، لينظمر تحت ترابه ، فاذا رفع يمينه واقسم ، وهب كل شيء مقابل لا شيء ، لان العضو في الحزب السري ، - وحتى في العلني عندما اصبح علنيا - عندما ينضوي ، ليس له ان يطلب شيئا لنفسه ، وليس له ان يرفض شيئا يطلب منه حتى ولو كان دمه . العضو في الحزب السوري القومي يعطي ولا يأخذ الا راحة الضمير انه يؤدي واجبا مقدسا .

لكل هذه الاسباب كان الحزب سرىا .

والجدير بالذكر ، ان التربية القومية الاجتماعية التي تلقاها رجال الحزب عندما كان سرىا اصبحت ارثا تتناقله الاجيال القومية ، بحيث ترسخت وصارت جزءا من تراث الحزب وتقاليده .

اما صيانة هذه السرية ، فقد اتخذ لتأمينها فعليا تدبيران هامان :

الاول : معاقبة كل من يبوح بالسرية وسيلة من وسائل البوح الواردة في القسم الحزبي .

والثاني : مراقبة دائمة للاعضاء وتوعيتهم المستمرة لخطورة وخطر افشاء اسرار الحزب .

دور عمدة الازاعة في مرحلة التأسيس

يشترك عميد الازاعة في مجلس العمدة الذي كان برئاسة نعمة ثابت اسميا ، و برئاسة الزعيم فعليا ، لتقرير سياسة الحزب الادارية ومناقشة الخطط التي يضعها كل عميد في عمدته واقرارها . وهذا ما اسميه الدور التخطيطي .

ولكن عمل العميد كان في وضع الحزب الراهن ، وفي تلك المرحلة من الانتشار الضيق الرقعة ، منحصر في نوره الاداري التتقيفي وفي نوره التبشيري لجلب روافد الحزب من الطاقات المؤهلة والتنظيفة بين المواطنين الشباب .

سعيد تقي الدين في الحزب السوري القومي الاجتماعي

كان دخول سعيد تقي الدين في الحزب السوري القومي الاجتماعي امرا شبه مستحيل ! هذا ما كنت اتصوره يوم دخل علي منير شبلي فرحا مستبشرا يطلب الي ان ارافقه لمقابلته . قال لي منير ، ان سعيدا يرغب في التعرف الى الحزب من منابعه . وانه اصبح ميالا - في حال اقتناعه - الى الالتزام ! المفاجأة هزنتي ، وكدت اطير اليه في تلك اللحظة . كان اسمه في الارب ملء الاسماع والابصار . تتسابق على الخطوة به المعاهد والنوآت الابنية . اسلوبه وفكره ثوريان حقا . فاذا ريحناه عضوا ريحنا ثروة وكنزا .

الا ان منيرا طلب الي التريث ليحدد لي موعدا . فرضخت مرغما على ان يكون الموعد قريبا جدا . وكان الموعد في ربيع 1951 .

تطارحنا مواضيع عامة ، ثم دخلنا في صلب الحزب . تحاورنا . او بالاحرى سألني سعيد اسئلة عديدة . كم اتمنى لو كانت تفاصيل حواراتنا مدونة لانشرها بحذاقيرها . يومها طلبت من منير ان يحمل اوراقا ويسجل كل ما يسمع . الا انه اعتذر فالجو كان جو استماع لا جو تدوين وتسجيل .

ما اقتنع سعيد في جلسة واحدة . تواعدنا ان آتية في صباح اليوم التالي الباكر . بل في كل صباح اذا شئت .

وبالفعل جئته باكرا . كانت مغلاة القهوة تنتزه بين المطبخ والصالة . وكان سعيد يحسبها كأنه يشرب الماء القراح . والسجاير تتطاير من بين اصابعه الى مدخنة قبالته فتحسب ان المدخنة صنعت خصيصا لسجايره لا للنار ! كان يدخر اثنتي عشرة علبة « لاهي سترايك » في اليوم الواحد ! ..

سعيد تقي الدين في الصباح ، يجلس كما ينهض من النوم ، بقميص فنالا صيفية ، وكلسون قصير ... اطلت على الصالة وتراجعت ، فصاح بي : ادخل . انا استقبل الوزراء بهذه القيافة . فدخلت .

القهوة والسجاير والصحف ... ووجه سعيد المشرق . كان ذلك كل صباحه في منزله الذي لم يكن يخرج منه قبل العاشرة الا لامر طارئ او بموعد سابق ضروري .

ونبدأ كل حوار بمقدمة فكاهة .
سعيد تقي الدين من أئمة الكلمة - السهم ، والكلمة - الشرارة ، يبحث عنها في الذاكرة - في القواميس ، عند الاصدقاء ، الى ان يقع عليها فكأنه اخترع آلة جديدة او اكتشف كنزا . تقرؤه فاذا للكلمات لعة ورهجة واشراقاة . الكلمة عند سعيد تقي الدين تهزك ، تنفذ الى اعماقك ، فاذا لم يكن بمعناها الاصيل فبطلتها الاصيله .

سعيد تقي الدين من أئمة النكتة الظريفة الساخرة . لم تكن قد تعارفنا جيدا ، قد قد امتزجنا ، قد اصبحنا رفيقين ، فاذا به يرمي نكتة في الصالة اياها ، حيث القهوة والسجاير ووجهه المشرق ، والصحف المتراكمة ، ويضحك لها واضحك ، الى ان كاد يصاب بالاغماء . طلب ماء وسكت فجأة ، فجذعت عليه ، وسارعت الى الماء ، شرب قليلا ورش وجهه بقليل . وسكت هنيهة الى ان عاد اللون الى وجهه فقال : ارأيت يا استاذ كيف ان الانسان يموت من الضحك . كان يجب ان اموت لاصدق هذه الآية ! ..
ونعود الى الجد .

يكون قد طالع ما جلبته له من كتب ، من نشوء الامم الى شرح المبادئ ، الى الصراع الفكري . يعلن ايمانه ولكن لديه شروط .

قال لي ما معناه : انا انسان لا اخضع للاوامر في ما اكتب . انا انسان لا امسك بالقلم الا وقد طفح كيل إلهامي . فاجبته : اننا نحترم طبع الاديب وسجاياه ، فاكتب عندما تريد لا عندما نريد .
هل كنت صانقا ؟

نعم ولا . نعم لاننا بالفعل لانطالب احدا بما فوق طاقته ، بما فوق ادراكه . ولا ، لان من يدخل الحزب يلتزم . لم يعد الاديب في الحزب متقلتا من كل قيد ، يكتب على هواه ، ويؤلف على هواه ، بل اصبح له حدود وضوابط وكوابح . الالتزام ليس الفوضى ولا الهوى ولا الهوس ولا الوحي النابع من ذات غريبة عن الذات القومية الاجتماعية . ولكن ، لم اشأ وانا اقنع سعيد تقي الدين بالانتماء ، ان اضايقه ، ان انفره من القضية . اردت ان اتساهل ، لاني اعرف طبيعة بني قومي . يخشون المسؤولية ، ويحبون الحرية حتى ولو تطابقت مع الفوضى .

قلت لنفسي ان سعيدا بعد ان يعلن انتماءه سيتدرب على النظام . سيحبه . سيرى مفاعيله في الصفوف البديعة والبطولات الرائعة والاقلام الخلاقة . سيندفع مع التيار رغم تقدمه في السن ، وسينضب كما انضبنا نحن رجال القلم من قبله ، بون ان نحس بوطاة القيود .

وكان قلقا على لبنان والعروية ، فشرحت له موقفنا الايجابي من لبنان والعروية . كان قلقا على حياته الخاصة ، فكنت هنا جازما : نحن لا نتدخل في حياة العضو الخاصة الا بقدر ما تنعكس بالسوء او الشر على الحزب . فوافق .
واخيرا سعيد الرفيق

وصار سعيد ناضجا ولكنه ما يزال مترددا . اقلقني بترده . خشيت ان اخفق خاصة والامين فؤاد ابي عجرم رئيس المجلس الاعلى اذناك يستحثني : اين صار سعيد ؟ ..

الى ان حشرته صبيحة احد الايام . فهب الى ثيابه . كان لدينا جلسة للمجلس الاعلى في بيت الامين فؤاد . فقال لي . سألق بك .

كنت هناك انا وحسن الطويل شاهدي الانتماء . وكان اعضاء المجلس الاعلى الموجودون في لبنان . انكر منهم اديب قدورة وكامل ابو كامل .

طلب الينا ان يظل انتماءه سريريا فقبلنا . كان يخشى ان يخسر صداقاته وعلاقاته من شارل مالك الى سعيد فريحة . كان الاثنان من اقرب الناس الى قلبه ومن اصدقائه المصطفين .

وبعد اسبوع او اسبوعين ، وكنت على صلة يومية به ، طلب ان يحضر الى المجلس الاعلى ، لان له اقتراحا خطيرا . فوافق المجلس . واذا به يحضر ومعه بيان . « اريد ان ادخل الحزب بطبل وزمر . اريد ان ادخل الحزب ببيان . لا اريد ان ابقى عضوا سريريا . تلك جبانة . سأواجه قدرتي . » فطلبنا ان يتلو البيان . فتلاه . ادركنا انه طلق ماضيه وكل اصدقائه وعلاقاته ليكون قوميا اجتماعيا الى الابد . لقد بلغت مرحلة اللارجوء . هكذا كتب .

اخذنا بسحر البيان . لم نحص تحميصا دقيقا ما ورد فيه . كان هنالك غمز ولز

بالخصوم السياسيين التقليديين في الشوف . انا مثلا كنت اخطط ، في المجلس الاعلى وفي الشعبة السياسية التي كنت احد اعضائها ، لان نجمع بين سعيد تقي الدين وكمال جنبلاط ، فتصبح القوة الشعبية التي نستند اليها في الشوف ساحقة . الا ان بيان الرفيق سعيد جاء يهدم لي ذلك الحلم . ولعله كان السبب المباشر للتجافي بيننا وبين الاستاذ جنبلاط الذي حفظ كرامة الحزب وكرامة الفكر في لبنان في دفاعه البطولي عن سعاده ، ساعة عز الاصدقاء وعزت اقلام الخير وعزت السنة الحق سنة 1949 .

لكن البيان ، بعد ان قرأته ، خيب ظني . وخيب آمالي . ان الفرحة بحضور سعيد تقي الدين في صفوفنا انستني الضرر الذي لحق بنا ، خاصة وقد كنا في الجبهة الاشتراكية نؤلف في ذلك الزمان قوة سياسية وشعبية يرتجى منها الكثير من الاصلاحات السياسية التي لا تزال مطروحة حتى اليوم نون تحقيق .

الرحلة الاولى

اول رحلة قمت بها مع الرفيق سعيد كانت بعد دخوله الحزب واعلانه الانضواء باسبوعين . كان يريد ان يتعرف الى الرئيس جورج عبد المسيح والى الامينة الاولى والى رجال المركز . كان ذلك في خريف 1951

راففته بفرح .

قرأت له بعض شعري في الطريق ، فطرب له وصفق . شهادة سعيد في الادب بألف شهادة . ولو انه لم يطرب لانتظرت شيئا من الاسماء الغربية العجيبة التي كان يرمي بها في وجه من لا يرضى عن انبهم او سلوكهم او سياستهم .. لاذعا كان نقده . لاذعة نكته . لاذع لسانه حيث كان يحب ان يلذع ويكوي ويحرق .

وكان اللقاء مع عبد المسيح . اخذ سعيد بخشونة الرئيس ثم كانت اسطورة بطولاته قد ملأت آذانه .

نحن تلامذة سعاده الاول ورفقاء عبد المسيح جعلنا منه اسطورة . لم يكن كل ما حيك حول شخصه باطلا . فالرجل كان يمشي اياما وليالي . يجوع ويعطش ولا يبالي . كان مناضلا صبورا وشجاعا . ولكنه لم يكن الاسطورة التي نسجناها بالنتيجة من ثنايا الخيال والتصور .

وجاء سعيد فاضاف الى الاسطورة بعض السطور ولكن سرعان ما ندم على ما اضاف اذ انقضت الغمامات عن عينيه سراعا !..

المهم ، ان سعيدا ، رغم انه ابن تقي الدين وابن الشوف والاسم الابي الكبير ، تصرف في الحزب ، عضوا بسيطا ، مطيعا ، مريدا ان يتتقف بثقافتنا الحزبية ، فكرا وسلوكا واخلاقا . كان حريصا على الا يتعدى حدوده وان يحفظ انظمتنا ويطبقتها بحرفيتها .

انكر انه كان يحضر حفلة الثامن من تموز في منزلي سنة 1953. كنت كعضو في المجلس الاعلى اجلس وراء طاولة الشرف . وسعيد في الصفوف الامامية لانه كان قد اصبح منفذ بيروت . كان يسألني بعينيه اذا كانت جلسته صحيحة . تدرّب على الانضباط على يد معلم الانضباط في الحزب العميد جبران جريج . وتعلم من كل من رافقه من القدامى كعجاج المهتار ، محمد يوسف حمود ، وجبران حايك ومن بعد من رفاقه الاول الشهيد غسان جديد ، كل قواعد العمل الحزبي ، واكثر صفحات تاريخه ، كما وصلت اليه اخبار الرفقاء الابطال الذين خرجوا من القرى والساكن والاحياء ، حيث كانوا مغمورين مجهولين ، ليعلموا بالقوة والعتاء ، كيف تكون الحياة وقفة عز ، مقتدين بسعادة الذي علمهم الصمود والفداء . فالف كتابه بلغوا وتبلغوا . واذا رفات جناحه . واذا المنبؤ ..

كنت مع رجال المجلس الاعلى بعد دخول سعيد بقليل ، على قبر المعلم في مار الياس بطينا ، واذا بقوافل الرفقاء . في احدى هذه القوافل ، في آخرها - لانه كان قد اصبح منفذا عاما - مشى سعيد تقي الدين في الصف ، يؤدي التحية .

امام قبر الشهيد الاول

من منا لم يبك امام مشهد سعيد واقفا بكل تهيّب ، بكل انضباط مع رفقاءه من ابناء الشعب الكادح ، ليقول لابناء لبنان ولرجال الواجهة والمال والنفوذ : انا سعيد تقي الدين اعتر ان اكون جنديا من جنود الحزب السوري القومي الاجتماعي . لان العر ليس في الجاه والمال والنفوذ بل في النضال والكفاح في سبيل الشعب والامة . . . ما انسجمنا دائما . كانت خلافاتنا حادة احيانا . ولكن ما فقدت يوما درهما من محبتي له ولا من تقديري . تختلف مع سعيد فانت تختلف مع رجل فكر . لا تخرج من قلمه كلمة لا يعينها ولم ينضجها . كانت له في ما يكتب ويقول مقاصد بينات. اختلفنا والفكر يقارع الفكر . والخلاف من هذا الطراز مشرف للمختلفين . تاريخ تعاوني مع سعيد في الشعبة السياسية ، في عمدة الاذاعة ، في الايام العvisية مع المكتب الثاني السراجي ، تاريخ يستغرق صفحات طويلة .

وعندنا في مدرسة الحزب ، كل خلاف ثبت به المؤسسات ، وقولها القول الفصل .
من جاء قرارها لمصلحته اعتبره لمصلحة الحزب وكذلك الفريق المناوىء .

مع سعيد تقي الدين ما اختلفت من فرد لفرد ، بل من مسؤول لمسؤول . كل الخلاف في الحزب بين من يخضعون للنظام ويعملون بوجي المسؤولية والمصلحة الحزبية ، هو خلاف على المنحى الافضل لخدمة الحركة ... ان سعيد تقي الدين ، وهذا فضله الاكبر ، استطاع بعد ان بلغ شأنًا رفيعًا في الابد ، ان ينوب في الحزب وان ينضبط باستثناء بعض المواقف التي محتها تضحياته ...

عندما زرت المكسيك في شباط سنة 1964 ، عرفت عشراه من الرفقاء ، وفي طليعتهم توفيق الاشقر وجيليل رحباني وانطون شاهين وسليمان البيطار وسواهم . رحنا الى الفندق الذي نزل فيه ، والغرفة التي سكن ، وقصدت مطعمه ومقهاه ، ومشيت في الشوارع التي فيها تجول ، بل وصلت الى « كواتلا » ، البلدة التي كان يستحم في مياهها المعدنية مع جليل الرحباني ، فعشت ساعات مع روح سعيد المرحة ، وتلمست بصماته وآثاره في كل مكان .

كان من المعقول ان يكمن داؤه في قلبه ، لان سعيدا كان قلبا قبل كل شيء . كان قلبه - اكثر من عقله - دليله ومنبع الهامه ، فاذا بهذا القلب الكبير يسكت الى الابد على شاطئ جزيرة سان اندراس في غربي كولومبيا .

ما اغترب سعيد سنة 1958 باختياره . لو انه احب الاغتراب لما عاد من الفيليبين الى الوطن . انه سئم الاغتراب واراد ان يناضل بقية عمره في ساحات بلاده .. الا انه لكثرة ما انفق على الناس ، على الاقربين وعلى البعداء ، شعر اخيرا بمرارة الحاجة . ما كان الحزب يوما بقادر ان يعيل قاداته ولا افراده . الحزب كان وسيظل بحاجة الى الاعالة المالية . وسعيد انكى من ان يجهل هذه الحقيقة . لذلك صمم على الرحيل . صمم مكرها مرغما كليم الخاطر كسيف الببال . وسافر والدمعة في عينيه ، يحاول خنقها بنكاته المستملحات الضاحكات . ولكن اين القلب الكبير كقلب سعيد ان يضحك وهو يتطلع الى سماء لبنان الصافية وهو يعتقد انه يودعها الوداع الاخير ..

من يقرأ رسالته الاولى - وقد نشرتها صدى لبنان - كتبها في الطائرة ، يقرأ زئير الاسد الجريح ، ومناحة الابن البار على امه الرؤوم ، ولوعة الشعر بيكي ... بكاء مرا ، نون ان يكون في صدره امل الا العودة الى ديانا .. والى سورياه .

ستظل كلمات سعيد الاخيرة التي كتبها الي
نوعا من الاحتجاج الذي استجاب له الحركة ، فاذا هي عند مطامح سعيد ورجال
الفكر فيها . الحركة السورية القومية الاجتماعية تعلم الكبارك سعيد تقي الدين ولكنها
تتعلم منهم . وتحفظ لهم ما علموا كما تحفظ انها علمتهم لكي يعلموا ...

دخول الدكتور زكي النقاش الحزب والايمن الديني

منذ ذلك الزمن البعيد وضعت لعمدة الاذاعة خطة عمل مؤلفة من شقين :

الشق الاول : انشاء معهد اذاعي .

الشق الثاني : تشكيل لجنة للدعاية والنشر .

اما المعهد الاذاعي فقد بقي مشروعا ، لم تستطع العمدة تحقيقه لعدة اسباب :

الف . عدم وجود الجهاز التعليمي المثقف حزبيا .

باء : عدم وجود شروح للعقيدة والمبادئ والنظام مكتوبة على الاقل بخط اليد .

جيم : عدم وجود ميزانية كافية لتفريغ عدد من الرفقاء المؤهلين .

ولكن العمدة الذين شغلوا هذه المسؤولية عبر تاريخ الحزب ، استطاعوا في فترات الازدهار والراحة ان يحققوا هذا المشروع .

اما لجنة الاذاعة والنشر ، فقد كانت الغاية من تشكيلها حفز الطاقات والادمجة الحزبية لوضع كتاب - على طريقة السؤال والجواب - يلبي حاجات المذيعين حيثما وجبوا ويلبي حاجات الاعضاء اذ يكون بحجم كتب الجيب .

تألفت اللجنة بعد ان اتسع الحزب وتبسط في شتاء 1935 بمرسوم من الزعيم ، من الرفقاء التالية اسمائهم ، واكثرهم من الذين لمعوا في عالم الصحافة او عالم السياسة او عالم الالب :

صلاح لبكي ، فؤاد سليمان ، محمد النقاش ، محمود الحافظ ، مأمون اياس ، كنعان الخطيب ، روبر ابيلا ، منح راسي ..

كانت اللجنة تجتمع في دار مأمون اياس .

فطرحت عليها مشروعي اي تأليف الكتاب ، واضفت اليه ان المطلوب منها ابتكار

افضل اسلوب للتبشير والتثقيف وادخال الاعضاء الجدد ، وتصور الاسئلة التي يمكن ان يطرحها المرشحون والاجوبة التي يجب ان تعطى لهم .

فاذا اكتمل المشروع بأن اصبح في جيب العضو المذيع كتيب فيه شروح للعقيدة وللنظام بطريقة السؤال والجواب ، واذا كان العضو القومي جهز بأسلوب حديث وجذاب لاقتناع المواطنين ، نكون قد بدأنا عملنا في عمدة الاذاعة لا ارتجالا ولا اعتبارا ولا كيفما اتفق ، بل على اسس علمية نظرية وتطبيقية معا .

واجتمعت اللجنة عدة اجتماعات .

وعوضا عن ان تتمحور آراؤها وافكارها حول ما قدمت من خطة اذاعية ، راح اعضاؤها وكلهم من الجامعيين والمفكرين ، يطرحون علي الاسئلة المخرجة عن صلاحيات الزعيم ، وعن دستور الحزب ، أي عن كل ما هو خارج عن نطاق الغاية من تأليف اللجنة التي كنت ارأسها بطبيعة وجودي على رأس العمدة .

عيل صبري ، اذ كنت احاول تحويل البحث الى اطاره الصحيح ، فيسقط في يدي ، لعناد الرفقاء اعضاء اللجنة الذين كنت عبثا اسعى للمضغط عليهم باسم النظام . فلما اعيتني الحيلة لجأت الى سعادته . كان ملجانا جميعا ساعة تضيق بنا الآفاق او ساعة نضيق نرعا ببعضنا او بأنفسنا .
وحضر سعادته ووضع الامور في نصابها .

وبدأت المناقشات .

وكنا ان نصل الى بلورة هذه المناقشات في قواعد ومواد فاقبل الصيف وتفرقنا كل الى مصيفه ، خاصة واكثر اعضاء اللجنة كانوا من الجامعة الاميركية وفي العطلة الصيفية يعودون الى مناطقهم .

ولما رجع الرفقاء من عطلتهم ونوينا العودة الى الانتاج ، انكشف امر الحزب وكانت اسماء اعضاء اللجنة الدليل الذي استندت اليه السلطات الفرنسية للاحتقهم والقبض عليهم لان لجنة الاذاعة والنشر بنت للفرنسيين وكأنها - الى جانب التنظيم العسكري - العامود الفقري للحركة السورية القومية .

الدور التبشيري والتثقيفي

ما هي قيمة هذا الدور ؟

الحقيقة انه كان رئيسيا . ومنجزات عمدة الاذاعة كانت بشهادة المعلم خصبة
ورائعة .

- 1 - ادخال الاستاذ زكي النقاش .
- 2 - تأسيس الفرع في الشام .
- 3 - ادخال شارل سعد .
- 4 - ادخال صلاح لبكي .
- 5 - يوسف الدبس ونقولا البرديويل واسعد الايويي وبيدع كاسر احوش .
- 6 - تأسيس الشركة السورية التجارية في شارع فوش .
- 7 - تأسيس فرع القويطع - الكورة .
- 8 - تعريف القوميين في ضهور الشوير بمن هو الزعيم .
- 9 - محاسبة سعيد عقل والنشيد القومي الاجتماعي .
- 10 - اول آذار 1935 .
- 11 - اجتماع بيت مري .
- 12 - اجتماع بعقلين .
- 13 - اجتماع دير الغزال والتمثيلية في رياق بحضور نجيب حنكش ورياض المعلوف
وفريد لحد .
- 14 - اجتماع اول حزيران 1935 .

كيف دخل الاستاذ زكي النقاش

في الحزب السوري القومي وكيف خرج

بعد دخولي الحزب بقليل ، دعاني سعادته وسلمني اربعة اعداد من مجلة اسمها
الكشاف تصدر في بيروت . والاعداد كلها عائدة لسنة 1924 . ولفت نظري الى مقالات
الاستاذ زكي نقاش عن مقومات الامة وايمانه بالتالي بالامة السورية . قال لي سعادته
هذا الكاتب يفكر مثلنا تقريبا . عليك ان تجده وان تحاوره وتأتيني بالنتيجة .

دعوت بدوري الرفيق فؤاد سليمان ، ورحنا نقوم بالتحريات اللازمة . فاذا بنا نكتشف ان الاستاذ النقاش ناظر كلية المقاصد الاسلامية الواقعة في محلة الحرش .

اتصلنا به هاتفيا وعين لنا موعدا في اليوم التالي الساعة الرابعة .

وتوجهنا فؤاد سليمان وانا الى المقاصد . كيف نصل ؟ في الترامواي المسافة طويلة ! في العربيات ، الاجرة غالية . جمعنا المبلغ المتوافر لدينا فكان ثلاثة عشر قرشا ونصف القرش . لنستمتع بركوب العربيات ذهابا ، ثم نعود ايابا على الاقدام . نحن في تشرين الثاني والطقس اعتدل .

ووصلنا فاذا الاستاذ زكي النقاش بالانتظار .

وجه يقطر دما وعينان تقدحان شررا ولسان ذرب يستجيب لموجات من النهر الهادر حتى الصخب . ذاك انطباعي الاول عن زكي النقاش ، الدكتور في التاريخ والمعلم المتقاعد حاليا . اخذت الكلام .

في تقاليدنا القومية يتكلم المسؤول الاول ، والمعاونون يصغون . كان فؤاد سليمان يصغي . قلت ما مؤداه :

س : معنا مجلة الكشف ، ولك فيها مقالات عن الامة السورية ، هل انت حقا كاتب هذه المقالات ، وهلا تزال تؤمن بها بعد مرور عشر سنوات ؟

ج - انا الكاتب ، اني اوّمن بالامة السورية ... واشهد ان الروح لا تموت . اشهد ان الفكر لا يموت ...

س : هل تريد ان تظل مقالاتك ادب كتب ام تريد ان تسعى لتحقيقها ؟.

ج : اني مستعد ان اعمل لتحقيقها بكل امكانياتي .

س : اذا كنا انا وانت وفؤاد نعتقد نفس المعتقد ، فما رأيك ان نؤلف جمعية تدعو لهذه الفكرة وتعمل على تحقيقها ؟

ج : موافق نؤلف جمعية .

س : في الظروف الموضوعية القائمة ، من انتداب واضطهاد ، الا يحسن بنا ان نؤسس جمعية سرية لا علنية ؟

ج : السرية مفروضة علينا .

س : على افتراض ان هذه الجمعية موجودة ، ويقتضي الدخول فيها بعض التضحيات ، هل انت مستعد للانضمام ؟

ج : انا مستعد . واكون سعيدا للانضمام .

س : الاترى ، بالنظر لخطورة المهمات الملقاة على هذه الجمعية ، ان يكون نظامها عسكريا ، وان يكون الاعضاء فيها جنودا ينفذون ما يعهد به اليهم ؟

ج : حسنا . حسنا .

س : على فرض ان هذه الجمعية موجودة ، وكان مؤسسها صاحب الفكرة والمقكرة ، الاترى ان يكون هو صاحب الحق بالرئاسة والامر ؟

ج : له قصب السبق . له الرئاسة . له الفضل .

س : هل يمكن ان نجتمع غدا مع عدد من الرفقاء لنطلع على دستور الجمعية ، على مبادئها ونظامها ، فتدرس كل ذلك ، ثم تتخذ قرارك على ضوء الواقع ؟

ج : ليكن اجتماعنا يوم الخميس القادم .

فدللناه على المكان ، وفي الموعد المضروب تلاقينا .

كان المكتب لشركة كনারدلين ، التي كان يديرها نعمة ثابت ، وتقع في خان انطون بك ، فوق مكاتب الامن العام الفرنسي ..

كنا نحن الاثنان فؤاد وانا . انضم الينا نعمة ثابت . ثم حضر الدكتور نقاش ، صرنا اربعة . صار العدد ضخما . اقفلنا الابواب . سلمنا الاستاذ زكي الدفتر السري . فانتهى به زاوية وراح يقرأه بامعان . يدقق في كل خطوطه . يقرأه ثم يستعيد قراءته . كنا نتابع تقاطيع وجهه . زكي النقاش رجل قلبه في وجهه . انه شفاف . يصعب عليه اخفاء ما يبطن . ليس لديه خلفيات محجوبة . فاذا كانت موجودة مشت امامه . طرحها على بساط البحث . لا يعرف النفاق لا السياسي ولا الاجتماعي ولا العلمي انا حاضر ...

بعد ان تشعب ، بل حفظ غيبا على ما ظننت ، كل سطر من الدفتر ، جاء الينا موافقا . انا حاضر . اعطوني يوما للتبصر والتأمل .

فتناول البحث السيد نعمة ، وراح يشرح مسؤولية الانتماء وابعاءها . فكان زكي النقاش مصغيا وراضيا .

وكانت لنا سائحة ، اطلعنا بها على جانب من معرفة مرشحنا للتاريخ السوري والعربي فاذا هي عميقة وتحليلية وشاملة .

واتفقنا على لقاء جديد لآخذ الجواب القاطع .

وكان اللقاء في نفس المكان ، وكان اعلان الايمان بالمبادئ والقبول بأداء القسم .

قام السيد نعمة بالمراسيم بوصفه عميدا للداخلية مسؤولا عن عمليات الانتماء وحافظا للبطاقات والبصمات والصور .

ما انكره ، ان زكي ساعة اقسم اليمين ، وبعد القسم كان فرحا . فاصطحبناه فورا الى كوخ الزعامة في رأس بيروت ، في الشارع الذي صار شارع المقدسي اليوم ، واختفت معالمه القديمة وشيدت على ارضه العمارات الضخمة .

دخلنا على المعلم وقدمنا الرفيق زكي . فما ان حياه حتى خرج من وراء مكتبه وتعانقا . شاهدت بعيني زكي النقاش دموعا . وصوته يتهدج . عاد بضع خطوات الى الوراء ، والباب خلفه مقفل ، والقي كلمة حماسية ، اودلو انكر بعض مقاطعها ... لم تكن ندون . والذاكرة لا تسجل مثل هذه المواقف بحذافيرها برسم الحفظ نصف جيل !....

عميد الحربية

استمر اللقاء مع المعلم حوالي الساعتين . وجرى نقاش وحوار علمي حول الحزب وما يخطط للمستقبل . ثم استدعي الرفيق زكي بعد يوم او يومين ليبلغ تعيينه عميدا للحربية . بدلنا اسم هذه العمدة مرارا ، فكانت عمدة الرياضة ، ثم عمدة التدريب ، ثم استقر اسمها عمدة الدفاع .

لكي لا يتصور القارئ ان الحزب يعين عميدا للحربية وعدد اعضائه لا يتجاوز المئة ، نذكر بما كتبناه سابقا عن ان دور العميد هو سياسي واداري معا . فعميد الحربية لم يكن عميدا للحرب ، بقدر ما كان عميدا لتنظيم عمدته وادارتها والاشتراك في تخطيط سياسة الحزب على مختلف وجوهها .

لم يمض على دخول العميد زكي الا اسابيع ، حتى اوكلت اليه مهمة دقيقة :

التوجه الى دمشق والاتصال بأربعة اصدقاء للزعيم ، كان قد هياهم للدخول في صفوفنا .

كانت الاموال - على ندرتها - تحفظ مع الخازن العام وتصرف باوامر من الزعيم ومن العمدة المختصين . كان الزعيم مفوضا ، بون الرجوع الى مجلس العمدة ، ان يصرف حتى الخمسين ليرة سورية شهريا ...
اذكر انه سلمني من اجل السفر الى دمشق امر صرف بخمس ليرات سورية ، على ان اتدبر الامر ، بما يزيد على ذلك ، من جيبى الخاص .

نزلنا في فندق اوريان بالاس . ثم توجهنا في اليوم التالي الى منزل السيد خياط (محمد روجي خياط اذا لم تخني الذاكرة) . وعقدنا اجتماعا مع الاربعة وقد دخل منهم ثلاثة وافلت الرابع . اقساموا اليمين وبصموا على البطاقات ووعدوا بتقديم الصور . حملنا هذه البطاقات في حقيبتي . واقفلنا راجعين . كنا في اواخر شباط 1935 . الطقس ادلهم فجأة . فما ان اصبحنا في شتورا حتى بدأ المطر رذاذا . تخوف السائق من زهر البيدر . سأل بعض اصدقائه فنصحوه بالمبيت في شتورا فقد ينقطع في الطريق . سألنا رأينا ، فأصريت مع العميد زكي على المضي في السفر مهما كانت العواقب . وافقنا باقي الركاب وانطلقنا . ما ان بلغنا المخفر حتى كان الثلج قد غطى الطريق . لم يعد بالامكان التراجع . لم يعد بالامكان التقدم . فالخطر محدد .
في تلك اللحظات ، كان علينا ان نقرر .
فقررنا ان نكمل .

لم يكن همي ان تتدهور السيارة ونموت . كان همي ان تكشف البطاقات في حقيبتي امر الحزب وان تنهار آمالنا بالتبسط والنمو !

لا ازال انكر ، العميد زكي وبعض رفاق السفر ، يصلون بحرارة . فالخطر كان جديا . كانت السيارة تسير في الضباب وفي الثلج ، ويخشى ان تفقد توازنها عند اي خلل .

اخرجت من حقيبتي البطاقات وامسكت بها بيدي : حتى اذا انزلت السيارة ، يظل بامكاني ان امزقها .

اربع او خمس ساعات من مخفر زهر البيدر الى صوفر . تمت النجاة . لم يعد

هنالك خطر . بإمكاننا على الأقل ان نزل من السيارة الى احد البيوت او احد الفنادق .
الا ان السائق والرفاق رأوا ان الطريق في صوفر لم تكن مغطاة بالضباب . كثافة الثلج
لم تكن مخيفة . اكملنا الطريق الى بيروت ووصلنا بعد منتصف الليل .

لا ازال انكر كيف كان العميد زكي يصلي بحرارة المؤمن الصادق . زكي النقاش
مسلم مؤمن ، يمارس ايمانه ورعا واخلاقا لا مظاهر وطقوسا ... الايمان القومي لا
يتعارض مع الايمان الديني ، اذا كان الايمان الديني منحصرا بجوهر الدين لا
بقشوره .

هذا المؤمن بالله ، والمؤمن بالامة السورية ، بدأ بالتراجع خلال سنة 1936 . لم
يستطع ان يكمل الطريق . فراح يتحلل رويدا رويدا من التزاماته ، الى ان انقطع كليا
عن جسم الحزب بون ان ينقطع عن اصقائه فيه . في اواخر سنة 1936 كان زكي
النقاش قد صار خارج النشاط الحزبي .

خوف وتراجع

لم يقل احد ان زكي النقاش خان الحزب . ولكننا نقول انه ضعف وخاف وتراجع .
كان ينقصه الصمود . ما صمد . سافر الى العراق . انقطعت بيننا وبينه الصلات
الحزب مضطهد ملاحق وهو بعيد كل البعد . اصف الى ذلك وضعه العائلي والمالي . لم
يكن بإمكان زكي النقاش اعادة عائلته ومتابعة التدريس ، وهو مهدد كل يوم بالذهاب
الى السجن . والبرهان على صحة هذا القول ، ان زكيا لم يدخل في اي حزب آخر بعد
انقطاعه عنا .

النظام المركزي وأول محسنة في الحزب

ادخال شارل سعد

العلاقة بيني وبين الاستاذ شارل سعد ، مدير الكلية الوطنية في الشويفات ، نشأت عن علاقته بأل الخوري . خطيبيتي آنذاك جورجيت بربر من تلميذات الشويفات ، خالها الاستاذ فهيم كان معلما في الشويفات ايضا . نمت هذه العلاقة حتى صارت قريبة من الصداقة .

عرفت ان الاستاذ شارل مدير الشركة السورية البريطانية في شارع اللنبي في بيروت . فقصده في شتاء 1935 وبدأت احديثه وطنية عامة الى ان خلصت الى سؤاله : هل انت مستعد ان تعمل في سبيل تحرير بلادك ونهضتها ؟ ثم ما هي بلادك بالضبط ؟ ...

لم يطل بنا الجدل . أنست في افكار الاستاذ شارل تحررا بل لمست انه غير بعيد المنال . يمكن اقناعه اذن للدخول في صفوفنا . استأنثته على امل العودة .

وبعد فترة لا تتجاوز الاسبوع ، عدت اليه وانا احمل « الدفتر » .

كان موافقا على كل شيء ما عدا امرين :

الاول : من هو الزعيم ؟

الثاني : ما هو مدى صلاحياته .

كان شارل سعد ، يتخوف من الدكتاتورية . وقد شدد على هذه النقطة كل التشديد .

انا نفسي لم اكن مع الدكتاتورية . كنت اتخوف من سيطرة الفرد وتحكمه فعندما وضعت مشروع الدستور ، تمسكت بمادة واحدة تقيد سلطات الزعامة ، بحيث لا تبقى مطلقة ولا تصل الى الكيفية والاستبدادية .

كان نص المادة المتعلقة بسلطات الزعيم انه مصدر السلطات التشريعية والتنفيذية ، وان قراراته مبرمة . ظللت احاور وناقش الى ان اقنعت ان نضيف الى هذه المادة قيودا احترازيا هو ان الزعيم لا يتخذ اي قرار هام الا في مجلس العمدة . كنت اعني بهذا القيد ، ان سعادته لا يمكن ان يتخذ عمليا اي قرار – لان كل القرارات هامة في ذلك الوقت – الا بعد مناقشته مع العمدة كي يأتي منضجا من جهة ، ويكون مطبوعا بالجماعية لا بالتفرد .

فلما اطلعت شارل سعد على نص هذه المادة ، اقتنع بانها كافية ، دون ان يتنازل عن الديمقراطية .

المهم انه دخل الحزب . وانطلق الى الانتاج . ما مرت مدة حتى كان منفذا لبيروت وضواحيها حتى قضاء عاليه . بل اعتقد انه هو الذي اسس تنفيذية الغرب انطلاقا من الشويقات ، فاذا لم يكن هو المؤسس ، فهو الذي اطلق فيها تيارا من الحيوية والنشاط اعطى ثماره سريعا . كان ناموس التنفيذية المهندس جورج ابراهيم حداد وكان مكتبه في سوق سرسق ، الى جانب مكتب شارل سعد في شارع اللبني ككفير النحل يغليان بالغادين والرائحين .
ان احتفال اول حزيران سنة 1935 – وقد ورد ذكره في كتاب العميد جبران جريج « مع انطون سعادة » صفحة 27 – كان تحت اشرافه . هو الذي نظمه وامن الحراسة وكل مستلزمات نجاحه .

الفرق بيننا نحن الذين صمنا في الحزب ، وبين شارل سعد ، اننا كلما كان يمر يوم على انصوائنا كنا نزداد ثقة بالزعيم وايماننا بالقضية . شارل سعد ، رغم نجاحه الرائع في حياته الحزبية الاولى ، ظل مغرقا في فرديته ، متشبثا بموقفه من الديمقراطية وانها اساسية لحسن سير الحزب . ويبدو من تصرفاته ان فرديته ساقته الى انشاء محور خاص لم يلبث ان راح يؤلبه على سعادته ويطلق التهم ضده جزافا .

خلال صيف 1935 دعا سعادته الى العشاء في منزله في الشويقات . وراح طوال الليل يقارعه ويقاهره طالبا اليه تحويل الحزب من السلطة الفردية ، سلطة الزعامة الى السلطة الجماعية . فاستدعاني سعادته في اليوم التالي ، وقد عاد الى بيروت مرهقا ، مستاء وغاضبا ، ومما قاله لي : ان شارل يطمع في مشاركتي صلاحياتي !

بدأت المخططات

لم يقف الامر عند هذا الحد . فقد اجتمع في منزل احدهم مع بطرس سماحة وانطون

ثابت (الذي صار فيما بعد قائدا شيوعيا متعصبا) وراحوا يحبكون مؤامرة - في ذلك الزمان التأسيسي - لتأليب عدد من الاعضاء حولهم وشق الحزب عبر المطالبة بالديمقراطية والافتراء على سعادته بأنه يحاول زج الحزب في مغامرات طائشة لم يكن لها اساس من الصحة في حقيقة الواقع .

انكشفت المؤامرة لسعادته . فصمم على قمعها في مهدها . وكان الفضل الاكبر في كشفها الى المهندس جورج ابراهيم حداد عن طريق جان جليخ .

شكل محكمة برئاسة وعضوية كل من نعمة ثابت وزكي النقاش . (كنت انا غائبا في الكوره) . واستدعى الرفقاء ناجي نجيم وجورج ابراهيم حداد ورفعت زنتوت وشكل معهم فرقة للحراسة وزودها بأوامر صريحة . وكان قد استدعى شارل سعد وبطرس سماحة وانطون ثابت لاجتماع يعقده معهم في مركز الشركة السورية البريطانية في شارع اللبني الساعة الثالثة من بعد ظهر 31 آب على ما انكر ، وما ان ازفت الثالثة حتى كان يقفز من سيارة اقلته مع الحرس الى الشارع المذكور ...

وصعد مع العميدين ثابت ونقاش وهو بلباس الحزب الرسمي . القميص الرصاصية والبنطلون الرمادي الغامق . واحتل مكاتب الشركة ووضع حارسا على مدخلها . وفوجيء المتهمون بالحرس وراء كل واحد منهم . وبدأت المحاكمة .

اعترف كل من الرفقاء بما نسب اليه واصروا على موقفهم .

تذاكرت المحكمة وصدر الحكم على الفور بطردهم بمادة اساءة ائتمان بالعقيدة والنظام .

لم احضر هذه المحاكمة كما قلت ، الا ان سعادته رواها لي في اليوم التالي ، عندما التقينا في رياق امام سينما كنا استأجرناها لحفلة خطابية اشرف على تنظيمها الرفيق يوسف الدبس .

فتشوا عن عزيز الهاشم

اتهم شارل سعد بعد انكشاف الحزب ، انه هو وراء الخيانة . سعادته نفسه اتهمه . ثم عاد عن هذا الاتهام لعدم توفر الادلة . الحقيقة اني كنت عاملا اساسيا في رد هذه التهمة عن شارل سعد ، لاني اعرف البيت الذي تربى فيه ، كما اعرف اخلاقه

وسلوكه عبر اعماله وعلاقاته الاجتماعية . ثم ان الرئيس كميل شمعون قال لي يوما سنة 1937 ونحن في طريقنا الى قصر العدل : ان لعزير الهاشم الذي كنتم ادخلتموه الى الحزب وفرحتم به ، اخا يعمل في المكتب الثاني الفرنسي .
فتشوا عن عزير الهاشم في فضح سر حزبكم .

لا ازال اتصور ان شارل سعد ترك الحزب لسبب يتعلق بقناعاته الديمقراطية . الحزب السري الثوري لا يمكن ان يكون ديمقراطيا . فضلا عن قناعة سعاده المطلقة بأن الديمقراطية في الحزب ، بل الديمقراطية على اطلاقها ، مقبرة الاحزاب خاصة عند نشوئها وبدء نموها . وقد وردت آراؤه بهذا الموضوع في رسالة وجهها الى الاستاذ حميد فرنجية محاميه في المحاكمة الاولى وهي منشورة في الصفحة 40 من المحاضرات العشر وقد ورد فيها :

« وجعلت نظام الحزب فرديا مركزيا متسلسلا منعا للفوضى في داخله واتقاء لنشوء المنافسات والخصومات والتحزبات والمماحكات وغير ذلك من الامراض السياسية والاجتماعية ، وتسهيلا لتنمية فضائل النظام والواجب » .

لقد اخطأ شارل سعد ، وخسرنا بطرده ركنا من اركان الحركة ، كما خسرنا معهدا كان يمكن ان يكون مصنعا للقوميين الاجتماعيين كما كان مصنعا للتعليم والتربية الوطنية ولا يزال .

ادخال صلاح لبكي وطرده ... وتعاونه قبل وفاته

لم تكن عمدة الاذاعة وحدها صاحبة الفضل في ادخال صلاح لبكي الى الحزب . فسعادة نفسه بعد اجتماعات متوالية ، استطاع ان يقدم للاذاعة صلاح لبكي جاهزا للانتماء .

كان صلاح شاعرا كبيرا . ومحاميا قديرا . وكان ذا مطامح كبيرة حتى في الحقل السياسي ، فهو ابن نعوم لبكي السياسي اللبناني الشهير .

كان زميلي في الحمامة ، وكنا صديقين ، الا انني لم اكن في الواقع ابذل جهدا اذاعيا بين المحامين ، لانني لم اكن الاماميا مغمورا ، ومن العسير اذا لم يكن من المستحيل ان اكون مسموع الكلمة ، ولما اخرج بعد من البرعم .

دخول اشاع صلاح لبكي الحزب وفروجه

عندما زف الزعيم الي بشرى اقتناع صلاح لبكي بالانضمام الى صفوفنا ، احسست بانني خرجت من عزلتي في قصر العدل وصار لي سند وملاذ وان قيمة فكرية واببية وسياسية اضيفت الى قيم الحزب واركانه .

سارعت الى الاتصال بصلاح ، ودعوت ناموس الاذاعة الشاعر والاديب الثائر فؤاد سليمان وسواه من رجال الحزب الى حضور حفلة الادخال وقد عينت موعدها مساء احد ايام نيسان - على ما انكر - من سنة 1935 في بيت صديق الحزب شحاده البرياري بين شارع المحول وشارع ارتوا .

طرحت الاسئلة التقليدية التي تطرح على كل طالب دخول .

والسؤال الاخير : هل انت مستعد لاداء القسم التالي نصه :

اقسم بشرى وحقيقتي ومعتقدي بأن انتمي الى الحزب السوري القومي بكل عزيمة صادقة ...

فأجاب صلاح : اني مستعد .

ووقف - بعد ان علمناه الوقفة النظامية - وقرأ القسم كلمة كلمة . وختمه :

على كل هذا اقسم انا صلاح نعوم لبكي .

وما ان انتهى من القسم حتى سارعت اليه وتعانقنا كما عانقه فؤاد سليمان وباقي الرفقاء .

والقيت بالمناسبة كلمة رحبت بها بالشاعر والخطيب والزميل الكبير ، واعلنت ان الحزب يعترف بالعضو الجديد وينتظر منه انتاجا ضخما يتناسب مع مواهبه وعلمه وابداعه . واني اذ اتذكر ، اجهد الذاكرة لاستعيد رد الرفيق صلاح على كلمتي . الا انني اذا لم اذكر البعض العبارات ، فروح الرد باقية في ذهني بكثير من الوضوح . قال صلاح ما مؤداه :

لقد بلغت الطمأنينة . وصلت الى شاطئ الامان . واشعر بأني احيا في قلب الحقيقة . لقد كنت اكتب واخطب وانظم الشعر واؤلف الكتب واعمل في السياسة ، فاشعر بالضياع والسأم . لقد وجدت قضيتي ووجدت نفسي ...

ونزل صلاح الى الميدان على عجل . كنا بحاجة الى طاقات انتاجية ندفعها الى معركة الانتشار في شتى الحقول . كان صلاح اسما شهيرا لا تخلو جريدة او مجلة من ابيه . كان من المدرسة الرومانسية الجذابة التي تستأثر اكثر ما تستأثر بالنفوس الطرية ، بالشباب المتعطر الى الجمال والحب . صلاح لبكي هو الذي جمع سعادته بالفنان يوسف الحويك ، وهو الذي جعل من منزله ومنزل حماته الادبية الكبيرة سلمى صائغ ناديا للحزب ، بل مركزا للقاءات والاجتماعات .

لقد تعتمد بمعمودية الظلام - اي دخل السجن - عند اكتشاف الحزب . وقد اهتزت نقابة المحامين بسبب توقيفه اكثر من اهتزازها بسبب توقيفي لانه كان اقدم مني ، واعلى كعبا في المحاماة والادب .

ولما خرج من السجن ، بضغط النقابة ، كما خرجت انا من قبله ، انصرف للعمل الحزبي ، وكان الزعيم قد عينه نائبا له ، واستعان ببعض الرفقاء لادارة الحزب .

ثم بعد ان خرج الزعيم من سجنه في 12 ايار 1936 عينه عميدا للاذاعة خلفا لي ، ثم لما دخل الزعيم السجن مرة ثانية في 30 حزيران من السنة نفسها عينه رئيسا للجنة تنفيذية عليا مع اعضائها نعمة ثابت ، مأمون اياس ، فوزي بردويل ، جوزف بجمونوي وخالد اديب .

كنت اثناء سجن الزعيم الثاني منصرفا بكليتي للعمل المهني ، فلم اشعر بوجود هذه اللجنة التنفيذية ، الا انها حافظت قدر الامكان على معنويات القوميين وكانت على اتصال دائم بالقائد السجن ، الذي لم يكن يعدم وسيلة للاتصال بالخارج طورا بواسطة السجناء المخلى سبيلهم او بواسطة المحامين او بواسطة رجال الدرك .

حضر صلاح لبكي ومأمون اياس الاجتماع العام الذي دعا اليه ابو علي سلام وضم العاملين للوحدة السورية من قيادة الرأي في لبنان وطالب باسم خمسة عشر الف لبناني بالوحدة السورية (راجع مقالة كاظم الصلح في عدد النهار الممتاز لاول سنة 1975) .

ثم قدم مذكرة باسم الحزب الى الوفد المسافر الى فرنسا لمفاوضة الجبهة الشعبية بشأن استقلال سوريا .

وكان صلاح واسطة العقد بيننا وبين حميد فرنجية وعادل عسيران ووفق بادخال عادل عسيران (وزير الاقتصاد والعدل الحالي) في صفوفنا واني انكر ان اول لقاء تم بيني وبينه في مكتب صلاح وراء البلدية .

ولقد قمت واياه باتصالات مع رئيس المكتب السياسي السيد كيفر . ولانه الرئيس يومذاك فقد تكلم وحده وكنت اصغي .

لم يعجبني حديثه عندما قال للسيد كيفر : اذا كان سعاد يريد ان يتخلى عن فرنسا لصالح المانيا او ايطاليا ، او اذا كان يريد ان يتخلى عن لبنان ، فنحن لا نمشي **Nous ne marchons pas** لم اعترض اثناء المقابلة ، لكي لا نفقد احترام المسؤول الفرنسي الذي كنا نقابل . ولكن ونحن في طريقنا الى مكتب صلاح وراء البلدية انتقدته بمرارة وحدة حتى كدت اجرحه . كانت حجتي انه بقوله للفرنسيين اذا كان سعاد يريد استبدال فرنسا بايطاليا فنحن لا نمشي ، اعطاهم انطباعا بانه مصدق للاشاعات عن علاقات سعاد بالطلليان . وكذلك في ما يعني لبنان ، فان القول بالتخلي عن لبنان مغلوط من اساسه ، فالحزب له موقف صريح من هذا الكيان ، اعلنه سعاد في عدة مناسبات .

خيانة الحزب

وكانت الثالثة الاثافي ، والتي هدمت كل تاريخ صلاح لبكي في الحزب ، انه كلف بمهمة سياسية ، نفذها بصورة معاكسة كليا للغرض الذي كان محمدا لها . لقد اعتبر سعادة ان هذا السلوك هو نوع من الخيانة للحزب . فجمعنا في مجلس العمد ، في ايار 1937 ، وكنا نتداول في امر طرده . كنت انا شخصا اصر على استدعائه واستجوابه قبل اتخاذ اي تدبير بحقه . ولقد قطع هو حبل النقاش حول هذه النقطة ، اذ وردت منه رسالة ونحن مجتمعون في مجلس العمد ، في شارع المعرض ، يعلن فيها انسحابه . كانت هذه الوثيقة كافية لاقتناعنا جميعا بالتصويت على الطرد .

كنت اكثر الناس حزنا على صلاح لبكي ، لاني كنت اكثر الناس فرحا بانتمائهم . وحزنت اكثر عندما كتب الزعيم نفسه مقالا عن صلاح بعنوان خائن واي خائن ...

ان صلاح لبكي ، ككل المثقفين الذين تربوا في وسط سياسي لبناني تقليدي ، لم يستطع الانسلاخ عن المدرسة اللبنانية العتيقة . لقد ظلت الرواسب اقوى في نفسه من الايمان بالنهضة التي شعرنا في وقت من الاوقات انها صارت تساوي كل وجوده . اضعف الى هذه الرواسب والعلاقات السياسية الخصوصية ان خوفا تملكه منذ

السجن الاول ، فهو شاعر يحب ان يصفق بجناحيه خارج ظلمات السجن .
الخوف والعلاقات الخصوصية عجلا بطرد طرد صلاح من صفوفنا .
حتى الآن ، انا غير مقتنع ان صلاح لبكي خائن ، وقد ثبت لي صواب هذه القناعة ،
لما قصده في اوائل سنة 1956 ليتولى الدفاع عن الامينة الاولى في دعوى مقتل المالكي في
دمشق ، تناولت الغداء في منزله مع المحامي الكبير هاني البيطار من المع وانكى واعلم
محامي الشام ، وكلفته بالتوجه الى دمشق ومقابلة القضاء والسجناء . ففعل دون
تباطؤ ولا تردد . وقد رفض ان يتقاضى اي بدل اتعاب . ولكن لم يكمل هذه المهمة فقد
عاجله المرض والموت قبل ان يعود الينا ... لانه كان حقا ينيوي ان يعود .
لقد مررت بمكتبه - بعد قرار الطرد - فوجدته يكتب مقالا لجريدة الهدى
النيويوركية . كان قد نقل مكتبه الى بناية اللعازرية ، فقلت له : هل تكون نهايتك في
الهدى يا صلاح ؟ فاجاب : اقرأ ما اكتب . فقرأت . زادت قناعاتي ان القومي يمكن ان
يخرج من الحزب ولكن الحزب لا يخرج منه . ويمكن ان نطرد القومي الاجتماعي
بحق ، اذ ان اي مرسوم مهما كان معللا ، لا يتمكن من طرد العقيدة من وجدان العضو
اذا كان حقا مؤمنا . وصلاح آمن بالعقيدة فعلا . (اقرأ مقال الاستاذ كإظم الصلح في
عدد النهار الممتاز لمطلع عام 1975 ومؤتمر الوحدة السورية في دار ابو علي سلام) .

لقد ظلت في مقالاته شرارات من العقيدة التي اقسام لها يمين الولاء المطلق ... قاتل
الله السياسة والمطامع الخصوصية والخوف كم افقدتنا من رجال ! وقاتل الله
الاضطهاد والارهاب كم اربع من رفقاء ، فتركونا مرغمين ! ... ولكن الم تقل
الامثال : بعيد عن العين بعيد عن القلب . القطيعة كم قطعت من صلوات حميمة بيننا
وبين رفقاء ، بنيانهم لساعات الشدة ، فتركونا في ساعات الرخاء ...
سنظل نذكر لصلاح لبكي عطاءه ، ولكننا لن ننسى ان السياسة طغت على ايمانه ،
واوقعتة في احابيلها فكان ما كان .

يوسف الدبس : الايمان والصمود ... والثمار

كنت منذ ايام الدراسة اتردد على مقهى ومطعم في ساحة الشهداء ، في نفس محل
حلويات العريسي حاليا ، تحت اوتيل سنترال . وقد انتهت ملكية هذا المقهى والمطعم الى
السادة اسكندر فتوح واخوانه روز وجاد ونعيم . كان ملتقى الشعراء والادباء
والصحافيين . كان من رواده الاخطل الصغير وميشال زكور وميشال ابوشهلا وجبران
التويني وامين نخله وصلاح لبيايدي وعلي ناصر الدين وعارف الغريب واحيانا شبلي
الملاط .

الغنى والمشالية قلما يجتمعان

كنت انا وفؤاد سليمان نتحلق هول هؤلاء المقدمين نتسقط شعرهم ومباسطاتهم ونكاتهم وندرب على اسلوب حياتهم . ثم صرنا من الحلقة في مقام مرموق ، نعاتب اذا تخلفنا عنها . قصيدة الاخلل في بغداد سمعناها قبل القائها وكذلك قصيدته في حلب الشهباء .

بعد ان دخلت الحزب ، تباعدت عن هذه الحلقة ، ثم هجرتها ، فقد وجدت طريقا آخر في الحياة ، غير الاستمتاع بالالب والخمرة وشهي المأكول والمشرب . بل اني بدأت استغل علاقتي القديمة في صالح الحركة القومية فما انفككت عن احد اصحاب المطعم السيد نعيم فتوح حتى ادخلته في الحزب فعمل مدة نشيطا مقداما ثم اغترب حيث اخوه الاكبر في ولاية ميسيسيبي في اميركانيا .

في هذا المقهى تلاقيت مع يوسف الدبس ، الشاعر والاديب ، اياما قليلة بعد انتمائي . وكنا قد تصادفنا في منزل خالي زوجتي المحاميين ابراهيم وفهيم خوري ، لقد آنست فيه حسا وطنيا صافيا . بل رغبة صادقة وشوقا الى النضال . فأسريت له بوجود الحزب وشرحت غايته ونظامه . ثم انطلقنا الى خان انطون بك ، في نفس المكان الذي ادخلت فيه الدكتور زكي النقاش ، وهناك بحضور الزعيم والرئيس نعمة ثابت ، اقسام اليمين ، بعد ان شرحنا له بالتفاصيل عقيدتنا السورية القومية وشددنا على الشخصية المستقلة لسورية الطبيعية التاريخية .

كان يوسف مثلي قبل دخولي الحزب ، غريبا عن افكار سعادته في تحديد الامة والوطن والقومية . كلمة قومية كانت تعني لنا وطنية . وكلمة وطنية كانت تعني لنا الاستقلال والسيادة . وكانت ميول يوسف عروبية تماما كميولي . فنحن تلامذة الرواد في الكفاح العربي في الشام ولبنان .

ما ان اقسام اليمين ، حتى انطلق يوسف الى اصدقائه وعشرائه مبشرا . كان هناك عطش عند ابناء جيلنا الى التحرك والعمل . سد الحزب هذا الفراغ . لذلك وفي مطالع

1935 جاعنا يوسف الدبس ، مطالبا بزيارة لرياق . فذهبت اليها مع الزعيم ونعمة ثابت مصحوبين بالرفيق يوسف وهناك اجتمع كل من ديب كريجا وميشال كعدي وفهد الدبس وعزيز خير الله ونبيه موسى وچاك مطران ونجيب الفيكاني .

وقد ذكر سعادته هذا الاحتفال السري في خطابه في رياق في 23 نيسان 1948 :

« في هذه المنطقة ابتدأ الحزب السوري القومي الاجتماعي في البقاع . ومنها امتد الى جميع انحاءة . انكر يوم رياق وقد دخلت الى حانوت صغير رأيت فيه من الرجولة والعز الشيء الكثير واجتمعت فيه الى عدد قليل من شباب رياق واكثرهم عمال وافتخر انهم كانوا عمالا ولا يزالون عمالا حتى اليوم فنحن جميعنا عمال لهذا الوطن » .

ولقد تبنت مديرية رياق ، وعقدت لها اجتماعا في سهول الذرة في آخر ربيع 1935 . ثم جئتها من تبعبورة الكورة في اول ايلول من نفس السنة .

لم تنقطع علاقتي بالرفيق يوسف الدبس فهي مستمرة باستمرار صموده . جمعت بيننا العقيدة ومن قبلها الصداقة ثم جمع بيننا السجن والمعتقل . لقد دخل يوسف السجن معنا عند انكشافنا في 16 تشرين الثاني 1935 كما دخل كل السجون والمعتقلات .
لقد منح رتبة الامانة تقديرا لايمانه وعطائه وصموده .

ثم تكاثرت مسؤولياته المعاشية ، فلم يعد بإمكانه التفرغ كما كان في اوائل حياته ، الا انه انشأ بيتا قوميا اجتماعيا وعائلة قومية اجتماعية مناضلة وثابر ، من ضمن طاقاته ، على العطاء قدر المستطاع . ولا يزال حتى اليوم صامدا بنفسه وبأولاده .
بمثل هذا الصمود رسخ الحزب السوري القومي تراثه النضالي واستمر صاعدا من قمة الى قمة .

كنت قد تعرفت الى نقولا البربول في جل الديب اثناء حفلة عرس .

ويوما من ايام ربيع 1935 ، كنت اصعد درج العدلية القديمة مستعجلا ، فاذا بالرفيق نقولا يلحق بي ، ويسلم علي السلام الحزبي السري ، فتوقفت ووضعت حقيبتني ارضا وعانقته . قال لي ان رفقاء لنا من نقابة الاحذية موقوفون ومحالون امام محكمة البداية المختلطة بموجب قانون قمع الجرائم ، القرار 115 ل.ر. وان الزعيم ارسله الي مع تكليف بالدفاع عنهم . اصطحبته الى النيابة العامة واتخذنا الاجراءات القانونية لنتمكن من تنفيذ المهمة ، ونفذتها ودافعت عنهم وحصلت على حكم براءتهم . في نفس

قفص الاتهام ونفس اليوم كان يحاكم الرئيس عادل عسيران ، وقد كان في ريعان شبابه ، بتهمة القيام بتظاهرة مع عدد من شباب النبطية ضد الانتداب الفرنسي .

منذ ذلك التاريخ لم تنقطع علاقاتي بالرفيق الحاج نقولا بردويل . فهو من المناضلين المثاليين . آمن وعمل وعلم . عدا انه كان رئيس نقابة عمال الاحذية بل مؤسسها ، جعل من بيته بيتا للحزب . كان هذا البيت مركز ادخال ، ومركز ثوار ، ومضافة دائمة لكل طارق .

الايوبي في ثياب الشرطة

في ربيع ذلك العام نفسه ، كنت قد التقيت باسعد الايوبي ، من عفصديق الكورة اصلا ، ومفوض في شرطة بيروت . كنت اعرف الكثير عن وطنية وجراة اسعد الايوبي من جريدته « الشعب » التي كانت تصدر في طرابلس الفيحاء . نفذت من خلال هذه المعرفة الى وجدانه القومي . وبعد لقاء او لقاءين في مكتبي في بناية السمطية (جادة الفرنسيين) اقنعت بالدخول عضوا سرىا . واتفقت مع الحاج نقولا بردويل ان ندخله في جل اللبيب في جلسة خاصة . ولما وصلت الى منزل آل الحجل مع اسعد الايوبي في ثياب الشرطة تملل الرفقاء الحاضرون واوجسوا خيفة . فاخذتهم على انفراد وشرحت لهم الوضع . المير اسعد قادم لحماية الاجتماع لا لفضحه لانه سيقسم اليمين .

سرنا بقيادة الرفيق نقولا وبعض الرفقاء بين البساتين ، تحت جنح الظلام ، الى ان بلغنا منزلا منفردا . وجدت في ذلك الاجتماع ما يقارب الخمسة عشر رفيقا . وبعد ان تحدثت اليهم حديثا اذا عيا عقدت جلسة ادخال ، فاذا هنالك مرشحان آخران هما الرفيق بديع كاسر احوش وآخر من شمسطار من عائلة الحاج حسن .

كنت قد الحيت كثيرا على الرفيق اسعد الايوبي ان يحضر بالثياب المدنية لكي لا يلت الانظار ، فاقنعني ان ثيابه العسكرية هي التي ستكون الستار الكثيف الذي يغلف الاجتماع اذ ببال من سيخطر ان مفوضا في الشرطة يدخل حزبا سرىا ثوريا !

سجن الرفيق اسعد الايوبي ، بعد انكشاف امر الحزب ، وعزل من وظيفته ، واستمر عاملا في الحزب . واصبحت شقيقته بلقيس وشقيقه رفيق في صفوفنا بعد حين .

اما الرفيق بديع كاسر احوش (من مقبرة - منطقة العلويين) فبقي صامدا في الصفوف ، وقد نال رتبة الامانة في نفس الدورة التي نالها فيها الرفيق يوسف الدبس .

برديويل في فنزويلا

والرفيق نقولا برديويل ، اضطر - لكثرة ما لاقى مع عائلته من اضطهاد - للاغتراب الى فنزويلا منذ اوائل الخمسينات . ولقد كان فيها المحرك الاساسي لقيام مديرية عاملة في كراكس بالاشتراك مع المناضل الرفيق شفيق مفرج الذي يتسلم اليوم معتمدية الحزب في فنزويلا وجزر الكريبي ...

عندما لقيته في مطار كراكس في حزيران سنة 1963 وكنت اجهل مكان وجوده ، بادرت : اهلا برفيق الساعات الاولى . طوال وجودي في المغرب القسري كان الرفيق القنوة الى ان عاد الى الوطن ولفظ انفاسه تحت سمائه ووري في ثراه ... اجل لقد احب نقولا برديويل وطنه حتى الموت وناضل في سبيل القضية القومية الاجتماعية حتى آخر نفس من انفاسه .

اما الرفيق اسعد الايوبي ، فرغم انه عبر عن ايمانه واندفاعه ، برفض الوظيفة والمعاش ، والاتصواء تحت علم الزبيعة الحمراء ، الا انه لم يستطع الصمود طويلا ، فهو رب عائلة ، ولا مجال عندنا للمعونات المالية . كنا فقراء بالمال وما زلنا . الغنى والنضال والمثالية قلما تجتمع وتتجانس . لانلوم الرفيق اسعد الايوبي ، لانه لم يتغلب على الصعوبات المالية . اننا نحفظ له في تاريخنا وثبته العفوية وتضحيته ، فقد كانت قدوة للكثيرين من الذين استغنوا عن الوظائف ، ليغتتوا براحة الضمير ، اذ اسهموا بقسط ما في دفع عجلة النهضة الى الامام .

تأسيس الشركة السورية التجارية في شارع فوش

كان قد دخل هـ فوفنا الرفيق فؤاد مفرج - غير رفيقنا الاستاذ فؤاد مفرج من برمانا والذي قتل بحادث سيارة في اميركانيا - فؤاد مفرج كان مغتربا ولم يكن غريبا عن الشعور الوطني المتقدم في مغتربه . اجهل ظروف انتمائه . لكني لا اجهل شخصيته . في بشمزين الكورة ولد وترعرع ، اذن في بلدة العلم والثقافة . فلما عرف بأمر الحزب تلقفه ، كأنما كان يبحث عنه . وراح يضع كل امكاناته بين يدي سعادته . كانت الامكانيات عادية . الا ان الرجل كان شعلة من الحماس والاندفاع . ولعل حماسه واندفاعه جعلنا من مشاريعه غير جدية وغير ناجحة .

هو صاحب فكرة الشركة السورية التجارية ، عرضها على الزعيم ، فوافق . طبع كوبونات وراح يبيعهها للقوميين كأنما يبيع اسهما في شركة مغفلة . كل ما تقع عليه يده

كان مشروعا وصحيفا .

كنا بحاجة الى مورد فأوجد المورد . وكنا بحاجة الى غطاء لحزبنا السري ، فأوجد الغطاء واخفانا عن الاعين . استأجر للشركة طابقا بكامله باسم المهندس جورج ابراهيم حداد . لم يعد الحزب يعمل في كوخ . صار للزعيم مكتب ومثله للعمد وفي شارع فوش في وسط المدينة التجاري .

ما لا يجوز اغفاله ، ان الرفيق فؤاد لم يوح الثقة بمشروعه الى النهاية . الاموال التي جمع لم توظف حسب وعوده وعروضه . بدأ الزعيم يتلمل من خفته وحماسه الا ان الشركة استمرت ، اذ لم يكن لنا الخيار . الحزب السري ليس حرا في التصرف كالحزب العلني .

من نكرياتي عن فؤاد مفرج ، عدا انه صاحب الدعوة الى صنوبر بشمزين في عهدنا السري ، حيث عقد اول اجتماع اذاعي علني في الحزب تحت ستار « بيك نيك » ، انه لحق بي في تموز 1935 الى فندق بلودان وكان معه سيارة كروزلر اكل الدهر عليها وشرب . بعد ان امضينا يومين في ذلك الفندق ، توجهنا الى زحلة ، حيث كان على موعد مع سعيد عقل ، لاصطحابه الى بيترومين الكورة ، لالقاء قصيدة في حفلة اعددها العميد جريج .

وجدنا سعيد عقل بانتظارنا . كان لا يزال قوميا اجتماعيا .

وانطلقنا الى بيترومين الساعة العاشرة صباحا فلم نبلغها قبل الثالثة بعد الظهر . كلما قطعنا مسافة قصيرة تحتر السيارة وتحرن ثم تقف . فننتظر برودها ونكمل ، الى ان عيل صبرنا وافلتت السننتنا بالشتائم والمسبات !...

ما كان احدنا يحلم بالوصول الى بيترومين قبل يومين . ومع ذلك وصلنا .

كانت الحفلة مدرسية ، القى فيها سعيد عقل احدى قصائد شبابه . لا يزال برنامج الحفلة محفوظا مع العميد جبران جريج منظم تلك الحفلة .

رافقنا فؤاد مفرج الى السجن عند افتتاح امرنا . هو الذي قطب سترتي عند الكتف واخفى فيها مرسوم تعييني زعيما بالوكالة . وشركته السورية التجارية هي التي تاجر بها الفرنسيون فترة من الزمن لاتهامنا بالابتزاز وبالعلاقات الخارجية . خاصة في مجرى التحقيق الاستنطاقى .

حماس فؤاد مفرج واندفاعه ، افادا الحزب في كثير من الاتصالات ولكنهما بالنتيجة
تسببا باقتلعه من صفوفنا .

عدو الانضباط رقم واحد

نحن في الحزب لا نسجل السيئات فقط ، ان الذين سببوا لنا الازى ، كانوا قبل
اذاهم عاملين وانوا للحزب خدمات تذكر . فؤاد مفرج خرج علينا مع نعمة ثابت ومأمون
اياس . ولكن سيرى القارىء كيف اننا نسجل لهم جميعاً كل المآلتي البيضاء التي
قدموها للحركة . تاريخهم نكتبه بوجهه الابيض لا بوجهه الاسود فقط .

خلاصة القول ، ان فؤاد مفرج كان انفعاليا ، ولكنه كان طيب القلب ، سريع
الخاطر ، كريم النفس . ما يهمننا في الحزب الانضباط لسانا وفكرا . كان فؤاد مفرج
عدو الانضباط رقم I .

(١) كشف الرفيق جان دايه في وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ان كاشف سرنا هو الدكتور بيارد دودج .

نشاط عمدة الازاعة بين الكورة والشور

القويطع هي المنطقة الجنوبية الغربية من الكورة . قرى آمنة مشرورة على هضبات بيضاء توجي بالبراءة والحلم . اهلها بيض القلوب كأنهم نسخة طبق الاصل عن ترابهم الابيض ، اشتهرت منها بتعبورة بالوطني اسعد بشارة في البرازيل ، وبالدكتور نسيم الخوري صاحب جريدة سوريا الحرة في بوسطن ، والمطران بولس الخوري اول من كتب في القومية السورية وشقيقه المحاميين ابراهيم وفهيم الخوري ، كما اشتهرت كفرحاتا بالشاعر نسيم سابا والمجاهد الوطني الدكتور جورج صوايا صاحب مجلة الاصلاح في الارجتين وبالقاضي الحازم الاستاذ شكري سابا الذي اسىء اليه لاسباب سياسية ..

ما كنت لافرد للقويطع مقطعا خاصا من هذه الذكريات لولم يكن منذ تأسيس الحزب الى سنوات خلت قلعة من قلاع النهضة ، نلجأ اليها في الشدائد ، بل منها ننطلق لادارة الحزب والحفاظ على كيانه . وحتى الان يمكن التأكيد ان القويطع لا يزال من قواعدها الصامدة رغم ما اصابه من نكسات وتقلبات .

أنا من قرى القلع ، من دده في الجهة الغربية - الشمالية من كورتنا الخضراء . لولا اني تدرجت في الحمامة على يد الاستاذين ابراهيم وفهيم خوري ، ما كنت عرفت القويطع هذه المعرفة الحميمة لدرجة ان اهالي قرיתי نفسها ظنوا - وبعض الظن اثم - اني تخلت عن مسقط رأسي لصالح بتعبوره - الشامة على جبين القويطع - وهي مسقط رأس زوجتي جورجيت بربر التي شاركتني في الجهاد والصبر على المكاره في سبيل قضيتنا المقدسة .

لماذا سمي بالقويطع ؟

لأن هذه القرى البيضاء ، على الهضبة البيضاء ، تقع بين نهرين نهر الجوز ونهر العصفور ، وهما يفصلانها - فكأنهما يقطعانها - عن بلاد البترون .

باكرا جدا ، بدأ التصاقي بهذه الارض الخيرة . فما ان بدأت تدرجي على الحمامة في مكتب ركنين من اركانها ابراهيم وفهيم الخوري ، حتى بدأ تدرجي على محبتها .

منذ مطالع سنة ١٩٢٢ كانت القويطع جزءا من حياتي العاطفية . على رباها كان حبي الصغير يحبو الى ان نما وأثمر .. وعلى رباها رحت أبني الداميك الاولي للحزب السوري القومي في عهد سريته وتأسيسه . بدأت في بيروت بالسيد جورج الياس سركيس من كفتون ، وهو الذي كان مرافق الزعيم الخاص في العهد السري .

ثم تلاقيت وشبابها مع طبييها الدكتور توفيق فرح - الذي صار فيما بعد عديلي - ومع اهازيج الشباب وطمانينة القرية الهادئة ، وكان لا بد ان اسعى لغرس مبادئ الحزب . كان علي ان اختار ركنا ركيئا ، فاخترت الدكتور توفيق . انه خريج جامعة دمشق ، والطبيب الشاب الذي التفت حوله المنطقة ، وراح يداويها بالحب والثقة ، فما يطبق داء على مريض حتى تطبق يداه على الداء ، فاذا المرض ينهزم واذا العافية والحياة ..

على « الروس » المنتزه الفاصل ، بين بتعبورة وكفرحاتا كنا نتطارح شؤون الوطن . كان توفيق خريج دمشق كما اسلفنا ودمشق مدرسة الطب ومدرسة الوطنية معا ، فما وجدت صعوبة ولا حرجا في ان اغرس المبادئ القومية ، في تودة ورفق ، في نفس الدكتور وصحبه ، الى ان تيقنت من ان البذار كان في الارض البكر الصالحة .

ادخلت الدكتور فرح في الحزب ، فكأنني ادخلت شباب المنطقة بأجمعهم . ثم وبسرعة خاطفة رحت اطارد المقدمين في الشباب فاذا ابراهيم بشارة ونقولا فرح ويوسف فرح واديب بربر وجرجي الياس صعب وأسد نصار والياس نصر وحسيب بربر وفؤاد بربر وحنا شاهين واديب تامر في الحلقة القومية . وما هي الا ايام قلائل حتى كان القويطع في موكب النهضة : ميشال ونقولا خوري ويعقوب جبور (كفرحاتا) .

لماذا لم اتوجه الى الاستاذين ابراهيم وفهيم . كل منهما كان قد شق طريقه واختار مصير . كان من العسير علي انا المتدرج على يدهما ان ادعوهما الى اعتناق مبادئ قد تجعل منهما عضوين في حزب انا فيه المسؤول الذي يصدر اليهما الاوامر والنواهي . لذلك احجمت ، وتحت جناح السرية الدقيقة ، قمت بالمهمة الشاقة : اقناع شباب بتعبوره وكفتون وكفرحاتا بالانضمام الى الحزب الواحد تلو الآخر . الدكتور توفيق تولى كفرحاتا فيما ركزت على بتعبوره فاذا المنطقة بنخبة شبابها مؤمنة مناضلة .

الدكتور توفيق عين منفذا عاما ، والى جانب تطبيب الاجساد تولى تطبيب النفوس . اول نشاط للمنفذية كان ان اشتركت بعدد محدود في اجتماع صنوبر بشمزين في تموز او آب من سنة 1935 .

الدكتور توفيق خطب فريدة بربر ، كما خطبت انا جورجيت ، في ذلك الصيف . وقد سافر الى العراق ليعمل طبيبا في الجيش العراقي ، ومما فعل - تدليلا على ايمانه بالزعيم والحزب - انه نظم تأمينا على حياته يدفع في حال الوفاة الى انطون سعادة . انها اول بادرة من نوعها بدرت من قومي اجتماعي !..

لم تعرف خطيبتانا من امر الحزب شيئا . وعندما كان الدكتور وشباب القويطع يحدثونا عن اجتماع بشمزين - الذي لم يتسن لي حضوره - كان الحديث يسري همسا ووشوشات - كنا ندرك مسؤولية البوح بالسِر . كنا ندرك انه خيانة !...

الانني لا امر بقصة القويطع التي سأعود اليها في الصفحات المقبلة دون ان اشير الى واقعة طريفة . لم أكن اقدر ان انكر لخطيبي التزاماتي الحزبية وما ينتظرها من أهوال . ففتقت لي الحيلة ان اسألها : هل تحبين بلادك ؟ فأجابت بالايجاب ، هل انت مستعدة ان تضحي في سبيلها ! أجابت بالايجاب . قلت لها قبل ان ترتبني بي خطيبا ثم زوجا اريد ان تفهمي لكي لا تتصورني اني خدعتك في مقبلات الايام ، بأني قررت من زمان ان اضع دمي على كفي ، وأن اسير في خدمة بلادي الى نهاية المطاف ، حتى ولو كانت استشهادي !

قالت خطيبيتي : هذا امر لا يخيفني . واني اريدك ان تعلم بأني لا أقبل ان تحب وطني اكثر مني او ان تسبقني في التضحية من اجله ..

كان ذلك التعاهد في القويطع ايضا . القويطع التي اعتبرها جزءا من تاريخنا حبيبا ومشرقا .

لا أتحدث عن الكورة شرقا وغربا الان ، فقد تناولها رفيق حياتي ورفيق العمر العميد جبران جريج في مقاطع عديدة من كتابه « مع انطون سعادة » هو الذي اسس الحزب فيها ، فهو الاولي بأن يتنكر !...
من هو الزعيم ؟

● أول خطبة لي في ضهور الشوير في 16 أيلول 1935 .

كان ذلك ظهر السادس عشر من أيلول 1935 . دعاني الزعيم وعرفني على ابن عمته وديع الياس ثم قال لي ان عددا من الرفقاء انتمى الى الحزب في بلدته ضهور الشوير وانهم حتى الان لا يعرفون من هو الزعيم . تذهب مع الرفيق وديع وتقوم بهذه المهمة .

ولم يزد حرفاً واحداً . حزمت امرى وبحثت عن سائق كان لا يفارقني في رحلاتي الطويلة هو الرفيق سليم سعد الله يمين من انطلياس ، ما ان وجدته حتى عرجت على مكتب الشركة السورية التجارية ، واصطحبت الرفيق وديع ، وانطلقنا الى ضهور الشوير .
كنت ازورها لأول مرة .

اذا قصدت الجبل يوماً ، فالى عاليه وبحمدون كنت اقصد . لم يكن يستهويني رغم انه جنة لبنان الغناء ! ..

في الطريق اخذت بالصنوبر ... وتملكني شعور مرتعش ونحن نتسلق الروابي عبر بكفيا الى بلد سعادة . اين اخضرار كورتي من اخضرار المتن ؟ بل أين جمال الزيتون من جمال الصنوبر ؟ أين تواضع الزيتون أمام خيلاء الصنوبر الناطح الضباب والسحاب ؟

بعد منتصف ايلول ، لم تكن ضهور الشوير في عزها ... البرد والضباب يركضان في شوارعها وحول بيوتها القرميدية الساحرة . مررنا في الشارع الرئيسي وبلغنا الساحة ، الى ان وصلنا الى دارة قرميدية - مقابل ملعب للتنس ! دارة جورج ابوناظر .

كان الشباب وعددهم بين الخمسة والعشرين والثلاثين في الصالون المقفل .. لم يكن احد هناك غريباً عن الحزب ، فالسرية حرم مصون .

قدمني الرفيق وديع ، وبعد حديث قصير ، اخذت الكرسي التي كنت اجلس عليها ، وبدأت هكذا :

يحج المسلمون الى الكعبة ، والمسيحيون الى القدس ، اما السوريون القوميون فالى

ضهور الشوير يحجون .

هنا ولد البطل

هنا ولد المعلم

هنا ولد القائد

هنا ولد الزعيم

هنا ولد انطون سعادة ...

تلفظت بهذه الكلمات ، وكأني امسك بكل رفيق وأهزه ليفيق من رقاد طويل . ولكن ما ان لفظت اسم انطون سعادة حتى نوى التصفيق ، ونفرت دموع الفرح من عيون كثيرة .. وساد الصمت والخشوع .

توقفت برهة ليلتقط الرفقاء انفاسهم بعد المفاجأة . فالرجل الذي كانوا يرونه كل يوم ، تارة ملتحيا وطورا بلا لحية ، يتأبط الكتاب ويتوغل بين الصنوبر ، او ينحدر الى العرزال ، وحيدا او مستوحدا ، الرجل العائد حديثا من المغرب ، الرجل المتواضع والقوي ، هو اذن مؤسس الحزب السوري القومي وزعيمه ، لا الاسماء الطنانة التي كانت تسكن القصور وتملاً شهرتها اعمدة الصحف ؟ ...

لم اطل الكلام بعد هذه الهزة . تركت للرفقاء ان يسألوا وان اجيب . ثم قفلت راجعا .

لقد عرف السوريون القوميون في الشوير من هو الزعيم ؟ كانوا مواطنيه فصاروا تلاميذه وجنوده .

سعيد عقل ولبسنان الأكبر كيف استلنا عيد اول آذار

عرفته في مطلع حياته الابية شاعرا طموحا وخلاقا . لم تكن له فلسفة ولا كان ملتزما بغاية محددة . ثم اكتشفت فجأة انه دخل الحزب . انه من رجيل فوزي البرويل ويوسف البحمدوني اللذين خرجا باكرا جدا ويوسف الدبس الصامد اي من الرعيل الاول .

ما كنت شاهدا على نشاطه ، لاروي اي زاوية من هذا النشاط . الثمرة الوحيدة التي قطفناها من انتمائه الى حزينا ، كانت النشيد الذي كان مرشحا ان يكون نشيدنا القومي :

صخب البحر أم الجيش السخي

أم بلاد تملأ الدنيا نوي

سورية

يقظة ملء المدى

بسمه ملء الربيع

سورية فوق الجميع

في ايلول ايضا من سنة 1935 دعي لالقاء محاضرة « في الوست هول » في الجامعة الاميركية . نكر ان حدود لبنان تمتد الى القدس . وانه في محاضرتيه مر بآراء وأفكار غريبة عن عقيدتنا . وصل الى مكتب الزعيم تقرير بهذا المعنى من أحد الرفقاء فأحاله الي .

وجهت اليه رسالة بوصفي عميدا للاذاعة الفته الى ان التزامه بالعقيدة السورية القومية يفرض عليه التقيد بأسسها الفكرية . وانه في محاضرتيه في الجامعة الاميركية تغلت من العقيدة لينسج في ما ذهب اليه من رأي ، على منواله الخاص لا على ركائزها . وبالنتيجة دعوته لمقابلتي ليوضح حقيقة موقفه .

كان ذلك بعد لقائنا في بيترومين الكورة في تموز من العالم نفسه كما نكرت من قبل . تبلغ رسالتي ولم يحضر .

في تقاليدنا الحزبية ، ان نفضل او ان نطرد من يتمرد على أصولنا الفكرية او النظامية . اما سعيد عقل فلا انكر ان مرسوما صدر بطرده او يفصله . كل ما انكر اننا اهملناه كما اهملنا الكثيرين ممن اهملوا واجباتهم او تقاسوا عن النضال او تخاذلوا .

لم نحفظ له حقدا وان نكن تمنيناه عاملا في صفوفنا . لذلك لم انفر من لقاء تسنى لي معه في ضهور الشوير في صيف 1947 والزعيم ملاحق . لقد سهرنا في هدوء الليل بين الصنوبر من النوار - مدخل الضهور - حتى ساحتها . وسمعت منه أحدث قصائده وأبياتا من قدموسه الذي لم يكن قد صدر بعد ، على ما انكر .

لبنان الاكبر

وفي مطالع الخمسينات ، بعد استشهاد سعادة ، تصادفنا على ساحة البرج . ورجنا على العقيدة القومية . كل مبادئكم حسنة وصحيحة قال لي . ما عدا سوريا . لماذا لا تمدون حدود لبنان لتصبح حدود سوريا الطبيعية ويكون لبنان الاكبر عوضا عن لبنان الكبير ؟

كان جوابي في ذلك المساء ، اننا غير مستعدين ان نزور التاريخ او نعدل القواعد والقواميس الاجتماعية .. نحن لم نخترع سوريا نحن كشفنا حقيقتها . نحن لا نعبد اسماء ولا صخورا ولا اشجارا . نحن نهتم بالانسان . ولذلك قلنا بأن لبنان يظل سيديا مستقلا ما دامت هذه ارادة الشعب اللبناني .

من شاعر كبير وخلّاق ، صار سعيد عقل سياسيا . رشح نفسه للنيابة عن قضاء زحلة . وكان ينتظر ان يفوز بالتركية . الاصوات التي نالها اهابت به الى البكاء على أطلال مطامحه الكبيرة .

الشاعر العسكري الطائفي :

ثم طمع سعيد عقل برئاسة الجمهورية ولا يزال يطمع . ثم تدرج الى أن اصبح في أيامنا هذه معلما لحراس الارزة يجذب على ما نقل الينا - ونأمل الا يكون صحيحا - النبح على الهوية والنهب والسلب . وهو لا يقبل بالقاء السلاح قبل تصفية آخر واحد من الغرباء !...

ما كنا نظن يوما أن صاحب مدرسة في الادب احببناه وتنوقنا شعره وشممنا عبق وروده يبلغ نروة الجاهلية ان يغمس قلمه في دم الابرياء ويساهم مع الانعزاليين الطائفين في إحراق لبنان ، في المحنة الكارثة التي نجتازها حاليا .

ليس عارا بنظرنا ان يغير الانسان قناعاته ، ولا ان يوسع رقعة احلامه وطموحاته ،
انما المؤسف الموجه المعض ، ان يتدهور شاعر كبير خلاق وفنان كسعيد عقل الى وادي
الانعزالية الطائفية البغيضة ، التي جرت لبنان وجرفت كل ما فيه من قيم لتصبها في
أسوأ صفحة من تاريخه ، مخنوقة منبوحة مرمدة !

أما كان كافيا للبنان ، وطن الشعر والجمال ، ما لاقى من الرجعيين الطائفيين ،
محمديين ومسيحيين ، حتى ينضم الى جماعاتهم المسلحة شاعر من وزن سعيد عقل ،
الطامع بلبننة العالم ، فيما عجز عن لبننة لبنان ؟ ... او بالاحرى فيما عجز عن لبننة
نفسه !!

ليس مدعاة للأسف والتساؤل ، ان سعيد عقل وسواه من كبار أبناء ومفكري
لبنان ، عوضا عن ان يتداعوا ليتخذوا مواقف مبدئية تحول نون انهيار لبنان ،
مؤسسات واخلاقا ، سلكوا السلوك المتحيز ، المتحزب ، المتعصب ، فساهموا - مع
مستغلي الطائفية والاقطاعيين - في خراب الوطن الذي حلموا ان يكون في يوم من الايام
وطن الانسان ...

جيش سعيد عقل الاسرائيلي :

مفرغ سعيد عقل بالارقام والاحصاءات . لو اصبح رئيس جمهورية لوزع على كل
مواطن مئة ل.ل. شهريا من الدخل القومي . كنا نقرأ قديما انه يحفز لبنان ان يصبح ذا
جيش يضاهاى اسرائيل ليقهر اسرائيل وحده ! ...

جيش سعيد عقل على ما يبدو تقلص الى ان اصبح « جيشا » يحارب اعداء
اسرائيل ! ... لا اسرائيل . مع الاسف .. والاعتذار من البطولة ! ...

أول آذار 1935

لم اكن اتصور اهمية المبادرة ساعة مر بي الرئيس نعمة ثابت مع الرفيق مأمون
أياس في 28 شباط مساء ، واخبراني ان الليلة هي ليلة أول آذار ، ذكرى ميلاد
الزعيم . كيف عرفتم ؟ سارعت بالسؤال . ان سعادة مولود في أول آذار 1904 . اذن
نذهب الى الكوخ ، ونفاجئه بالمعايدة !

نعمة ثابت تربي في بيت غلب على تقاليده الطابع البريطاني . جدته أرلندية . وهو
أدرى مني ومن مأمون بالاحتفالات العائلية بعيد مولد ابنائها . نعمة تربي تربية
بورجوازية ، فيما أنا ابن قرية صغيرة لم يخطر ببالي ان الناس يعيدون عيد ميلاد غير
ميلاد يسوع الناصري !

قال نعمة : نذهب الى سوق الفرنجة ، ونبتاع باقة زهر ، ثم زجاجة من الويسكي ونقصد بيت الزعيم . ففعلنا ، وانطلقنا نحن الثلاثة الى رأس بيروت . فاجأناه في الكوخ ، قدمنا له باقة زهر مع باقة من الكلمات الحلوة القيتها ارتجالا ...
قسم الزعامة

لا أنكر احدا غيرنا نحن الثلاثة اشترك في حفلة اول مارس الاولى في تاريخ الحزب .

كان جواب المعلم على معايدتنا قسم الزعامة المثبت في الدستور :

« أنا انطون سعادة اقسام بشري وحقيقتي ومعتقدي على ان اقف نفسي على امتي السورية ووطني سورية عاملا لحياتهما ورقبهما .. الخ ... » .

دشنا في تلك اللحظات عيد اول مارس . وزاحت تكرر السنون تلو السنون ، والعيد يتكرر معها . لقد اعتبر القوميون ان عيد اول آذار اكثر من عيد ميلاد شخص ، انه عيد انبعاث الامة من قبر التاريخ . كنا في ما مضى ، في الحزب السوري القومي ، نعيد الاعياد الدينية ، كل مع أبناء طائفته . كان العيد انن يشمل جزءا من الشعب . اما عيد ميلاد سعادة فقد عيدنا جميعا . انه عيدنا القومي الاول .

ذكريات اول آذار

كم يوقظ عيد اول آذار في نفسي من الذكريات الحلوة !
سنة 1937 لا أدري سببا واضحا لعدم حضوري يوم بكفيا واصطدامنا بالسلطة .

سنة 1938 كنت في بيت زكريا اللبابيدي عندما القى الزعيم خطابا تاريخيا استعرض فيه مراحل تأسيس الحزب والسجن الاول ، وقد شهدت السيف الذي قدمه له جورج عبد المسيح باسم الرفيق الدكتور محمد امين تلحوق .

سنة 1948 كنت في بيت الرفيق بشير فاخوري ، وقد انسنا بحضور حفلة العيد الرئيس سامي الصلح والنائب كاظم الخليل ، وعندما جاء نوري للكلام ، وكنت أخاطب الضيوف تلعثمت وعوضا عن اسم كاظم الخليل لفظت اسم صديقي كاظم الصلح .

الشرطة تقتحم قاعة الاحتفال :

سنة 1949 كنت في بيت الرفيق هاني بلطجي ، وشهدت كيف دخل رجال الشرطة قاعة الاحتفال والزعيم يلقي خطابه واقفا على كرسي ، والشرطة حوله ، وقد طوق القوميون الاجتماعيون الحديقة التي كانت حول البيت وطوقوا بالوقت نفسه كل القوة

البوليسية التي كان في نيتها تعطيل الاجتماع وتفريق المجتمعين ، فاستمر الاجتماع كما استمر سعادة في القاء خطابه حتى نهايته .

حول الكرسي حيث كان سعادة واقفا يخطب ، احضر احد الرفقاء صينية عليها حلوى عيد ، وفرض على مفوض الشرطة وعناصره تناول الحلوى ففعلوا وان مرغمين .

كان مكاني الى جانب الامينة الاولى قرينة المعلم ، وقد شهدت كيف اضطرب قلب الزوجة الامينة ، ساعة احست ان زوجها ورفقاه في خطر الاصطدام مع قوى الامن .. وكيف حافظت على رباطة جأشها ومهابتها . أريد ان اموت معه قالت لي .

آذار عريذ البهجة تكا عريذ التخيدي

كنا في نفس ذلك العام 1949 قد قررنا اقامة احتفال كبير في فندق نورماندي ، ودعونا اليه رجال السياسة والصحافة والابناء والمفكرين ، من اصدقاء الحركة .
رن جرس الهاتف في مكتبي ، قبل اسبوع من الاحتفال ، كان الزعيم على الطرف الاخر .

الزعيم - اما عرفت باحتفال النورماندي ؟

انا - نعم عرفت يا حضرة الزعيم .

الزعيم - اما كلفك احد بتقديم باقة الزهر وافتتاح الاحتفال ؟

انا - لم يكلفني احد .

الزعيم - ارى أن أفضل من يقدمني ويقدم باقة الزهر أنت . عليك ان تبلغ مجلس العمدة هذا الرأي .

انا - سأفعل بسرور . واشكر الزعيم على هذه الثقة .

وكان كل شيء معدا لتكون الحفلة لقاء مع اكبر عدد من قادة الرأي في لبنان . الا ان نوايا السلطة كانت قد عادت توجس خيفة من انتشار الحزب وقوته . لم تكن هواجسها بنون اسباب . كنا نعد لها ضربة قاصمة ، وكانت جواسيسها تنقل لها استعدادنا . فاذا بقرارها يصدر قبل الاحتفال بيومين ويبلغ الينا : منع الاحتفال في فندق نورماندي واقامته اذا شئنا في احد المنازل .

قررنا اقامته في منزل اسكندر وفؤاد شاوي في الاشرفية . في نفس اليوم والساعة . وكان علينا ان نبلغ المدعويين واحدا واحدا . الا ان مواطنينا - مهما كانت منزلتهم الفكرية والاجتماعية يتحاشون « المشاكل » . طالما ان الاحتفال منع من قبل السلطة ، واكثرهم من اعوانها ومؤيديها - واقليتهم من المعارضة - فالاكثريه تعتذر عن الحضور .

من الاقلية التي كسرت طوق المخاوف والمحاذير ، نقيب المعامين الاستاذ جان تيان .
كان من اصدقاء الحزب واصدقاء الزعيم .
خطاب الزعيم

قدمت سعادة بخطاب ثوري . تصورت ان الحزب اعلن الثورة وانها انتصرت . وان
غاياتنا قد تحققت . وتصورت سعادة البطل القومي الذي اقيمت له النصب والتمائيل في
الساحات العامة وفي القلوب . خطابه في ذلك المساء من آذار 1949 اقوى خطاب
القاء ، بعد خطابه في تشرين الثاني 1948 في اللانقية ...

« ان الصراع بيننا وبين اليهود ، لا يمكن ان يكون فقط في فلسطين بل في كل مكان
حيث يوجد يهود باعوا هذا الوطن وهذه الامة بفضة من اليهود . ان مصيبتنا بيهودنا
الداخلين اعظم من بلائنا باليهود الاجانب » ...

تصور ايها القارئ العزيز ، ان سعادة يخطب في اول آذار 1949 فكأنه يخطب في
جماهير الشعب اليوم ، وقد هب يهود الداخل في وجه احرار الامة يرتكبون المآثم
والمجازر والموبقات . اليس صحيحا انهم اشد فظاعة من الصهاينة ؟ ... الصهاينة
ارتكبوا مجزرة دير ياسين فهب من بينهم قاض شهر بالقتلة واستنكر وشجب . اما هنا
في لبنان فيهود الداخل يذبون على الهوية ويحرقون وينهبون ويسلبون ويشنعون ،
وبعض ابناء طائفتهم عوضا عن ان ترجمهم ، تصفق لهم ، كأنما بطولة ان يحمل
الانسان السلاح في وجه الحقيقة ، في وجه الابطال المحررين والمنقذين لهذه الامة . ومن
اجل ماذا ؟ من اجل تكريس طائفية الدولة اللبنانية بميثاق جديد كأن ما كفانا مآسي
الميثاق القديم ؟

آذار التحدي في بتعبورة

ولنعد الى الورا قليلا ، الى سنة 1941 ، الى القويطع الذي وصفناه سابقا . هناك
في المنطقة الامينة كنت اتوارى فارا من وجه المظالم . ولكن القوميين وكل الاهلين كانوا
لي حراسا . لذلك وتحديا للسلطات ، قررت ان نعيد وأنا مطارد وملاحق ، عيد اول آذار
في بتعبورة !

دعونا الرفقاء من كل القرى المجاورة ، واقمنا الاحتفال في المدرسة الرسمية ، أه لو
كان لدينا آلات تصوير وتسجيل . ! نظمت الاحتفال ، بأن حملت صغيرات القرية
الجميلات سلالا ملأى بالزهور البيضاء . وبخلت مع مسؤولي المنطقة الى قاعة
الاحتفال ، والصغيرات ينثرن هذه الزهور البيضاء على المحتفلين والقوميين في حالة
التأهب يؤبون التحية الحزبية . وقد ألقىت بهذه المناسبة خطبا أنكر منه هذه العبارة .

« لقد طبع سعادة روحه في مبادئه وتعاليمه فجاءت وكأنها من لحم ودم »

ان لاول آذار ، في نفوس القوميين ، حبا واكبارا .. انه عيد ميلاد كل منهم ، وعيد ميلاد الامة الجديد ، وعيد ميلاد الرجل الذي حمل رسالة البعث والنهضة . لذلك عيونه في السجون ، وعيونه في المغتربات ، وعيونه في المنافي والمعتقلات .

انه ليس طقوسا ولا مراسيم ، انه ليس صنمية او تعبدا . انه فرحة الجنود بقائدهم ، وفرحة التلامذة بمعلمهم ، وفرحة الابناء بأبيهم الروحي . ثم انه فرحة الحياة بالذين تصطفهم رسلا ومتقنين ومحربين .

ومع الايام والزمن ، يصبح اول آذار عيدا شعبيا ، نفرح فيه ونهزج ، ولكننا نعود فيه الى انفسنا نسألها بشرف القومي الاجتماعي وصدقه : هل يجوز لنا ان نعيد ؟ هل قمنا بالواجب القومي ، لنستحق الفرحة والبهجة ؟ ... بهذا المعنى ، يصبح عيد الفرحة والبهجة يوم محاسبة الذات وتجديد العهد ...

اننا لا نقيم الاحتفالات كما يقيمها اصحاب القصور وينو الانسان الذين لا تعني لهم الحياة الا صياحا وملذات وعريضة وترفا .. ان احتفالاتنا اشتراك مع الشعب في فرح المطمئن العامل لحياة امته وعزها على هدي سعادة عقيدة وشهادة .

اجتماع بيت مري

كان بيت جورج عبد المسيح في بيت مري ، في الحي الغربي ، قبل ان رمم وجدد ، بيتا قرويا يشبه القلعة الصغيرة . في شتاء 1935 دعا سعادة مجلس العمدة لاجتماع طارئ في ذلك البيت . كانت زيارتي الاولى لآل عبد المسيح ولبيت مري . ووالداه وشقيقاته وشقيقه اجنحة تلف بالحنو والمحبة والسخاء كل طارق بابهم من اعضاء الحزب السري في القرية وفي جوارها

بعد العشاء ، انفرنا مع سعادة في غرفة منزوية ، وكانت الجلسة لبحث موضوع الرفيق نسيب حمدان .

اما في رسالة الى المعلم ، او في اجتماع لمديرية بيت مري ، اثار الرفيق نسيب موضوع الاشتراكات التي يؤديها الاعضاء في آخر كل شهر ! اين تذهب ، كيف تنفق ؟ ...

عملية بناء النفوس كانت شاقّة وبقيّة . كان سعادة حريصا على ايفائها كل حقها ، والانصباب على كل شاردة وواردة تتعلق بالثقة والاخلاق ، فلا ينفك عنها الا وقد اخذت مجراها الطبيعي وبلغت الحد الاعلى من العناية والرعاية .
دعي الرفيق نسيب حمدان الى حضور الجلسة . واخذ الزعيم يطرح عليه السؤال تلو الاخر .

سعادة : كم دفعت يا رفيق نسيب اشتراكات شهرية منذ دخولك الحزب ؟
نسيب : مبلغ كذا .

سعادة : هل خطرك ان تحسب يوما كم انفق الحزب على مديرية بيت مري ، نقلات وقرطاسية . وهل خطر ببالك ان تتصور كم يكلف نشاط الحزب الاداعي من اموال في الشام ولبنان ؟
نسيب : سكوت .

واستمر الاستجواب لحظات على هذا المنوال .
فلما انتهت سعادة ، سأل اذا كان احد العمدة يرغب في طرح أي سؤال .
لم يطرح ولا أي سؤال من قبل العمدة .

هنا توجه الزعيم الى الرفيق نسيب حمدان ، وكان منفعلا ، ليلقنه ويلقن الحاضرين درسا في الثقة وفي المنطق .

من ناحية المنطق ، قال سعادة ، بأن العضو الذي يدفع خمسة او عشرة قروش شهريا ، اذا كان قادرا ، ليس له الحق بأن يسأل قيادته اين يذهب هذا المبلغ ، اذا كان يشاهد بنفسه كم ينفق الحزب لتأسيس فروع عديدة في مناطق نائية من الوطن السوري ، بل كم ينفق على مديرية بيت مري نفسها . اذ يرسل لها من العاصمة المذيعين او المسؤولين الاداريين الذين يشرفون على تنظيمها وانمائها .

ثم اُضاف كيف يتعاقد العضو مع زعيم الحزب على تحقيق قضية قد تقتضيه عطاء دمه ، ثم يسأل عن الخمسة او عشرة قروش التي يقدمها بدل اشتراك !

اين الثقة بالقيادة في تحمل مسؤولية نهضة الامة ، اذا كانت هذه الثقة تبدأ بالشك كيف تنفق هذه القيادة بريهمات قليلة يدفعها الاعضاء للمساهمة في ميزانية الحزب .

طبعا ، ليست هذه كلمات سعادة بالحرف ، ولكن كانت هذه الروح التي تكلم بها .
الرفيق نسيب حمدان ، باشر الى الاعتذار والتراجع ، وبقي عاملا في صفوفنا الى أن
ناعت أكتافه بعائلته وقبل وظيفة في الدولة .. واستراح !..

هنا يشير العميد جبران جريج في الصفحة 29 .. من كتابه مع انطون سعادة ، ان
الاجتماع كان للمديرية وانه حضر الاجتماع وحده . الصحيح اني ومجلس العمدة كله
كنا في رفقته ذلك المساء . قد يكون الاجتماع عقد في بيت رزق الله نصر ، لانه قريب من
بيت جورج عبد المسيح ، الا اننا - وانكر ذلك جيدا - مررنا بمنزل عبد المسيح وتعرفت
انا لأول مرة الى اهله .

اجتماع بعقلين في اواخر نيسان 1935

الذين اسسوا فرع بعقلين هم كامل ابو كامل ورفيق ابو كامل وفؤاد ابو عجرم
وحسن الطويل كما انكر .

ومن اقدم الاعضاء الذين انكرهم جيدا الدكتور رفيق حمادة والرفيق عزت وهاب
ويوسف ابو عجرم وخليل الطويل .

كان علينا كمجلس عمد ان نعقد اجتماعا عاما في بعقلين ، والحزب لا يزال سريرا .
عقد هذا الاجتماع في منزل الدكتور رفيق حمادة وحضره حوالي خمسة وثلاثين
عضوا .

يني اجتماع بعقلين اكتمل ايماني بالزعيم

في هذا الاجتماع ، بدأت نشاطي الاناعي الخطابي . انه الاجتماع الاول الذي القيت فيه خطابا قوميا .

كنت اتصور ان سعادة سيستدعيني في اليوم التالي ليحلل خطابي وينقده ويزوني بملاحظاته . لم يفعل .

المهم ، ان الاجتماع عقد ليلا ، واقتصر على الكلمة التي القيتها وخطاب اساسي للمعلم . لم يكون هذا الخطاب ولم ينشر . أما بالنسبة لخطابي ، فهو ايضا ومئات الخطب التي كنت ارتجلها في اجتماعات اذاعية وعامة ضاع في ثنايا الذاكرة ، ولم يبق منه ، في ذهني ، الا اني القيت خطابا . اما مضمونه ، اما موضوعه ، فهو اثر بعد عين .. انه اصداء بعيدة وبعيدة جدا ، لها قيمة الاصداء ... وما قيمة الاصداء يا ترى ؟ ...

كان ممنوعا ان نصفق ، خاصة والاجتماع في دار فسيحة مغلقة . كان بالامكان ان أمر بنكري الاجتماع الاول في بعقلين لأنه كما يرى القارئ ، عادي وعادي جدا . انما كان له نتيجة حاسمة لموقفي من الزعيم .

منذ ان اقسمت اليمين ، وبدأت طريق النضال الطويلة ، ما تسنى لي ان استمع من سعادة الى اكثر من مناقشاته ، وحواراته ، والنفوذ السحري الذي كان له على مخاطبيه وسامعيه ومحاوريه . ما كان هذا النفوذ ليحملني على الوثوق المطلق بالمعلم . في كل مرة كنا نتطرح صلاحيات الزعامة ، كنت اصر على تقييد هذه الصلاحيات فلا تأتي مطلقة تفسح في المجال للتفرد والاثرة والاستبدادية .

لست ادري لماذا كنت اخشى الدكتاتورية ! لعلني كنت متأثرا بقراءاتي عن الديمقراطية الغربية وعن الحريات التي تبشرها في الكتب وفي الصحف . لعلها الثورة الفرنسية التي كانت تهز مشاعرنا بمبادئها ومنجزاتها على صعيد تحرير الانسان وسيادة الشعب .

اذن ، كنت اصر على تقييد سلطات الزعامة ، فلا يكون الزعيم مصدر السلطات كلها . بل كنت اصر على الا يتخذ الزعيم أي قرار الا في مجلس العمد ، ومن حيث صلاحياته في اصدار اوامر الصرف ، حددت المبلغ الذي يجوز له ان يتصرف به نون الرجوع الى مجلس العمد بخمسين ليرة سورية لا غير . (لم يكن في القاموس المالي الا الليرات السورية . الليرة اللبنانية ولدت بعد الاستقلال وبعد انفرط الوحدة الاقتصادية بين لبنان والشام تلك الوحدة التي كانت مجسدة في المصالح المشتركة برعاية المفوضية العليا) .

القائد الذي كنت احلم به

بعد الاستماع الى سعادة في بعقلين ، والانبهار بلغته الخطابية ، ولهجته الخطابية ، ووقفته الخطابية ، رأيتني فعلا امام القائد الذي كنت احلم به في ساعات تأمل الطويلة . انكر القارئ اني بدأت حياتي شاعرا .

غادرنا انا ونعمة ثابت ومأمون اياس عائدين الى بيروت صباح اليوم التالي ، وعرجنا على نبع الصفا نتناول طعام الصباح على النبع المتدفق ظللا وبردا وسلاما .

أثناء الطعام قلت لنعمة ومأمون : اعلن الان اني امنت ايمانا مطلقا بالزعيم . لقد اصبحت مطمئن الوجدان بقناعة لا رجوع عنها بأن سعادة هو رجل الحزب الاول عن حق وحقيق . وانه يجب ان يكون مطلق الصلاحية في الادارة والتشريع والقيادة .

نعمة ومأمون ارتاحا الى هذا الاعلان ، لانهما كانا يحاولان عبثا اقناعي بالقبول بحذف القيد الذي كنت قد وضعته في الدستور . اني اشهد بعد مضي اربعين عاما على موقفي اني اكتشفت حقيقة سعادة ولم يكن موقفي انفعالا او تأثرا أنيا بشخصية الزعيم .

كم تنكرت هذا الاجتماع السري ، في يوم بعقلين التاريخي ، في صيف 1945 ؟ يوم سارت جحافل القوميين الاجتماعيين ، آتية من أطراف الشام وأطراف لبنان ، تنتظم صفوفها بديعة على مداخل عاصمة الشوف ، ثم تنطلق الى الساحة الكبرى امام منزل المغفور له امين خضر ، حيث تلا نعمة ثابت خطابه عن الواقع اللبناني الذي تعاونت واياه في وضعه وكان من الاسباب التي قضت على حياة نعمة الحزبية لانه تحمل مسؤوليته وحده ...

ثم كم انكر الان بعقلين ، التي اعطتنا مناضلين كبارا ، امثال فؤاد ابو عجرم

وسعيد تقي الذين وخلييل ابو عجرم وجميل ابو عجرم ونوقان ابو كامل وخلييل الطويل ورفيق ابو كامل وامثال كامل ابو كامل وحسن الطويل وسواهم ممن تفوتني اسماؤهم الان رغم ما لنا على الآخرين من مأخذ ادت بنا الى اعتبارهما خارج صفوفنا نون ان يكونا خارج تاريخنا الحزبي على الأقل عندما نتذكر ماضيها .. عندما نتذكر مرحلة التأسيس !.

اجتماع رياق ودير الغزال أيلول 1935

لا نكران ان للصدقة والانسجام الطبيعي والفكري تأثيرا كبيرا على العلاقات الانسانية . اذا انتخب رئيس لاية بولة في العالم جاء بأصدقائه الى الحكم ومحازبيه . قلة - بنظري - تقدم المصلحة العامة ، على الصداقة الشخصية ، فتأتي بالخصم الموهوب قبل الصديق المرغوب .

بيني وبين الرفيق يوسف الدبس ، رابطة صداقة نشأت قبل نشوء الحزب ، وعلى الاقل قبل انتمائنا اليه ، بل ان هذه الصداقة كان لها اثر كبير على اقناع يوسف بالعقيدة السورية القومية .

في ايلول 1935 ، كان يوسف والرفقاء في منطقة رياق - دير الغزال قد اعتزموا اقامة حفلة خطابية . تفوتني الان المناسبة . كنت انا احد خطباء الحفلة . وقد اقيمت في قاعة فسيحة قد تكون قاعة سينما ! ... حملني يوسف على المجيء من بتعبوره - الكورة الى رياق ، فانسلخت عن خطيبيتي في ذلك الاحد من ايلول انسلاخا قسريا .. عدا نفقات الانتقال بسيارة خاصة وقد كانت فوق طاقتي المالية بكثير . في تلك الحفلة تناوب على الكلام عدد من الخطباء بينهم يوسف الدبس ونجيب حنكش (الذي كان رفيقنا في ذلك الزمان) وكان يحضرها الشاعر رياض معلوف وشاعر زجلي يدعى فريد لحد (من بعيدا صاحب مجلة الزجل اللبناني)

كنت اخطب بحماس . اندفع مع كلماتي كأنما انصب على الحاضرين عصبا ثائرا او غضبا زاجرا. راح الناس يصفقون وانا ارجوهم التوقف لئلا ينقطع سيل افكاري ... فلما تماودوا اكثر صحت بهم : لم انته بعد ... (يوسف الدبس ينكر هذا المشهد ويضحك طويلا) ...

لم يكن يبقوننا - كما نكرت - ان نشير الى الحزب بقليل او كثير . كانت كلماتنا مبطنة بالحزب . ظاهرها كان عاما وتجريديا . لذلك كنت اكثر ما اعرج على ايقاظ

الروح التحررية في الناس ، واعداهم لتقبل عقيدتنا بالكلام عن سوريا الطبيعية ، الامة التامة والوطن الامثل ... في البدء - في مرحلة التأسيس - لم يكن لنا بد من توليد عصبية قومية سورية ... ما كنا في صدد علاقاتنا بالعروبة وبالعالم . كنا في طور بعث الامة السورية . ولا بد من التشديد على شخصيتها مستقلة عن اية شخصية اخرى . كنا نعتقد ان وحدة سوريا هي الطريق الى تحقيق اي اتحاد او اية وحدة عربية .

كان الخطاب يدور حول هذه المواضيع ، بصورة عامة .

كان يوسف الدبس والرفقاء - رغم نجاح الحلقة - في حالة استياء وعتاب . الزعيم مدعوم مجلس العمدة ، ولم يحضر احد الا انا من المركزيين . كانوا قد ادعوا استقبالا حافلا ووليمة عامة .

كنا نخرج من الاحتفال ، نودع الحاضرين ، ونتهامس . فاذا بالزعيم ونعمة ثابت ومأمون آياس وبعض المركزيين يترجلون من السيارة . كانت المفاجأة سارة حقا . قام الانفراج في النفوس والغبطة ، عوضا عن الاستياء والعتاب .

في تلك اللحظات ، ينتحي بي سعادة زاوية ويخبرني كيف انه في ذلك النهار ، عقد المحكمة التي اشرت اليها في حلقة سابقة فحاکمت شارل سعد ورفاقه وقضت بطردهم ..

سر الزعيم

رتل من السيارات يتجه الى كروم دير الغزال . الاضواء تشعشع في الكروم من قناديل لوكس معلقة على العواميد . الطاولات ممتدة على طول الكرم . وفوق ذلك قمر البقاع يرش من عليائه الاغطية الفضية على عناقيد القوميين وعناقيد العنب .

الطريف في تلك الليلة القمراء ، ان الاذاعة قامت بواجبها في شيء من اللباقة والدهاء .

سعادة ، على المائدة ، كان يبشر بالعقيدة ويتحدث عن الاوضاع العامة ، كأنما يحفز الحاضرين الى البحث عن وسيلة للخلاص . دب الحماس والخمرة في رأسي ، فوقفت رافعا كأسي وقلت :

« ليست هذه الجلسة لتكتمل بدون زعيم ، فلنزعم الاستاذ سعادة
« ولنشرب سر الزعيم ... » فوقف المدعوون جميعا وشربوا سر الزعيم ...

ثم بعد لحظات ، قلت ولنرأس الاستاذ نعمة ثابت ، ولنشرب سر الرئيس ، وهكذا

شرينا سر الجميع بما فيهم المنفذ العام يوسف النجس .

بعد ثلاثة اشهر انكشف الحزب .

فما ان التقيت بعد السجن بالشاعر رياض معلوف حتى بادرنى :

ما ان طلعت الصحف في 17 تشرين الثاني وفيها الاسماء والايخبار ، حتى فهمت
مغزى الكؤوس التي شريناها في كروم دير الغزال يا عبد الله كنت تخدعنا بون ان
تحس بالماء تجري من وراء ظهورنا «

سعادته : نظام الحزب ليس هندياً ولافاشيئاً بل نظام قومي اجتماعي بحت

اول حزيران 1935 .. اليوم التاريخي

كان الحزب قد اصبح حزبا بكل معنى الكلمة . انتشر في انحاء لبنان والشام . منفياته تتحرك بانتظام . مركزه مكتمل . دستوره مكتوب بأبوابه الادارية : العمد والمنفيات والمديريات مع النظام المالي . اما مجالس المنفيات ولجان المديريات ومرسوم رتبة الامانة وانشاء المجلس الاعلى فقد اضيفت بعد الخروج من السجن سنة 1936 او

1937 .

كان سعادة عالما نفسانيا . كان يدرك قيمة التفاعل بين الرفقاء كجماعة منظمة . ويدرك في الوقت نفسه التأثير الكبير على الروحية العامة نتيجة اجتماع عام لكل الاعضاء من كل اطراف لبنان . لم يكن يستخف بخطر الانفصاح ولكنه لم يكن يخشاه . خلافا لما يعتقد البعض لم يضع الزعيم خطة لظهور الحزب لان الساعة لم تكن قد ازفت بعد ...

لذلك وبعد التداول في مجلس العمد قرر الدعوة الى اجتماع اول حزيران في منزل الرئيس نعمة ثابت في بئر حسن .

كان المنزل قصرا صغيرا مسورا وقائما في حديقة غضة الاشجار ، يلتقي فيها او حتى داخل القصر جمع غفير نون ان يلفت الانتظار . فمكان الاجتماع اذن مؤمن ، والسلامة مضمونة . وهنا مجال القول ان الحزب تأسس فعلا بين الكوخ في رأس بيروت وبين قصر نعمة ثابت في بئر حسن .

طلب سعادة من كل عميد ان يقدم تقريرا مفصلا عن عمدته ، ما حققته من مشاريع وما تنوي تحقيقه ، كما طلب ان تحول هذه التقارير بعد ان تمر به الى عمدة الاداعة . لاحقت تنفيذ هذا القرار بدقة . فما ان اصبحت المواد بين يدي ، حتى انصرفت بكليتي الى جمعها في بيان شامل يصلح - لو استطعنا العثور عليه - اساسا لكتابة وتقييم مرحلة التأسيس . ولكن المؤسف ان هذا البيان - وكان مطبوعا على الالة الكاتبة - ضبط من قبل نواتر الامن العام عند انكشاف الحزب ، وكان من أهم الأدلة

الثبوتية لتحديد المسؤوليات .

حاول الحزب - كما حاولت انا شخصيا - ان اعثر على ملف دعوانا في المحكمة المختلطة التي انتهت بالحكم الصادر علينا في 27 كانون الثاني 1936 ، فلم اوفق . يبدو ان الملف ضم الى ملفات المحاكمة امام القضاء العسكري سنة ١٩٤٠ وعندما رحل الفرنسيون رحلوا معهم كل هذه الملفات او اتلفوها .

كان برنامج الاجتماع ، ان يتلى هذا البيان ثم ان نستمع الى خطاب الزعيم ، وقصيدة من صلاح لبكي واخرى من يوسف النبس وفي النهاية ان نستمع الى اغان قومية من يوسف تاج ... وسواه .

في ذلك اليوم ، كما يوم قابلت مع فؤاد سليمان الدكتور زكي النقاش ، كنت خالي الوفاض من المال . ركبت التراموي حتى الحرج . ومن هنالك رحلت مشيا على الاقدام الى قصر آل ثابت .

وصلت منبوش الشعر ، العرق يتصبب من وجهي مدرارا .. وجدت على الباب السيد شارل سعد ، يشرف مع بعض المسؤولين على تنظيم الاجتماع . كانت الحراسة من الباب الخارجي حتى قاعة الاحتفال مؤمنة بدقة .

الخطاب التأسيسي

في تمام الساعة الثامنة ، وصل سعادة ، وكنا بانتظاره على الباب الخارجي ، ودخلنا معه ، والقوميون وقوف يؤنون التحية . افتتح الاجتماع وتلوت البيان وتلا صلاح لبكي ويوسف النبس كل منهما قصيدته والقي سعادة خطابه التاريخي :

ولاننا في مرحلة التأسيس لا بد من اقتطاع بعض الفقرات من ذلك الخطاب -
المنهاج :
قال المعلم :

« منذ الساعة التي عقبتنا فيها القلوب والقبضات على الوقوف معا والسقوط معا في سبيل تحقيق المطلب الاعلى المعلن في مبادئ الحزب السوري القومي (الاجتماعي) وفي غايته ، وضعنا ايدينا على المحراث ووجهنا نظرنا الى الامام ، الى المثال الاعلى ، وصرنا جماعة واحدة ، وامة حية تريد الحياة الحرة الجميلة ، امة تحب الحياة لانها تحب الحرية ، وتحب الموت متى كان الموت طريقا الى الحياة ...

« ... ان الحزب السوري القومي هو فكرة وحركة تتناولان حياة امة بأسرها ، انه تجد امة توهم المتوهمون انها قضت الى الابد لان العوامل العديدة التي عملت على قتل روحيتها القومية كانت اعظم كثيرا من ان تتحمل امة عادية نتائجها ويبقى لها كيان او امل بكيان . انه نهضة امة غير عادية - لمة ممتازة بمواهبها ، متفوقة بمقدرتها ، غنية بخصائصها - امة لا ترضى القبر مكانا لها تحت الشمس ... »

« ان الغرض الذي انشئ له هذا الحزب غرض اسمي ، هو جعل الامة السورية هي صاحبة السيادة على نفسها ووطنها . فقبل وجود الحزب كان مصير هذه الامة معلقا على إرادات خارجية ، وكانت أنظارنا تتجه الى الارادات الخارجية بعد ان نكيف انفسنا وفاقا لها . اما الان فقد غير الحزب السوري القومي الموقف . ان ارادتنا نحن هي التي تقرر كل شيء . » وكذلك اريد بهذه المناسبة ان اصرح ان نظام الحزب ليس نظاما هتلريا ولا نظاما فاشيا بل هو نظام قومي اجتماعي بحت ، لا يقوم على التقليد الذي لا يفيد شيئا بل على الابتكار الاصيل الذي هو من مزايا شعبنا .

« ليست القومية الا ثقة القوم بانفسهم واعتماد الامة على نفسها .

« اعود فأقول ان هذه القوة النظامية ستغير وجه التاريخ في الشرق الادنى . ولقد شاهد اجداننا الفاتحين السابقين ومشوا على بقاياهم اما نحن فسنضع حدا للفتوحات ... » . بعد خطاب بعقلين المرتجل ، جاء هذا الخطاب المكتوب ، يؤكد لي ان سعادة هو الضالة المنشودة ، هو المنقذ . لم يعبر فقط عما يختلج في ضمائرنا ، نحن ابناء ذلك الجيل ، بل عبر عن ضمير الامة المثقل بالصبر والامال والمحن والكوارث والمثالب والمفاسد . عبر عن قواعد الحياة والعمل لبعث امة بكاملها ودفعها في الخط الحضاري الأمتل .

من هذا الخطاب ، تبين لي ان سعادة حرر نفسه من كل العقد ، وصمم ان يقود شعبنا الى خلاصه ، بعد ان يحرره من كل العقد ، وبعد ان يجعله يثق بنفسه كما وثق هو بنفسه حتى الايمان باجتراح المعجزات .

أول اجتماع عام ناجح

كان اجتماع اول حزيران في قصر نعمة ثابت في بئر حسن ، اول اجتماع عام ناجح شاهدنا خلاله ميلاد الحزب في الجماعة القومية بعد ان كنا نشهد ميلاده في الافراد ، في

الاعضاء ، في مختلف مديرياتهم . ان العدد الكبير الذي حضر ، كان مدهشاً بحسن تنظيمه ، كأنما كان كل واحد خريج مدرسة عسكرية . وقفة وانضباطاً وحذراً وترابطاً وتضامناً ، ثم محبة بين مختلف الرفقاء الحاضرين ، يتجانسون نون ان يعرف واحدهم اسم الاخر ، فكأنما الواحد كان الكل والكل كان الواحد . ووحدة العقيدة ووحدة الارادة انشأ بيننا وحدة الروح ، فأحسسنا ان الحزب وقف على رجليه بعد ان تكون في مخاض عسير ، ثم انه صار قادراً على بدء مسيرته عبر الزمن الطويل ، عبر الطريق الشاق ، عبر التضحيات والآلام والصبر والاحتمال .

الا ان ذلك القصر ، بعد الكوخ في رأس بيروت ، كان بيت الحزب وبيت كل واحد من الحزب ، لقد استطاع الرئيس نعمة وهو كبير اخوته ان ينفخ في البيت كله ، رغم المخاوف والقلق ، محبة القوميين وتحمل كل اثقال الاجتماعات ومخاطرها .

وكان مجلس العمدة ينعقد احياناً في ذلك القصر . وكانت المنفذيات وحتى المديريات القريبة تعقد فيه اجتماعاتها . هنالك ادخل الاستاذ محسن سليم الذي كان من أوائل رفقائنا بعد ظهور الحزب . وهناك كانت تتم اللقاءات مع المرشحين للدخول متى كانوا من الذين يؤخنون بالمظاهر .

عندما اضطر سعادة ، بعد صبر ومجاهدة للنفس ، ان يطرد نعمة ثابت في أب 1947 ، قال لي - وكان يعرف محبتي لنعمة - : « لقد خسرناه ، لكنه جزء من تاريخ حزبنا لا يمكن الا ان نسجله ونذكره بالخير » .

الزعيم الاب والصديق والرفيق

بعد ذلك الاجتماع ، التقيت المعلم ، وفاتحته بأمر :

لماذا تأخر عن الاجتماع ، ولماذا غادره على عجل ..

قال لي سعادة : الزعيم يدخل على الرفقاء وعلى مقابليه ، لا يدخلون هم عليه . القاعدة هي المحافظة على هبة السلطة .. اما لماذا غادرت باكراً ، فلكي تبقى صورتني كزعيم للحزب هي الراسخة في قلوب القوميين ، لا صورتني كإنسان هي الراسخة في قلوب القوميين ، لا صورتني كإنسان يمازحهم ويسايرهم . في اجتماع رسمي ، كاجتماع اول حزيران ، كان علي ان أبدأ تقليداً جديداً للاجتماعات العامة الرسمية . الزعيم أب وصديق ورفيق لكل القوميين الاجتماعيين ولكن في المجالس والاجتماعات الرسمية يجب ان يتصرف كقائدهم .

لهؤلاء الذين يعتقدون ان سعادة كان يتعالى على رفقاءه ومواطنيه ، اقول - من بعد محاورته على اثر اجتماع اول حزيران - ان سعادة الانسان كان متواضعا ومحبا وظريفا ولطيفا ، ولكن كزعيم للحزب كان زعيما ... كان يمارس صلاحياته في الشكل وفي المضمون بكل ما تفرضه الممارسة من وقار وهيبة وحزم ودقة ومحاسبة . كنا نحبه حتى العبادة ولكننا كنا نخشاه . لم يكن يوفر التقرير والتأنيب ، اذا كنا نستحق تقريبا وتأنيا . الذي كان يسمع من الزعيم كلمة ثناء كان كمن يقع على كنز ! كلمة ثناء من سعادة كانت تعني لنا وساما نعلقه على صدرنا .

اما الصورة المأخوذة لي ولنعمة ثابت على يمين الزعيم وشماله ، فقد اخذت في ذلك الاجتماع بالذات .

نشرتها سنة 1937 مجلة الاخوين مخلوف « لبنان والشرق الاذنى » التي لا تزال تصدر باللغة الفرنسية لكي تغمز من قناة الحزب ، متصورة ان الزوبعة هي نسخة طبق الاصل عن الصليب المعقوف الهتلري . سبق وألحت الى ان الزوبعة عدا عن معناها العاصف في جرف كل المتالب والمفاسد ، في عملية التغيير التي تعتمزمها النهضة القومية ، هي لقاء الصليب بالهلال ، رمزا لانصهار كل الطوائف المسيحية والمحمدية في الوحدة القومية والاخاء القومي .

لم تؤخذ هذه الصورة بعد الاجتماع ، بل في الوقت الذي كان سعادة واقفا يلقي خطابه التاريخي ، خطاب التأسيس . يلاحظ ان على الطاولة الاوراق التي كتب خطابه عليها ، كما يلاحظ انه في اللباس الرسمي للحزب الذي لم يستعمله الا بعض افراد منا ، والذي استعمله الزعيم في مناسبات قليلة جدا . يلاحظ من الصورة ان شعري كان حقا منبوشا فيما كان نعمة ثابت مثال الاناقة وحسن الهندام .

ذكريات عن مرحلة التأسيس

لا يجوز ان نطوي المرحلة السرية من التأسيس دون ان نذكر بعض المناضلين الاحياء او الذين طوهم الموت الجسدي والذين سيظلون في مسيرة هذه النهضة ما دامت مسيرتها مستمرة وصاعدة . لنذكر من نتذكرهم على الاقل .

من رومية المتن برز اسمان هما الرفيقان جورج حنكش وعبو زينون . انا كعميد للاذاعة اصطحبت جورج حنكش الى مكتب المحامي الاستاذ جورج عقل - الذي ظل مدة طويلة مستشارا قانونيا لنقابة السواقين - وكان الرفيق جورج قد اعده في مقابلات اولية لتقبل الفكرة السورية القومية . تمت المقابلة في مكتبه على ساحة البرج ، محل سينما اوبرا حاليا . ولقد انسنا نحن الاثنين ان في حديث الاستاذ عقل وطنية صادقة وصفاء نفسيا واضحا ، فعالجناه حتى اقنعناه بلقاء مع سعادة . وكان اللقاء في دار آل الحداد في شارع جان دارك ، في بناية لا تزال الى الان قائمة .. استمر الحوار ما يقارب الساعتين . كان موقع جورج عقل قوميا عربيا الى جانب استقلالية لبنانية . وكان موقع سعادة في القومية السورية ونشوء الامم . انتهى اللقاء بون نتيجة حاسمة . جورج عقل كان قد اختار طريقه وتمترس وراء الافكار الراجحة آنذاك .

وجورج حنكش كان ولا يزال حركة دائمة . مهما تكن ثقافته محبوبة ، الا ان اخلاصه للحزب ظل الى يومنا هذا مطلقا ، انه من الذين استطيع ان اضرب بهم المثل على المثابرة والصمود .

وفيكيتور اسعد من اوائل العاملين .. في المرحلة التأسيسية .

والمحامي عادل عيتاني الذي توفي باكرا بنوبة قلبية .

ويأتي هنا اسم مأمون آياس الذي لعب دورا رئيسيا في هذه المرحلة بحيث اصبح وكيل عميد المالية وقد انتج انتاجا مشكورا في منفذية بيروت اولا .

وان واجب الوفاء يقضي بأن نسجل الفضل الاكبر لآل بطرس المعلوف ، ام فخري

وفخري المعلوف ورشدي وحلمي وفايزة وفوزي ، الذين كان بيتهم في تلك الايام العصبية وعلى أثر اقتناع فخري بالعقيدة بيت الحزب كله ، ندلف اليه في اية ساعة ، فنجد مأوى وطعاما ومحبة ولهفة وحنانا . كان البيت بيت الايمان القومي .

هناك عدد من الوقائع تستحق التكوين عن عهد التأسيس لان لها مداليل في سياق الحياة الحزبية .
الحادثة الاولى :

سنة 1935 كنت اتحدث مع احد رفقاء طرابلس في حانوته الكائن قرب مقهى فهميم على التل الفقيد الرفيق امين الجنوب . كنا نتحدث عن المجاهد الوطني عبد الحميد كرامي . في مطلع هذه الذكريات كتبت كيف اني بدأت حياتي النضالية قبل انتمائي القومي على خطاه . كان رأيي في الحديث عنه اعجابا وثناء . كان رأي الرفيق الطرابلسي مناقضا لرأيي . وقد لفتني (لا تنس اني كنت عميد الاذاعة) الى منع رجال الدين من التدخل في شؤون السياسة والقضاء القوميين . فاجبته : اني بصفتي الشخصية اقدس عبد الحميد كرامي ، وبصفتي قوميا اجتماعيا ، اجارب تدخله في شؤون السياسة . كان يومذاك مفتي طرابلس .

فكتب رسالة الى الزعيم . استدعاني وفاتحني في الموضوع وكانت النتيجة الاتفاق على اصدار تعميم على القوميين الاجتماعيين : بأن ليس لاي قومي اجتماعي رأيان وموقفان . ان القومي الاجتماعي ملزم برأي الحزب وموقف الحزب . رأي الحزب هو رأيه وموقف الحزب هو موقفه .

الحادثة الثانية :

كان المحامي عبد الله حريكي ، رفيق صباي كالعميد جريج تماما ، ولكن كان الانسجام بيننا مفقودا الى حد بعيد . دخل الحزب في المرحلة السرية (هو اليوم عضو في الحزب الشيوعي) . تلاقينا في بيترومين ، في بيت الرفيق الياس موسى النجار . اختلفنا - كالمعتاد - على أحد المفاهيم القومية وعلى بعض الشؤون التنفيذية . بعد ان احتدم الجدل ، جلست الى طاولة صغيرة وكتبت قرارا بموضوع الجدل . وسلمته الى الرفيق عبد الله حريكي . رفض القرار وتمرد .

عدت الى بيروت وعرضت الامر على المعلم . كان الحق في جانبي . وكان عبد الله حريكي مدانا . لا انكر ماذا اتخذ بحقه من تدابير . انما انكر ان مقامه في صفوفنا لم يطل . لقد اعتنق عقيدة اخرى وانتمى الى حزب آخر . تحاربنا طويلا ، ونحن اليوم في جبهة واحدة نأمل ان تتواصى بالخير ، وان يتكامل فكرا وممارسة ، لدحر القوى

الرجعية والانعزالية ، وبناء لبنان التقدمي الجديد .

الحادثة الثالثة :

قال لي المعلم : ما كل خطيب يصلح عميدا للاذاعة . خطباء النهضة هم اقدر من سواهم ان يكونوا الدعاة والمذيعين . عميد الاذاعة يجب ان يكون واعيا نفسية الجماهير ، ان يكون مخططا واداريا وموجها . وان يكون الى ذلك ملما بفن قائم بذاته هو الفن الاذاعي . هذا الى جانب ثقافة عامة واسعة تمكنه من تمثيل الحزب في النشاطات الفكرية والاعلامية على كل صعيد ومستوى .

الحادثة الرابعة :

في خلوة مع الرفيق شفيق جرداق ، نقل الي شيئا عن سعادة في الحرب . اخبرني انه جاع وانه كان يضع تحت زناره حجارة ليشد على بطنه فينسى الجوع . كما اخبرني انه كان يقعد بنفسه على كرسي الكندرجي ويدق المسامير في حذائه على سدانه ليوفر الدريهمات التي كان يمكن ان يطلبها منه لو قام هو بدورها .

والى ذلك ، اخبرني عن مروءته ومجازفته . كان يقود فريقا من شباب جيله الى اعالي سنين المكسو بالثلوج ، اكثرهم من الشوير وعين السنديانة . يربطهم - هو وابن عمته وديع في الطليعة - بحبل طويل ، ويتسلق بهم الى الاعالي .

الحادثة الخامسة :

كنا لانزال في المنزل الكوخي في رأس بيروت . شارع المقدسي اليوم . وكنا منهمكين في ادخال احد الاعضاء الجدد . بعضنا ينتظر في الغرفة الخارجية ويراقب . فجأة رأينا شرطين يعبران الممر من شارع جان دارك باتجاه كوخنا . انذرنا سعادة. خرج الجميع الى الغرفة الخارجية ورحنا ندخن ونتحدث بصورة عادية ، وعيوننا تتلفت من الباب او النافذة الى الشرطين .

خرج الزعيم وخرجت معه الى الفسحة الضيقة امام المدخل التي كانت تشكل شبه شرفة . الى ان اقترب منا الشرطيان ونحن في حذر وترقب وصمت . نزل سعادة الى الطريق ، وفجأة هجم على احد الشرطين ملهوبا ، وعانقه وهو يقول : شكيب ، شكيب ، ما الذي اتى بك الى هنا . متى اصبحت شرطيا . ودعاهما إلى الكوخ ونحن في دهشة وحيرة . وبدأ التعارف .

سعادة - الشيخ شكيب عبد الملك رفيقي في مدرسة برمانا ايام الحرب . شكيب رفيق الصبا .. شكيب صديقي وعزيزي .

شكيب عبد الملك : وهذا زميلي السيد جورج فرح من حامات . كلاهما في نورية
كلاهما من عناصر مخفر حبيش .
ليس في هذه الحادثة من طريف . الطريف ان شكيب عبد الملك وجورج فرح دهشا
بعد اربعة اشهر عندما علما ان ذلك المكان المتواضع كان الوكر الذي نشأ فيه سرا
الحزب السوري القومي اول حزب تقدمي في الشرق العربي !

في السجن ليلة عسي

كنت قد عينت موعد عرسي في بتعبورة - الكورة يوم 17 تشرين الثاني 1935 ودعوت الاقربين والاصدقاء الخالص لحضوره . وقد كلفنا سيادة المطران ابيفانوس زائد بترؤس المراسم الدينية . المطران ابيفانوس كان مع نخبة من رجال الطائفة الارثوذكسية - خاصة في طرابلس يقوبون ثورة على الرئاسة الروحية (البطريرك الطحان آنذاك) بانشاء كنيسة ارثوذكسية مستقلة . طلبت من سعادة ان يكون شاهد الاكليل ، (أي الاشبين) فلم يمانع ، وان يكن قبل بامتعاض ، فهو لم يكن قادرا ان يضيع وقته في مثل هذه (المجاملات) الاجتماعية .

توافقنا ان اشترى من ميزانيتي المتواضعة للعرس (25 ليرة سورية فقط لا غير) باقة زهر بيضاء اصطناعية ليقدمها لي وللعروس . كنت متاكدا انه لا يملك مالا لاكثر من المآكل والملبس والسكن . لم يكن يملك مالا لترف الهدايا . وبالفعل اشتريت تلك الباقة وسلمني بطاقة باسمه مع كلمة تهنئة شكلتها بالباقة على امل ان احملها اليه بعد ظهر نهار السبت في 16 تشرين الثاني ليقدمها بدوره للعروس في حفلة الزفاف . ولكي لا يكون عرسي مضيعة لوقته الثمين في تلك المرحلة الدقيقة من التأسيس ، قرر ان يعقد اجتماعا لرفقاء طرابلس في الزاهرية ، في بيت الرفيقة نجلا معتوق حداد على الارجح او بيت الرفيق مصطفى خالد المقدم .

كنت اسعد البشر في ذلك السبت من تشرين الثاني ، بعد اليتيم والحرمان والوحدة ، بعد ان ماتت امي وابي غائب في جزيرة كواراسوا وكأنه مات هو أيضا ، اصبحت الان على ابواب الفرج والفرح معا ، فقد بعث قسما من أملاكي في يده الكورة بمئة ليرة ذهبية (تساوي اليوم نحو المليون ليرة لبنانية) واثتت منزلا في ملك الاستاذ جميل الحسامي . وراء المستشفى العسكري الفرنسي (السفارة الفرنسية اليوم) . اليتيم انتهى الى غير رجعة ، والفرحة غدا في 17 تشرين الثاني ، فرحة العمر بالانصهار الكلي بالشطر الاخر من الوجود على وهج حب كان جميلا بقدر ما كان عنيفا وعذريا وطيورا ..

وقد اكتملت الفرحة بأن سعادة نفسه الذي كان يعرفه القوميون فقط ، سيكون شاهد عرسى ! شرف واعتزاز لي ان يبارك افراحي ، بعد طول اصطبار وطويل حرمان ، الرجل الذي اشرف على ولايتي الروحية وان يكن لم يوافق على خطبتي قبل اشهر اذ قال لي وانا ازف اليه البشرى : « لقد استعجلت . خسرنك » .

كنت صبيحة ذلك النهار ، 16 تشرين الثاني ، امشي في شوارع المعرض وويغان والنبسي ، كأنما اطير . ما كنت اعرف كيف سينتهي ذلك النهار الطويل ، لالقي عروسي في ثوب الاكليل الابيض . وكيف احملها على جناحي وانقلها الى قصور احلامي وقصائدي ! ..

الزعيم في السجن

كنت في متجر لال كرم ، مقابل محلات أبي راشد الشهيرة على زاوية المعرض، وفجأة يطل علي الرفيق عادل عيتاني - المحامي الذي فقدناه باكرا - وكان كالح الوجه مهرولا ، ويقول لي : ماذا تفعل هنا ، الزعيم في السجن ! ..
يا للهول ، ارتجفت فرائصي ، وكادت تقع من يدي الكفوف البيضاء وربطة العنق السوداء ، والقميص الابيض المنشي ، ومحرمة الحرير ، التي كنت ابتعتها لتوي من متاجر المنطقة الخضراء (اية خضراء هي الان في سنة 1976 بعد حوادث الدمار والخراب والحريق والنهب والسلب !) .

قلت للرفيق عادل ، هيا بنا الى مركز الحزب ، لنقف على الحقيقة . كانت سرية الحزب ضمن اسوار من اليقظة والحذر والرهبية . ما خطر ببالي فعلا ان الحزب انفضح . خامرني شك ان يكون الزعيم تعرض لسوء فدافع عن نفسه بقبضة يده الحديدية ! ..

مع ان المسافة قريبة ، شعرت ان قدمي لن تحملاني بسهولة . أثرت ان اركب سيارة تاكسي ، انطلقت بنا ، انا وعادلُ برمشة عين الى الشركة السورية التجارية في شارع فوش . لا تزال البناية الى اليوم قائمة ولا يزال فيها فندق الامبريال الذي كان في ذلك الزمان .

قلت لسائق التاكسي الذي كنت اعرفه ان ينتظرننا . ورحت اركض وعادل يلحق بي الى الشركة - المركز . صعدت السلم قفزا . وجدت شرطيا على المدخل ، لم ابه له ولا به اكثرثت . عادل كان اكثرمني روية وحكمة . شاهد الشرطي ، فلم يدخل ورائي . اكمل صعود السلم الى فندق الامبريال ونجا بنفسه .

فوجئت مفاجأة اخرى ، فالمكان مكتظ بوجوه الرفقاء الذين اعرف اكثرهم ، وهم واجمون . احسست بالخطر ، وحاولت التمويه . في نفس الطابق شركة فوزي واميل عازار للاستيراد والتصدير . انا وكيلهما العام في الحمامة . تحدثت اليهما ، وكنت مديونا لهما ببعض المال فهما ساعداني على تأمين نفقات العرس . ثم انصرفت احاول الخلاص ولكن بعد ان دخلت الحمام واحرقت كل ورقة حزبية في جيبى ... قال الشرطي الرابض على الباب الخارجي : « ممنوع الخروج » .

قلت : انت لا تعرفني . انا المحامي عبد الله قبرصي ، كنت في معرض استشارة حقوقية عند موكلي آل عازار وانا مضطر للعودة فورا الى مكنتي ومن ثم الى قصر العدل .

قال : لا يمكن ان أخالف الاوامر .

قلت : ولكنك تتحمل مسؤولية كبرى . فأنا محام .

قال : من تكن فلتكن . انا انفذ الاوامر ...

فانصعت مغلوبا مقهورا . لم تجدني الحيلة نفعا ... لقد علقت في الفخ والافلات مستحيل . الطائر الذي كنته صار طائرا بلا جناح ...

لحظات واذا بمأمون اياس في الفخ أيضا . ولحظات اخرى تمر ، فاذا برجل بدين ، يلبس قبعة اوربية ، مبعثر الهندام ، يتصدى لمأمون عند دخوله .

– من تكون يا استاذ ؟

– انا مأمون اياس .

– انت توقع بالحبر الاخضر !

– اجل بالحبر الاخضر اوقع .. كان مأمون وكيلا لعميد المالية في عهد الحزب السري .

وجاء دوري ،

قال المفوض العام الشيخ اسكندر الدحداح الذي عرفنا باسمه – بكل تهذيب :

– وانت من تكون يا استاذ ؟

– انا المحامي عبد الله قبرصي شددت على كلمة محامي ..

تراجع المفوض خطوة الى الوراء ، رفع قبعته بكل احترام وانحنى قليلا وقال لي جادا وساخرًا معا :

– لي الشرف ان احيي المسيو غوبلز .. (اشارة الى اني عميد الاذاعة في الحزب مقابل وزير الدعاية الالماني غوبلز) ...

عرفت ان الامن العام وضع يده على الحزب . فقلت للمفوض :

– لا تطل بنا المقام هنا . انقلنا الى حيث تريد . لقد انكشف الحزب

فنزلنا معا مأمون وانا والمفوض فقط ، وركبنا التاكسي التي كانت لا تزال بالانتظار ، واتجهنا الى خان انطون بك ، مركز الامن العام الفرنسي ، الذي كنا في الطابق الذي يعلوه ، قد ادخلنا زكي النقاش ويوسف الدبس وسواهما ..
في الامن العام الفرنسي .

بوصفي محاميا كنت ازور السجناء في سجن القلعة وفي الرمل . اعرف السجنون من الخارج . واعرف السجناء من الخارج ايضا . لم اكن قرأت كتاب سيلفيو بالليكو « سجوني » . ولم اكن قرأت شيئا عن نظام السجن في لبنان ولا زرت سجنا واحدا .

دخلت الامن العام مع مأمون ، كأنا انا قادم من معركة فاشلة . كنت اشعر بالمرارة . بل كنت كالباني قصرا يشهد احتراقه وانهيائه . اشعر بأنني اعود الى يتم جديد ، نون ان اتصور كل الاهوال التي تنتظرني .. كان اختناقي الاول !

في السيارة ، لم ننطق بحرف . الكلمات كانت قد اختفت في اعماق حلوقنا المخنوقة . لم يبق امامنا الا اجترار الالم ولا اقول الندم .. لنقل الحقيقة . كان الخوف قد استولى علينا . كنا من حملة الشهادة الابتدائية في النضال ! ...

دخلنا الامن العام . قاعة كبيرة مفتوحة من جهة الشرق على صالة اخرى . تماما كهندسة البيوت الحديثة ، صالون كبير مفتوح على غرفة طعام . بين الغرفتين سد خشبي ، يحول نون تداخل الغرفتين ، ولكنه لا يمنع التقابل بين الجالسين فيهما ...

القاعة الكبيرة يشغلها السجناء الجدد ، نعمة ثابت ، زكي النقاش ، جورج صليبي ، فيكتور اسعد ، فؤاد خوري .. اذكر هؤلاء لانني لا اتذكر سواهم ..

اندهشت ، ان الرفقاء السجناء الجدد ، غير هيايين . يضحكون ، يثرثرون . هبوا لاستقبالنا ضيفين عزيزين . وراحت النكات تترى . الاهوال تبخرت الى نكات . يا للشباب المستهزىء بكل المصاعب وكل الاهوال !

بعد الظهر احضر المعلم الى القاعة الثانية . كان مرهقا . عقدة رقبته نازلة عن موقعها . وجهه متجهم . وقفنا وادينا التحية . كنا نشعر اننا في مهب الريح . انه الزعيم المسؤول الاعلى . انه مسؤول اماننا عن انكشاف الحزب وعن هذه النهاية ، التي كنا نتصورها هوانا واضطهادا وتقتيلا .. هكذا خيل الينا في لحظات اللقاء الاولى . هكذا كنا نفكر . هكذا كنا نتصور . لم نكن بعد قد تعوينا على مواجهة الواقع برجولة وفروسية . كنا الى حد ما مسحوقين ، نحلم بالبطولة ولا نمارسها ... لم نكن على مستوى الصدمة .

هذه حقيقة يجب ان تكون جلية لنعرف كيف تربينا في المعاناة والتجربة .. على الطريق الطويل الشاق الذي سرنا على اشواكه هذه السنوات الطوال ... اكتملت تربيتنا تقولنت نفوسنا . صرنا في عناق دائم مع البطولة والصمود ... اما في ذلك اليوم من تشرين الثاني اكرر ان البطولة كانت عندنا تصورا لا حقيقة . وحوالي الثالثة بعد الظهر راح احد الشرطيين ، (قيل لي يومئذ انه من الدامور) يتهكم على الزعيم . وقف قبالة وتوجه الينا ، وقال : هذا الزعيم !؟ وقلب شفتيه ..

فاذا بالرفيق الدكتور جورج صليبي ، وكان لا يزال طالبا ، في الصف النهائي في الجامعة الاميركية ، يقفز من طرف القاعة الجنوبي ، هاجما على الشرطي مهيدا :

– احترم الزعيم والا ...

وقفنا كلنا في حالة تأهب .

الشرطي تراجع :

– اعتذر ، اعتذر لم اقصد شيئا . نحن اخوان يا شباب !

وانتهى الحادث .

ملكنا روعنا بسرعة . موقف جورج صليبي كان موقف القومي الشجاع ...

بدأ سعادة يعلمنا .. يعيد علينا ما قاله لمستجوبيه من رجال الامن العام ، لم نكن نعلم بعد كيف القي عليه القبض ولا ماذا صودر عنده من اوراق الحزب ! ... سعادة كان يقول : نحن حزب ثقافي : نحن نهضة تؤمن بوحدة سوريا الطبيعية .

قد لا تكون هذه الكلمات بالذات . الا انها تتضمن اتجاها .. ان نظمئن الفرنسيين اننا ثورة فكرية اكثر مما نحن ثورة بالسلاح .

حوالي الساعة الثالثة والربع بعد الظهر ، جاعنا المفتش اسكندر الدحداح مرة
ثانية . وقف عند عتبة الباب وقال لنا بلهجة صارمة :

– لقد صدرت من قاضي التحقيق مذكرات توقيف بحق كل واحد منكم . لا « يحاولن
احد تخطي هذا الباب . الشرطة تلقت اوامر باطلاق النار على كل من يخالف هذه
التعليمات عملا بنصوص القانون » .

شريت حليب السباع بعد حادث الدكتور صليبي ، فوقفتم متتمرا ثائرا وقلت للمفتش
الدحداح :

– « كفى تهدينا بالقانون ، فنحن نفهم القانون » .

فضحك الشيخ الدحداح ملاء شذقيه وقال :

– « لو كنت تفهم القانون يا استاذ ما كنت هنا » ...

فضحكت وضحك الرفقاء وابتسم الزعيم الذي كان لا يزال قبالتنا يزرع الغرفة جيئة
وذهوبا ، غيوم في عينيه وغيوم على وجهه .

وجاء عدد من رجال الشرطة والامن العام ، فوزعنا الدحداح عليهم ، ليرافقوا كل
واحد منا الى داره . فكان من نصيبي المفوض سلامة العازوري .

للمرة الثالثة او الرابعة اروي هذه الوقائع وانكر سلامة العازوري بالخير . منذ
عشرين سنة لم تقع عليه عيناى . ترك سلك الشرطة ثم وظيف في شركة الرفأ . أين هو
الان لا أدري . لقد رافقني الى المكتب وحاولت استعمال الهاتف فلم افلح . كانت
المخابرات تستغرق وقتا طويلا . شاهدت في المكتب الرفيق السابق الاديب الشاعر
جورج الياس سركييس (قلت سابقا انه كان لفترة من الزمن في مرحلة التأسيس مرافقا
لسعادة) . فسارعت الى كتابة رسالة الى عروسي ، لأنبئها بالقاء القبض علي ، وتأجيل
حفلة العرس الى اجل غير مسمى . قلت لها : كوني رجلا في فتاة . (الرسالة منشورة
في عدد كانون الثاني – شباط من سنة 1936 في مجلة المعرض لصاحبها المغفور له
ميشال زكور) .

فتش المفوض عازوري مكتبي سطحيا . ثم اصطحبني مع شرطيين الى منزلي عند
محطة الديك ، وراء المستشفى العسكري الفرنسي قديما ، وهناك امر الشرطيين
بحراسة المدخل ، وراح معي يتظاهر بالتطواف على الغرف ونبش الاوراق . في الحقيقة

لم يكن عندي شيء يذكر نظم محضرا ووقع مع الشرطيين ووقعت وانصرفنا . « لم نعثر على أي شيء ممنوع » ... هكذا ختم المحضر !..

لم يكن ممنوعا في الواقع الا انا ... وانا ممنوع من ممارسة حقوقي السياسية في حرية الرأي والمعتقد . هكذا كنا ايام الانتداب . هكذا عاشت الشعوب المغلوبة على امرها تحت نير الاستعمار والعبودية .

من السجن الى نقابة المحامين

حوالي الساعة الخامسة ، وضعنا نحن العمد والباقون من الاعضاء « الخطرين » في شاحنة والزعيم في أخرى ، باتجاه قصر العدل القديم تجاه السراي . كان هذا القصر الى ساعات خلت ميداني ، فالمحامي لا يشعر انه في سريه الا عندما يرتدي « روبه » وينتقل من قوس محكمة الى قوس أخرى مرافعا مدافعا . انه كالفارس على صهوة حصانه . اما تلك الليلة ، فدخلت قصر العدل والقيد في يدي واعلامي منكسة ! وادخلت مع الرفقاء الى النظارة حيث الروائح الكريهة والرطوبة والظلام . اما الزعيم فسيق الى غرفة المحقق توا . وكان اسمه تمبال . قيل انه يهودي وثبت ذلك فيما بعد . وكان كاتبه الاستاذ جورج بويز ثم الاستاذ فريد حبيب (الذي صار فيما بعد مديرا للحوال الشخصية ثم سفيرا في البرازيل وفنزويلا والعراق) .

كان الاستجواب ذلك المساء ، بالنسبة لنا نحن معاونين ، شكليا . لم يجر معنا تحقيق بالمعنى الصحيح . التحقيق المطول والمفصل جرى مع ساعده وحده وقد تحمل كل المسؤولين نون تردد .

اما بالنسبة لي ، ورغم اني محام اعرف المحقق جيدا ، فقد استغرقت ان ما طرح علي من اسئلة لم يتجاوز « وظيفتي » في الحزب ، وتاريخ انتمائي .

لم يدم توقيفنا في النظارة اكثر من ساعتين . حوالي الثامنة سُحنا في سيارة صفراء مقيدين بالسلاسل ، الى السجن الكبير ...

كان أمر السجن النقيب محمد جواد دبوب وكان رجال الدرك ينتظروننا على أحر من الجمر . سبقتنا اخبارنا . من هم هؤلاء المحررون ؟ ما وقعنا على معجبين في بادىء الامر بل على مستهزئين !... كان بنو قومنا قد استكانوا ... لقد الفوا القيود ودجنوا ... و « المحررون » كانوا يقابلون بالازدراء والاستهزاء !...

وبداً تفتيشنا وتشليحنا بدقة متناهية . خلعنا كل ملابسنا .. ثم ارتديناها بسرعة . لم يعثر معنا على شيء ممنوع ، اللهم الا مع الزعيم فقد وجدوا قرشا سوريا ونصف القرش !... المال كان يؤخذ كثيرا او قليلا الى صندوق الامانات .

الاقلام ، الحزامات ، ربطات الرقبة ، وكل ما يمكن ان يستعمل للانتحار او للضرب والجرح محظورة .

هين كل هذا ...

ولكن الصعب ، هو الدخول الى عالم السجناء ، الى الخشخاشات المكلسة ، الى بؤر
النفائيات البشرية ومهانات الانسان !...
وصلنا الى البناية الثالثة وفتحت لنا البوابة ، فطاعتنا وجوه الحيوانات المدججة ...
فتراجعت أنا الى الوراء وسددت أنفي ...

قلت للدركي : أهذا هو سجنكم ؟ أين الاسرة ، أين الفرش والاعطية ؟...

قال لي الدركي : هل تصورت يا استاذ انك قادم الى فندق ؟ هذا هو سجن الرمل .
وقفنا دقائق لينقل بعض السجناء الى غرفة اخرى ففتسع لنا .. كان بين هؤلاء
السجناء المنقول سجين محبوب على ما يبدو وقبضاي اسمه عرب . هب السجناء
يودعونه :

- مع السلامة يا عرب . مع السلامة يا عرب .

كنت لا ازال اقف داخل الغرفة اتفرس بالوجوه التي راحت تلتهمنا التهاما ...
يتساءلون همسا : من هم هؤلاء ؟

دقائق وصار لنا مكان ... ما استقبلنا زملائنا الجدد بشراسة بل بكياسة . نحن
حكام المستقبل !... هكذا خيل اليهم !...

بقي في الغرفة « قبضاي » آخر يدعى أبو حطب . بدأ يوزع الاوامر لكي يفسح لنا
المجال لد الاحرمة التي أخذناها من الادارة .

لكن الرفقاء في الخارج ما أهملونا .. جاءتنا فرشة ووسادة .. أه لو كانت هناك آلة
تصوير ، اذن لخرجت لنا صورة مثيرة . رؤوس على الفراش وارجل على الاحرمة . اما
الزعيم فقد نام والى جانبه كتب « كانت » بالالمانية وكليية ودمنة وصابونة « لايف
بوي » ومنشفة ومعجون اسنان ايبانا .

لم يكن بالامكان الرقاد بسهولة .. الرعد في الخارج ، والرعد في نفوسنا القلقة
وشخير زملائنا السجناء ... والروائح السامة في انوفنا .. الرعد يشتد والمطر يضرب
نوافذ السجن الصغيرة . والصواعق تضرب الجبل والساحل .. نزلت احداها على سور
السجن فهدمت منه جانبا .. ونامت !...

ونمتا على الاحلام السود . كانت الليلة الاولى من ليالي الجلجلة من المشوار الطويل .
مشوار النضال والالم .. والتضحيات !... مشوار قهر النفس والجسد . مشوار
مقارعة المظالم والطغيان والارهاب . مشوار الاحرار يواجهون بالاعين البريئة مخازر
الاقوياء ...

استيقظنا بعد ان رقدنا بضع ساعات ، ونحن نحاول التقاط الانفاس !... تحلقنا
حول الزعيم وهو قابع في زاوية من الغرفة الكبيرة . عوضا عن ان نكون له عزاء كنا له
بلاء : هنا انكر الكلمات التي تلفظ بها زكي النقاش ، لم تكن قاسية ولكن كانت
جافة .

— لقد تبسطنا في العمل الحزبي اكثر من اللازم . لم تعد يا حضرة الزعيم نتيجة هذا التبسط قادرا على ضبط الرفقاء . ولا قادرا على ضبط السرية .

تأفف الزعيم واكفهر وجهه . لا انكر جوابه . ولكني اتصور انه دافع عن نفسه بقوة ، فهو ما كان يلين ولا يقبل التحدي ...

خطأي الذي لا اغتفره لنفسي — مع ان سعادة غفر — اني سكت حيث كان يجب ان اتكلم . هل يمكن ان نحمل الزعيم مسؤولية وشاية خائن ! من يستطيع ان يتقي الخيانة ؟ لا الدول العظمى استطاعت ولا الدول الصغرى ولا الاحزاب على اختلاف عقائدها وقواها

في امثالنا السائرة : كل سر جاوز الاثنين شاع . وقد كنا اصبحنا عشية دخولنا السجن بين الثمانماية والالف عضوا ...

المهم ، ان عنذر زكي النقاش ومن رأى رأيه كان في القلق الذي كان يساورنا جميعنا ، خاصة امثال ركي النقاش الذي لما يكن قدمر على زواجه الا اشهر قليلة ، وقد ترك في منزله زوجة فتية حاملا !

وكان الاهم في يومنا الثاني ، التعارف بيننا وبين وبين عالمنا الجديد .

السجناء — زملاؤنا الجدد — ليسوا من البشاعة بقدر ما كان السجن بشعا ، ابو حطب — شاويش الغرفة — مهرب حشيشة ، والآخرين بين متهم بالتزوير او الاحتيال او إساءة الامانة ، وبين متهم بالقتل والسلب والسرقة الموصوفة ، او نشال يستلب الناس محافظهم على قارة الطريق . كل هؤلاء يتآخون داخل الاسوار او يتشاجرون او يتشاكسون في ما بينهم . اما مع الضيوف مثلنا فيتحولون الى حملان وديعة . يتسابقون على خدمتنا وكسب رضانا ، اما حصولا على بعض المأكّل ، واما حصولا على الرضى والبركة .

باكرا جدا رحنا ندرس لغة السجن وتقاليده .

على كل من السجناء دور في تنظيف الغرفة (القاوش) . وقد سمح لنا الامر بصورة استثنائية ان نكلف احد السجناء لينوب عنا ...
لم نأكل ليلا ، ولكن كان بالامكان ان نطلب صباحا من دكان السجن بعض الجبنة او اللبنة والخبز ...

ولكن الطامة الكبرى كانت مجزرة شعرنا . امرنا بالتوجه الى الحلاقة فظننا خيرا . ولكن الخير كان شرا مستطيرا . يجب ان يجز شعرنا كما يجز شعر الغنم في مطالع الربيع . اعلنا الثورة. رفضنا المثول تحت مقص الحلاق . نحن موقوفون لا محكومون ، شعرنا لا يمس .

قلت فوق انني لم اكن اعرف قوانين السجن في لبنان . كنت اتصور ان المجرم

السياسي له قانون خاص اسوة بما يجري في اوروبا . ساء فآلي . لا نص في القانون اللبنياني على امتيازات للسياسيين ... والنقيب محمد جواد يحضر حاملا كل الخبث وكل الرياء ، فهو يريد ان يسايرنا ، وفي الوقت نفسه ان يحقرنا ، وحاملا بالوقت نفسه قانون السجون .

– اقرأ يا استاذ قبرصي . نريد ان نعلمك القانون في السجن . أين النص على « امتيازات » السجين السياسي ؟! ...

– رحنا أقرأ بسرعة ، واسفت فعلا ان أقع بين يدي محمد جواد ، فينتصر علمه الواسع على « جهلي الواسع » .

سألني الزعيم بعد أن قرأت : ما الخبر ؟ قلت نعامل كسائر السجناء . علينا ان ننصاع .
قال نحن نخضع للقانون .
وقدم رأسه للجزار ...

وما هي الا ساعة طويلة حتى كنا صلح الرؤوس ، يتطلع واحدنا الى الاخرين ويكاد يستلقي من الضحك ... أجل . عادت الينا قوتنا على الضحك في قلب خشخاشة الاحياء العفنة ! ...

لنا الحق « بالطلعة » مرتين في النهار ، اي بالخروج نصف ساعة الى ساحة داخلية ليس فيها الا ، لرطوبة والهواء . الشمس – شكرا لله – ممنوعة من دخول السجن صباحا ومساء ، لكي لا يبقى في القواويش الا العفن ... والجراثيم ! ... حرام ان تطهر الشمس قبور الاحياء الموتى ؟! ...

في الحادية عشرة نحن مجبرون – اذا كان طعامنا من السجن – ان نتناول « القروانة » ... لم نتناولها نحن لا ذلك اليوم ولا الايام التي تلت ، لان منظرها يثير الاشمئزاز والتقيؤ ... لم ينسنا الرفقاء في الخارج بل تدفقت علينا الماكل والملابس والاعطية الصوفية والفراش .

وكل سجين للسجين نسيب

الهدايا القادمة من الخارج تحمل رائحة الحرية ! – السجين في عالم السجناء – يتحول الى طفل كسيخ . كلمة ، العوبة ، ورقة صفراء ، اكلة مهما كانت رخيصة ، قادمة من الآخر ، توحى اليه السعادة ، وفي السجن ، كلمة سعادته لا توازيها الا الحرية ! ... لا يحلم السجين بشيء الا بالحرية . كل شيء بشع هو السجن . كل شيء

جميل هو الحرية !... .

وكل سجين للسجين نسيب . هنا في هذه الغرفة ، هذا القبر الواسع ، عالم الجرائم والاساخ والاطفال المقعدين ، نزول الالقاء والفوارق ، وتلغى الطبقات والمراتب . كلنا متساوون بالرغم من انوفنا . القروانة للجميع على السواء ، والجرائم للجميع على السواء . القانون لا يفرق بين سجين وآخر . الفوارق والطبقات لا تظهر الا من الخارج ، عندما يكون للسجين اهل واصدقاء ، او عندما يكون حزيبا مثلنا ، يرعاه رفقاؤه في العقيدة والجهاد .

كان تدفق الفرش والاعطية والمأكل ، دليلا على ان الصدمة لم تززع ايمان الرفقاء بالقضية . بل انه كان دليلا على العكس . ان الصدمة انما هزت النفوس ، وفعلت فعلها في الشعب ، اذ طلع من ليل اليأس الطويل ، امل طويل ، بأن هذه الامة السورية العربية لم تمت ، لم تدفن تحت مداسات العثمانيين ولا تحت حراب السنغاليين ، بل انها بالحزب السوري القومي ، قامت من قبر التاريخ ، لتشرق حضارة وعزا وقيما ، في بناء تاريخها الجديد .

الفرحة اذن فرحة منعشة . ولكن الفرحة لا تطول في عالم السجناء الفرحة طيف عابر ، وهم سائر ، لان الظلمة والجرائم والروائح الكريهة لا تتحول الى نور وعافية وعطور بين الجدران السوداء الا لحظات خاطفات ، كان ينسى السجين سجنه وينتقل الى عالم الخيال والتصور انتقالا حقيقيا ...

نعود اذن بعد تدفق الفراش والاعطية والمأكل ، كل الى زاويته الزعيم هادي ، بيتسم لنا وللزملاء الجدد . رحب الصدر ، كريم الطباع . لا يتلفظ بكلمة حتى اذا سأله سجين سؤالا بليدا او غبيا .

اكتمل العقد

أعود الى القول اني لم اكتب يوميات لا في السجن ولا خارجه . ما انكره عن ايام السجن ، انكره عن الايام الثمانية التي قضيتها بمجملها لا يوما يوما .

في اليوم الثالث كان قد اكتمل عقدنا ، فجاعنا صلاح لبكي وجورج حكيم وفؤاد مفرج ...

اما المهندس جورج ابراهيم حداد فقد سيق الى حبس الرمل دون المرور بالامن العام . كان معنا منذ الليلة الاولى .

في اليوم الرابع حدث حادث جلل . نادى المنادي من الشراقة : عبد الله قبرصي مستنطق ، يعني علي ان اتوجه الى المستنطق . هرولت الى لبس ثيابي فوق البيجاما . وفوق كل ذلك لبست معطفي . كان شعري قد حلق ، وعلي ان اغطي صلعتي ، فاستعرت طربوش العميد زكي نقاش ، فنزل الى تحت انني . سألت الزعيم اذا كان يوصيني شيئاً فأجاب نفيًا . لم يكن لدي وقت للضياع فقفزت الى الخارج بين قهقهات الرفقاء وتمنيات الزملاء الجدد ...

السجين كالغريق واليأس يتعلق بحبال الهواء .. ظننت وظن الجميع انها بداية الخلاص .

كان النقيب محمد جواد بوق ، بانتظاري في مكتب الادارة ، فأمر بوضع الكلبجات في يدي فرحت احتج . وراح يأتيني بقانون السجن ويقرأ المواد ... علمني محمد جواد قانون السجن لكثرة ما قرأه وكرر ، فصرت اختصاصيا ماهرا في معرفة نصوصه . قلت : اتخمتنا يا اخي بقوانين السجن ، اتخمتنا مرة واحدة بتساهلك وتفسير القانون تفسيراً ايجابياً انسانياً ؟ ...

تشدد اكثر ، وبعد ان عبس وتمتم ، ادار ظهره فركبت السيارة بين دركيين مقيدا وسرنا باتجاه قصر العدل . القيد في ما بعد ، في رحلاتنا الطويلة عبر السجون ، صار مصدر اعتزاز ومباهاة . في المرة الاولى وشعرت باذلال لان زملائي المحامين في قصر العدل واصدقائي القضاة سيرون يدي مكبلتين وشعر رأسي حليقا ...

كل ما كنت انتظره ، ان يحقق معي القاضي تمبال . وان اشاهد فريد حبيب او جورج بويز فافهم شيئاً عن الدنيا .. افهم شيئاً عن ردود الفعل بعد ظهور الحزب ! ... افهم شيئاً عن عالم الشمس والحرية ... والانسان !

ولكن حدث ما لم اكن اتوقع . ساقني الدركيان الى نقابة المحامين فصعدت الدرج مهرولا كمن يحاول الافلات من القيد . كنت قد خبأته تحت اكمام المعطف . فلحق بي الدركيان يطلبان الي التمهّل . فتمهلت مرغما ...

دقيقة وكنا في نقابة المحامين ... على الباب شاهدت المدعي العام نورلاك فقال لي : رأيت بأى مغطس غطستنا ...

قلت : ولكنني في السجن . وشتان بين المغطس وبين السجن .

وانطلقت الى الداخل .

بدأت وجوه الزملاء . لا أُلوي على تلك الوجوه . أريد ان أرى النقيب ...
ولكن المفاجأة كانت ان عروسي كانت في غرفة النقابة . هجمت اقبلها ملهوفاً
وهجمت تقبلني باكية شاكية . وسلمت على النقيب وهيئة النقابة : نجيب اللبس ،
وجان جليخ وغان تيان ، كان الثلاثة بانتظاري . رحلت اجلس الى جانب عروسي ،
فصاح بي النقيب :

– ليس الوقت وقت العروس ، تعال اشرح لنا قضيتك . ما هو هذا الحزب الذي
انخرطت فيه ؟ ما هي مبادئه ؟

رحلت ، باللغة الفرنسية ، اشرح المذهب القومي . اتلو دستور الايمان ، اكرر
المبادئ الأساسية والاصلاحية بما تيسر من فرنسية فجأة . وختمت : نحن حزب
يسعى لتحرير لبنان والشام وفلسطين . وتوحيد هذه المناطق في دولة حرة مستقلة ،
عصرية ، تقدمية .

فهب الاستاذ جان جليخ ، ولم يكن بعد قد صار نقيباً ، وقال لي غاضباً :

Minimizez Abdallah

أي خفف من غلوائك ، وبسط هذه العقيدة « الخيالية » وافهم قاضي التحقيق ان ما
قصدموه لم يكن الا عملاً صيانياً .

فانتفضت غاضباً بدوري :

– انا عميد الاذاعة في الحزب ، اتريدني ان اكون عميد اذاعة عند السلطة المنتهبة !

ان اكون عميد اذاعة ضد الحزب ؟ ...

الحزب جدي ، وعقيدته علمية وصحيحة ، وهو بنظرنا الحزب الذي يخلص بلادنا
من الانتداب ويضمن لها حياتها ويبعث امجادها من قبر التاريخ ... انه حزب الحرية
والاستقلال والتقدم . انه حزب النهضة !

كانت عروسي جورجيت بربر تنصت الي مندهشة . تقول لي بيديها وعينيها ان اسمع
ما ينصحك به النقيب . نريد ان نخلصك . لا يهمنا الحزب ولا القضية . يهمنا
استعادة الحبيب السجين .

قلت : لا يمكن ان اخلص الابشر ! لا يمكن ان اشوه حزبي وعقيدتي لانقذ نفسي
من السجن ! ...

لم نستطع ان نتحدث بلغة الحب المعسولة . كان هم الحبيبة استعادتي الى احضانها . كان خالها فاهيم وخالها ابراهيم معها . لقد منعتهما من النوم طوال ثلاثة ايام . اريد عبد الله . اريد عبد الله ! ...

قال لي جان تيان ، وكان سكرتير النقابة : سنعمل جهننا لاخلأ سبيلك بكفالة . ولكن لا اعدك بشيء ...

لم اكن اعرف مدى نفوذ النقابة ولا مدى تأثيرها على المفوضية العليا والقضاة الفرنسيين . كل ما اعرف ان النقيب نجيب النبس والاساتين جان تيان وجان جليخ كانوا من المقربين جدا الى القضاء المختلط ، كلهم يرافعون بالفرنسية افضل بكثير من العربية . كنت اقتفي خطاهم لاستمع الى مرافعاتهم واقتبس تعابيرهم واسلوبهم . كنت لا ازال اترجح ! ..

بعد المقابلة ورغم وعد الاستاذ جان تيان ، لم انتظر المعجزات . لم انتظر الفرغ القريب . ولكني تنشقت الهواء المطلق ، وتظهرت من عفونة السجن بنور الشمس وحرارتها المحيية ! ساعة خارج السجن تساوي للسجين مثلنا ، المترجح هو ايضا على احتمال السجن والصبر على المكار ، تساوي نزهة على بساط الريح ! ...

وقفت راجعا بالسلاسل الى الزريبة العفنة ، الى سجن الرمل وقيمي مليء بطعم القبلة من شفتي الحبيبة ، وانفي معطر بعطورها الباريسية . لم اعد انن بخفي حين ... لقاء مع النقابة ، قبلة طويلة ، وعد باخلاء سبيل ، واتصال مباشر بالحرية .. بالحياة ! ...

الذين اتوا الى السجن من الرفقاء الجدد ، نقلوا الينا اخبارا سارة . فؤاد مفرج مثلا نقل الينا ان رفعت زنتوت وعادل عيتاني وزكريا اللبابيدي وغيرهم عينوا انفسهم مجلس عمد ، - وزعموا انهم تلقوا مرسوما من الزعيم من داخل السجن - لكي لا يبقى الاعضاء في الخارج مبلبلين ضائعين واجفين . ضبط الرفقاء بهذا التصرف صفوف الاعضاء وشجعوهم وانطلقوا بهم في احياء بيروت يبشرون ويدعون للحزب . يجمعون التبرعات ، ينظمون ارسال الطعام الى السجناء ... يتصلون بالصحف .

الاطمئنان الرئيسي كان في هذه الاخبار السارة . كانت مخاوفنا الكبيرة من انهيار مفاجيء لصفوفنا الطرية تحت مطارق الانتداب ! ... تحت مطارق الصدمة المباغثة بانكشاف اسرارنا .

ولكن المخاوف تبذرت سريعا .

موجة من التأييد الشعبي عارمة . الاذاعات في العالم والصحافة الداخلية والعربية والعالمية ابرزت في صفحاتها الاولى اخبار الحزب واثنت على عقيدته وحسن تنظيمه ونشرت صورنا في اطارات كبيرة .

يمكنني الجزم ، ان اليوم الثالث في الزريبة العفنة ، في سجن الرمل كان آخر يوم من المخاض العسير .. كما ولدنا بانتمائنا الى الحزب ولادة جديدة ، ولدنا في السجن ولادة جديدة اخرى .

الصدمة الاولى التي بدأت قاصمة للظهر ، انتهت وكأنها تدفع بنا من عالم الى عالم . لقد احسنا ان النضال القومي ليس خطبا ولا نظريات ولا محاضرات ، انه بالنتيجة بذل وتضحيات واحتمال وصبر طويل . عرفنا ان المسيرة ليست على المروج الخضراء بقدر ما هي على دروب الشوك والجمر والقنابل .

المعلم نفسه كان يدخل السجن اول مرة . الفرق بيننا وبينه ، انه صاحب الرسالة ، المسؤول عنها ، المدرك ما ينتظره من آلام واوجاع ، ونحن المتصورون ان العمل السري سييوم الى الابد ، وان النضال لا يعدو ان يكون سعيا وتبشيرا وحوارا وخطبا ... واجتماعات تحت جنح الدجى ، وعطاء بعض المال الذي لا يفقر غنيا ولا يغني فقيرا . صحيح ان اكثرنا من حملة الشهادات الجامعية . وقد قرأنا التاريخ . وتعلمنا كيف ان الثورات صراع ودم ، وسجون و مناف ومشارد وحرمان واضطهاد وارهاب وتصفيات جسدية .. الا اننا وان قرأنا وان تعلمنا لم نكن بعد احتكنا بالواقع ، وتصدينا للمظالم وقارعناها وجاهدناها واكتوينا بنارها وصلبنا على جلاجلها ... وواجهنا تحدياتها بالعزيمة الصادقة والايامان الكبير .

في الخطوات الاولى ، تعثرنا ... تمللنا . تدمرنا . ضعفت نفوسنا . كدنا ان ننهار تحت وطأة التهم الموجهة الينا وهي اعتداء على سلامة الدولة الداخلية والخارجية . تصور بعضنا حبال المشنقة تلتف حول عنقه ! وترددت على افواهنا وفي ضمائرنا - وان لم نعلنها - كلمة اعدام واشغال شاقة مؤيدة ...

من هنا محاسبة بعضنا للزعيم على التبسط والنمو السريع ... ومن هنا المرارة التي احس بها المعلم ونحن نحاسبه كانه هو المسؤول عن الذي خان وأفشى اسرار الحزب وفضح امره ! ...

لم يحاسبنا سعادته على هذا التخازل الا في خطابه في أول آذار 1938 ... اما في السجن وبعده فقد تقبل منا هذا التخازل ، دون ان يعيره كبير التفات . كان عالما نفسانيا ، وكان يتصور ان الصدمة الاولى ستكون شديدة الوطء علينا ، فلا بأس اذا نحن تعثرنا وتخازلنا وتذمرنا .. المهم اننا انتصرنا على السجن ولو بعد ثلاثة ايام . وانتصرنا على الواشين بنا ، كما انتصرنا على الذين اعتقدوا ان الصدمة التي تلقيناها ستكون لنا النهاية !... الحزب افتضح امره ، واقتيد زعيمه واركانه الى السجن فالمحاكمة فالاحكام ، انن لن يكون هناك حزب سوري قومي بعد الان !... هكذا ظن الفرنسيون والمتفرنسون وعملاء الانتداب ... ظنوا اننا صبية وان الحزب ملهاة . فاذا نحن رجال والحزب قضية امة !

انتصرنا على الصدمة ، كان التحدي الاول للانتداب الفرنسي ولعملاء الانتداب وللعقلية العميلة السائدة في طول البلاد وعرضها . لقد شطبنا من القاموس : العين لا تقاوم المخرز . بلي قاومت اعيننا المخرز . بلي قدرنا ان نقهر الضعف . بلي قدرنا ان نكون في السجن اول عشاق الحرية تحت سماء لبنان !... بل اول أحرار عقائدين ، اصحاب قضية قومية واضحة وشاملة تحت سماء سوريا الطبيعية كلها ... اصحاب عقيدة واصحاب نظام فذ دقيق يضبط منا الكلمة والممارسة والتحرك .

واني لاتصور الان بعد ان تسنى لي زيارة سجن انساني في طوكيو - اليابان صيف 1974 ، ان الصدمة كانت تكون هينة ومحمولة لو لم يكن سجننا الاول في سجن الرمل ، الذي قال عنه العميد ريمون اده انه لا يصلح زريبة للحيوانات !...

فالسجن في البلدان الراقية - كما هو في رومية المتن حاليا - مدرسة ومصنع ومستشفى وفي الوقت نفسه بيت عقاب ! يشعر السجن فيه انه لا يزال من بني الانسان .

ذكرى ابرام الدستور الاولى في السجن

طبعاً كان النقيب محمد جواد هناك . يطبق علينا النظام بروحية الموظف الامين ، روحية الموظف جابار في رواية البؤساء لفيكتور هوغو Victor Hugo ، لكنه يحاول ان يؤانسنا بابتسامة – وان خبيثة احياناً – ويظل يحس اننا لسنا في السجن لسبب نبيء . يحس وان مرغماً اننا رجال قضية .

الحراس من رجال الدرك فتتان متناقضتان . فئة من فصيل محمد جواد لا تفهم الا العبودية للوظيفة . وفئة وطنية واعية بالبداية اننا سجناء سياسيون لا يجوز ان نعامل كالمجرمين العاديين من اصحاب السوابق او مرتكبي الجرائم الشائنة ...

اما السجناء – كما تكرت سابقاً – فقد كانوا يتبارون في خدمتنا . لقد حملوا عنا كل ضرائب السجن ، وعاملونا كضيوف مكرمين . بعضهم ظن اننا سنخرج من السجن حكاماً للبنان ، بيدنا الحل والربط ، وبالتالي بيدنا حق العفو عنهم ، واننا سنرد لهم حسن المعاملة ، عفواً عاماً شاملاً نبيض به السجون فلا يظل في لبنان سجن ولا سجين .. كما جرى في مطالع سنة 1976 اذ اخرج المقاتلون كل السجناء وهدم سجن الرمل البغيض !.

عشنا في السجن اشتراكين قوميين ، فما يصل الى احدنا كان ملكاً مشتركاً . اذا جلسنا الى الطعام عقدنا حلقة حول المعلم ، وانزلنا ما في الاكياس من خيرات ، واكلنا ونحن نتبادل النكات . ساعة الطعام للسجين كساعة الطلعة – اي النزهة – هي وقته المفضل . يعد الدقائق والثواني بانتظار « الطلعة » وانتظار الطعام – القروانة – .

عندما كان الزعيم ينزوي مؤثراً الانفراد والمطالعة والتأمل ، كنا نبتعد عنه ونتعلق حول فؤاد مفرج او صلاح لبكي او جورج حكيم ... او نعمة ثابت ومأمور أياس و جورج حداد .

نعمة ثابت لم يتخل عن اناقته في السجن وكذلك مأمون أياس . لو كان بالامكان استعمال الكرافات – ربطة العنق – لما تخلينا عنها . نعمة ومأمون – وخاصة نعمة –

من البرجوازية الانيقية المرفهة . واشهد هنا انهما رغم الرفاه والاناقة كانا في السجن من أفضلنا صمودا ومن اكثرنا مرحا . عبسة السجن الفاقد حريته واحلامه كانت تريض على جباهنا انا وزكي نقاش على وجه التخصيص ، بينما نعمة ومأمون والآخرين استطاعوا التغلب على العبوس والكمد والكبت . الطامة الكبرى بالنسبة لي ولزكي ، انه كان عريسا جديدا ، وانا تزوجت السجن عوضا عن خضبتي التي كانت تنتظرني في ثوب الزفاف ..

يوم الخميس في 21 تشرين الثاني كان يوما مشهودا . طلب الينا سعادة ان نعقد اجتماعا حافلا ، لتعيد الذكرى السنوية الاولى لابرام الدستور . صحيح انه صنف في كانون الثاني 1937 ، اما ابرامه ووضعه موضع التنفيذ فقد تم فعلا في 21 تشرين الثاني 1934 .

عقدنا جلسة ، اقمنا شبه حلقة حول المعلم . وحوالي الساعة الخامسة وقفنا وادينا التحية وراح سعادة يحدثنا عن قيمة الدستور عقيدة ونظاما . وعن وجوب الاحتفال بعيد ابرام الدستور لانه الشرعة التي كرست تأسيس الحزب الفعلي .

ولكننا في السياق ، عوضا عن عيد الدستور ، شرعنا تقليدا حزبيا اخر باقامة الاحتفال في عيد تأسيس الحزب في 16 تشرين الثاني من كل عام ، لانه اكثر شمولا ، بحيث يغطي التأسيس بحد ذاته كيوم تاريخي وابرام الدستور الذي هو حدث حزبي بالغ الاهمية ايضا .

سراقيا في السجن

من الاسئلة التي كانت تطرح على المعلم في السجن وقبله ، لماذا لا يكون العراق جزءا من الامة السورية ؟ طرح هذا السؤال كما اسلفنا القول المهندس مجد الدين الجابري - الذي قيل لي انه انتمى الى الحزب فيما بعد ، وطرحه الكثيرون غيره ، فكان جواب سعادة الدائم - في ذلك الزمان - از الصحراء السورية حد طبيعي فاصل بين بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين ...

ولكن تصور قيام دولة سورية - عراقية كان واردا عند سعادته بدليل اننا عقدنا حلقة في السجن ، قبل خروجي بيوم او يومين ، وتطارحنا هذا الموضوع ، واذا كنت غير مخطيء في التذكر ، اعتقد ان الدكتور جورج حكيم هو الذي اقترح اسما للدولة السورية - العراقية الموحدة : سراقيا .

الا ان هذا الموضوع حسم ، بعد ان اتمت دراسات المعلم وبحوثه واستقصاءاته عندما كان في مغتربه القسري في الارجتين في مطالع الاربعينات ، اذ تثبت من مراجع علماء الجغرافية وعلم طبقات الارض - الجيولوجيا - والمراجع الموثوقة :

اولا : ان الصحراء السورية الفاصلة بين الشام والعراق كانت مأهولة بالسكان ، اذ اكتشفت آثار العمران والمدن فيها - مدينة ماري - .

ثانيا : ان التربة الصحراوية - في الصحراء السورية - ليست تربة صحراوية بمعنى الكلمة المطلق ، فالتربة الصحراوية غير صالحة للزرع ولا للاستنبات . بينما تربة الصحراء السورية صالحة للزرع ، بفعل الآبار الارتوازية ، وقد كانت مغروسة بالجنائن والحدائق ، وبالتالي عاش عليها الانسان والحيوان .

ثالثا : ان نظرية سعادة في نشوء الامم - وهي التي فصلها تفصيلا علميا شاملا في الجزء الاول من كتابه - قائمة على ضلع اساسي هو وحدة الحياة بين جماعات الامة الواحدة . ووحدة الحياة تنبع من اتصال العمران والحياة بصورة طبيعية وعفوية على الارض القومية بين معمرها وسكانها . وان الحدود التي تقطع العمران وبالتالي تقطع مجرى الحياة الواحدة هي الحدود الجبلية او الصحراوية الفاصلة او الانهر الضخمة الوسيعة او البحار او اي حد طبيعي واضح المعالم .

وعلى هذا الاساس ولان الصحراء السورية تقدم الامكان الطبيعي لاتصال العمران بين الشام والعراق ، فالحياة ما انقطعت مجاريها ، والوحدة الطبيعية قائمة . هذا عدا الاتصال القائم عن طريق دير الزور ... بين الجزيرة العليا والموصل .. هذا الاتصال الذي يجعل من الدورة الاقتصادية بورة متواصلة متكاملة ، تماما كالدورة الدموية في جسم الانسان .

رابعا : اما العلائق التاريخية ، فمن العهد السومري والاكادي الى حمورابي والكلدانيين والاشوريين ، فقائمة بين بلاد ، بين النهرين وباقى المناطق السورية . وكلمة سوريا كما يقول بعض كبار المؤرخين مشتقة من آشور على الأرجح .

خامسا : عندما دخل الدكتور جميل ابو خاطر منذ زمان بعيد في الحزب السوري القومي اضاف الى هذه الحجج حجتين بليغتين :

الف : ان التقسيمات الدينية كانت تسمى ، بين النهرين سوريا الشرقية ، فيما تعرف بلاد الشام بسوريا الغربية .

باء : ان سعادة في الحدود التي رسمها للامة السورية عند التأسيس قال في الحد الشرقي عند « التقاء دجلة بالفرات » ، وهذا الالتقاء يتم ماديا وعمليا بين النهرين يكون العراق جزءا لا يتجزأ من الامة السورية العربية .

اذن الاشتراك في الحياة ، الاشتراك في وحدة المصير ، الاشتراك في بناء الحضارات في التاريخ القديم ، كلها ادلة قاطعة على وحدة التراب القومي ووحدة الشعب ووحدة الحياة . فالعراق دخل في الامة السورية ، سواء سميناه سوراquia او سوريا ... الاسماء لا تهتم بقدر ما يهم الواقع الطبيعي والواقع الاجتماعي المنحدر منه على ان نحترم الاسماء التاريخية امانة منا للتاريخ على الاقل .

نقابة المحامين تسرد بالاضراب

بعد كل الذي لاقيناه من احوال ، حتى تاريخ كتابة هذه الذكريات في سنة 1976 ، وما سنلاقي على ما يبدو من الاحداث الداميات التي نجتازها والتي تهدد لبنان بالدمار الشامل ، يبدو الاسبوع الذي قضيته في سجن الرمل زهرة في فندق عفن ... لكي يحس السجين بكى السجن ، ورهيبته ، يجب ان يطول فيه مقامه ، يجب ان ينوق فيه طعم الزندان ، وان تقطع عنه الاطعمة والزيارات ، وان يعيش في ظلامه المطبق البارد القدر . اجل ، لكي يتعرف الانسان الى السجن بحق وحقيق ، يجب ان يمر في سجن القلعة

كما مررنا سنة 1939 و 1940 و 1941

ولكن في وضعي النفسي انحص ، وضع من سيق الى الظلمة وهو على قاب قوسين من عرسه وضع من كان يحلم بالدخول الى قفص ذهبي فدخل الى قفص من القذارة والوحشة والغياب والقضبان الحديدية ، هو الذي جعل من سجني الاول سجنا قاسيا حتى الرهبة . اصف الى ذلك اصفرار الامل الكبار التي كنا نعلقها على استمرار سرية الحزب واقتضاح امره قبل الاوان !

بل اكثر من ذلك ! ...

ان السجن وحده مع المعلم والرفاق ، ورغم انه مقبرة ومزيلة كان مقبولا ولو على مضض وضيق وحشجة ، ولكن التهم كانت مرعبة . قلت فيما سبق اننا تصورنا رؤوسنا تختلج على المشنقة . لقد تصورنا ، بالفعل اننا سائرون الى الاعدام . مهما يكن الانسان مؤمنا ومثاليا ، يهزه الخوف من الموت خاصة ولم نكن بعد قد تدربنا على مغازلة المخاطر والبارود .. والمشائق ، كما نغازلها اليوم . الاغصان الطرية قلما تصمد للعاصفة الهوجاء كالاغصان العاتية . لم نكن بعد قد اصبحنا اغصانا عاتيات . كنا اغصانا طرية لم يتجاوز الثلاثين بيننا الا سعادة العظيم .

المحامون في نقابتنا في بيروت شدوا العزائم وشهروا سيف القانون في معركة حريتي . ما كنت اتوقع منهم هذه الفروسية . كنت اظن - بل اخشى - ان يشطب

اسمي من النقابة لاني انتميت الى حزب غير مرخص ، الى حزب سياسي ثوري . ولكن العكس هو الذي حدث . فالزملاء - رغم اني لم اكن قد نقلت اسمي من سجل المحامين المترجين الى سجل محامي الاستئناف - تضامنوا معي تضامنا كاملا وشاملا . وقفوا بالروح النقابية الممتازة وقفه الرجل الواحد مطالبين باخلاء سبيلي . التوقيف الاحتياطي تالموا هو تدبير لصيانة سرية التحقيق وسلامته : التحقيق انتهى لان احدا منا خاصه نحن الاركان انكر مسؤوليته او توقيعه . وطالما ان الامر كذلك ، فلا موجب بعد للتوقيف الاحتياطي . المحامي لا يهرب ، وقد انهى مرحلة الاستنطاق بأمان .

هددت النقابة في حال الاصرار على توقيفي باعلان الاضراب العام . ولو لم يخل سبيلي على الفور ، بعد انتهاء الاسبوع الاول على احتجاجي ، لكانت انتقلت من التهديد الى التنفيذ . من النقيب نجيب الدبس الى النقيب جان تيان الى النقيب جان طلخ ، تبرز صفة مشتركة بين الجميع ، الصلابة في قول الحق والصلابة في طلبه . اعرف ان اكثر المحامين كان من عشاق الام الحنون فرنسا ، ولكن اعرف ان اكثرهم أيضا كان من عشاق القانون ، وعشاق النقابة ، وعشاق التضامن النقابي .

اجل اجتازت نقابة المحامين اول امتحان مرت به منذ تأسيسها بنصر مبین . فظهر السبت في 23 تشرين الثاني سنة 1935 ، كان قد ورد الى مكتب سجن الرمل قرار اخلاء سبيلي بكفالة نقدية قدرها اربعون ليرة ذهبية دفعها عني الصديق عزيز نحاس من كبار موظفي الجامعة الاميركية آنذاك ، لارتباطه بعلائق من الصداقة والود مع خالي خطيبي ابراهيم وفهيم الخوري ، عن طريق الباحثة العلامة الدكتور يوسف داغر زوج شقيقته السيدة انجال نحاس .

هتف بي حارس المبنى : اخلاء سبيل ، فقفزت كالمجنون ، اقبلُ سعادة والرفاق واحدا واحدا ، تاركا لفؤاد مفرج ان يخفي في سترتي مرسوم تعييني زعيما بالوكالة وتعيين الدكتور جورج باسيل - غلبون - امينا للسر . - توفي الدكتور جورج باسيل منذ سنة تقريبا .

اختليت بالمعلم أسأله كيف اتصرف ، اذا قابلني رجال الصحافة ماذا اجيب ، كيف اشرح العقيدة . ما هو تحديد الامة السورية العلمي .

يستغرب القارئ كيف ان عميدا للاذاعة في الحزب يطرح على زعيمة كل هذه الاسئلة المفروض ان يكون قد استوعبها ووعاها وعلمها .

الفرح باخلاء سبيلي جعلني انسى اني عميد ، جعلني اضيع في غمرة من الامل
بالعروس وبالحرية .

مصيبتنا الكبرى نحن اعوان المعلم ، اننا كنا حتى آخر ساعة من وجوده بيننا نتكل
عليه ، فاذا ساءلنا مسائل ونحن لا ندري ، كنا نعرف انه يدري فنلجأ اليه كمن يلجأ
الى ابيه وأمه في الساعات العصيبة . لقد كان العقل الساهر اليقظان ليوزع المعرفة على
طالبها .

اخذت ورقة وقلمنا ورحت اكتب ، رغم رعشة الفرح وخفوق القلب وانتفاضة كل
جارحة وعرق في جسدي !....

ماذا كتبت لا انكر الا عبارة واحدة كانت مفتاحي للتوسع في مفهوم الامة وعلاقة
الارض بالانسان وتفاعلها معا ... هذه العبارة هي : متى استبعدت الارض
استبعدت الامة . اذن لا امة بلا أرض !... لا امة بلا وطن . من هنا تقديس القوميين
للتراب القومي ان البيئة القومية هي بيت الشعب ، كما المنزل العائلي بيت العائلة .

بعد هذه الدقائق المتسارعة كنبضات قلبي ، رحمت اسأل الرفقاء بعصبيية من يستعد
لمباراة في الركض او في الخطابة : ماذا توصون الى الاهل ...

حفظت كل الوصيات ، ما نسيت لاحد حاجة .. مهما تبلبل ذهن الخارج الى
الحرية ، يظل قادرا على استيعاب لغة الاسرى !...

ما ان اصيحت خارج القضبان ، في الغرفة السوداء واقفلت ورأيت الابواب ، حتى
انتابني شعور غريب ، بل شعور غير غريب . المعلم الذي احب حتى العبادة والرفاق
رفاق العقيدة والنضال لا يزالون ورأيت ، داخل الاسوار الرهيبة وانا وحدي حر ...

هكذا شعرت بالغصة والغربة وانا اخرج من باب القاوش .

في بتعبوره تحول عرس سي الى مظاهرة عليية: للخب والزعيم

ما طالت الغصة ولا طالت الغربة . ها أنا في مكتب مدير السجن النقيب محمد جواد . اكتشفت انه شاعر نظام . وكم أسف ان ابيات الشعر التي نظمها في وداعي فقدت مع ما فقد من اوراقه . كانت عروسي بالانتظار ، سمح لها بالدخول ويا له من عناق طويل عناق اطول بكثير من عناق غرفة المحامين الذي مر نكره ...

كان بيتنا في ملك المحامي جميل الحسامي قد بقي مقفلا ومهجورا . نزلت في دار المحامين ابراهيم وفيهم الخوري اللذين تتبعا سجنني بحنان وغيره لا تنسى . وان انس لا أس كيف استقبلتني جدة زوجتي ، والدتهما ، ام نسيم الشبيخة الجليلة سكر العازار الفريدة في نساء جيلها بعلمها وفضائلها وانسانيتها . ترقرت دموعها على عنقي فأحسست انها هي لا عروسي تجسيد حريتي لانها جسدت بالفعل أُمي !.. انا الذي ما عرفت امي الا جثمانا مسجى في تابوت وردي !..

في غمرة ذلك الفرح العميم ، في تلك اللحظات التي لا يمكن ان يتصور وقعها السحري في النفس ، جاعني شاب من تلكخ اسمه علي الدندشي . جاعني في عباءة عربية مقصبة ، شابة مثل شبابه الغض ، فارسة مثل فروسيته العشائرية . كان قوميا وكان يريد ان يعرف شيئا عن الحزب . وبواسطة الاستاذ فهيم اهتدى الي . فرحت أتسقط انطباع المواطن الفارس عن القضية القومية . اسئلة خاطفة . هكذا تلاقينا وافترقنا لضيق الوقت . سجلت يومذاك ان اول وجه للحرية لمستة بيدي بين بني قومي كان وجه ذلك الفارس !...

كان همي همين : الاول : كيف نقيم مراسيم العرس وأين ، والثاني : كيف ابلغ مرسوم الزعيم الى الرفاق وما هي التدابير لاعطاء الصيغة الشرعية للعاملين طوال اسبوع دون تفويض خطي .

تم التفاهم على الشأن الاول بسهولة . اما الثاني فدونه رقابة العروس وأهل العروس . خرجت من السجن بكفالة وانا مهدد بالعودة عند اول تحرك مشبوه . قلت في نفسي : سيقراً الرفاق خبر إخلاء سبيلي ، وسيعرفون مقري ، ويلحقون بي ولو بعد أيام قلائل .

وتحركنا باتجاه بتعبورة - القويطع . الاشبين كان سعادة فيمن نستبدل الاشبين ؟
وقر الرأي ان يكون احد مؤسسي الحزب في المنطقة المحتلة اليوم من الهولاكين الجدد
جورج شاهين - كفتون .

ارسل الرسل الى دده ، الى جدتي واعمامي والاقوال . واما القويطع فلم يكن بحاجة
الى دعوة ، فالدعوة عامة ، ابلغتها اجراس الكنائس .
كان العرس يوم الاحد في الرابع والعشرين من تشرين الثاني ... كان المظاهرة الاولى
العننية للحزب السوري القومي وللزعيم .. تجمع الرفاق وعائلاتهم ، والاصدقاء
وعائلاتهم ، وعلا الهتاف لسوريا وسعاده . كان الناس لا ينقصهم الا ان يرفعوا اليمين
ويقسما قسم الانضواء حتى يصبحوا قوميين . القويطع ، بامه وابيه ، كما يقولون ،
التقى في العرس المظاهرة لا ليفرح بالعروسين بل بالحزب الذي اشرق من دياجي اليأس
وصار على المشارف والقمم املا ورجاء وقبسا هاديا .

أجرى مراسم العرس الكاهن الجليل الخوري جرجس الخوري (كفرحاتا)
والخوري يعقوب البشواتي كاهن دده ، وما ان وضع خنصر حبيبيتي في خنصري ، حتى
اسريت اليها مازحا :

« علفت يا بنت الحرام » ...

ولا انسى الخطب التي ألقيت . احداها كانت كلمة الخال ابراهيم - خال عروسي
صار خالي بحكم الزواج - مؤثرة عندما افتتحها قائلا : ولدي .. ثم كلمة خالي حنا
يعقوب الزاخم وهو الذي ربيت سنوات في كنفه ، عندما استهل كلامه : « لست بالرجل
الخطيب » .. كان خالي رحمات الله عليه قد درس في مدرسة القرية وهاجر فما تعلم
نحو ولا صرفا ..

وشرب الشباب وسكروا ... فبعد ان بحت الحناجر وفقد الخمر والزاد ، قدم لنا
المواطن الياس فياض سيارة اوييرن ، لننتقل فيها الى اللانقية لقضاء شهر العسل .

لا ازال انكر حادثين طريفيين :

الرفيق بروان ، وقد ثمل وتهاوى ، يأخذ دور شرطي السير ، فيأمر الناس بفتح
الطريق ...

يقبل العروس والعريس مهنتا ، يأمرهما بالصعود الى السيارة ثم يأمر السائق
بالمسير ... ثم يطلب الى الرفاق تأدية التحية القومية للعروسين ! ...
وفي كفرحاتا يستقبلنا الاهالي باللبس والرز والعتور اما المختار نقولا شويري

فيستوقفنا ويشهر مسدسه ليطلق رصاص الابتهاج ، فيحرن المسدس فيرميه ارضا
ويهجم على السيارة مرحبا معتذرا ...

ونذهب الى اللانقية ...

نحن في كازينو اللانقية ، لانملك من متاع الدنيا اكثر من خمس عشرة ليرة سورية ،
اما النفقات فقد اخذها على عاتقه خال العروس الاستاذ ابراهيم خوري عندما تلفن الى
آل مرقص اصحاب الفندق ليرسلوا له الفاتورة ...

كنت في ما يسميه الناس شهر العسل ، ولكن أي عسل يمكن ان يستطاب ، والمصير
المجهول هناك عند المحقق تمبال وفي كواليس المفوضية العليا ، والزعيم والرفاق في
غياهب سجن الرمل واقداره .

«خسرنك»

عندما كنت ابشر الزعيم في ربيع 1935 بأني خطبت وسأتزوج قريبا قال لي عوضا عن ان يهنئني حسب العادة المألوفة : لقد خسرنك ، كأنما ينعي نضالي الحزبي الي .. لقد تطيرت وخفت من هذا الموقف ولا تزال ترن هذه الكلمة في انني حتى الساعة . وهل يجوز المرور بقصة زواج المناضلين هكذا مرور الكرام ؟ النضال الحقيقي يعني الترهيب في سبيل القضية التي من اجلها نناضل . فالى اي حد يمكن التوفيق بين ان يكون المناضل حرا من كل قيد ، من كل مسؤولية ، من كل ارتباط وبين ان يتزوج وان يصبح رب عائلة عملا بسنة الحياة وشرعية النمو والاستمرار ؟

لقد احسست منذ الايام الاولى لزواجي ، وانا في ذروة شهر العسل ، ان نضالي لم يعد نضالا مطلقا . لقد تحول من الاطلاق الى النسبية . الزخم الذي كان يهدر بين ضلوعي ، تشارك واختلط بعامل جديد ، هو واجبي تجاه زوجتي . لم اعد مترهبا كما في السابق ، في حالة استنفار دائم ، للخدمة والعطاء والتحرك . لقد اصبحت في قفص ، كلما طلب الي ان انفذ امرا ، علي في البدء ان اخلع باب القفص .

ان زوجتي لم تكتشف اني عضو في حزب سري ثوري الا يوم الاكليل يوم اقتضاح امر الحزب ويزوج سمسه . ولكن كنت قد انذرتها عند الخطوبة بأن حياتي موقوفة على امتي . ولكن الزوجة الني لم تقسم يمين الانتماء مثلي ، لم تكن تشعر الا بالانتماء الي ، الي حبي ، الي شخصي فقط !... وشتان بين الانتماء الي حب فردي والانتماء الي حب الامة والولاء لها !...

ها قد مر على وجودي في الحزب اثنان واربعون سنة ما زلت في الساحة تحملت وتحملت زوجتي معي حتى آخر رمق (ماتت في 8 كانون الاول 1968) كل انواع التضحيات . تدمرت ، شكت تأففت ولكنها احتملت حتى وفاتها كل اعباء النضال . الفرق بيني وبينها اني كنت اناضل بفرح ، وكانت تناضل اكراما لي .

استطيع التاكيد ، ان الحزب لم يضرنني كما كان يتصور المعلم . فبعد زواجي ، وإبان اضطلاعي بمسؤولية عائلتي الصغيرة لم اتردد في تلبية الواجب القومي فوقفت

الى ابعد الحدود بين واجبي كزوج واب وبين واجبي كقومي اجتماعي ملتزم بقضية تساوي وجوده ، قضية العائلة الكبرى التي هي الامة .

وهنا مجال القول ، انني في نروة شهر العسل ، لم اتخل عن القيام بمسؤوليتي الحزبية .

ففي السابع والعشرين من تشرين الثاني ، اي ثلاثة ايام بعد حفلة الزواج ، وافتني الى بتعبورة السيدة كلودا ثابت شقيقة الاستاذ نعمة - مع رفيق من آل ريبز ، وكانت قد تلقت خبر تعييني زعيما بالوكالة ، وبلغتني تقريراً مفصلاً عن سير العمل الحزبي في المرحلة الدقيقة الحالية ، وجاءتني من العاملين باقتراحات محددة لاستصدار مراسيم يتعينهم ليصبحوا سلطة شرعية .

عينت في تلك الليلة لجنة تنفيذية عليا ، مع صلاحيات واسعة لادارة الحزب وقد سلمت المراسيم للسيدة كلودا ونفذت بحذافيرها . انكر من اسماء اللجنة التنفيذية العليا رفعت زنتوت والمحامي عادل عيتاني وزكريا اللبابيدي .

كانت العروس ترتجف غيظاً وانا اوقع المراسيم . فقد كانت تحسب للنكسة الف حساب ، اذا وقعت هذه المراسيم بيد المحققين او السلطات الانتدابية .. الا انني تجاوزت بحزم كل هذا الغيظ . وسجلت منذ تلك اللحظة كيف ان الزوجة تصبح عبئاً على المناضل رغم انها عبء حبيب !... كان توقيعي للمراسيم اول طريق النضال ضد زوجتي نفسها للقيام بمسؤولياتي مهما كانت المخاطر !...

وقبل مرور الشهر ، حدث ما يعكره من جديد . وريدتني مذكرة من قاضي التحقيق تميل بوجود الحضور الى دائرته لاستجابي بدعوى « الحزب الشعبي السوري » عرب الفرنسيون كلمة قومي بكلمة شعبي . ونحن حتى الان نعرف في المحافل الدولية وخاصة في فرنسا تحت هذه العبارة ب.ب.س. P.P. S. كان ذلك في النصف الاول من شهر كانون الاول 1935 .

المذكورة لم تكن مذكرة احضار بل مذكرة جلب عادية . لم تكن مخيفة . ولكن السجن كان قد صار مخيفاً . لقد عرفته وعرفني . لم يعد خيالاً وصوراً وظنوناً . صار قواويش وقروانة وطلعة . صار وياء وقذارة . صار نوعاً من عبودية الانسان للقانون وللسلطان - عبودية الانسان للظلام والاقذار . عبودية الانسان لمحمد جواد واخر دركي من آخر سكرية في لبنان .

خفت وددت الى العشرة الفائلة . ولكن لم اتصرف برعونة وغباء . كنت حكيماً ، تلقيت الدعوة باعصاب باردة ، انعكست طمأنينة على شريكة حياتي وEROS ابامي البيضاء ...

هذه الشراكة بين الزوجين احسست بها للمرة الاولى في اعماقها الصاخبة بالحنان .
طوال عمري كنت وحيدا ویتيما . وللمرة الاولى المسر بالبنان ن لي شريكة حقيقية من
لحم ودم تشاطرني بنياي باسمة او عابسة ، لم اعد وحيدا ولا يتيما . مرحبا بالسجن
اذن ، اذ يظل الان نصفي الاخر حرا ، يستمتع بالحرية عني ، ويمد لي الى داخل
الاسوار نراع الحرية ومعصم الحنان !.....

سأبني تمبال كيف يمكن ان يحقق عزبك وحدة سوريا وهي تحت انتداب اقوى دولتين في العالم!

لنذهب اذن الى المحقق تمبال .
يهودي قيل لي ، محقق ويهودي ! ونحن الحزب الذي يقول ان اليهود هجرة لا يمكن
هضمها . انهم سوسة في كبد الامة . انهم بالنسبة لنا الاعداء الدهريون ..
لنذهب الى المحقق تمبال ، انا والعروس ، تنتظرني خارج القاعة ، يعرف انني
تزوجت ، وامعانا في الاثبات والاقناع ارتدي بدلة الاكليل السوداء ، ارتدي ربطة العنق
البيضاء واضع في جيوبي القفازات المهفهفة تماما كأني ذاهب الى الكنيسة لاقف امام
هيكل الرب في مراسم جديدة .
وذهبت مع سائق كفرحاتا الاول يعقوب الفداوي مرافقي في الرحلات البعيدة والليالي
الطوال ، رفقته مبالغة في الاطمئنان فهو يعود بالعروس الى دار اهلها اذا سجت للمرة
الثانية .
في غرفة التحقيق :

دخلت غرفة التحقيق ، كلاً شء قد تغير خلال الشهر الذي مضى . السد بوبز استبدل
بالسيد فريد حبيب ، رفيق ايام الدراسة والكوراني الذي لا غش فيه الا فكره
الانحزالي . صار فيما بعد مديرا للاحوال الشخصية ، ثم سفيرا ..

والسيد تمبال بشوش الوجه ، رغم خفوت صوته وجموده ، هذا اليهودي تراءى لي
غير ما توقعت ، عندما تقابلنا متهما ومستنطقا ، كان جاهم الوجه كالح الجبين اوحى
الي العداء .

اما في اللقاء الثاني فالرجل رجل اخر .

بادرني : هل تزوجت ؟

- نعم سيدي المحقق .

- تهانئي وتمنياتي الطيبة .

- شكرا جزيلا .

هنا تجرأت ، سألته هل من داع لدعوتي وقطع شهر العسل علي ، فضحك بتؤدة ،
الرجل لا يتكلف الرصانة ، انها في طبعه .

قال : لقد تبين لنا من التحقيق ان هنالك ناموسا للاذاعة ، امين سر انذلك ، من هو هذا الناموس؟

قلت في خلدي : علق فؤاد سليمان ، وكنت انوي مهما كلف الامر الا يعلق ، فؤاد عصبي المزاج وعاشق وشاعر ، اذا دخل السجن فقد يصاب بالهستيريا او قد تطيح به معمودية الظلام ، فيطلق الحزب لينطلق بجناحي الحرية الى سماء خياله وشعره وحبه . قلت للمحقق : ارجو ان ارى الوثيقة . لقد توالى على العمدة عدة نواميس بعضهم من الشام والآخرين من لبنان ما صمدوا وقد سافروا الواحد تلو الآخر ، لقد كنت انا العميد وانا الناموس ، اوقع تواقيع مختلفة .

اطلعتني على الوثيقة ، لم يكن توقيع فؤاد واضحا . كان كتواقيع وزراء المال على اوراق النقد . فرحت ، زكرت له اسما اخترعته في تلك اللحظة ، كان كل الاسماء ، ما عدا اسم فؤاد سليمان !.. قال المحقق : هذا مرسوم تعيين لجنة الدعاية والنشر ، ما عثرنا على اصحاب هذه الاسماء . هل تساعدنا على التعرف اليهم ، كنعان الخطيب ، محمود الحافظ .. الخ ..

قلت : الذين عثرتم عليهم موجودون في لبنان اما الذين لم تعثروا عليهم فيجب ان يكونوا غادروه الى الخارج او انهم اعطونا اسماء مستعارة !.. تظاهر بالاقتناع ولكنه لم يقتنع .

ثم توجه الي بالسؤال التالي : انت محام ، اذن رجل ثقافة وفكر ، كيف يمكن ان تحقق انت وحزبك وحدة سوريا الطبيعية وهي تحت انتداب اقوى بولتيز في العالم فرنسا وبريطانيا ؟..

قلت : نحن لا نعمل ليومنا ولا لغدنا ، نحن نستشرف الاجيال ، نستشرف المستقبل المهم اننا نؤمن بان وطننا الحقيقي هو هذه سوريا الطبيعية . اما متى نحقق تحريرها ومتى نحقق وحدتها فتلك مسألة متروكة للمستقبل وللظروف ولوعي الشعب وقدرته على النضال والصمود . انها مسألة متروكة للتيار الشعبي الذي تولده في طول الوطن وعرضه ، وليس من مستحيل امام قوة الشعب واندفاعه .

قال : الا ترى ان هذا ضرب من الخيال ، من الطوباوية ، من « الاوتوبي » ؟

قلت : يبدو ذلك الان ، ولكن من يدرك مفاجات المستقبل ؟ من يدري ان نكون نحن ثورة سوريا ومحريها وموحيها ؟!

قال ارى انك تفكر بعقلية الشاعر لا بعقلية المحامي .

قلت : كل فكرة تنشأ خيالا ، مخترع الطائرة والسيارة تخيلهما اولاً ثم صارتا حقيقة .

قال : قلت لزعيمكم انه كهتلر وككل كبار المعلمين في التاريخ عقيدته عقيدة شاعر لا عقيدة فيلسوف .

قلت : شاعرا كان الزعيم ام فيلسوفا انه يستحق الاحترام والتقدير اليس كذلك يا سيدي المحقق ؟

اجاب : اوافقك ، وانا اعامله بكثير من التهذيب والاحترام . انه رجل مثقف ، وجدي ، وعالم ولكنه قبل كل شيء شاعر ، الانبياء جميعهم كانوا شعراء .

ما سجل في محضر التحقيق الا اجويتي الاولى . ثم ودعني و اشار علي بالركون الى الهدوء والحذر في القول والتصرف لاني تحت رقابة الامن العام والمخبرين . لم يفته ان يلفتني الى ان المدعي العام طلب اليه توقيفي على اثر وصول التقارير عن التظاهرة يوم عرسي ، وانه رفض .. لاني لست مسؤولا عن التظاهرة بل المتظاهرين !..

خرجت من غرفته ، وعروسي وخالها ابراهيم وامين سر النقابة الاستاذ تيان يتمشون في المشى الطويل الممتد على طول قصر العدل امام غرفة التحقيق ، ما ان شاهدتني باسماء مرحا حتى راحت باتجاهي كأنها تخطبني من جديد !..

وكانت الاقامة الجبرية في القويطع - المحتل اليوم ممن كانوا ينزلونه اهلا واخوانا على الرحب والسعة - اجل عدت الى القويطع مع عروسي لنمكث شهرا اخر من الحياة الزوجية القلقة والحذرة والسعيدة في آن معا .

نَعَابْجَا ام سَوُوَا؟

اقول المحاكمات الاولى ، لان تاريخنا النضالي ليس حروباً وثورات ، بقدر ما كان صداماً بيننا وبين القانون ، في مذهبا ان الحرية صراع . انها صراع ضد استعباد الاقطاع واستعباد الانتداب .. واستعباد القانون . نحن نعرف ان الخضوع للقانون واجب . الا ان الخضوع المستمر للقانون ، خاصة متى اصبح القانون يتنافر او يتناقض مع الحق ، يصبح عبودية وذلاً واستسلاماً . لذلك لم نخضع لقوانين الانتداب ومراسيمه وقراراته . قاومناها ، فكان جزاؤنا السجن والتشريد .

ابتدأت المحاكمات القومية على امتداد الوطن . حوكمنا في لبنان ، في كل محاكمة المدنية والعسكرية وحوكمنا في الشام في كل محاكمها المدنية والعسكرية حتى درعا وحلب واللاذقية ، وحوكمنا في فلسطين . وحوكمنا .. حتى في محاكم البرازيل !..

اما المحاكمات الاولى فقد كانت المنطلق ، كانت نوعاً من التدريب الضروري للمناضلين ، فيعرفون كيف يكرون امام القضاء ويفرون ، كيف يجابهون ويتحدون وكيف يلينون ويلفون ويدورون . كيف يقعون في المأزق وكيف يوقعون المأزق في حيص بيص .

ولانها المحاكمات الاولى ، فلقد كانت كالحب الاول ، يظل طعمه تحت الاسنان مدى العمر وان اختلف الطعم في الحالين ، طعمها تحت اضراسنا حتى الان . اكاد اشعر في حلقي مرارتها وهباتها السخنة والباردة ..

من يزور قصر العدل القديم . ويصعد الى الطابق الثاني من جهة الغرب – ثم يدور الى الشمال من اعلى الدرج ، يجد في وجهه قاعة طولها ثلاثون متراً وعرضها عشرون في صدرها الشرقي « قوس » كبير . الى يمينه مقعد للنائب العام والى شماله مقاعد للمتهمين . وفي الصدر مجلس القضاة . كان الرئيس جان روسا ، والعضوان ناصر رعد ومانيان . اما في مقعد النائب العام فكان فورنيه . والكاتب عفيف رمضان والترجمان ميشال باسيلا ، كنت وجورج صليبي ويوسف الدبس وصلاح لبكي وجورج

حداد احرارا اخلي سبيلنا بكفالات مالية . وكان في قفص الاتهام الزعيم ونعمة ثابت وزكي النقاش ومأمون ايس . جلس الزعيم في المقعد الاول ثم نعمة وزكي وانا ومأمون وصلاح وجورج صليبي ، والآخرين جلسوا على مقاعد اخرى .

الرئيس روسا - كان الشيب قد بدأ يأكل رأسه - ولكن تقاطيع وجهه كانت توحى بجدية حتى الخسونة . اما ناصر رعد ومانيان فكانا في ريعان الشباب ، كل منهما يوحى بالبراءة واللطافة ، اما فورنيه ، النائب العام ، فكان بين الشباب والكهولة ينجلي وجهه عن التأفف واللامبالاة . كان يحاول ان يقلد النائب العام لا ان يحياه فعلا .

اما المحامون فكانوا نخبة رجال القانون وأئمة الكلام الفصيح في طليعتهم حبيب ابو شهلا وحميد فرنجية وأمیل لحدود وعبد الله اليافي وشفيق ناصيف ويوسف جرمانوس وفكتور حكيم وأمیل يزبك وأرقش وشفيق الحداد ومختار مخيش .
واما المتفرجون فأكثرهم من القضاة ومن زوجاتهم او اصديقاتهم وصدقاتهم ، وضعت لهم منصة في طرف القاعة الغربي ليراقبوا عن كثب ، وقد غصت المماشي بكل الذين استطاعوا التسلل من محامين وصحافيين وقوميين وفضوليين يريدون ان يشاهدوا انطون سعادة ورفاقه امام القضاء .. كان بعضهم ينتظر ان يرانا في قفص الاتهام نعاجا مستسلمة او وجوها صفراء خائفة ، او رؤوسا منحنية حتى الارض .
خجولة وواجفة .

لقد دهش الحضور من مظهرنا الطبيعي ، من مثلنا في افضل ملابسنا ، وجوهنا مشرقة بالايمان ، وانوفنا شامخة ، وجباهنا كبرياء وانفة ورجولة ، ما كان واحد منا عابسا ، كنا نوزع على معارفنا التحيات والبسمات ، كنا قد الفنا القيد ورحنا نداعبه ويداعبنا عوضا عن ان يخيفنا ويرعبنا ، حتى القيد بيتسم للسجين اذا عرف السجين كيف بيتسم لقيدته !..

كان طليعة المحامين حبيب ابو شهلا ثم حميد فرنجية ثم أمیل لحدود ، اما يوسف جرمانوس وعبد الله اليافي فكانا في الصف الامامي من الجهة الشمالية .. وشفيق ناصيف بقامته الفارعة وسمرته الجبلية فقد كان يشعر انه في ذلك الزمان في الصف الثاني .. لم يكن يبدو على وكلائنا الارتباك او الانهماك ، المحامي كالطبيب اذا واجه المتهم متجهما حمله هموم الدنيا ، واذا واجهه ضاحكا ، يضحك حتى لحكم
...! ! !

كان أميل لحدوث حبيب ابو شهلا مثلي الاعلى في الحمامة ، فكلاهما فرسا رهان ، اذا حضرا من جهة واحدة فهي الرابحة حكما . واذا كانا عن جهتين متخاصمتين ، فهما في ساحة مبارزة ، تلمع الحجج والادلة والبلاغة في فهمهما كما يلمع حد السيف في يد المتبارزين ، يمسك السامع اليهما انفاسه ، ليحذر من الراح ومن الخاسر ، ويشفق على القضاة كيف سيفضلون في نزاع يبنو كلاهما فيه صاحب الحق وان هنالك حقيقتين لا حقيقة واحدة !..

اما حميد فرنجية ، وهو من جيل صلاح ليكي في الحمامة ، فلم يكن بعد نجمه قد اطل لماعا في ميدان الحمامة ، كان قد بدأ باكرا في الحلبة السياسية وبرز الاقران ، فهو ابن نائب ومن « حزب » بشارة الخوري الذي كان يقابله « حزب » اميل اده .. هكذا كانت الاحزاب في مطالع الثلاثينات في لبنان . يزيكي - جنبلاطي ، ومن قبل قيسي - يميني . عائلتي بعائليتي .

كان حميد فرنجية قد اصبح نائبا في مجلس النواب او كان وشيكا ان يصير . ميزته الاولى الرصانة والجرأة وتزامنا في معهد الحقوق الا انه كان في سنة الشهادة عندما كنت في سنتي الاولى . اشهد ان الرجل كان في معهد الحقوق قائدا ، وانكراني تعلمت منه كلمة « تدابير تعسفية » (١) Mesures هذه العبارة قد وردت في عريضة رفعها الى ادارة المعهد بشأن المطالب الطلابية او ما شاكل .

اما عبد الله اليافي وكان يراقع عن زكي النقاش وكان في اوائل الذين حصلوا على الدكتورا في الحقوق ، من جامعات فرنسا .. فلم يكن بعد قد قفز الى مركز الصدارة .. وحتى في الحمامة ما كان قد بدأ يلفت النظر ويستقطب. كان يتحضر للوثوب ، ما مضت سنتان حتى كان رئيس الوزراء .

اما الشيخ يوسف جرمانوس ، فكان عملاق المحامين ، تحس وهو يخاطب القضاة على منصة الاحكام ، كانه سيف ديموكليس فوق رؤوسهم .. اذا حكموا له سلموا ، وان حكموا ضده رجموا .. ما كان القضاة ولا الزملاء يستلطفونه بقدر ما كانوا يهابونه ..

اما شفيق ناصيف ، - وهو وكيل نعمة ثابت - فهادئ حتى البلادة ، وطيب مذاق كالطفولة ، كنت اعرفه لماما في دارة آل ثابت ، هو الان زوج كلودا ثابت ربة المنزل آنذاك بعد وفاة والدتها ، كان شريك الاستاذ والحامي الفرنسي الدكتور جان فران احد اطيب رجال القانون الذين قدموا من فرنسا الينا . هو الذي دافع عن القوميين في آب 1940 وقال لهم بعد صدور الاحكام : « فرنسا حكمتكم ، ولكن لا تتسوا ان فرنسا نفسها

دافعت عنكم .
اما اميل لحود وان يكن باللغة الفرنسية لا يضاهاى الاخرين ، الا انه في المحاماة
قمة لا تترك وغور لا يسبر ، اذا اردت ان تلحق به مطلقا ، قد تكسر عنقك ، واذا تبعته
الى الاعماق وضعت في مآهات الظلمة ، يعمق بلا حدود ويحلق بلا حدود .

هيئة المحكمة !!
هكذا نادى سلامة مكرزل بصوته الجمهوري ، فوقف الجميع احتراما . ثم جلست
المحكمة وسمح الرئيس بالجلوس فجلسنا ، خيم صمت رهيب ، بدأ الرئيس روسا
يقلب صفحات الملف الضخم الذي بين يديه . (أه لو تقع عليه ايدينا ، لانعرف اين
طار) .

ثم نادى : انطوان سعادة .
لم يرد احد

نادى مرة ثانية : انطوان سعادة .

فلم يرد احد .

كاد الرئيس ان يغضب ، وانتهر الزعيم ، فوقف سعادة بكل تهذيب وجدية وقال : لم
أرد لان اسمي ليس انطوان بل انطون سعادة ، وانتهى الحادث ، واعتذر روسا وعاد
فناداه باسم انطون طوال رحلة المحاكمات .

واكمل الرئيس روسا يريد بعد اخذ الهوية والسن ومجل السكن ، ان يطرح التهم
الموجهة الى المتهم ، فسأله بالفرنسية انت متهم .. بكذا وكذا .. تأليف جمعية سرية
الخ ..

وافقت المحكمة على ان يتكلم الزعيم بالعربية وان ينقل الترجمان اقواله الى الفرنسية
وكلف السيد غبريال باسيلا بالترجمة والتعريب . (يا لغرائب الصدق غبريال باسيلا
حاكمه سنة 1949 ووقع على حكم اعدامه) .

هنا ، اجاب سعادة بخطاب منشور في النظام الجديد ، منتقلا من نور المتهم (بفتح
التاء) ، الى نور المتهم (بكسر التاء) نعم اتهم معاهدة سايكس بيكو اي بريطانيا
وفرنسا بتجزئة بلاده واقتسامها مناطق نفوذ وتسلط للبلدين المنتصرين في الحرب
الكبرى الاولى !..

ثم راح الرئيس (روسا) يناقش سعادة ويحاوره ويداوره ، نون ان تصدر عنه اية
بادرة عدم لياقة او قلة احترام ، كما ان سعادة كان يبتسم ابتسامة ناعمة ، رابط
الجأش ، يزن كلماته كعادته بميزان المنطق والفكر العلمي المتوقد .
وكانت قد سرت شوائع واتهامات ، مصدرها المفوضية العليا وعمالؤها ، بأن

للحزب علاقات بالسفارة الايطالية وبالسفارة الالمانية ، استغلت في اطلاقها بعض مظاهره العسكرية ، وعلمه المشابه سطحيا للصليب المعقوف النازي .
واسفر التحقيق حول هذه الاتهامات عن نفي مطلق لكل هذه الشوائع والاتهامات ، خاصة بعد ان اثبت سعادة مثالية الحزب واصالة عقيدته ونظامه ، بحيث لم يطرح اي سؤال من قبل المحكمة حول هذا الموضوع .

اما خريطة مطار ريباق التي طبقت لها الصحف وزمرت فقد تبين انها لم تكن قد رسمت بأمر من المعلم ، بل حملت من احد الرفقاء الغيارى على الحزب ، لعلها تكون ذات فائدة في المستقبل .

وكان من اطراف ما جرى في المحاكمات استجواب عميد الحربية الدكتور زكي النقاش الذي سئل عن مهماته في عمدة « الحربية » وعن عدد الاسلحة « والجيش » التي يملكها الحزب ، فكان جوابه ان الحزب لا يملك بندقية واحدة ، وان عمدة الحربية تعني التطلع الى انشاء ميليشيا في المستقبل لتدريب الاعضاء على ممارسة فضائل الانضباط والرياضة البدنية وبث روح الفداء والعطاء لدى القوميين .

واما الدكتور جورج صليبي فكانت التهمة الموجهة اليه اقتناء اسلحة حربية ممنوعة ، وبالفعل كان قد صودر من منزله مسدسان قديمان ، فاجاب انهما لوالده ، وقد نسي ان يدفنهما معه في نفس التابوت .

وجاء دور المرافعات ، المحامون نخبة رجال القانون في لبنان واطولهم باعا في فن الكر والفر في ساحات قصر العدل .
لم يعلق في ذاكرتي من اقوالهم اية عبارة ، اللهم الا انطباعات عامة يمكن تلخيصها بالاتي :

اولا : يمكنني التأكيد ان احدا منهم لم يستهل مرافعاته بالتصريح انه رغم عدم موافقته على عقيدة الحزب ومبادئه ، الا انه انما يستجيب الى الواجب المهني في الدفاع عن المتهمين ، يستثنى منهم محام واحد فقط هو الاستاذ فيكتور حكيم ، احد اكثر الحقوقيين ثقافة في لبنان ، فهو اديب وقانوني وناقد فني ، ويوحى من قراءته وواسع اطلاعه ، اعلن بدون مواربة ان فكرة وحدة سوريا الطبيعية التي يدين بها الحزب انما هي فكرة مؤسسة على علم الاجتماع والتاريخ والجغرافيا ، وان الامة السورية حقيقة علمية لا مجال لنكرانها . وقد عزز هذا الرأي بالشواهد والمراجع العلمية . وتحضرني بهذه المناسبة ، مرافعة للاستاذ موريس الجميل ، - وهو ابن عم الشيخ بيار - الذي القى سنة 1937 في مناسبة اخرى مرافعة عن سعادة ذكر فيها ان سوريا التي يؤمن

الحزب بوحدها انما هي واقع جغرافي - تاريخي - اقتصادي .
ثانيا : ان الاستاذ حبيب ابو شهلا - وقد كان في المحاماة طليعيًا ، فصيح البيان
واللهجة والفكر - هو الذي استهل المرافعات ، ومن كلماته التي اذكرها كأنه يتلوها
الآن :

الف : (ملتفتا الى سعادة في قفص الاتهام) : اجل يا استاذ انطون سعادة مهما
حاولت ببلاغتك وقوة حجتك ان تقنعنا ان زوبعتك ليست صورة « طبق الاصل » عن
الصليب المعقوف ، فلن نقنع ، ومهما حاولت ان تقنعنا ان نظامك ليس نظاما
فاشيستيا ، فلن نقنع انت متأثر بالنازية والفاشية كغيرك من شباب هذا الجيل ،
والمهم ان نواياك سليمة ، ان م ادتك سعيد وانك طمع لبلادك بالنهوض والاستقلال ،
لذلك لا نسجل عليك مأخذًا ..
باء : ثم ختم الاستاذ ابو شهلا قائلاً للمحكمة :

ايها السادة ، مهما يكن القانون الوضعي صارما ، وواضحا في تحديد الجريمة
وعقابها ، الا ان القانون وجد لاحقاق الحق . ان هؤلاء الشباب لا يجوز ان يخرجوا من
هذه القاعة موتورين ، ناقمين ، ان عليكم ان تفهموا طموحاتهم وتوقعهم الى صنع
بلادهم على صورة بلادكم ، ولذلك اطلب لهم البراءة ، والا نعقوبات رمزية مع وقف
التنفيذ ..

اما المدعي العام فورنيا فقد وقف والقى مطالعة مكتوبة . كان يتلوها مرتبكا كأن
كتبها غيره . وبعد ان سرد كل صك الاتهام مبينا حججه وتعليلاته صاح بالحكمة
بصوت متهدج :

ايها السادة اضربوا الرؤوس .. وقبل ان تختم الجلسة ، سألنا الرئيس واحدا
واحدا عن مطالبينا فطلبنا كلنا البراءة .
وصدرت الاحكام في 1936/I/27 كما يلي :

الزعيم حكم ستة اشهر سجن ، والعمد حكموا بشهرين حبس مع وقف التنفيذ ،
والباقيون بين شهر وخمسة عشر يوما ، اما الذين لم يثبت انهم تسلموا مسؤوليات
قيادية او ادارية او اعلامية هامة فقد اعلنت براءتهم .

كان يعني ذلك ، ان كل الموقوفين يعودون الى بيوتهم سالمين احرارا الذي دشن عهد
التضحية بنفسه فداء عن الأمة كان سعادة وحده ، ما عيس ولا امتعض . انطباعي انه
استخف بالحكم لانه كانت ينتظر عقوبة اشد . ها هو يعانق من سمح لهم بالاقتراب
منه من الرفقاء والمحامين ..

ثم عاد الى السجن ، بين حراسه ، شامخ الرأس ، تعلق وجهه النحاسي ابتساماً المنتصر ، لم يكن يحسب لعدالة الفرنسيين حساباً . لقد عدلوا لقد ادركوا ان الحزب لم يكن هتلرياً ولا فاشياً . لم يكن منجراً الى اية عجلة اجنبية ، كان يجر عجلة الشعب في سوريا الطبيعية المثقلة بالتجزئة والعبودية والقهر ، المثقلة بتركة العثمانيين طائفية واقطاعية وفسادا ، كان يجر هذه العجلة باتجاه قمم الحرية والعز والمجد . والتقدم باتجاه قمم الوحدة القومية الاجتماعية .

لقد ادركوا ان انطون سعادة لم يكن الا قائد نهضة شاملة ، عملية بعث لأمة من قبر التاريخ ، اسمها سوريا الطبيعية ، صمم على انقاذها من براثن الانكليز والفرنسيين ، ولو كلفه الامر حياته - لقد دفع الدفعة الاولى منها ستة اشهر في سجن الرمل ، كان ذلك سهلاً .. كان ذلك يدعو الى الابتسام العريضة التي استقبل بها الحكم واستقبل بها مودعيه وهو يصعد الى العربة الصفراء عربة سجن الرمل .

واليكم نكريات رئيس المحكمة الاستاد جان روسا وقد ارسلها الي من بارا في فرنسا وهي مؤرخة في 1976/3/26 بواسطة الرفيق غسان فرح الطالب في باريس وهذا تعريبها :

اني اتذكر جيداً دعوى الحزب القومي ب . ب . س التي مرت امام الغرفة الجزائية من محكمة بداية بيروت المختلطة اذ كان لها وجه سياسي واذ كان علي ان استعد لها لادارة الجلسة والمناقشات . واني اعطيكم هنا انطباعاتي كما حفظتها في ذاكرتي .

1 - لقد تراءى لي ان الحكومة اللبنانية انذاك كان بإمكانها ان تتجنب ملاحقة حركة انطون سعادة لان هذه الحركة - وهنا اقول ما افكر به تماماً - لم تبد لي خطرة على الامن العام ولا حتى جديّة .

2 - كانت هذه الحركة حركة عقائدية للشباب ، واني اود ان اقتنع بانهم كانوا يؤمنون « بسوريا الكبرى » او الهلال الخصيب وبالنتيجة بوهن الوطن اللبناني والمستقبل اللبناني . ومن الاحداث اللبنانية الجارية حالياً يتبين ان هذه الفكرة لم تكن بعيدة عن التصديق .

3 - اني اتذكر حواراً مع انطون سعادة عن بنية حزبه السياسية . وقد بدا لي من هذا الحوار ان سعادة كان رجلاً عقائدياً . بمعنى انه كان نوعاً من اللسان النكي والصادق . ولكن في ذلك الزمان لم اكن استطيع ان امتنع عن التفكير بان في هذه الحركة شيئاً من البدائية والطوباوية لانها لم تأخذ بعين الاعتبار امكانية وجود وطن لبناني كنت اؤمن به ايماً قوياً .

4 - وفي كل الاحوال لم يكن سعادة بعيدا عن القلب بل بالعكس كان صادقا وشريفا اعطى على ذلك البرهان القاطع .

بارا - الغرون الاعلى - فرنسا في 26/3/1976 .

هذه شهادة من رئيس المحكمة التي قضت على سعادة ستة اشهر سجن ، يؤيدها انسان فرنسي احب لبنان حبا جما ولا يزال . وقد ورد في اخرها ان قلبه يتقطع لما يسمع عن اخبار الوطن الصغير . كل عام كان يأتي الى لبنان منذ سنوات في شهر تشرين واخر مرة كانت سنة 1974 عند بدء الاحداث الرهيبة . كنا نحن اصدقاء القدامى من الدكتور صبحي المحمصاني الى الاستاذ عمون - الذي توفي منذ ايام - الى الرئيس خليل جريج الى النقيب نمر هبه والنقيب آدمون كسبار نتناوب على دعوته وتكريمه .
ما يؤلني هو ما ورد في ختام رسالته :

« انني لن ارى عبد الله ابدا » . يؤلني لان هذا الرجل الذي شارف على الخامسة والثمانين من عمره اعلم واشرف وانبل القضاة الفرنسيين الذين مروا في المحاكم المختلطة . كان في تفكيره اللبناني ينطلق من معطيات « مسيحية » ، لم يكن يرى في لبنان الا حصنا للمسيحيين لم يستطع ان يهضم - رغم سعة علمه ورجاحة عقله - وان يدرك ان الاوطان لا تبني على اساس الدين بل على اساس وحدة الحياة ووحدة المصير . لقد حاولت في شروح طويلة ومضنية ان اقنعه بان سوريا الطبيعية هي وطن وهبه الله كامل مقومات الوطن ، وانها امة تامة لان كل مقومات الامة وكل شروط نشوئها وتكوينها واستمرارها ومنعتها متوفرة فيها اكثر مما هي متوفرة في فرنسا نفسها .

كتب لي يوم كنت منفيًا في باريس ، في نيسان 1963 عبارة جعلتني اعتقد يومذاك باقتناعه بعقيدتنا وصحتها نظريا وواقعا

Les erreurs d'hier peuvent être les vérités de demain

اي ما تعريبه : « ان اخطاء الامس يمكن ان تكون حقائق الغد ، اي حقائق المستقبل » الا ان لقاءنا في بيروت سنة 1971 اثبت لي ان الرجل مع الانعزاليين الى النهاية .

حقا ان كل الاحداث التي توالى على امتنا وخاصة الاحداث المصرية كقيام بولة الاغتصاب - اسرائيل ، وكالمؤامرة على لبنان والثورة الفلسطينية التي تدور رحاها حاليا على هذا البلد المدمى والمحترق تثبت ان كل الذين غالطوا سعادة وناقضوه

واضطهوه كانوا يحفرون بأيديهم الحفرة للبنان ولأمتنا السورية العربية بكاملها .
اسأل كل هؤلاء ، لو ان سوريا الطبيعية موحدة هل كانت قامت اسرائيل ؟
اسأل كل هؤلاء ، لو ان سوريا الطبيعية توحدت على اساس فصل الدين عن الدولة ،
هل كان يمكن ان يفكر مواطن واحد بالاقتيال مع مواطن اخر على اساس مذهبي او
طائفي !..

لقد ارسلت العناية الالهية سعادة منقذا ورسولا ولكن كما كانت تفعل الشعوب
الغبية عبر التاريخ بانبيائها ، فعلت بالرجل الذي لم يكن له هدف ولا غاية الا ان يوحد
ما جزأه الاستعمار من سايكس - بيكو الى سان رامو ، وان يدفع بهذا الشعب في طريق
الحضارة والخلق ، في طريق المثل العليا المشرفة لأي انسان او أي أمة في أي زمان
ومكان .

25 رفيقاً في البسطة خلال ساعة واحدة

يقول مثل فرنسي : ان رجل السياسة اما في السجن واما في الحكم ، وكم من ابطال التاريخ انتهوا على خشبة الاعدام او في غياهب السجون . ما ضار سعادة ولا ضارنا ان انكشف امر الحزب ، بل اننا بعد ان شهدنا موجة التأييد الشعبي العارمة التي قولنا بها ، والاقبال على الانضواء بعفوية واندفاع نادرين ، نسينا مرائر السجن واوساخه وظلامه .

والمعلم نفسه ، لم يكتئب لانه اضحى وحيدا وراء الاسوار العالية ، لاننا كنا في خدمته رغم الرقابة والتصييق ، ولانه اطمأن الى اننا لا نتخلى عن مسؤولياتنا الحزبية من جراء الصدمة التي اصابتنا عند افتضاح امرنا .

وبالفعل وتحت جنح الظلام وبسرية حكيمة راح المسؤولون يكملون الطريق وهم واعون المخاطر والمحاذير .

اما سعادة ، فاستفاد من وحدته ليتفرغ للتفكير والتأليف .

وكان من حسن حظه وحظنا ان المسؤول عن المستشفى كان الاجيدان كمال الزاهد . فقد استطاع ان ينقل تحت رعايته السجن الكبير ، وان يكون له كما كان لنا - ولكل السجناء الوطنيين - الاخ الامين الطيب .

في مستشفى سجن الرمل - وهو سجن من نوع اخر - لا ينام المرء على الارض بل على سرير . طعامه مميز ومتنوع ، لا تقفل عليه ابواب غرفته بل باب المستشفى الخارجي وحده .

كان اول نتاج حصلنا عليه من هداة السجن ان سعادة كتب كتابه الاول في شرح المبادئ . لقد سلحنا بالادلة العلمية القاطعة للتبشير والتعليم . صار بمقدورنا ان نتكل على مرجع . كانت ذاكرتنا وقناعتنا وايماننا هي مرجعنا الوحيد قبل كتاب شرح المبادئ .

صحيح ان المحاضرات العشر التي القاها الزعيم في رأس بيروت ، جاءت مستفيضة وشاملة ، الا ان ذلك الكتيب الصغير لا يزال رأسمالنا الاساسي ، نضعه في جيوبنا بسهولة كما نضعه في اذاننا بسهولة .

والاهم من شرح المبادئ ، ان تعاون الصديق والاخ الطيب الابدجيدان كمال الزاهد والذي سنأتي على نكراه مرارا وتكرارا ، انتج لنا كتاب نشوء الامم ، فبفضل تعاونه ؛ بنقله كل ما كان يطلبه سعادة من مراجع ، استطاع المعلم ، وقد كان بدأ كتابة نشوء الامم قبل السجن . ان يكتب عدة فصول منه كانت ناقصة ، بحيث صار جاهزا للطبع ، بعد سجنه الثاني الذي سنأتي على ذكره .

الذي يعرف اننا يكتب نشوء الامم سددينا فراغا كبيرا ، لا في مكتبة الحزب الثقافية والاذاعية فحسب ، بل في المكتبة العربية بوجه عام ، يدرك كيف ان السجن - وكلها شر وضنى وارهاق - تتفرج عن عمليات خلق فذة اذ تمكن العلماء والمهمين كسعادة - بمعونة رجال الخير والانسانية مثل كمال الزاهد - ان يثمروا الثمار اليانمات في صحراء قاحلة مغمورة بالظلام والسموم كسجن الرمل الكريه الذي كان من حسنات الثورة القائمة ان هدمته فاذا هو اثر بعد عين !..

وانتج سعادة في السجن قصة حملتها انا نفسي الى من كان يتسلم مني الرسائل اسمها دمية ، لا اذكر منها الاكلمة وردت في صفحتها الاولى هي كلمة « اراخنة » .

وانتج سعادة ادارة ايضا . فمن سجنه كان يدير الحزب . فما زرته مرة او زاره سواي او تمكن من الاتصال بالخارج بواسطة اصدقائه من الدرك او السجناء الخارجين الى الحرية ، الا وارسل وريقة او كلمة او توجيها . كان الحزب شاغله الشاغل ، كان الحزب وجوده ، كان الحزب جماع نفسه وجماع كيانه . هكذا تكون الرسائل والرسل .

كان آل الحداد ينقلون اليه الطعام يوميا . هؤلاء الطيبون الذين صاروا تحت التراب ، يظلون في ضمير النهضة ، لانهم - وقد كانوا عائلة غير ميسورة - كانوا يجوعون اذا اقتضى الامر لكي لا يجوع الزعيم او يجوع رفقائهم .

اما بالنسبة لي ، فقد كانت الاشهر الاولى بعد المحاكمة صعبة وعسيرة . كنت ملاحقا كما كان كل القياديين منا ملاحقين .

كانت عيون الامن العام والتحري تطارنا ليلنا نهارا . ومع ذلك فما اقتنعنا ، ثابرتنا ببطء وحذر . كانت نضاليتنا تتزعرع كما يتزعرع الطفل .. نحن ورثة عهود العبودية

والاستسلام . لولا سعادة لكننا ظننا ان النضال قصائد حماسية وخطب فياضة ومظاهرات . فنحن الان في حزب أي في عهدة مسؤولية تاريخية هي مسؤولية السير بالنهضة الى الامام ، تصميمنا كان يعني حفظ الف باء النضال وممارسته ..
يجب ان نضيف الى ان انتاجنا وسعادة في السجن لم يكن ضخما . العمل السري يعني الطواف في القرى والساكر والاحياء . يعني نوعا من الصيد الحذر . كان همنا ان نتلقى والمؤيدين وان نبشر وان نقوم بعمليات الادخال . وكانت الإشراف والافخاخ مبعوثة في السبل والمنازل . وكان علينا ان نتقيها فلا نتعثر ولا تقع .

وكانت الاندفاع الشعبية بحاجة الى حصاد ، ولكن اين الحصادون المهرة ؟ ..
اذكر اننا في البسطة ادخلنا في ساعة خمسة وعشرين رفيقا ، ما كنا نحمل غربالا . فرحتنا كانت ان نتبسط وان يرتفع عدنا . كنا نريد ان نصبح جيشا كبيرا في شهرين قصيرة . وقعنا في اخطاء لعدم التدقيق والروية في الاختيار . ولكن لاننا اول حزب منظم واول تجربة بهذه الخطورة ، كان علينا ان ننشئ « التراث » الحزبي كاملا وشاملا بانتصاراته وانكساراته ، بصوابه وخطئه .
اثناء زياراتي المكررة لسجن الرمل ، ولقاءاتي بالمعلم ، لم اكن احمل له اكثر من الاخبار عن الخارج واكثر من العزاء ، كنت قد خبرت بنفسي كم يرتاح السجين الى المحامي تماما كما يرتاح المريض الى الطبيب .
قال لي مرة وقد احس بوجع في كتفيه : اسأل احد اصدقائنا من الاطباء اذا كان هذا الوجع نوعا من « العصبي » او مؤشرا لمرض آخر . اكثر ما يخشى السجين المرض . انه عدوه رقم واحد . كل شيء محمول داخل الاسوار العالية الا الاوجاع والحمى والاعراض الخطرة .. اذا مرض السجين ، فقل ان انسانا مقيدا يتخبط في بحر ، يحس انه يغرق غرقا بطيئا ..

شيء اخر يعطل حيوية السجين ويعطب صبره ، انه عدم الاستقرار . بعد ان يحكم — خاصة اذا كانت العقوبة خفيفة — يشعر بان نصف طريقه قد قطعت . كل يوم يمر هو قفزة على درب الحرية .

وهكذا مرت الشهور الستة من عقوبة سعادة ، ورحنا كلنا نتطلع الى يوم حريته لنقيم له اقواس النصر ونفرح معه بالعودة الى الشمس والهواء و ... الشعب ... والحزب ، وان يكن ما تخلى عن الشعب والقضية لحظة واحدة لانها تساوي له كما تساوي لكل واحد منا ، كل وجوده .. ولكنه المعلم .. والتلامذة بانتظاره اذا طال عنهم غيابه .

برديول: "إننا نسحق بالدم المبادئ التي بها أمتنا"

كنا ننوي القيام بتظاهرة ، تنطلق من باب سجن الرمل ، حتى دار الزعيم في رأس بيروت ملك قسطنطين ربيز ، في شارع بلس . اتخذت السلطات المنتدبة واللبنانية تدابير لمنع مثل تلك التظاهرة ، لأنها نوع من التحدي ، فالرجل الذي سجن لا يعود الى الحرية عودة أي سجين . انه يعود محمولا على اكتاف الشعب .

كان ذلك في 12 أيار 1936 أي بعد ان امضى الزعيم الستة اشهر التي قضت بها المحكمة المختلطة في 27 - 1 - 1936 كنا ننتظر في المنزل المأجور حديثا . عدد من المسؤولين في المناطق وفي بيروت . وقف في وسط الدار ونحن حوله في شكل دائرة . وقد القى كلمة قصيرة حول المرسوم الذي صدر عن الحكومة اللبنانية القاضي بحل الجمعية المسماة « الحزب القومي السوري » وكانت هذه الكلمة كما اذكر ، ان الحكومة اللبنانية حلت الحزب السوري القومي بمرسوم جمهوري . ان الحكومة يمكن ان تحل الحزب ولكنه قائم بارادة الشعب ، وارادة الشعب تستطيع ان تحل الحكومة اما الحكومة فلا تستطيع ان تحل ارادة الشعب . ليست هذه الكلمات هي ذاتها التي القاها الزعيم ، ولكن كان هذا معناها . وقد اعثر على نص الجملة لأنني اتذكر تماما بان قرأتها في احدى نشرات الحزب القديمة .

تركنا سعادته يرتاح من اوساخ السجن وانتقاله وغلاظته ، وكان من المقرر ان يستقبل المديرية في بيروت واحدة بعد الاخرى ، وان يلقي في كل مديرية بعضا من كلماته . ثم كان دور المنفذيات والمناطق .

لم يسعدني الحظ ان احضر كل الاستقبالات لان مشاغلي كانت قد تكاثرت ومسؤولياتي كذلك . الا ان الزميل الاستاذ فوزي برديول مر بي مع وفد زحلة في رتل طويل من السيارات . فقصدنا معا بيت المعلم . وقد استمعت الى الخطابين الحماسيين اللذين القاها كل من الاستاذ فوزي والاستاذ جوزف بجمدوني . اذكر عبارة ظلت راسخة في ذاكرتي ، القاها الاستاذ برديول :

« اننا سنحقق بالدم المبادئ التي بها أمانا » .

ان كلمة الدم ، قيلت بحماسة وفروسية ، اسف ان اسجل ان الزميلين العزيزين ما استمرا طويلا على طريقنا . كل منهما ذهب في سبيله . سبيل الوظيفة او سبيل الحياة العادية ، الموظف مهما علا رتبة ومرتبيا يظل مشدودا الى عبودية وظيفته . والحياة العادية في لبنان ، تعني الانجرار وراء الواجهات والثروة والتطلع الى افاق المراكز والمناصب ، والطموح الى المجد الزائف .. الذي لا يثبت امام اول نفحة ريح ككل شيء زائف !

في عودة القائد من سجن الرمل ، اكتشفنا في الحزب شاعرين ، عجاج المهتار في الشعر القومي الراقي ، ورشدي المألوف في الشعر العربي الكلاسيكي ، اما عجاج المهتار - من عرمون الغرب - فقد طبع قصيدته وتوجهها بصورة لسعادة وقد جاء في مطلعها :

الطب قبلك كان تجديف وريا
وما في نطاسي رد روح عو رفات
وداك رب العرش خاتم انبيا
ورسالتك في الشرق عملت معجزات
وكنت الحكيم وكنت للحكمة ضيا
ورجعت هالامة النفينة الحياة
تحيا وتحيا في سعادة سوريا
:يخفق علمها فوق كل الكائنات .

واكمل عجاج المهتار المسيرة الشاقة بايمان بالمعلم وبالقضية يزداد ويلتهب ، مع المواقف والمنجزات ، ومن قصيدته الاولى الى قصائده التاليات ، الى يومنا هذا ، وهو يغني تراثنا المنظوم بالزوابع والزوائد ، الى ان اصبحت بعض قصائده على كل شفة ولسان ، في الوطن وعبر الحدود ، تلقى او تغنى ، فتستثير احيانا الحماس وحيانا الشجن والاسى . وهو الى ذلك مناضل بالقلم واللسان والجسد والروح . ما دعي الى واجب الاستجاب . ناعت كتفاه حاليا باعباء النضال والسنين ، فاذا بهما تعرضان وتستقويان ، وتقاومان على قدر الامكان ، لكي لا يؤتاهما الانحناء . وبالايمان الذي رافق شعر عجاج ونضاله ، ليس عليه بمستحيل ، حتى ولو كان محاربة السن والسنين . قلت واكرر ان بعضا من رعيننا الاول في الحزب سنديانات متينة الجنور .

إذا لوت العاصفة بعضها أو اقتلعت البعض الآخر ، إلا أنها لم تقو على عجاج المهتار ، الشاعر والمناضل ، لأن إيمانه أقوى من العاصفة كلها ، قد يلتوي ولكن سرعان ما يستقيم ويتصدى من جديد للعاصفة ، في مسيرة القضية المحفوفة بالمخاطر .
أما الصحافي الرشيق والشاعر المبدع والأديب رشدي معلوف ، فقصيدته في استقبال سعادته العائد من السجن كانت من بواكيره (أقرأها في الصفحة 26 من كتاب جبران جريج « مع انطون سعادة ، الجزء الثاني ») وخاتمتها البيت الرائع :
رب تاج عز فيه ملك
قدسوه تحت أقدام سجين .

ظل يعلو ويرتفع إلى أن أصبح أسما مرموقا في عالم الأدب وعالم الفن – كقيادة فني وفي عالم الصحافة . أنه من الذين تربوا في بيت قومي فلا غرو إذا هو جدد وتجدد . ولكن كم اضاعت لنا السياسة اللبنانية – بالاعبيها واغراءاتها – من شعراء وأبباء ومفكرين .

رشدي المعلوف كان واحدا منهم ، صحيح أننا ما شاهدناه عاملا فعلا ، ولكن كنا دائما نحسبه واحدا منا . في الأربعينات انتهت فانتهاى حزبيا . ما قامت بيننا وبينه حروب . بيت بطرس المعلوف (والده) وأم فخري (والدته) كان بيت الحزب منذ ما قبل الانكشاف . لذلك فعندما كلفت بالتحقيق في مخالفاته لأوامر الحزب في انتخابات 1943 واقترحت فصله ، كانت يدي ترتجف لكثرة ما أحب هذا البيت وهذه العائلة .
الشاعران اللذان اكتشفناهما اثر عودة المعلم من السجن ، لم يكونا وحيدين . ففي تلك المرحلة القصيرة بدأت تباشر الأدب القومي تلوح في الأفق .. يوسف الخال في طرابلس . وليم صعب في الشويفات ، وقد أصبح أمير الزجل في ما بعد . ولا نشير إلى صلاح لبكي لأنه كان قد اشتهر بما كتب ونظم . كما أن فؤاد سليمان كان يعطي أولى شماره ..

عودة سعاده الى المحرّية

في ذلك الزمان ، ورغم شح المداخل من المحاماة ، ورغم تكاليف العيش العائلي والبيت المفتوح ، ما كان بالامكان ان افوت علي فرصة الفرحة بمقدم المعلم من الاسر ، لقد رهنت ساعة كان اهداها الي خالي انطونيوس الزاخم ، - وهي ساعة ثمينة جدا - عند احد باعة التبغ من اصدقائي على الزيتونة ، واقمت حفلة في منزلي ، دعوت اليها اركان الحزب وبعض الاهل وبعض الاصدقاء . كان الزعيم انذاك يدخن الغليون ، ويشرب قليلا من الخمر ، ليست الحفلة بحد ذاتها حدثا ينكر ، انما كانت وسيلة من وسائل تعريف سعادة الي مختلف طبقات الشعب . كل خطوة كنا نخطوها في مرحلة التأسيس ، كانت تأسيسية ، اي موجهة ناحية ما . في تلك الحفلة كان القصد ان نقيم بيننا وبين بعض العاملين في الصحافة ، بعض العلائق وبعض الجسور .

دعوت الاساتذة حميد فرنجية وحنا غصن وفؤاد ميداني وكل قياديي الحزب ، كنعمة ثابت وصلاح لبكي ومأمون اياس . لم يكن المقام مقام خطب ، كانت المائدة غنية بالاحاديث السياسية ، وحميد فرنجية ابن بجدتها . كما كانت غنية بالمستملحات من النكات الظريفة . ما يزال يرن في أذني صوت صلاح لبكي يداعب حنا غصن قائلا : يا حنا ، لو تمسكت بحبال الشمس لانزلتها على الارض ! يعني ان صلاحا كان يتهم حنا غصن بثقل الدم والبدن ..!

منذ تلك الامسية أصبح فؤاد ميداني ، وكان مخبرا صحفيا ومراسلا ومحررا ، يتسقط اخبار الحزب . ما اقسام يمين الانتماء ولكنه وضع نفسه ضمن امكاناته بتصرفنا . كم مرة احب الناس عقيدتنا لانهم احبوا سعاده ..!

انطباعاتي عن ايام سعادة الاولى ، بعد استعادته « حريته » انه ما عاد مرهقا ولا خائفا ولا قلقا ، صحيح اننا في ذلك الزمن العصيب كنا نعتبر ان اعلى مراتب الحرية هي الحرية في السجن . نفكر كما نشاء . نقول ما نشاء . مما نخشى او ماذا نخاف . اقصى حدود العقاب كان السجن . الا ان سعادة - وهو يؤمن منذ التأسيس ان الحرية صراع - ما تهيب ان يعود الي ساحة النضال كأن شيئا لم يحدث ، ما السجن للمناضل

برادع ، بل هو مكان للتأمل والابداع . الم يؤلف سعادته شرح المبادئ وهو سجين .
الم يكمل كتابه في علم الاجتماع نشوء الأمم وهو في السجن ايضا .
انن ، عودة سعادة الى الحرية ، كانت عودة الحياة الى الحركة السورية القومية في
كل الادارة الحزبية من رأس الهرم الى الوحدات الادارية الصغرى .
اما العقبات التي واجهت سعادة في تلك المرحلة فكان اهمها :
اولا : المفوضية الفرنسية العليا والحكومة اللبنانية .

ثانيا رجال المدرسة السياسية القديمة من القائلين بالقومية العربية والانعزاليون
الخائفون على سيادة لبنان من القومية السورية .
ثالثا : رجال الدين والاقطاعيون والرسماليون المتحالفون مع الانتداب والنفوذ
الاجنبي .

رابعا : الصحافة اللبنانية على وجه العموم وقد كانت في ذلك الزمان تحت كابوس
التعطيل الاداري .

ولقد تصدى سعادة لهذا التيار الجارف من العداء ، بالنزول الى الشعب . فما افلتت
من يده فرصة يلتقي فيها الطلاب والشباب والعمال والفلاحين والمثقفين ، كان طويل
النفس في الحوار . لا يغضب ولا ينفر ولا ييأس . في احد لقاءاته مع الدكتور شارل
مالك في بيت آل معلوف ، دام النقاش سبع ساعات متواليات وكان اسلوبه في الحوار
والنقاش اسلوبا هجوميا ، لا يلين الا ليزداد قسوة على مناظره ، دون ان يخرج عن
قواعد المناظرة تأدبا واحتراما . سلاحه الاساسي والامضى قوة شخصيته ، قوة
حجته ، وسعة اطلاعه وشمول معرفته ، ما كان يغرف الا من خزانات ملأى ، تشعر
وهو في احتدام النقاش كأنه يسلط عليك مع دفق حججه وادلته ، عينين تقدحان النفوذ
والفرض ، فكأنما تنزل حججه وادلته من هاتين العينين قبل لسانه الذرب .

وكانت مواقفه العامة ، سواء في خطبه او تصريحاته الصحفية او لقاءاته
السياسية ، مواقف التحدي ، ما بدا لي مرة واحدة وكأنه يخشى من اتخاذ مثل هذه
المواقف أية خشية . المتحدي العنيد لا يعرف للخوف معنى . والرجل الذي حمل نفسه
وحيدا في المنطلق مسؤولية انبعاث امة ، ما كان بإمكانه ان يكون الا قدوة في البطولة
الرائدة ، ان سعادة كان ثورة حية مسلحة بالعلم . لو كان لديه سلاح مادي بقدر ما
كان لديه سلاح علمي وايماني لكان حقق للأمة في (اشهر) ما لم تستطع تحقيقه في
سنوات .

الفرنسيون حرضوا عليه عدا الامن العام والتحري وكل بوليسهم السري

ومخبريهم ، كل صحفي تقريبا يأتمر بأمرهم او يسير في ركبهم . ما كان يخطو خطوة الا تحت عيون الرقباء والجواسيس . كان الفرنسيون والحكومة اللبنانية يحصون عليه - وعلينا نحن اعوانه - كل نفس من انفسنا .

الا ان سلاحه لم يكن فقط قوة شخصيته وثقته بنفسه وثوريته الجارفة . كان ايضا ايمانه بالشعب . ان ظهور الحزب اطلق تيارا من الامل والايمان ، ما كان احد - حتى سعادته نفسه - ينتظره بمثل هذا الزندفاع وهذه القوة . نكرت - واكرر - ان المقبلين على الدعوة كانوا يتسابقون في الجبل والمدن على الانضواء تحت الزوبعة . كانت شخصية سعادة وشخصية الحزب البطولية جانبيهم الاول .

وكنا نحن اعوانه - رغم تلكؤ بعضنا وانصرافهم الى تأمين لقمة العيش - نزداد به ثقة وبشعبنا ايماننا . وكنا نقاوم الاضطهاد الخفي والعلني الذي يواجهنا في بيوتنا ومهننا واعمالنا ، كنا نقاوم بالصبر والاحتمال ، كنا قد اصبحنا اصلب عودا . ان شمولية الرؤية عند المعلم ، كانت تفرض ان يحسب لكل شيء حسابا . ما فاته مثلا وقد بدأت مفاوضات الاستقلال ايام حكم الجبهة الشعبية في فرنسا برئاسة ليون بلوم . ان يصدر امره الى صلاح لكر . ان يقدم مذكرة باسم الحزب الى الوفد السوري المسافر الى باريس برئاسة فارس الخوري على ما اذكر ، كما لم يفته اسابيع بعد خروجه من لسجن ان يطلب الي تهيئة لقاء بينه وبين السيد كيغري رئيس المكتب السياسي في المفوضية العليا ، لكي يتقي شر الفرنسيين ويربح بعض الوقت وبعض المرونة في التحرك الشعبي ، دون ان يظل فوق رأسه ورأس الحزب سيف ديموقليس الرهيب ! ..

علاقاتنا بفنز

حدد سعادة طبيعه وهدف أى علاقات اجنبية للحزب في خطابه التأسيسي في اول حزيران 1935 . طبيعه العلاقات انها لقاء الند بالند ، وهدفها اعتراف الدول الاجنبية بسيادة الأمة السورية على ارضها وشعبها وحقها في الحياة الحرة وبوحدة ترابها القومي اي بازالة التجزئة التي فرضتها مصالح المنتصرين في الحرب الكبرى الاولى في معاهدة سايكس بيكو وفي مؤتمر الصلح في فرساي .
وهذه العلاقة بطبيعتها واهدافها تنبع من المبدأ الاساسي سامن القائل بان مصلحه سوريا فوق كل مصلحة .

من هنا لم يكن سعادة ليرتبك او يتردد في اقامة علاقات اجنبية مع أية دولة من الدول ذات المصلحة في اقامة مثل هذه العلاقات مع الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي اعلنه سعادة دولة الامة السرية المصغرة .
تناولت الصحف والاسنة المفرضة . كما تناول جواسيس الانتداب موضوع علاقاتنا الاجنبية . بكثير من التجني وبكثير من الافتراء وحتى التلفيق والتزوير .
قبل انكشاف امر الحزب جاعني الاستاذ وفيق الحسامي الى مكتبي في الزيتونة ، وكان لا يزال طالب حقوق ، وقد اصبح فيما بعد رئيس غرفة في محكمة استئناف بيروت ، و اشار الي من طرف خفي على قلقه فيما بلغه عن علاقات الحزب بالطلليان .
فطمأنت الاستاذ وفيق الحسامي ، الرفيق يومذاك ، وعدت به الى خطاب اول حزيران ، واقنعته بان الحزب لا يمكن ان يتخلى عن مبدئيته وعن عقيدته ، في تعامله مع أي كان . وان كل علاقة او اتفاق يجب ان تصب بالنتيجة في مصلحة الامة كما اشرت بان حزينا ليس حزبا تبشيريا فحسب . انه حزب ثوري ، انه حزب يناضل في سبيل استقلال البلاد وتوحيدها وتحقيق نهضتها ومثلها العليا . فلنا ان نستعين باعداء اعدائنا للتخلص من اعدائنا !

لا اعرف اذا كان « الرفيق » وفيق اقتنع ام لا .

ولكني اعرف ان ثقتي بالمعلم كانت قد تكاملت فلم اسأله عن هذا الموضوع شيئا .

ولكنني في بيت زكي النقاش وبحضوره وحضور نعمة ثابت طرحته بمناسبة غزو ايطاليا للحبشة . ثم عدت الى طرحه بعد السجن الثاني عندما نشر عزيز الهاشم اقتراءاته ضدنا وتلقيه اخبارا عن علاقات مشبوهة بالطليان .

اردت من هذا العرض ان اجد مدخلا للزيارة التي قمت بها مع المعلم الى رئيس المكتب السياسي في المفوضية العليا السيد كييفر في مطلع شهر حزيران 1936 اي بعد خروج سعادة من السجن ببضعة ايام فقط .

يقال على سبيل التندر ان رئيس الوزراء والوزراء في لبنان هم « باش كتاب » - اي رؤساء الاقلام - عند رئيس الجمهورية اللبنانية ووزراءه كانوا فعلا « باش كتاب » عند المفوض السامي . واذا عدنا الى الصحافة في ذلك الزمان نجد ان النواب - عندما كان المفوض السامي - يسمح بوجودهم او استمرارهم كانوا لا يأخذون موقفاً او يسنون قانونا الا بعد استئزال الوحي من « الطور » المفوضية العليا كانت اذن الطور او مهبط الوحي . السياسيون في لبنان كبيرهم وصغيرهم كانوا احجار شطرنج تحركها اصابعها حسب الظروف الموضوعية . قليلون من سياسيي لبنان نجوا من هذه الصفة كالشيخ يوسف الخازن والشيخ ابراهيم المنذر .. وجورج زوين .

اشرت الى هذا الواقع لكي ابرر لقاء سعادته مع السيد كييفر ، قبل لقائه مثلا مع اي من الحكام الوطنيين .

لم اكن اعرف السيد كييفر . اتصلت به هاتفيا وقدمت نفسي وطلبت موعدا لسعادة ولي . ولما سئلت عن الغاية من الزيارة . قلت زيارة تعارف ومجاملة . فعين لي الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم التالي . (راجع بهذا الموضوع الصفحة 91 من كتاب جريج مع انطون سعادة) وذهبنا .

كان سعادة قد اعتاد تدخين الغليون . فكان يحمل غليونه وعدته .

ودخلنا على السيد كييفر .

سعادة يفهم اللغة الفرنسية ويتكلمها ولكن ليس بنفس السهولة التي كان يتكلم بها الانكليزية واليورثغالية والاسبانية واليطيانية والروسية والالمانية .. وطبعا العربية ، نعم كان سعادة يتكلم ثمان لغات .

كنت اترجم اقوال سعادة الى الفرنسية بينما سعادة كان يفهم فرنسية كييفر بسهولة .

ما قابلت من قبل سياسيا اجنبيا لا وحدي ولا مع مسؤول اخر ، الامثلة الاولى اذن

في الدبلوماسية كانت تلك المقابلة . كان سعادة طبيعيا كأنما يقابل رجلا يعرفه من زمان . لا ارتباك ولا انفعال ، لا تواضع اكثر من اللزوم ولا مجاملة اكثر من اللزوم . اما السيد كيفر فقامة فارعة . وجسم يراوح بين السمنة والنحافة . ووجه ابيض ، وفم اميركي اكثر منه فرنسي ، ولسان بين الوضوح والتأتأة ، ذاك انطباعي عن السيد كيفر ..

لاحظت وانا اترجم وأعرب ، ان سعادة - الذي لم يطلعني على المواضيع التي سيبحث - كان يريد ان يسيطر على الموقف بالمعرفة والاطلاع الشامل ، وكان يريد ان يترك للسيد كيفر قناعة بانه ليس سياسيا كباقي السياسيين بل رجل فكر وعقائدي ، السياسة عنده وسيلة من وسائل تذليل العقبات امام النضال الحزبي .

من هنا كان البحث عن سوريا التاريخية - بحدودها انذاك - واشتمالها فلسطين - سوريا الجنوبية - ومعاهدة سايكس بيكو - ثم تعريج على التاريخ القديم وسانتاز انطاكية ، بين الشرق والغرب ، ثم الاعصر الحديثة ثم اخيرا السياسة اللبنانية والسورية والسياسيين في البلدين وخاصة رياض الصلح وعبد الحميد كرامي .

شرح سعادة الاسس العلمية التي بنى عليها عقيدته القومية ، كما شرح النظام الحزبي مبررا عسكرية هيكلته واسبابها ، ثم تطرق الى العلمنة وكيف انها تعالج جذريا قصة الطائفية والتحاقد الطائفي الذي يتآكل لبنان ، ويفعل فعله في الشام ايضا بين مختلف الطوائف .

عوداً على بدء

– ما كان احدنا ، من سعادة الى اخر واحد من اعوانه او من العاملين الناشطين الا ووراءه عيون المخابرات .

– لم يكن اسهل على السلطات الفرنسية من اتخاذ قرار الملاحقة الا تناول كوب من الماء .

– مدعي عام بيروت هدد بدس السم في طعام سعادة .
عندما يتقدم الانسان سنا ، تتراكم الذكريات في رأسه ؛ الجميل منها ، وغير الجميل . فاذا هم باستعراضها على الورق ، يشعر وكأنه يحيها من جديد . الماضي ، حتى المؤلم والمحزن الواخز ، ينبعث على القلم حلوا مره ، واطيفا شوكة ونسيما ناره .
لم اتوقف عن تدوين ذكرياتي الا مرغما . اشدد على ذكريات لانني اكتب استنادا الى ذاكرتي فقط ، تركت القراءة عند الحلقة 31 بعد ان قابلت مع سعادة لأول مرة رئيس المكتب السياسي Chef du bureau Politique كيوفر في المفوضية العليا في احد ايام حزيران من سنة 1936 وها انا عائد بهم لاكمال تلك السنة التأسيسية .

12- في ما سبق ، ان خروج الزعيم من السجن في 12 ايار 1936 ومظاهرات الابتهاج ، والتأييد ، والحماس الشعبي ، ايقظت لدى الامن العام الفرنسي الهواجس والوساوس والمخاوف . لم يعد الحزب حزب طلاب وشباب قلائل ، اخذتهم بتيارها الفارض شخصية سعادة ، او بهرتهم الفكرة القومية والتحرر والوحدة ، بل اصبح حزب الشعب ، تصلبت قدماه وساعده ، وشمخ انفه ، واكتسب بعضا من عنفوان الحزب العقائدي المؤمن .

ما كان احدنا من سعادة الى آخر واحد من اعوانه ، او من العاملين النشيطين ، الا ووراءه عيون الامن العام ، كنا تحت المراقبة الدائمة . كنا في اجتماعاتنا نحاط بتوزيع الحراس حول المكان . وكانت تحركاتنا تسيج بالكتمان وكل اساليب الحيلة من الجواسيس والرقباء .

الاعتقال الثاني :

لم اقتنع بما كتب الامين جريج عن تاريخ الاعتقال الثاني. انه لمحفور في ذاكرتي

تاريخ 30 حزيران 1936 لا 26 منه كما ذكر الامين . والباحثون يسهل عليهم البت ، من مراجعة صحف تلك الايام .

كيف اعتقل الزعيم - يمكن ان يقرأ في كتاب الامين جبران « مع انطون سعادة » صفحة 49 اما انا فاعرف كيف شاهده للمرة الثانية محاطا « بالجندرمة » داخلا الى قصر العدل تحت حراسة شديدة ، مكبل اليدين بالحديد ، متجهم الوجه كمن يحاول ان يكظم غيظا وهو يودع الحرية من جديد . « اذهب الى السيد كييفر ، قال لي وهو بين جلاديه » ..!

ولكن كيف اخرج من قصر العدل ، ومفوض الشرطة خريستونفان يضع حاجزا على المدخل ويجر الى غرفة الحراس كل المشبوهين .. كنت انا بين المشبوهين بلا ريب . وكان عدد من الرفقاء الذين عرفوا بالقبض على الزعيم فتبعوه الى القصر مستفسرين ، فادخلوا غرفة الحراس ايضا ، كان هنالك صلاح شيشكلي وشامي اخر من حماة من آل العظم لم اعد اذكر اسمه .

فوجئت انا بأمر هذا الاعتقال الثاني ، لانه لم يكن مبررا ، عزيز الهاشم ، الذي قيل لنا انه قد يكون الواشي عند انكشاف سر الحزب هو الذي اذاع في الصحف احاديث واخبارا عن علاقات بايطاليا ، اثارت حفيظة السلطات المنتدبة ضدنا ، ثم انتشار الحزب في كل المناطق اللبنانية بسرعة مذهلة ومواقف وخطب سعادة المتحدية ، وتدريب القوميين العسكري والعتور على مرسوم الطوارئ مع فؤاد شاوي وهو مؤرخ في 20 يونيو 1936 لا 30 يوليو 1936 كما ورد في الاثار الكاملة الجزء الثاني صفحة 223 .

والبلاغ الازرق المؤرخ في 15 يونيو 1936 (الاثار الكاملة - الجزء الثاني ص 215) ، اتخذت كلها نرائع للملاحقة القضائية الثانية . ولو لم يكن اسهل على السلطات الفرنسية ، والسلطة القضائية التابعة لها فعلا من ايجاد المستند القانوني الاتناول كوب من الماء ، لوجود قانون سمي بقانون قمع الجرائم معروف بالقرار II5 ل . ر . كان يجيز لرجال المباحث سوق من يشاؤون الى السجن لانه كان يحظر اجتماع اكثر من ثلاثة اشخاص مع بعضهم والا اعتبر اجتماعهم اخلا لا بالامن ! .. باسم هذا القانون « كنسوا كل المشبوهين » من قصر العدالة ! ..

رحنا ننتظر ، من العاشرة صباحا حتى الثانية بعد الظهر ، كانت زوجتي حاملا في شهرها السابع . راعها تأخري فهرولت مع عدد من النسوة ، امهات او زوجات او اخوات ، ورحن يستجرن برجال الدرك لانقاذنا . كن يتصورن ان مصيرنا بيد « الجندرمة » لا بيد المفوضية العليا ..

في الثانية استدعيت انا في الطليعة ، يشعر المحامي في قصر العدل انه نصف اله ، انه في ساحته في ميدانه ، في موقع قوته ، المحامون – منذ اعتقالي الاول مع صلاح لبكي – هزوا اعمدة القصر . وقفوا وقفة عز ، انتزعونا تحت التهديد بالاضراب من براثن التحقيق ، ما تجرأت العدالة علي ، هذه المرة ، لجرد اني كنت قرب سعادة ساعة وصوله مخفورا ، واخلي سبيلي على الفور ، اما الباقون من المشبوهين فقد رحلوا الى سجن الرمل دون استثناء !..

ما كان مضى وقت طويل على لقائنا بالسيد كيوفر – الذي قرأت خبر وفاته منذ ثلاث سنوات لذلك لم يستغرب اني هتفت به في منزله في زقاق البلاط . استقبلني لتوه ، وخرجنا نتمشى على الطريق ، وهو يطمئنني بقوله : « لا ، لا يوجد خطر كبير » . ووعدني بالتدخل لاطلاق سراح سعادة ، ولكنه لم يفعل ، كان المحقق في ذلك الحين الاستاذ حسن قبلان الذي صار فيما بعد مديرا للعدلية ، كان بين القضاة من اوسعهم اطلاعا واعلاهم كعبا وكان الى ذلك مقربا من الفرنسيين ، يتقون بقوله ويحترمون رأيه . لقد ادرك منذ اللحظات الاولى انه ليس امام رجل عادي . فكان يستدعي المتهم الجديد . فيقدم له القهوة ، ويجالسه ويمزحه ويحاوره ، لقد اكتشف فيه القائد والعلامة والعقائدي المؤمن الصلب . وسعادة وثق به واحبه وظل يذكره بالخير الى اخر لحظة من حياته ، تماما كما فعل مع المعاون كمال الزاهد الذي مده في سجن الرمل في الاعتقال الاول والثاني بالمراجع الضرورية لاكمال تأليف كتابه « نشوء الأمم » . ولكتابه « شرح المبادئ القومية الاجتماعية » .

كان التحقيق يدور – اكثر ما يدور – حول العلاقات الخارجية ومزاعم عزيز الهاشم وما نسج حول هذه العلاقات من روايات وقصص بعد ذلك بعام او عامين اتصل بي ابراهيم مخلوف واخوه مؤسسا وصاحبا مجلة « مجلة لبنان والشرق الاوسط Revue du liban » التي كانت تصدر صغيرة الحجم باللغة الفرنسية . وطرحا علي اسئلة بخصوص الحزب وعلاقاته الاجنبية وزوبعته ونظامه شبه العسكري اجبت عليها بالتفصيل . وكنت قد ترسملت بقرار القاضي حسن قبلان الذي برأ ساحة الحزب تبرئة كاملة من أية علاقات بالظليان او بالالمان .

ان توقيف سعادة كان بقرار سياسي . وخروجه من السجن كان يجب ان يتم بقرار سياسي ، حسن قبلان ووجيه الخوري او ديمتري الحايك وحدهم لا يستطيعون اتخاذ القرار ، القضاء السلطة الثالثة ، المستقلة نظريا المفصولة عن باقي السلطات نظريا لم تكن لا ايام الانتداب ولا بعده مفصولة عن السياسة . يوجد قضاء في لبنان (الرئيس

اميل ابو خير) الرئيس يوسف جبران لا يوقعون الا حسب ما يملي عليهم القانون
لا السياسة. ومبدأ فصل السلطات كما تصوره مونتسكيو موجود في كتب الفكر السياسي
والدساتير ولكنه حبر على ورق ولعل بالامكان القول ، انه وان بقي فكراً محترماً وموضع
اخذ ورد ، سلباً او ايجابياً الا انه في التطبيق العملي ، سقط سقوطاً مريعاً ولذلك
اقترحت يوماً ان تعين محاكم « دولية » لمحاكمة المجرمين السياسيين ، لا ان يحاكموا
من قبل قضاة متحيزين حكماً مع السلطة التي انتفض المجرمون السياسيون عليها !
لنعد الى الاستاذ حسن قبلان ، بقي سعادة في « ضيافته » حتى اواسط الخريف ،
اي في مطلع تشرين الثاني 1936 .

كنت انا المحامي الذي يزوره باستمرار ، ومنه اخذت مشروع قصة اسمها « دمية »
ضاعت مع الاسف في ملفات التحقيق كما ضاعت الاوراق والمراجع التي ضببت من
منزله وفيها كل مواد كتابه نشوء الامم (الجزء الثاني) الذي لم يستطع انجازه بسبب
فقدان هذه المراجع وبسبب السجون المتلاحقة والدسائس والمؤامرات .

كان يشكو في السجن هذه المرة من الآم في كتفيه . ويحدثني عن اعصابه وكيف انها
تعبه ، منهكة ، ولاني خبرت السجن معه بضعة ايام ، كنت اقدر مبلغ الاذى الذي
يسببه الاسر للاسير والسجن للسجين !!

لم يكن يخفى عليه شيء مما يدور في الخارج فالتقارير كانت تصل بانتظام
والتعليمات تصدر بانتظام . الوسائل ليس وقت افتضاحها الان . فقد نحتاج اليها في
مقبلات الايام او تحتاج اليها اجيال الجهاد الاتي .

لو كان بالامكان العثور على ملفات التحقيق . الذي قام به قبلان (توفي قبل ثلاث
سنوات اثر مرض عضال) ، لأمكننا ان نقرأ بخط سعادة اجوبته على الكثير من
الاسئلة التي كان يطرحها عليه المحقق ويطلب اليه ان يكتب اجوبتها بخط يده ...

خلال هذا السجن ، ولد ابني البكر صباح ، في 13 ايلول الساعة الثانية الاثلاثا
بعد الظهر والذي يراجع سجلات قصر العدل ، لو وجدت ، يقرأ ان شلة من الرفقاء
بقيادة الرفيق عجاج المهتار كانت تقوم بتظاهرة امام سجن الرمل مطالبة بالافراج عن
الزعيم ، وان رجال الامن فرقوها بالقوة بعد ان القوا القبض على عدد من المتظاهرين
وسيقوا الى المحاكمة وجوكموا بعقوبات رمزية .

وعلى ذكر تهديد سعادة بدس السم في طعامه في السجن ، من قبل مدعي عام
التمييز ، الوارد في كتاب الامين جريج صفحة 53 ، صحيح مئة بالمئة ، الا ان الذي
هدد سعادة ، لم يكن مدعي عام التمييز ، لان لا علاقة له به ولا بالتحقيق ، بل مدعي

عام بيروت الاستاذ وجيه خوري من بعدا (توفي منذ مدة طويلة) وكان الرجل يهدد نون ان يقصد بالزعيم سوءا فقد كان وجيه خوري من القضاة المحترمين حقا رغم تحامله علينا بدوافع سياسية .

اما ربود الفعل ، فكانت رسائل تهديد وصلت الى المدعي العام شخصيا ، بالاضافة الى تدخل السيد وديع الياس ابن عمه الزعيم ، للتاريخ انكر ان تهديد الزعيم لم يكن جديا .. الحزب كان قد اصبح من القوة بحيث لم يكن لدى احد من القضاة او من حراس الرمل الجراة على اغتيال سعادة بدس السم في طعامه ولم تكن القسوة قد بلغت في النفوس الحد الذي بلغته في حرب السننتين الاخيرتين فصار الانسان يتباهى بعبد الرؤوس التي قطع ، والاعين التي فقأ ، والأذان التي اسقط عن الوجوه .

بهذه المناسبة يترأى لي ان القطعة الادبية الرائعة التي نشرتها مجلة « الجمهور » في 2 اذار 1936 تحت عنوان « لولم اكن انا نفسي لاربت ان اكون انا نفسي » ، كتبت في السجن وارسلها الزعيم معي الى المجلة (راجع المقالة في الاثار الكاملة الجزء الثاني صفحة 229) كم انا اسف ايضا ان القصة الادبية « دمية » التي سلمتها بعد استلامها من السجن الى المركز الحزبي العامل اذناك فقدت مع ما فقد من اوراق سعادة الادبية والعلمية .

تشرين الثاني 1936 :

لست انكر لماذا عينني سعادة رئيسا لمجلس العمد ، عوضا عن نعمة ثابت الذي كان رئيسا دائما من قبل ومن بعد ، ولكنني اجزم اني عينت بمرسوم من سعادة رئيسا للمجلس لاني عقدت بهذه الصفة مؤتمرا للمنفيذين العامين في الاشرفية ، واستقبلت السيد محمود الرافعي ، الذي كان عضوا في الحزب ، استقبلته بهذه الصفة وقد ذكرني هو بها في ايار 1957 عندما التقينا على ظهر الباخرة التي كانت تقل ابي الى كوارسو وانا وأودعه كما أصدرت اوامر الى فرقتين الواحدة بقيادة مأمون اياس للتوجه الى الاشرفية والثانية بقيادة جورج عبد المسيح للتوجه الى البسطة ، وذلك بطلب من الزعيم نفسه في غاية مواجهة جموع المتظاهرين والقاء خطب التهدة والدعوة الى نبذ العصبية الدينية والطائفية والانصار في الاخاء القومي كما وزعنا منشورا كان قد وجهه الى القوميين للوقوف في وجه التعصب الطائفي البغيض .

(راجع الاثار الكاملة جزء 2 صفحة 231) .

واني لذاكر ان سعادة اقالني من هذه المسؤولية بسبب خطأ ارتكبته اذ كان سلمني اوراق الدستور جميعها لاصنفها واطبع ملاحظاتي عليها قبل اصدارها في كتيب ،

ففعلت واعدتها اليه مع احد الرفقاء دون ان اثبتت من هويته . فكان ان سجل علي هذه الخطيئة واقالني فورا .

اما كيف طبعنا الاف المناشير من نداء الزعيم الى القوميين في 16 نوفمبر 1936 فلذلك قصة طريفة كل الطرافة .

تلقيت وانا في مكتب المحاميين لوطنيين الاستاذين ابراهيم وفهيم خوري هاتفا من احد امراء الشعر الاخطل الصغير ، وكان لا يزال يصدر جريدة « البرق » ومكتبه في ساحة البرج ، بان اتوجه اليه على الفور ، فهرولت مسرعا استطلع الامر . فاذا به يسلمني رسالة مضمونة معنونة من الخارج باسمه ، ومن الداخل باسمي ، وفيها شك بمئتي دولار لامري مساعدة للحزب السوري القومي الذي كانت اخبار اضطهاده قد تناقلتها اسلاك البرق وامهات الصحف في العالم .
ما ان فضضت الرسالة ووقعت يدي على الشك حتى ركضت لاهتا صوب بيت الزعيم وكان قد اصبح في شارع بلس واطلعت على الرسالة وسلمته الشك .

كانت الرسالة من جمعية الاتحاد العربي في سانطافا ، Santafe Rosario الروساريو الارجنتين وكانت موجهة الي بوصفي عميدا للاذاعة ، المسؤولية التي كنت احملها يوم انكشاف الحزب .

لم اعد اذكر اسماء المرسلين ، ولكن اسم الجمعية لن يبرح ذاكرتي ما حييت ، خاصة وقد كنا - كما نحن دائما - في مأزق مالي ، كان سعادة حائرا كيف يبلغ الرأي العام والقوميين تعليقه على الاحتكاكات الطائفية بين المحمديين والمسيحيين بين الاشرفية والبسطة هذه الاحتكاكات التي حرص التقليديون عليها ، لا حرصا على الدين ، بل حرصا على استغلالها واستغلاله .

بالمال الوارد من جمعية الاتحاد العربي ، طبعت المناشير ووزعت على اوسع نطاق ، وعرف الناس منذ ذلك التاريخ كيف ان القوميين لا يبشرون بالعلمنة ، بفصل الدين عن الدولة ، بالسنتهم بل يمارسون ما به يبشرون ، يترجمونه الى اعمال ومواقف لقد نزلوا الى الشارع يقفون بين المتظاهرين بكل طاقاتهم المحدودة ليحولوا دون الاحتكاك الدامي والحرب الطائفية .

وكأنما كتبت مقالة سعادة لايامنا الحالية اعيد نشر بعض مقاطعها :

« ان تحويل الوطن الى ميدان ينقسم فيه الشعب الواحد ، الموحد المصير الى جيشين يتطاحنان للوصول الى غاية واحدة هي الخراب القومي ، عمل شائن لا يليق الا بالشعوب البربرية والرجعية تحب البربرية لان فيها حياتها وكرامتها » .

رحلة العلويين

لم يكن اخلاء سبيل سعادة في اواخر تشرين الاول او اوائل تشرين الثاني من سنة 1936 من قبيل الصدف . او بتساهل من المدعي العام وجيه خوري والمحقق حسن قبلان . كان بقرار سياسي . فقد كانت تركيا قد بدأت تحرك مسألة الاسكندرون (السنجق) وكانت فرنسا تريد الاحتفاظ بها سورية لتبقى تحت انتدابها . وهي تنقصر الى التأييد الشعبي . كان الحزب قد مد اجنحته فوق جبال العلويين . حيث انتشرت فروعه في كل المنطقة من طرطوس الى بانياس الى اللاذقية .. الى كل القرى والساكنر الجبلية . وكان نفوذه قد بدأ يتحرك في جبل الدروز والجزيرة العليا وآثاره ظاهرة في المدن الكبرى الشامية لكنها ليست فعالة .. كان الحزب قد نشط اعلاميا قبل خروج الزعيم من السجن ، عن طريق الاستاذ صلاح لبكي الذي كان رئيسا للجنة القيادية التي الفها سعادة وكانت جريدة « لاسيري » الصادرة باللغة الفرنسية تتبع اخبارنا بانتظام وتنشر تصريحاتنا وبياناتنا وقد نشرت بالفعل مذكرتنا الى عصابة الأمم بشأن الاسكندرون وهي مؤرخة في 1936/12/14 وكان سعادة في سجنه يفاوض ويحاور ، وموقفنا من الحدود الشمالية معروف ، نحن لانطالب فقط بالاسكندرون بل بكيليكيا ايضا . ان حدودنا هي جبال طوروس ولن نتخلي عن شبر من ارضنا القومية على الاقل طلبا واصراراً .

لقد « تلاقط » مصالحنا القومية – ولو لمرة واحدة في ذاك الزمان – مع مصلحة الانتداب . فكانت لنا فترة استراحة من الاضطهاد والملاحقات. لقد اغتنمها الزعيم فرصة للقيام برحلة اذاعية – سياسية – في طرابلس ومنطقة العلويين المتاخمة لانطاكية والاسكندرون .

بدأت الرحلة بين الخامس عشر والسادس عشر من كانون الاول من سنة 1936 . اكثر قياديي الحزب اشتركوا في تلك الرحلة ، نعمة ثابت ، مأمون اياس ، جبران جريج ، عجاج المهتار ، انيس فاخوري ، خالد اديب ، جورج حداد ، جميل عازار ، ومحمد النقاش وغيرهم ، كنت لا ازال عميدا للاذاعة رغم اقالتي من رئاسة مجلس العمدة .

مررنا في طرابلس فزرنا الامينة السابقة نجلا معتوق حداد احدى اوائل المناضلات في الحزب ، والمحالة على التقاعد حاليا بداعي السن والظروف العائلية والسياسية وكذلك قمنا بزيارة الامين السابق مصطفى خالد المقدم ، احد قدامى مناضلي الحزب وقادته في الشمال .

● في صافيتا :

وانطلقنا رتلا من السيارات الصغيرة والكبيرة باتجاه صافيتا قبلغناها في الموعد المقرر وكان الحشد الكبير في ساحة وسيعة اسمها الميدان امام بناء مدرسي . كان عدد الحضور يتجاوز الخمسة الاف . ذكرت الصحف - الفرنسية منها بصورة خاصة - انه بلغ الستين الفا . وكان منفذ المنطقة العام اديب الطيار قد اعد للمهرجان عدته ، فهي المرة الاولى التي يخرج فيها الحزب علنا من حدود لبنان الى حدود الشام ، وفي منطقة حساسة كالعلووين ، فيها عشائر تتنازع النفوذ والقيادة وفدها معين من الرجال الاشداء المتأهبين دائما للثورة (كان قد مر بضع سنوات على ثورة صالح العلي) . حيث الجموع المحتشدة الزعيم بالهتاف الحزبي ، والقي المنفذ العام كلمة قصيرة قدم بها المعلم ثم تكلم الزعيم ، ومما قاله (راجع خطابه المنشور بنصه الحر في الاثار الكاملة صفحة 237 من الجزء الثاني) .

« ان نهضتنا القومية هي الوسيلة الوحيدة لتأمين صفوقنا وصيانة مصالحنا » وان الوقت قد حان لاسماع العالم صوت نهضتنا والدفاع عن حقوقنا ومصالحنا » وان اول حق من حقوقنا هو حق سيادتنا القومية . وان اول مصلحة من مصالحنا « هي صيانة كل شبر من هذه الارض المقدسة التي عليها نحيا ومنها نستمد موارد الحياة » . « ان هذه الارض هي الان مهددة من ناحيتين من الجنوب ومن الشمال . ففي الجنوب في فلسطين تتغلغل الصهيونية وتستولي على اراض خصبة تصلح لاعالة الوف من السوريين ، ومن الشمال يستفحل الخطر على الحدود ويحاول ان يخرقها وليستولي على بقعة اخرى من البقاع السورية الخصبة الضرورية لحياتنا وتقدمنا .

« ان ثلاثين الفا من السوريين القوميون في لبنان عدا عن عشرات الالوف من المؤيدين والمحبذين يعدون حدودهم الوطنية حدود سوريا الجغرافية وهم مستعدون للاندفاع نحو الحدود عند حدوث اي خطر حقيقي .. »

« اني اعلن ان الاسكندرون ارض سورية ضرورية لحياتنا وتقدمنا واننا مستعدون للاحتفاظ بها مهما كلف الامر .

واني اعلن ايضا ان كل قضية من قضايا الشرق الابنى تكون لنا مصلحة فيها
وتسوى باهمال مصالحنا وارادتنا تكون تسويتها فاسدة (باطلة) .
ان سعادته البارع في الاستفادة من الظروف عرف في خطاب صافيتا كيف يوفق بين
الاتفاق السياسي الذي حصل بينه وبين الحكومة والمفوضية الفرنسية وبين حملة
اعلامية صارخة للحزب السوري القومي الاجتماعي المجسد للمصالح القومية العليا
وللحق القومي في كل شبر من الارض السورية العربية .
بعد هذا الخطاب ، الذي كانت مقاطعه تقاطع بالهتاف والتصفيق ، نزل سعادة
ونزلنا معه عن الشرفة ، باتجاه البلدة ، حيث كانت قد اعدت مأدبة غداء ضمت اكثر من
مئتي شخص ، باشراف المنفذية العامة .

ولقد حمل سعادة - اذكر ذلك جيدا - عملاق من صافيتا او جوارها اسمه
انطونيوس سعادة ، حمله على كتفيه وراحت الجموع تحدو متدافعة وراء العملاق يحمل
المعلم العملاق .

لقد لبست صافيتا حلة العرس ، كل الناس صغارا وكبارا كانوا يتسابقون ،
يتحاشرون لمشاهدة الرجل الذي وقف وحزبه الناشء في وجه اقوى دولة عسكرية
اوروبية وفي وجه عملائها وجيوشها في الشرق !..

وفي المساء القى الامين جريج قصيدته المنشورة في كتابه مع انطون سعادة صفحة
56 - 57 والقيت انا قصيدتي في الشهداء المنشورة في الصفحة الاولى من مجموعتي
الشعرية « وحي الظلام » والقى المرحوم غندوركرم الذي قتل سنة 1958 قصيدة ادعى
انه « نظمها » في يوم عرسى . وقصة هذه القصيدة طريفة ، لان ناظمها الحقيقي هو
الشاعر الفقيد فيكتور خوري (غلبون - جيل) وقد اسمعني اياها عندما قدم لتهنئتي
مع وفد من اصدقائي واخواني آل باسيل واذكر من ابياتها « وعرسك في تزويج لبنان
سوريا احب الى الاحرار من ليلة القدر » ، وقد انتحل المرحوم غندوركرم هذه القصيدة
مدعيا انه ناظمها واستمعت انا اليها وشفقت مع المصفيق ، دون ان افصح امره .
وتبارى الزجالون في تلك الاسمية العائلية ، والخطباء واصحاب النكات الطريفة
وسعادة يتألق في انسانيته ، ظرفا وادبا ومرحا .

وكان من حسن حظي ان انا في نفس الغرفة التي نام فيها سعادة ، افقنا في
الصباح مع الشمس ، من عادته ان يقوم ببعض التمارين الرياضية ، ومنها على ما
يبود ملاعبة مرافقيه بالبوكرس ، فاخذني بين يديه ثم اراد ان اكون انا خصمه في
اللعبة ، قلت له : حضرة الزعيم انا اصلح لكل شيء الال للعب البوكس وخاصة معك .

عليك بالرفيق انيس فاخوري ، انه جارنا في الغرفة المقابلة ، وهكذا كان ، وخلصت نفسي من ضرياته القاسية ولو على سبيل المزاح .. !
اذكر ان النهار لم ينقض نون عمل ، فزيارة الى برج صافيتا التاريخي الاثري ثم زيارة الى الباشا بشور ، واستقبال لبعض الشخصيات .

رافقت سعادة الى مرمريتا ومشتى بيت الحلو وتلكخ وعدت من هنالك الى بيروت ليلا مع فريق من الرفقاء ، فريق منا انتدب لرحلة الى الاسكندرون في مهمة خاصة . والياقون رافقوا سعادة الى متن عربوق وطرطوس ، حتى عودته الى المركز .

صادفنا طقس ربيعي ، بعد حفلة صافيتا التي لاقينا فيها ونحن نصغي لخطاب الزعيم رذاذا من المطر الخفيف ، ثم انقشعت الغيوم وصفا الجو وتابعا برنامج الرحلة ترعانا سماء صافية ، تكاد تشاركنا في فرحة لقائنا بشعب بلادنا الطيب يتظاهر لنا لأول مرة في حرية وابتهاج في هذه البقعة العزيزة من بلادنا : العلويين .. !
● في مشتى بيت الحلو :

كانت المحطة الثانية مشتى بيت الحلو ، طبول تقرع وجماهير تعج بها الطرقات والحفاني ، ومنصة في الساحة وقف عليها الزعيم ونحن من حوله ، نعمة ثابت ، اديب الطيار ، جميل عازار ، انيس فاخوري ، وانا ..
خطابه في صافيتا قرأه علي قبل السفر ولكنه القاه عن ظهر قلبه ، كانت ذاكرته آلة تسجيل . يحفظ خطبه حرفا حرفا .

اما خطاب مشتى بيت الحلو فقد ارتجل ارتجالا ولم يدونه احد ...

البلدة وجوارها كانت قد خرجت لاستقبال القائد ، بعض من كانوا يعتقدون انهم انصاف الهة نزلوا عن عروشهم وكانوا في الاستقبال . الوجهاء والفلاحون والعمال والمتقنون تلاقوا اما اعجابا واما فضولا في تلك المظاهرة الشعبية العفوية الجميلة . فضيلة سعادة ، فضيلة الحزب السوري القومي الاجتماعي نه لغى الطبقيية والطبقات نون حرب وبدون صراع ، الغاها بالوحدة الروحية القومية .
وما جرى في المشتى جرى في مرمريتا ، على نطاق اقل ازحاما ، القى الزعيم خطابا قصيرا ثم زرنا المنفذ العام الاستاذ اليازجي وانطلقنا من بعد زيارته نى مقبرة باتجاه تلكخ .

● في تلكخ :

بلغنا تلكخ قبيل غروب الشمس ، المنفذ العام كان المحامي الفقيه عزيز حديد ،

الامين السابق ، يعتمر كوفية وعقالا وعباءة وهو على صهوة جواد ومن حوله فرقة كاملة من الفرسان بالكوفيات والعقالات والعباءات .

كنت في السيارة مع المعلم انا ونعمة ثابت ، وكنا في طليعة الموكب ، ما ان اطلنا على الفرسان حتى انقسموا ، فريق بقي امامنا وفريق عن اليمين والآخر عن اليسار وفريق رابع يحرس السيارة من الورا . كانت السيارة محاطة بكوكبة الفرسان الاشاوس .

انا لا ازال اذكر كيف مسحت دموع الفرح ، لم اشاهد فرسانا يحيطون بقائد قومي من قبل ، كنت اشاهد القناصة الصياحيين المغاربة يواكبون المفوض السامي في حله وترحاله تلمع على جوانبهم السيوف ، وكنت اشاهد الخيالة اللبنانيين يواكبون رئيس الجمهورية في الحفلات الرسمية . اما رجال الفكر والمناضلون الاستقلاليون ، فما شاهدتهم الا مكبلين بالحديد يساقون الى السجون او الى المنافي او يسامون العذاب والحرمان .

لاول مرة شاهدت زعيم ومؤسس الحزب ، في موكب العز القومي ؛ يصل الى تلكلخ ومن حوله الفرسان ، وتتسارع السلطات المنتدبة ، من عسكريين ومدنيين مستطلعة ، تحاول رؤية الوجه الذي استحق كل هذا التكريم .

واخترقنا البلدة الى قصر آل نندش ، الذين ضاق قصرهم بالرفقاء والمستقبلين

والمدعويين ، كان على باب القصر فارسان يحمل كل منهما سيفا مشهورا . في هذا الجو ، جو الاعتزاز بين قومنا المعتزين بالمعلم وبالنهضة ، وقف سعادة ليلقي الخطاب المنشور في الصفحة 225 من الاثار الكاملة - الجزء الثاني . لقد نكر ان الخطاب القي في 17 ايلول 1936 ، ذاك خطأ تاريخي لان رحلة العلويين بدأت في 15 كانون الاول وانتهت في 18 و19 ، وكنا في تلكلخ على ما اذكر في 17 مساء . (على كل يمكن التاكيد من صحة هذه التواريخ من الجرائد الصادرة في ذلك التاريخ)

اما الخطاب فاليكم بعض فقراته :

« ان السيوف المجردة التي شهدتها عندما اقبلت على تلكلخ سيوف لها تاريخ ، انها سيوف كانت تسل دائما في سبيل نصر او تغلب ، تغلب من اجل العصبية التي كانت تربط هذه السيوف جمعا واحدا وسيفا واحدا محدودا بالعصبية التي يتولد تحتها . انها لم تعد للعصبية التي كانت تسل من اجلها فيما مضى بل انها اصبحت تخص حركة يتوقف عليها مصير امة ، حركة تضم رجالا اكثر عددا ، والى جانب هذه السيوف ، سيوفا اخرى تتعانق في سبيل الغلبة ، غلبة العصبية العامة التي هي عصبية القومية السورية .

« ان انضمام هذه السيوف الى الحركة السورية القومية لا يفقدها شيئا من مفاخرها التي كانت لها بل انه يزيد في مجدها وفي مضائها » .
بعد هذا الخطاب ، اقيمت حفلة عشاء سخية وكانت الخطب التي القيت بالمناسبة ، اطيبت فاكهتها .
بعد العشاء ، توجهت مع عدد من الرفقاء الى بيروت ، فبلغناها بعد منتصف الليل .

كانت هذه الرحلة زائنا المعنوي للاندفاع في العمل ، فقد لمسنا بالبنان ان شعبنا بدأ يتجاوب معنا . والحلم الذي كنا نحلم صار حقيقة ، من بعد السرية والسجون ، صرنا جماعة تعمل في وهج الشمس وعلى وقود الحرارة الجماهيرية المتقدة ايماننا وحماسنا وحبنا للعطاء .

ولقد علمت من سعادة بعد عودته من الرحلة ، كيف قصد متن عرنوق وطرطوس ، وكيف ركب الخيل مع فرسان تلكلخ ، لقد حقق كل اهدافه من الرحلة التاريخية لقد ازدادت ثقته بنفسه وبالشعب ، لقد اكتشف الشعب من جهته ان القائد الذي اختاره هو القائد !

نتائج هذه الرحلة على الصعيد السياسي ، كانت ايجابية وسلبية في آن معا ، لقد اوجست السلطات في سرها خيفة من ظهور الحزب بهذه القوة الشعبية الكبيرة في العلويين ، وكيف انها ستؤثر في وجدان اللبنانيين ، فيلتفون حول الحزب المنقذ ، فشددت عليه الرقابة وراحت تحسب له الف حساب ، اما الايجابيات فامتداد الحزب في كل الاوساط في الجمهورية الشامية والجمهورية اللبنانية وتحرك المغتربات ! ..
لم يعد الحزب كما وصفه روبردي كامندوب فرنسا لدى عصبة الأمم حزبا من شباب مهوسين ، لا اهمية لهم ، ارادوا ان يقلدوا الحركات الفاشية ، لقد صار وزنا على الساحة اللبنانية والشامية ، لقد قطع مرحلة المراهقة ، وها هو الان في عنفوان الشباب وزخمه ! ..

ثلاث صور بقيت عالقة في ذهني من هذه الرحلة : اديب الطيار ، عزيز حديد ، محمد النقاش .
اديب الطيار ، راح يطالب رغم نجاح مهرجان صافيتا بالديمقراطية في الحزب ، ويتغير اسمه ، بعد مرور مدة طويلة على المهرجان ، اعتقد ان نهايته كانت الطرد .
عزيز حديد المحامي الشجاع ، والذي اصبح فيما بعد امينا ، سقط ايضا في حمى السياسة ولم يدرك ان نظامنا صارم بحق الامناء اكثر منه بحق الاعضاء العاديين .
واما محمد النقاش ، فقد استمر يصعد على دروب الصحافة ، الى ان لمعت نجومه ، وتدرجيا راح يأخذ خطأ عقائديا وسياسيا مخالفا لخط الحزب ، ما طرد ولا فصل ، لقد اعتبر خارج الصف لانه وضع هو نفسه خارج الصف ، الا انه بقي صديقا وسبيقي .

السيرة الثقافية

لا بد من الاستمرار في تسجيل ذكرياتي عن مرحلة التأسيس ، الا ان الظرف النفسي الذي اكتب فيه هذا المساء ظرف مدمر للاعصاب والاقلام والافكار ، مذهل ومثير ومفعم بالقلق والهم .. والياس . العدو الصهيوني يتوسع ، يغزو الجنوب اللبناني ، يخطو خطوة اخرى لتحقيق « ارض الميعاد » « واسرائيل الكبرى » عطشه الى مياه الليطاني بدأ بالارتواء . الجيش الاسرائيلي المجهز باحدث الاسلحة الاميركية ، بحرا وبراً وجوا ، ينقض على الارض فيدمر المنازل ويقتل السكان او يجبرهم على النزوح ، ويقف في وجهه جيشان صغيران لا يملكان من وسائل الدفاع الا القليل القليل : جيش الفدائيين وجيش الحركة الوطنية . الدول العربية وجيوشها وقفت في وجه العدوان الستيني 1967 ستة ايام ثم استسلمت اما جيش الفدائيين والوطنيين فصامد لليوم السادس ، وسيظل صامدا ، يستنزف قوى العدو ويداوره ويتحائل عليه ويفاجؤه ويضربه من امام ومن وراء الى ان .. يستشهد اخر رجل من رجاله ، وتنفذ اخر رصاصة في بندقيته ، ان العين تقاوم المخرز ، وان الحضارة تقاوم البربرية ، وان الثورة تقاوت الطغيان الفاشي العنصري الصهيوني الامبريالي ، انها قصة مراجعة التاريخ ..

من صنع الثورات الكبرى الاقله مؤمنة بحقها القومي ، بحقها في الحياة والتقدم ؟ قلة تدفع من دمها ثمن حرية الشعب وحقوقه وعزده ، هذه القلة التي حققت الاساطير في الماضي . تحقق اسطورة التصدي للغزو الصهيوني الاميركي وصدته ، ان الاجساد من اللحم والدم ، والارواح من الايمان والفداء تقابل نيران العدو وآلياته وقذائفه وقنابله وصواريخه . وتقف في وجه غطرسته وحديده وناره .. هذه الاجساد وهذه الارواح صنعت الثورات والتاريخ والاساطير في الماضي وهي تصنعها في الحاضر ، على ارض جنوبنا الشهيد !.. هذه القوات هي قوات الثورة والحركة الوطنية وفي قلبها رفاقاؤنا الابطال القوميون .

في هذا الجو جو الغزو والنازحين والنكبة الجديدة ، ارى ان استمر في التذكر

والاستنكار ، انني اكتب جزءا من « تاريخ » حزينا السوري القومي الاجتماعي ، الذي وقف في وجه الغزاة ، ضمن امكاناته المحدودة ، وقفة العز التي تفرضها عليه عقيدته وتلاحمه مع الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية .

والفصل الذي اكتبه اليوم هو تاريخ الندوة الثقافية ، الجهاز الثقافي الاول ، الذي أسسه سعاده في مطالع سنة 1937 ثم وضع نظامه في 25 نيسان 1948 . لقد انشأ سعاده الندوة الثقافية لتكون اكااديمية للابحاث الفلسفية . والاقتصادية والتاريخية ، ومنذ هذه اللحظة انا مضطر للتسجيل ان الماسي التي مر بها الحزب بعد استشهاد المعلم ما افسحت له في المجال لتكريس المال والرجال ، لاحياء هذه المؤسسة وتأمين استمرارها وفعاليتها في رفد الحزب بالدراسات والابحاث والمحاضرات والمؤلفات .. لولا الظروف القاهرة كنا نحن السابقين الى انشاء مكاتب الابحاث والدراسات . قد لا يكون ما مر على الحزب من مأس وحده السبب ، بل النقص في « اليد العاملة » الثقافية في الحزب ، فنحن ، اكثر من اي حزب في العالم العربي ، وبالنظر لما اصابنا من تشريد وتقتيل واضطهاد وارهاب . اضطررنا الى دفع الأذى عنا بالهجرة وهي ممنوعة اصلا بقانون موقع من سعاده نفسه . الا ان الواقع المر الذي صب علينا كل انواع الارهاق والحرمان والضغط ، هو الذي تسبب بنزوح قوافل مناضليننا وكتابنا . لنجدهم مشتتين بين الولايات المتحدة وكندا والبرازيل والاجنتين والمكسيك وفنزويلا واوستراليا وافريقيا ..

ثم ان رجال الفكر عندنا ، بدءا من فايز الصايغ مرورا بغسان التويني وادونيس وكريم عزقول ورشدي المعلوف وحلمي المعلوف وجبران حايك ويوسف الخال وسواهم . ما ان تشرق شمسهم من وراء اكمام الحزب ، حتى يطل ليلهم علينا ليشرقوا نجوما في مكان آخر . يتعلمون عندنا ويتدربون ، ثم عندما تكبر مواهبهم ومداركهم وعلمهم ، وتشتهر اقلامهم ، ومؤلفاتهم ، ومواقفهم .. يديرون لنا ظهورهم بحجة او باخرى .. ونحن نعلم ، ان الحقيقة هي عندنا ، وعبثا يبحث الباحث عن الحقيقة خارج تعاليمنا خاصة في الشأن القومي والاجتماعي والقيمي .. والمناقبى .

الندوة الثقافية لم تؤد الدور الذي كان يتوقعه سعاده ، واني اشعر بالخيبة لهذا الاعتراف بالواقع المر . الا ان الشعور بالخيبة والاسى لا يغير الواقع .

ان العصر يعود الى فكر سعاده ، نظرا وتطبيقا ، لان القومية – حتى لو كانت « مرحلة » – فهي مرحلة الاف السنين لا مئاتها على ما اتصور ، ونفس الذين يقولون ان الزمان تجاوزها يعوبون اليها تائبين . والقومية عندنا ليست قومية القرن التاسع

عشر بل قومية النصف الاول والثاني من القرن العشرين قومية الانفتاح والتجدد والخلق والتطور واستيعاب كل اسباب الحياة القومية وتقدمها ويناها .. والمساهمة في اغناء الحضارة الانسانية بالفكر والممارسات البطولية .

● اول رئيس واول ناموس :

لقد انشأت الندوة في منزلي في رأس بيروت في ملك المرحوم حمزة شاتيليا وكان اول رئيس لها الدكتور زكي النقاش ، واول ناموس الشاعر الاديب النائب فؤاد سليمان . انشأت نون مرسوم ولا مراسم . ودعي الى عضويتها اعضاء عاملون واعضاء مستمعون . كان من العاملين طبعاً رئيسها وناموسها وكل من الامين السابق فخري المعلوف الذي خلف في رئاستها الدكتور نقاش بعد اعتزاله ، ونعمة ثابت ، ومأمون اياس ، ويوسف صوراتي ، ومنير الحسيني ، ومنير تقى الدين ، وفكتور اسعد وعبد الله قبرصي وعدد اخر لا اذكره بالضبط . الامين جريج يذكر انه كان مع جورج عبد المسيح عضوين مستمعين ، واضيف اسم عجاج المهتار الذي اخبرني انه كان فيها منذ تأسيسها .

اني اذكر اربع اطروحات قدمت الى الندوة ونوقشت في ذلك الحين مناقشة هادئة : دراسة عن ماكيافالي قدمها الرفيق فيكتور اسعد ، ودراسة عن بوتشكين قدمها مأمون اياس ، ودراسة عن اتجاهات الابد العربي الحديث قدمتها انا ، ويحث في تاريخ لبنان لمؤلفيه الدكتور اسد رستم وفؤاد افرام البستاني اثار عاصفة كان سببها الدكتور نقاش بالذات ، كما اذكر قصة كتبها وقدمها وقرأها في احد الاجتماعات الدكتور يوسف صايغ الذي كان من اعضاء الندوة ايضاً .

انكر اننا جميعاً لم نكن على مستوى المسؤولية . سعادة ما اسس الحزب ، كما انه لم يؤسس الندوة الثقافية ، الا وهو واسع الاطلاع عالم في الفلسفة والتاريخ والاقتصاد ، لكثرة ما طالع وما بحث وما نقب . اما نحن ، فقادمون كل من مدرسة ، دخلاء الى حد كبير على الفلسفة والاقتصاد والتاريخ . لم نكن بعد في قلب المعرفة ، كنا نطل عليها اطلالة المشتاق الى العب من يبابيها ! .. كنا مصممين على ان نتوقف ولم نكن بعد متقفين .

اكثرنا نحن التلامذة اطلاقاً ومعرفة كان من الناحية الثقافية الامين السابق فخري المعلوف . كنا نشعر ان الزعيم يقدره يصغي الى ارائه ويحاوهر باحترام كبير . بعضنا كان يعتقد ان المنظر الفكري للعقيدة السورية القومية الاجتماعية سيكون الامين فخري ، بوجود سعادة او في غيابه .

كم اكاد احترق ان ليس لدي مصدر الجأ اليه الا الذاكرة ، فاوراق الندوة الثقافية

كاوراق الحزب صودرت في الملاحقات المتوالية وضاعت او سرقت او احرقت .
لا انكر مثلا ، الحوارات التي دارت حول محاضرة الرفيق فيكتور اسعد عن ماكيا فالي
ولا التعليقات على محاضرة مأمون اياس عن بوتشكين الا انه كان شاعرا قوميا روسيا
ولا حتى تلك التي جرت حول محاضرتي عن اتجاهات الادب العربي الحديث .
الانطباعات هي ان الدكتور زكي النقاش ، في مداخلته حول ما نشر عن « المردة » في
كتاب « تاريخ لبنان » للدكتورين اسد رستم وفؤاد افرام البستاني قال ان هؤلاء
« المردة » - وقد ورد ذكرهم في كتاب الطبري على انهم الجراجمة - لم يلعبوا الدور
المسند اليهم في الكتاب المذكور ، وقد احس الدكتور زكي في ذلك الزمان ان في كتاب
الدكتورين رستم والبستاني تحاملا على الاسلام ، ولا يزال صوته يرن في انفي : ولدت
مسلمة وترعرعت مسلما ولا ازال مؤمنا باسلامي .. وكان جواب سعادة واضحا : لا
يجوز اقحام الايمان الديني في بحث محض تاريخي محض علمي .. ولا يناقشك احد في
اسلامك .

اما بالنسبة لمحاضرتي عن اتجاهات الادب العربي الحديث ، فانكركم شددت على
تأثير ونفوذ الادب المهجري في الادب العربي الحديث وخصوصا تأثير جبران ومخائيل
نعيمية . واذكر اني قدمت الاستاذ نعيمة كمثل اعلى للاديب العربي مشددا على ان الرجل
كرس حياته للقلم ، للفكر ، للادب ، للتأليف . ولقد وافقني سعادته على ان مخائيل
نعيمية مثل اعلى للاديب . رغم عدم موافقته على مواقفه الفكرية ثم استمرت الندوة
برئاسة الامين السابق فخري المعلوف تتعقد اسبوعيا وقد جعلت موضوع مناقشتها
قراءة كتاب نشوء الأمم وذلك عندما سافر سعادة الى ديار الاغتراب عبر اوربا سنة
1938 .
ولنعد الى الندوة الثقافية ..

استمرت في غيابيه برئاسة الامين فخري المعلوف كما ذكرنا ، فلما عاد في الثاني من
اذار سنة 1947 كان في طليعة مشاريعه بعث وتنظيم الندوة الثقافية .
في منزله في رأس بيروت ، عقدنا اول اجتماعاتها. ووجه جديدة دخلت ، ووجه قديمة
غابت ، لم يعد هنالك مأمون اياس ولا زكي النقاش ولا منير تقي الدين . حل محلها
محمد يوسف حمود ولبيب زويا ثم هشام شرابي وجورج عطيه ووديع الاشقر .. كان
هنالك لا يزال فؤاد سليمان وانا ايضا وكان جورج عبد المسيح وانيس فاخوري وعجاج
المهتار ومنير الحسيني وسواهم ممن تفوتني اسماؤهم الآن .
في هذه الجلسة الاولى وتاريخها اوائل 1948 لا 1947 كما ورد في احد المحاضر التي
سنشير اليها في ما بعد ، طرحت عدة مواضيع ، تدخلت انا في امر منها هام جدا بنظري

هو التوفر على دراسة تاريخ سوريا الطبيعية . وقد شددت في مداخلتني على أنني لم أجد حتى الان كتاب تاريخ لسوريا يفني بما ننتظره من الجزء الثاني لنشوء الأمم وطلبت من الزعيم والاعضاء الحاضرين اعطائي اسماء بعض المراجع لاعود اليها .

● صغرت في عيني :

بعد نهاية الجلسة ، بادرني فؤاد سليمان قائلاً : " عندما دخلت الجلسة تصورتك من عمالقة الحزب ، ولما طرحت سؤالك صغرت في عيني " ..

قلت له : لا يهمني ان اكون عملاقا او لا اكون بقدر ما يهمني انا احد التلامذة الاول للمعلم ، ان اعرف تاريخ بلادي لاستطيع ان اجيب على الاسئلة التي تطرح علي ولأعرف بالفعل المراحل التي توحدت فيها التي نريد ان نبعتها من قبر التاريخ .. ان دراسة تاريخ سوريا تمكن ايماننا ببعثها ونهوضها . ان تشديدي على دراسة تاريخ سوريا لا يجرز ان يكون موضع استخفاف بأرائي بل تقدير واحترام ، ولكن فؤاد سليمان لم يقتنع ، كان عنيدا .

ان محضر اجتماع الندوة ، في صباح ذلك النهار ، الذي لا اذكر موعده بالضبط نشر في جريدة « البناء » في احد اعدادها (١) .

قنت في مطلع هذه الذكريات ان الندوة انشأت سنة 1937 نون مرسوم او مراسيم ، اما سنة 1948 وقد بدأت اجتماعاتها واعيد تأسيسها ، فقد وضع لها سعادة نظاما بموجب مرسوم تشريعي مؤرخ في 25 نيسان 1948 نشر هنا الى اهم ما ورد فيه : مادة وحيدة في غاية الندوة الثقافية : التعمق في درس التعاليم القومية الاجتماعية المتضمنة في المبادئ والشروح التعليمية والتمكن منها ، وايضاح المبادئ والقيم والقواعد القومية الاجتماعية والقضية الناشئة عنها والنظرة الى الحياة والكون والفن والحاصلة منها والمسائل القضائية التي تعالجها وموقف الحركة القومية الاجتماعية منها وبعث التراث السوري الفكري والانتاج الدراسي والادبي والفني على هذه الخطط احياء للقيم الجديدة وتحقيقا للثقافة السورية القومية الاجتماعية المشتملة عليها .

هذا في الغاية ، وقد كان الزعيم اشار اليها في بعض رسائله الى غسان التويني . اما النظام الداخلي فاهم ما يلفت فيه النظر التدقيق في شروط العضوية من قبل عمدة الثقافة بواسطة لجنة تعيينها لهذا الغرض .. فليس كل عضو مثقف في الحزب عضوا طبيعيا في الندوة ، يجب ان يكون حائزا على أدنى تقدير درجة علمية تعادل البكالوريا - القسم الثاني ، ودارسا التعاليم القومية الاجتماعية فاهما الفلسفة القومية الاجتماعية ونظرتها الى الحياة والكون والفن ، مؤمنا ايماننا تاما بتحقيقها ، متفهما لاقضايا الفكرية الاساسية والمشاكل العملية على ضوءها . وان يكون ذا سلوكية قومية

اجتماعية صحيحة في جميع المواقف الفكرية والنظامية متفهما للقيم القومية الاجتماعية وعاملا بروحيتها .

كان اهم ما يشغل بال سعادة والمتقنين في الحزب . ولا يزال .. الابحاث الفلسفية والابحاث الاقتصادية والابحاث التاريخية فشكلت ثلاث لجان ، على ان تختص كل لجنة باحدى الموضوعات الثلاث .

ولقد جعل سعادة من الندوة مكانا للجد والتنقيب والدرس ، والمناقشات بحيث ان التغيب عن جلسة واحدة بدون عذر مقبول كان يؤدي الى شطب اسم المتغيب من لائحة اعضائها . للمقارنة انكر ان نظام المجلس الاعلى (السلطة العليا في الحزب) ينص على انه من يتغيب ثلاث جلسات متواليات دون عذر شرعي يعتبر مستقيلا . من هذه المقارنة يتبين مدى صرامة نظام الندوة الثقافية الذي يسقط عضوية العضو العامل بمجرد تغيبه مرة واحدة ! ..

تناوب على رئاسة الندوة الثقافية في المراحل السابقة كل من الامين الدكتور منير خوري والامين عبود عبود والشاعر انونيس عندما كان في صفوفنا القومية وكان من ابرز العاملين فيها في الخمسينات الدكتور حليم بركات ، الدكتور الراجعي ، الدكتور نذير العظمة الاستاذ ابو زلام والسيد فؤاد الانسي وسواهم ممن لا تحضرنى اسمائهم . ومن اهم المواضيع التي بحثتها في الخمسينات وحتى المحاولة الانقلابية كانت الحرية ، وحدود حرية الكاتب والفنان والنظرة الاقتصادية واشتراكية الحزب القومية الاجتماعية .

لان الحزب السوري القومي الاجتماعي حزب عقائدي حزب علم وفكر ، يعنى عناية خاصة بتثقيف الرفقاء القوميين الاجتماعيين ، بحيث يبلغ الامي بينهم درجة عالية من الوعي العقائدي القومي الاجتماعي ، ان القوميين الاجتماعيين مقاتلون اشداء لان بندقيتهم معقنة . انهم يتطوعون للقتال ، يتسابقون للعباء ، لانهم تتقفوا في مدرسة الحزب وآمنوا بالقضية القومية الاجتماعية ايمانا مطلقا . بعد درس وتفهم واستيعاب ، ان ايمانهم ايمان رسولي ولكنه تابع من العلم والمعرفة .

واذا كنت في هذه الذكريات توقفت عند الندوة الثقافية ، فلأني ارى في مقبلات الايام صورة لها ازهى واكبر اثرا ، اني انتظر ، اذا تأمنت للحزب ظروف مؤاتية ، ان تصدر من الندوة دراسات ومحاضرات ومؤلفات تغني المكتبة القومية .

ان مجلة « فكر » حاليا - وكانت من قبلها افاق - مشرعة الصفحات امام المفكرين ، على اختلاف عقائدهم واراتهم وهي تؤدي دورا ثقافيا ممتازا في الحزب

وخارجة وتحمل نتاج نخبة من مفكره وكتابه واصدقائه الا انها لا تحل محل الندوة الثقافية ، لان الندوة ، هي الاكاديمية الحزبية ، مكان الحوار والتنضيج مكان البحث والتنقيب ، بينما « فكر » هي الجهاز الذي ينقل ثمار الندوة الى محبي الفكر وطالبي المعرفة . لذلك اشدد على ان تبعث الندوة حية وان تكون معينا دفاقا بالعرفان .

من حلو الذكريات ومرها اني قصدت مع الشاعر الاديب الخالد فؤاد سليمان الى منزل مي زيادة في شارع التنوخيين ، وراء محطة ابو طالب ، في رأس بيروت ، بعد ان كان سعادة قد حررها من سجن مستشفى ربيز والتهديد بالعصفورية من قبل بعض اقربائها (وسنأتي على تفاصيل قصتها في ما بعد) نحمل اليها باقة من الزهر باسم الندوة الثقافية ، عندما ادخلت لها الممرضة الباقة ونحن ننتظر اشارة الدخول الى غرفة نومها ، فتح الباب واذا بالادبية الكبيرة تبتمس لنا قائلة : اهلا بازهار الثقافة .

لم تكن الندوة الثقافية ناديا للفكر والبحث والتنضيج فحسب . بل كانت حاضرة لتكريم الابداء الخلاقين كمي زيادة ، احدى الرائدات الطليعيات في ادبنا القومي .

في رتبة الامانة وامناء سعاد

انشئت رتبة الامانة ومنحت لبعض الاعضاء البارزين في اعقاب خروج سعادة من سجنه الثاني ، الا ان القانون الذي يحدد شروطها لم ينشر الا مع الدستور المصنف في 24 كانون الثاني 1937 .

الامناء الاول في الحزب هم فخري المعلوف ، نعمة ثابت ، جورج عبد المسيح ، نجلا معتوق حداد ، مأمون اياس ، أديب قدورة ، عجاج المهتار ، مصطفى المقدم ، انيس فاخوري ، معروف صعب ، عبد الله قبرصي ، الياس جرجي قنيزح ، كامل ابوكامل ، عبد الله سعادة ، حسن الطويل حمادة ، وفؤاد ابو عجرم وعساف ابو مراد .
لا اعرف ظروف منح رتبة الامانة لكل من هؤلاء ، وان اكن اعرف الظروف التي قضت بتجريد بعضهم منها ، بعد استشهاد سعادة واثناء حياته .
اما كيف منحت انا شخصيا رتبة الامانة ، فأني انكر الظروف والملايسات واعتقد ان تدقيق الزعيم في الناحية المناقبية ، كان شغله الشاغل قبل توقيع مرسوم المنح لي أو لسواي .

استدعاني الى مكتبه ، في شارع المعرض على ما انكر ، وقال لي : « هنالك شكوى بحقك ، لقد منحتك رتبة الامانة ، هوذا المرسوم ، الا انني لا اوقعه قبل استجلاء حقيقة هذه الشكوى ، فان صحت بقي المرسوم دون توقيع ، وان كانت باطله وقع » .
ما هي الشكوى ؟

كنت اعرف العلاقة بين الشيخ بهيج تقي الدين ، النائب حاليا واحد كبار محامي الجزاء في العالم العربي ، وبين الاستاذ الفرد ثابت الذي كان في تلك الزمان 1936 - 1937 مدعي عام استئناف بيروت ، اي مايقابل اليوم مدعي عام التمييز لأن التمييز كان قد الغي في التنظيم القضائي النافذ المفعول .
جاعني بعض من اهل صلاح الشيشكلي شقيق اديب الشيشكلي واهل رفيق آخر من آل العظم ، وكلاهما كانا قد اوقفا بتهمة الانتماء الى الحزب على اثر توقيف الزعيم في

حزيران 1936 وعرضا علي ان ارافقهما لدى محام قدير يساعدهما علي اخلاء سبيل الموقوفين ، فلم يخطر ببالي الا بهيج تقي الدين لاني كنت اعرف علاقته الطيبة بالمدعي العام الاستثنائي كما ذكرت فوق ولانه كان صديقي (ولا يزال) .

سنة 1936 كان الشيخ بهيج في عز شبابه ، قامه فارعة ووجه نقي ، لم يكن بعد قد لمع نجمه . كان يجلوه بالمواقف الجريئة والتوفر على الدرس والمطالعة ليبدأ بالمعان .

وكان قد تدرج في مكتب حبيب ابي شهلا ، احد ائمة محامي الجراء والسياسة والدبلوماسية اللبنانية ، فنال من شهرته قدر لا بأس به ، الى جانب ما لآل تقي الدين من مكانة ونفوذ بدءا من القاضي احمد تقي الدين الى الشاعر امين تقي الدين .. الى خليل وسعيد وقد كانا يطلان من عل علي عالم الفكر والادب .

المهم نقدته مبلغ ثلاثين ليرة سورية بدل اتعابه ، وفي اقل من 24 ساعة كان الموقوفان قد عادا الى الحرية .. والشمس .

ولم تمض الا فترة يسيرة ، حتى اطلق سراح سعادة بناء علي مفاوضات كانت تجري في الكواليس بواسطة النائب العام او قاضي التحقيق .

هذا ، كان من حق سعادة ان يشك بأني استفدت من معرفتي بالمفاوضات ، واستوليت عن مال الرفيقيين ، دون اللجوء الى محام ، حتى سعادة العظيم كان يشك في المحامين .. الابرياء ، ولكنه كما ذكرت كان علي حق في شكوكه فالشك كان ولا يزال في السياسة وسواها قنطرة اليقين !..

■ تهمني ثقتك :

انتفضت ، كمحام قومي اجتماعي مثالي ، وقلت لسعادة ، لا تهمني رتبة الامانة بقدرما تهمني ثقتك بي وثقتي بنفسي . وهرولت الى مكتب الشيخ بهيج .. كانت الى جانبه نارجيله عامرة ، ولم يكن مكتبه مكتظا ذلك النهار ، علي غير عادة ، بابناء الجبل والموكلين .. حدثته عن القصة وانا مضطرب ، ذبيح الصوت ، لشدة تأثري واغتياضي .

قال لي : لم يمض طويل علي هذه القصة واني انكر جيدا انك نقدتني ثلاثين ليرة سورية ، هل انا انكر المبلغ جيدا ؟

قلت : هذه هي الحقيقة ، هل لك باعطائي ايضا لا باسم الشخصين المذكورين .

اجاب بالايجاب ، وكتب الايصال ، فحملته راكضا ، كما يركض الطفل وراء امه

جائعا ، وسلمته للمعلم ، فسلمني لتوه مرسوم الامانة ، كل الذين نالوا الرتبة في تلك المرحلة كانوا من المستحقين ، الا ان المواصفات التي وردت في القانون الدستوري السابع ، لم تكن تنطبق عليهم جميعا على نفس السوية وبعضها - كمرور مدة خمس سنوات على الانتماء - لم تكن تنطبق الا على جورج عبد المسيح وحده ، لان الباقيين ومنهم انا - لم يكن مر على انتمائهم - الا ثلاث او اربع سنوات .

■ رتبة الامانة هذه لماذا انشأها سعادة ؟

برأيي ، - وقد أوردت هذا الرأي في محاضراتي في المعهد الحزبي - انه توخى عدة اهداف ، من انشاء الرتبة ومنحها لعدد من اعوانه اهمها :

الف : ايجاد نخبة من المؤمنين المناضلين تحمل معه اعباء المسؤوليات الجسام التي تترتب على العاملين في القيادة .

باء : مكافأة المؤمنين المناضلين المتفوقين وحفز الاعضاء على الاقتداء بهم ..

جيم : ابراز بعض المستحقين بنضالهم وادراكهم العالي للعقيدة وایمانهم بها وبالزعم ليكونوا هداة للآخرين بمثابرتهم ومناقبيتهم العالية وعطائهم المستمر وشجاعتهم الصامدة .

اود ان اذكر ان الشروط التي استنفها سعادة في تشريعه ، لا يمكن ان تتوفر كلها في من يمنح او منح آنذاك الرتبة السامية ، ولكن الاعضاء في الحزب يحسبون الامين رفيقا مميذا ويطالبونه بالكثير وقلما يتساهلون معه اذا ارتكب هفوة او خطأ ، كانما الامين بنظرهم صار في مصف الالهة او القديسين . وقد عانت السلطات الحزبية المختصة - والمجلس الاعلى بعد سعادة بصورة خاصة - متاعب جمة في كل مرة منحت رتبة الامانة لعدد من مستحقها ، او في كل مرة اسقطت الرتبة عن اخل بشروطها ، او حجبته عن لا تعترف له باستكمال هذه الشروط ، واني لمتأكد ان السلطة العليا لا تزال تعاني نفس هذه المتاعب حتى ايامنا الحاضرة ، اعرف ذلك لاني في المجلس الاعلى اما رئيسه او احد اعضائه منذ وجوده الا في فترات متقطعة وقصيرة .

■ بين الصعود والهبوط :

ولكي يدرك القراء من قوميين وسواهم كيف بلغت الرتبة اوج عزاها ، ثم كيف هبطت حتى الغيت ، ثم كيف عادت الى البروز اود ان اسرد المقدمات التاريخية لكل هذه النتائج .

لم يسقط في حياة المعلم الا امينان فقط هما نعمة ثابت ومأمون اياس . أما بعد استشهاده فقد سقط الكثيرون ، كما تميز سواهم بوقفات العز والصمود البطولي فصعدوا الى الرتبة بالصراع والكفاح .

سقوط نعمة ومأمون كان جرحا بليغا في قلب الحزب وقلب الرتبة . القانون الدستوري السابع احاطها بسياج وركزها على دعائم الى حد ان اي قومي لم يكن ليجرؤ بينه وبين نفسه على الشك بالامين ، فهو بنظره — بعد سعادته — قمة من قمم النهضة وقائد من قادتها المتفوقين .

ونعمة ومأمون الامينان لم يكونا في الصفوف العادية ، حتى بين الامناء لم يكونا امينين عاديين . نعمة ثابت كان في وقت من الاوقات ، مجمع الرئاسات . فهو رئيس المجلس الاعلى صاحب صلاحيات الزعامة في غياب الزعيم ، وهو رئيس مجلس العمدة اي السلطة التنفيذية العاملة ، ورئيس المكتب السياسي المركزي اي القابض على زمام الشأن السياسي الداخلي والخارجي معا . ومأمون اياس ، كان من كتاب النهضة ومن قياديتها الانكباء المهرة البارعين . كانت بينهما وبين عبد المسيح بعض الحساسيات والاختلافات ، الا انها لم تكن تعطل تناغم الادارة الحزبية على وجه العموم . وان تكن بلغت احيانا حد التجافي والتشاحن والتحاسد ! .. الحزب ليس ساحرا فالتحول من الانسان القديم الى الانسان الجديد يتم ببطء وعبر تجارب ومظاهر ومصاف وردع ..

ثم بعد الاستشهاد اسقطت الرتبة عن الامناء فريد الصباغ ومعروف صعوب وحسن الطويل حمادة ثم جاءت حركة عبد المسيح التي غابت فيها وجوه امناء اعزاء على قلب الحزب وقلوب القوميين كمحمد يوسف حمود وفاضل كنج وابراهيم يموت ومنير الحسيني ، وغيب الموت بعضهم الآخر كالامين اديب عازار والامين نبيه نعمة . والامين بحليس ! ..

ومر الحزب في تجارب قاسيات قاصمة للظهر ، فاذا ببعض الامناء يرتعب ويتوارى ، فيما الرفقاء العاديون ما تخلوا عن خنادق النضال . كل هذه التجارب ، وخاصة ما سماه عبد المسيح « بالانتفاضة » التي تطاولت فيها الالسنه بالقدح والذم والتشهير والافتراء ، زعزت الثقة بالامناء وانعكست على الامانة .

وبلغ التجريح والانتقاد والتذمر من الرتبة اقصى حدوده ، قبل الثورة الانقلابية في اواخر 1961 . احد الرفقاء آنذاك — الشاعر — كمال خير بك رفع الى المجلس الاعلى

رسالة فيها كل ما يدور على الالسنه وفي الضمائر من اقاويل حول الامناء والامانة . فمنهم من قال انهم صاروا طبقة ارسقراطية في الحزب او بورجوازية ، ومنهم من نعتهم بالكرادلة والكهنوت الحزبي .

هذا مع العلم ان الادارة الحزبية بعد سعادة منحت الرتبة للعديد من الاعضاء المستحقين ، وان يكن ذلك جرى في ظروف مشكوك في سلامتها من الشوائب والمؤثرات الجانبية . فكانت اذن تطعم جسم الامناء بطاقت جديدة من الاسماء التي تبرز الى ميدان العطاء الفكري او الفني او العلمي او العقدي او النضالي بوجه عام .

كل ذلك لم يوقف تيار النقد والتجريح : الامين يجب ان يكون نصف اله ، يجب ان يكون فوق الشك والشبهة ، يجب ان يكون معصوما عن الخطأ . يجب ان يكون قديسا .

وينظري الامناء بشر ، يتعرضون ككل ادمي الى الوقوع في الخطأ والوقوع في التجربة .

والامين الذي يخل بشروط الامانة ، مهملا او متقاعسا او مرتكبا ، تسقط عنه الرتبة كما تسقط حقوق العضوية نفسها .

ثم الى جانب التجريح والطعون بالامناء – والرتبة ايضا – قامت موجة تقول بنضج القوميين الاجتماعيين واكتمال وعيهم على وهج النضال والصمود للمكاره والارهاب والاضطهادات وان من حقهم الطبيعي ان ينتخبوا هم قياداتهم – اي المجلس الاعلى – من صفوفهم .

■ ثورة .. ثورتان :

لماذا النخبة اذن . لقد اصبح الاعضاء كلهم نخبة . يجب اذن ان تعود اليهم السلطات : انهم الشعب . الشعب هو الحاكم ، هو السلطات ، في الانظمة الديمقراطية . ومال الميزان لدى القيادة لترجيح هذه النظرية على النخبوية ، اي على ما سماه سعادة بالديمقراطية التعبيرية . وفي الوقت الذي كان الدكتور عبد الله سعادة يتسلم رئاسة الحزب في 29 تموز 1960 كانت تجول في نفسه ثورتان : ثورة على الدولة والنظام اللبناني الاقطاعي – الطائفي – الرجعي – وعلى رتبة الامانة في الحزب ، وان يكن موعد انفجار هذه تأخر الى ما قبيل انفجار الثورة على الدولة عمليا .

في المجلس الاعلى المنعقد في تشرين الثاني 1961 طرحت على بساطة البحث مسألة

الغاء رتبة الامانة وانبثاق السلطة من القاعدة الحزبية ، بطريقة الانتخاب . عارضت

وعارض معي اربعة . عند نهاية الجلسة كان ثلاثة من المعارضين قد اقتنعوا بالالغاء
وفي طليعتهم اسد الاشقر ، فخطبني قائلاً :

« انت اشتركت مع الزعيم في وضع الدستور . وانت الذي شرع حتى الآن للحزب
(اي وضع مشاريع القوانين) . ولكي يأتي قرارنا بالغاء رتبة الامانة تاريخيا ، يجب
ان يأتي بالاجماع فتوافق معنا على الالغاء » .

قلت للامين اسد آنذاك :

« يا اسد . منذ لحظات كنت من رأيي فتراجعت . لماذا تريدني ان اراجع وانا غير
مقتنع ؟ . اني ادعوك الى الثبات على رأيكم الاول في عدم الغاء الرتبة الا بعد فترة
انتقالية » .

■ مرحلة انتقالية :

اما رأيي فكان كما يلي وعدت فكررت في المؤتمر القومي العام في ملكارت في اواخر
سنة 1969 : اني ارى ان نمر بمرحلة انتقالية يشترك فيها ممثلون عن الاعضاء مع
الامناء في انتخاب القيادة العليا من بين الامناء . على ان تكون هذه المرحلة خمس
سنوات ، تطول او تقصر وفقا للنتائج ، ايجابية جاءت او سلبية .

وصوت المجلس الاعلى فحاز الاقتراح بالغاء الرتبة على ثمانية اصوات وكنت من
اصل التسعة وحدي المعارض . كان رئيس المجلس في ذلك الزمان الاستاذ محمد
بعلبكي صاحب « صدى لبنان »

وعهد الى الدكتور اسعد رحال احد اعضاء المجلس الاعلى ان يضع مشروع قانون
الانتخاب وكلفت ان اساعده . فوافقت ان اساعد ، رافضا ان اضع مشروعاً لست
مؤمناً بجواه ولا بسلامة عواقبه .
وجاءت المحاولة الانقلابية . فذهبت معها قرارات المجلس الاعلى وحتى سجلاته .

مرحلة السجن والتعذيب والالام الجلجية لم امر بها فقد استطعت الافلات من
التطويق والتمشيط والجواسيس والمخبرين والخصوم الالاء . منذ اخر يوم في سنة
1961 الى التاسع عشر من حزيران سنة 1962 كنت قد سجنت نفسي في بيروت ، الى ان
تمكنت بوسيلة - فيها نوع من الاعجاز والمجازفة - من اجتياز حدود الشام حيث كنت
محكوماً بخمس وعشرين سنة اشغال شاقة من المحكمة العسكرية الاستثنائية (انتهى

هذا الحكم بالتقدم والعفو معا) والوصول الى الاربن ومنها الى باريس فكوراساو ثم فنزويلا حيث انشأت مجلة الندوة باللغتين العربية والاسبانية .
من كوراساو كتبت الى الامناء الذين كانت لدي عناوينهم ادعوم لعقد مؤتمر كنا قررناه في عمان لبحث الغاء رتبة الامانة واعتماد القيادة الجماعية عوضا عن النظام الرئاسي والمجلسي الساري المفعول ولايجاد مخرج دستوري لقيام قيادة مؤقتة تشرف على الادارة الحزبية مع تحديد صلاحياتها .

ثم في تشرين الثاني سنة 1966 دعوت في فنزويلا الى مؤتمر للقوميين الاجتماعيين عقدته في كراكس وطرحته فيه بحث تعديلات دستورية ترفع الى المراجع المختصة . فكان اول مؤتمر قومي اجتماعي في المغربات . وكان اهم هذه التعديلات الغاء رتبة الامانة واعتماد النظام الديمقراطي التمثيلي والغاء كل المظاهر العسكرية . احد الرفقاء وصف هذا المؤتمر انه « مؤامرة وبدعة » . فجاءت الايام واثبتت ان المؤتمرات الحزبية هي فعلا افضل وسيلة للحوار المفيد والسبيل الوحيد لامعان الفكر والمنطق في حل العضلات سواء كانت تنظيمية او عقدية او سياسية ، المؤتمر يصبح مؤامرة اذا كانت الغاية من عقده تخريبية او تحريضية على المؤسسات .

ولما صدر العفو العام في 19 شباط 1969 ، بدأت اعد العدة للعودة الى الديار والاهل والرفقاء . وكنت خائفا بالفعل من الطروحات الجريئة التي كنت اطرح : ديمقراطية الحزب - يساريته - ايجابيته العربية - اشتراكيته المعتدلة المشدودة الى الولاء القومي .

الا انني سرعان ما تبديت مخاوفي ، اذ لقيت الافكار والاراء التي كنت بها « ابشر ، قوت الصف القومي الاجتماعي اليومي ، وحديث مجالسه قادة واعضاء » .
■ مؤتمر ملكارت :

وكان مؤتمر ملكارت والتعديلات الدستورية .

ثم كان الغاء رتبة الامانة بقرار كان اقرب الى الادانة والتشهير بالامناء والامانة . وقيمة القرار المعنوية انه صادر عن مجلس اعلى منتخب من قبل الاعضاء على درجتين ، اذ انتخب الاعضاء مندوبين الى المجلس القومي ، والمجلس القومي انعقد لينتخب المجلس الاعلى .

وانطلق الحزب بقيادته الجديدة ، من الشباب والشيوخ ، وكلهم رفقاء « لا طبقة فوقية ولا طبقة تحتانية) .. تنفس الحزب الصعداء كأنما كان الامناء ححر رحي

يجثم على صدره .
الا ان الديناميكية التي حركت الرفقاء قبل مؤتمر ملكارت وبعده . والعمليات الانتخابية التي خضت كل المناطق بما فيها عبر الحدود ، ما لبثت ان هدأت ، ثم راحت تتفاعل سلبيا الى ان مررنا بفترة شبيهة الى حد بعيد بأخر مرحلة من رئاسة عبد المسيح . بدأت المضادات ، والمهاور ، وقامت اللبلة والفوضى مقام النظام والانضباط .. ثم جاء مؤتمر برنتانيا يضع حدا « للاشريعته » ويعيد الحزب الى خطه الدستوري السليم ، الا ان السلطة الشرعية الجديدة لم تستطع توحيد الاراء والصفوف ، بسبب تصليبها وانحيازها.

■ العودة :

وكانت الاسنة قد بدأت تندم على الامناء والامانة ، وصرنا نسمع ان الصف لم ينضج بعد ليعطي حق الانتخاب . وان العودة الى القديم وحدها تلجم الاهواء وتعيد الحق الى نصابه وتحول دون الفرقة والانقسام .

وكان مؤتمر فودفيل بين 5 و8 نيسان 1975 أي قبل احداث عين الرمانة بايام معدودات ، وللتاريخ انكر ان هذا المؤتمر انعقد برئاستي . وقد سمحت فيه للاراء والافكار ان تتصادم ساعات طوالا ، لكي تسد الطريق على الصراعات خارج المؤتمر والنظام .

الا ان بعض الرفقاء - وفيهم من القادة التاريخيين عدد غير قليل - كانوا قد صمموا - بدوافع شتى - على الخروج نهائيا وعلى شق الحزب كمخرج من حالة التوتر ، واني لا ابرىء بعضهم من التأثير بعوامل شتى .
مناعة القوميين وايمانهم وتشبثهم الواعي بدستورهم كان هو المنقذ ، فاذا الحزب بفضل الوعي والايمان وروح العطاء ، ويفضل القيادة الحكيمة القادرة ، يبرز على مسرح الاحداث ، قوة ثورية تضرب بالسلاح فتحسن ، وتضرب بالفكر فتحسن ، انها حركة الصراع بالبنديقية الى جانب الصراع بالقلم ، الى جانب الصراع باللسان .
والاحداث - على ما اصاب منها الحزب من خراب وبمارسادي - لم تثن عزيمة القيادة عن تنفيذ توصيات مؤتمر فودفيل التي تبلورت بالنتيجة عما يلي :

- 1 - اعادة رتبة الامانة وتشكيل المجلس الاعلى من امناء .
- 2 - منح رتبة الامانة لمن يستحقها من الامناء القدامى .
- 3 - منح رتبة الامانة لمن يستحقها من الاعضاء العاملين .

وتألفت امعانا في التدقيق والبحث لجنة دستورية وضعت بنتيجة دراساتها ويحوثها توصيات بلورها المجلس الاعلى في القانون الدستوري عدد II الذي صدر في 28 نيسان 1976 وعلى اساسه مُنح ثلاثة وستون رقيقا رتبة الامانة ، ودعوا لاجتماع انتخبوا فيه المجلس الاعلى الحالي الذي يرأسه الامين مصطفى عز الدين انتخب بدوره الامين الدكتور عبد الله سعادة رئيسا للحزب بالاجماع خلفا للامين انعام رعد الذي قدم لسبقالته عملا بالاصول الدستورية وكانت ولايته وشيكة بلوغ نهايتها .
هذا هو تاريخ رتبة الامانة ، على ان نسرده في الفصول التالية اخبار الامناء القدامى منهم والجدد ، على ضوء نضالهم واعمالهم .

الا ان هذا الفصل لا يمكن ان يقفل قبل ان نقول رأينا بكل صراحة ، فنحاكم على اساسه عبر المستقبل : ان حزبنا لا يحتمل في اوضاعه الداخلية من جهة واوضاع الامة في الداخل والخارج من جهة اخرى . اجراء انتخابات مع ما تقتضيه من هدر وقت وما تخلفه من جروح وقروح . كما ان ثورية الحزب لا تحتمل الاصول البرلمانية الديمقراطية التمثيلية مع كل ما فيها من حسنات وسيئات .

الا ان الحقيقة التي يجب ان تعلن هي ان القوميين الاجتماعيين بعد استشهاد المعلم ، الذي تعاقبوا معه ، كمؤسس وقائد ، لهم الحق الطبيعي في اختيار قيادتهم انتخابا . هذا الحق الطبيعي يجب ان يعاد اليهم عندما تصبح الظروف مؤاتية . الا اننا نرى ان مؤاتاة الظروف قد لا تظل علينا مع فجر الغد . انها متروكة لحسابات القضاء والقدر ، ومستقبل وطننا الذي لا يزال محكوما بلعبة الامم وحسنا فعل المجلس الاعلى الموقر في القانون الدستوري عدد 8 مادته الثانية المعدلة بالمادة 17 من القانون الدستوري عدد II ان نص :

« يترك للمجلس الاعلى ان يقرر اشراك ممثلين من مجالس التنفيذيات في عملية انتخاب اعضاء المجلس الاعلى من بين الامناء وذلك عندما تسمح ظروف الامة والحزب .. » .

لقاء مع سعادته في بيت صلاح بيكي

تحت هذا العنوان اود ان اروي واقعة مثيرة وابلاغية (حسب تعبير الدكتور عفيف دمشقية في ندوة مخائيل نعيمة) ..

لم تكن زوجتي في البدء تؤمن بالحزب ، بالعقيدة السورية القومية الاجتماعية ، كانت من رأي خالها المرحوم ابراهيم - وهو الذي اشرف على تربيتها - ورأيه كان سياسيا بحتا ، وبراغماتيا بالوقت نفسه . كان يؤمن بوجود العمل ضمن الحدود اللبنانية ، لاستقلال ونهوض لبنان ، على اساس وحدة سورية ، ثم وحدة عربية اذا امكن ذلك .

اما خالها فهيم - المحامي الاصغر سنا من شقيقه ابراهيم - فقد كان يؤمن بالقومية العربية ، وكان قد أسس مع عبد الرزاق الدندشي وعلي ناصر الدين وقسطنطين بيني وفؤاد النكدي ونقولا خير وسواهم « عصابة العمل القومي » التي ما تزال اثارها حتى اليوم قائمة وحية بالدكتور محمد علي الرز والمهندس عبد الباقي وسواهما اذ تحولت الى عصابة لتكريم شهداء السادس من ايار . وهي التي الزمت الحكومة بالاحتفال بهذا العيد الرمزي سنة بعد سنة وتعطيل الدوائر والاشترار رسميا باحيائه .

اذن جوزوجتي كان جوا وطنيا تقليديا ليس فيه اي نبضة ثورية ، كان البيت كله في هذا الخط .

حاول سعادة - وكان الجميع يحبونه ويحترمونه كاستاذ في الجامعة لا كزعيم حزب لانهم لم يكونوا يعرفونه بهذه الصفة - ان يؤثر في توجيه العائلة بالاقناع والحجة الدامغة فرفضوا . الا ان افكاره كانت علمية وجذابة ، فكانوا يعجبون بها ، ويقفون عند هذا الحد .

ولما خطبت زوجتي اوتفاهمت واياها على الزواج ، لم اكن قادرا على الاقصاد عن قناعاتي القومية ، عن التزامي بالحزب عقيدة ونظاما . كان الحزب انئذ سرىا والبوح

بالسرخيانة عظمى يعاقب عليها بالموت . الا انني - وهذا مذهبي في الحياة قبل الحزب وفيه - لا احتمل الغش في شتى اشكاله والوانه . الم ما يؤلني الغش الصادر عن الآخرين خاصة متى كانوا موضع ثقتي ومحبتي واحترامي .

قلت لها : انني احبك اقل من سوريا واكثر من نفسي . كما قلت لها ان دمي على كفي متى طلبته الأمة قدمته طائعا مختارا . انني اناضل في سبيل سيادة الامة ووحدتها ونهضتها . ومن كانت هذه طريقه فأمامه المخاطر والأهوال و .. الاستشهاد .

قالت لي : لا اقبل ان تكون اكثر وطنية مني .

اذن : جعلت تلك المرشحة ان تصبح زوجتي تقتنع ان حياتي ليست لها ، انها لشعبي وبلادتي ومثلي العليا بالدرجة الاولى .

■ الى السجن بدل الزفاف :

واكتشف امر الحزب ليلة الاكليل في 1935/II/I6 . كانت قد لبست ثوب العرائس تنتظرني ، فاذا برسالة مني يحملها جورج سر كيس تنبؤها بما يشبه الفاجعة : اني ذاهب الى السجن واكتب لها وقد صدرت بحقي مذكرة توقيف ، اي بتأجيل الاكليل الى اجل غير مسمى .

كانت الصدمة عنيفة هزت كيائها ، ولا بد ان الصدمة الناجمة عن انتمائي الحزبي ، ولدت في اطواء قلبها بعضا من الغيظ .. والحقد على هذا الحزب الذي استلبها عريسها ليلة عرسها . بل ان عريسها لا يشرك في حبه لها الا الحزب .

ثم بعد ان اصبحنا زوجين ، كانت تشاهد وفود القوميين رائحين غادين ورائي ، لم تنس في حياتها تلك الليلة التي جاءتني بها كلودا ثابت - شقيقة نعمة ثابت - تأخذ توقيع على مراسيم بتعيين لجنة تنفيذية عليا برئاسة صلاح لبكي لقيادة الحزب في غياب سعادة والمسؤولين في السجن . قامت قيامتها غيرة وكيدا ، كيف اختليت بالسيدة كلودا ، تلك الجنية الساحرة التي كانت تسير فتخفق لها القلوب والرايات !.. كان ذلك بعد اكليلنا باقل من اسبوع اي 27 تشرين الثاني 1935 على وجه التقريب .

ثم لم اتخل طوال غياب الزعيم في اسره (ستة اشهر اول مرة واربعة او خمسة اشهر المرة الثانية وثلاثة اشهر المرة الثالثة) عن القيام بمسؤولياتي سواء كمعيد او كناموس (امين سر مجلس العمدة) او كمحام قومي اجتماعي . يضع علمه ونفوذه وعلاقاته بالقضاة والمحامين في خدمة قضيته .

ثم اقمنا في منزلنا حفلات على شرف سعادة والعمد ، كان يتلاقى فيها السياسيون والصحافيون والمحامون والكتاب ورجال الدين ، وكانت تسمع خطبي في تكريم سعادة فتنشئ في صدرها غيرة خفية من الرجل القائد الذي له كل هذا النفوذ على عريستها .

الصدمة الاولى الناجمة عن الغيرة من تعلقنا بسعادة . الوقت والتضحيات الجسام التي كان يتطلبها العمل الحزبي ، وكل ما يحيط به من مخاطر ومحاذير ، كلها عوامل ادت الى ابعاد زوجتي جورجيت بربر عن الحزب ، فيما كانت تقتنع اكثر فاكثر بصحة عقيدته واستقامة نظامه ، وبطولات اعضائه لانها تلمس بالبنان هذه الفضائل ، كما كانت تتسقط احاديث سعادة ومحاضراته لما فيها من عمق وتسلسل منطقي وروح علمية ، فيزداد يقينها اننا على حق وتكاد تحترق ان حقيقتنا ستظل مطموسة لان اعداءنا اقوياء وقادرون ونحن ضعفاء ماديا .. وغير قادرين الا على التبشير والخطابة وكسب عدد قليل من المقبلين على الدعوة .

والرفقاء القوميون الاجتماعيون لا يرحمون ، كنت اكتب بالامس انهم يريدون الامناء ابطالا وقديسين ، واليوم اكتب انهم يريدون زوجات المسؤولين وعائلات القوميين ، مقسمين اليمين ، منتمين ، جنودا خاضعين للنظام ، الم يرد في القسم الحزبي : « .. وان اتخذ مبادئه القومية الاجتماعية ايمانا لي ولأهل بيتي ... »

زوجة عميد الاذاعة الامين قبرصي ليست سورية قومية؟! يا للعجب العجاب! اذا كان الامين العميد لا يتمكن من حمل زوجته او اقناعها على الايمان بالمبادئ والتعاليم ، فكيف يمكنه حمل الآخرين او اقناعهم بالقضية القومية؟ مثل هذا المنطق وارد ولكنه لانزع وغير سوي ، فالزوجة قد تكون زوجة مثالية ولكنها ليست من رأي زوجها ولا من معتقده! ..

■ لا يرحمون :

الرفقاء القوميون الاجتماعيون لا يرحمون الامناء والمسؤولين بالدرجة الاولى ، اما على الزعيم فانهم لا يتجرأون .

في تلك السن - كنت في السادسة او السابعة والعشرين من عمري - لم اكن اطبق التحدي ولا المزايدة ولا التهكم ولا المزاح ، وكنت في الواقع اجد من الغضاضة الا تكون ام ولدي (اولادي في المستقبل) ، مقسمة اليمين ، ليست عضوا عاملا ومنظما في الحزب ، فيما كانت جمال ناصيف على وشك ان تصبح امينة في الحزب لما تبذل من نشاط

وتضحيات وسواها من الرفيقات كعفيفة حداد ونعم فاخوري وأدال كلاب الخ ..
وكننت امضي احيانا الساعات لاقتاعها ، كانت تهرب مني او تفحمني دون ان
تقنعني .
كان الهرب الاوسع امامها ان تقول لي : ليس لك اب ولا ام ، اذا ذهبت انت الى
السجن وذهبت انا اليه على من نترك ولدنا ؟ وعندما كانت حاملا : كانت تقول لي : هل
تريدني ان اضع في السجن اول مرة فأموت قبل ان اضع المولود !..

لم تدعن زوجتي الحبيبة لا للمنطق ، ولا للغضب ، ولا للحد ، ولا للضغط ،
فلجأت الى الحيلة لاقتاعها ، لجأت الى نفوذ سعادة نفسه ، لعلي ظافربها رفيقة معتقدي
الى جانب انها شريكة حياتي .

علمت ان اجتماعا للرفيقات يعقد في بيت صلاح لبكي ، بحضور الزعيم
والمسؤولين . فظننت ان الفرصة سانحة لانبهارها بمشهد عدد كبير من الرفيقات (كن في
مطلع 1937) تعرف اكثرهن . ثم لانبهارها بما سيحدثهن سعادة عن اثر المرأة في
نهوض المجتمع وانتصار القضية القومية الاجتماعية .

قلت : فلنذهب معا لزيارة بيت صلاح . نحن مدينون لهم بزيارة .

قالت : الآن ؟

قلت : على الفور .

وجئت بعربة على الخيل ، ورحنا معا الى بيت صلاح في رزاق البلاط ودخلنا فاذا

الاجتماع منعقد .

حييت ودخلت توا الى غرفة الطعام حيث كان سعادة مع عميد المالية آنذاك أميل
خوري حرب (تنورين) فاديت التحية وسلمت وجلست ، وجورجيت ورأيي ، رأيت
الغيظ قد بلغ آخر شعرة في رأسها حتى اخمصها . والدمعة غضبي في عينها ، وهي على
اهبة الانفجار ، فبادرتها : لنحتكم الى الزعيم .

■ الانتماء عملية اقتناع :

وقلت للمعلم : « اني ارتكبت عملية احتيال ، جئت بزوجتي الى بيت الرفيق صلاح
على اساس زيارة وانا اعرف ان اجتماعا لفرع السيدات منعقد . واني اغتتمتها فرصة
لادخلها في صفوف الحزب . ان القوميين يكادون يبرجمونني بالحجارة لان زوجتي لا تزال
خارج الصف » .

لم يغضب سعادة ولم يهتز . بقي محافظا على كل هدوئه ووقاره وقال لي : « ان

الحق مع جورجيت ، الدخول في الحزب ليس معاملة شكلية ، ليس عملية اكراه ، انه اقتناع « عفوي SPONTANEE » . اذكر انه لفظ الكلمة بالعربية والفرنسية معا .

« عودي يا جورجيت الى المنزل ، عندما تحدث عندك القناعة المطلقة بالدعوة الاجتماعية تطلين الينا الدخول ونرى اذا كنا نقبل او نرفض » .

هذه الكلمات نزلت على قلبها بردا وسلاما .

لقد انتصرت على زوجها - عميد الاذاعة .

ولكنها بقيت تذكر هذه الحيلة غاضبة حتى آخر حياتها .

وانا حفظت هذه الامثلة من سعادة ولا ازال اذكر واعتبر . لا يمكن سوق الناس بالاكراه لاعتناق عقيدة ما ، للايمان بعقيدة ما ، او برأي او بفكرة ، الحوار الهادئ الرصين المسؤول المحب هو السبيل . ولقد سلكت طوال عمري مع زوجتي اولا ، ثم مع الآخرين ، بعد هذه الامثلة هذا الاسلوب المثالي . ان الذين اقتنعوا معي بالمحبة والروية والرصانة ودخلوا الحزب بلغوا المئات ، ولكنني لم استطع اقناع واحد فقط بالاكراه او الحيلة او الاستعلاء او الشطارة في التخريج او التحايل .

الاقتناع بعقيدة ما يأتي عفويا على اثر تفهم هذه العقيدة ووعي ركانتها العلمية وادراك ابعادها واثرها على مصلحة الامة والايمان بها ايمانا مطلقا . ومع ذلك طوبى للذين يؤمنون ويستشهدون في سبيل معتقدتهم دون ان يكونوا علماء او فلاسفة .

دور المرأة في تأسيس الحزب

كنت مستشار سعادة القانوني والقضائي رغم ضعف خبرتي في مطلع حياتي المهنية المضطربة وتوزعي بين النضال الحزبي والنضال المهني . والتوفيق بينهما وبين تحصيل المعاش .

ما اصعب ايامنا الاولى في الحزب ! انكرها بحرارة واعتزاز ايام الحرمان والقهر والفقر ، كم رهنت ساعتني لاشترتي لعائتي الصغيرة احتياجاتها اليومية . الم أبع معطفي لافي صاحب الدكان المجاورة لبيتي من آل سلطاني فاتورة الدكان المتراكمة النفقات .

ومع ذلك كنت احاول ان اظل المستشار المسموع الكلمة ، وكان من توابع ومستلزمات المشورات القانونية ، السعي وراء بعض المعاملات الادارية ومساعدة اركان الحركة والمحازيين في تأمين بعض الخدمات لدى مختلف الدواوين والدوائر الحكومية .

لا تعد ولا تحصى مثل تلك الخدمات والمراجعات والمعاملات . وتعدادها قد يبدو من باب التمنين او .. فتح ملف التضحيات والنضال .

استدعي سعادة يوما من قبل مدير الداخلية صبحي ابو النصر ، كنت اعرفه سابقا . رجل ربع القامة . ميال الى القصر ، احنت ظهره السنون الطويلة التي قضاها في الدولة العلية وعهد الانتداب ، اعتقد انه خريج الاستانة ، لان عقليته كانت بالفعل عقلية سائر موظفي الباب العالي . ليس لدي انطباع سيء عنه ولكني كنت - بسبب او دون سبب - اكره هذه النوعية من الموظفين !..

قصدته مع سعادة بشأن معاملة تتعلق بالحزب . استقبلنا ببشاشة وترحاب . وقدم لنا القهوة تأديبا . بدا لي انه معجب بشخصية سعادة الا انه كان متخوفا من الحزب ، ان يكون حزبا نازيا او فاشيا ، اي حزبا عميلا ، قالها بلباقة لم يشعر سعادة معها بأى حرج في الاجابة ، لم يكن صبحي بك متهما بل متسائلا ، اما جواب المعلم فكان قاطعا : لا تجتمع جماعة على غش .

لازال اذكر العبارة التي انطلقت كالسهم من فمه فاصابت هدفها ، لم يجب المدير الا بالدعاء لنا بالتوفيق على الا نرتكب ما يخل بالامن او يسيء الى النظام .

لا تجتمع جماعة على غش وخاصة في حزبنا ، الذي لا ندخله الا للعباءة في سبيل قضية . انما بها ، واذا بالايام على مدى ما يقارب النصف جيل تثبت انها هي الجسر الذي نعبر عليه من القديم الى الجديد ، من الركود والشلل الى الحركة والثورة ، من التجزئة والتفرق والتمزق الى وحدة الروح والحياة والمصير ، الى الوحدة القومية الجامعة الموحدة .

لو اننا اجتمعنا في الحزب لخصوصيات او مآرب شخصية او قنوية او لمنافع من اي نوع كان . لما كانت الايام تتكشف باستمرار عن صمودنا وتسابقنا للشهادة ، لو كنا اجتمعنا على غش لكان هذا الغش ظهر منذ بداية الطريق .. يوم تبين لنا ان الحزب انما هو تضحيات وفداء وتحمل وصبر ومشقة .. انه الطريق الطويل الذي لا يثبت عليه الا ابناء الحياة وطالibo الحياة والتقدم .

حقا لا تجتمع جماعة ، بهذا التلاحم العجيب ، والاستمرارية الدؤوب الصبور ، الاحول مثل اعلى يستحق في سبيله ان يضحي الانسان لا بأرزاقه ومهنته وما يملك بل بدمه وحياته ..

■ المرأة في التأسيس :

كنت مرة في شارع المكحول سنة 1935 وكنت عميدا للاذاعة ودعيت لأقوم بعملية ادخال مواطن مع مواطنتين الى صفوف الحزب ، انهيت قسم الرفيق الجديد ، واقبلت اطرح الاسئلة على الرفيقتين قبل اداء القسم . ترددت قليلا ، هل يقسم الرجل والمرأة نفس القسم ؟ . هل مسؤولية الرفيق ومسؤولية الرفيقة من قياس واحد ؟ ترددت وانا من ضيعة كورانية محافظة (دده - الكورة) فأوقفت الاجتماع ورحت اسارع الخطى نحو « كوخ الزعيم » في رأس بيروت وجدته وعرضت عليه المشكلة فقال بهدوء ما معناه :
« ان القسم وضع للحزب ، لكل طالب انتماء كانت امرأة او رجلا ، المساواة بين الجنسين مطلقة . لا فرق عندنا في الحقوق والواجبات بين الذكر والانثى » .

ورجعت اشرح الامر للآنستين - اللتين لا اذكر اسمهما مع الاسف - فأقسمتا فرحتين ان لا فرق في الحزب بين الرجل والمرأة .

ادخلت الآنستين اذن وصارتا رفيقتين ، عضوين في الحزب ، الا انني ظللت اتساءل كيف يمكن ان تحمل المرأة السلاح ، ان تنفذ الاوامر الصعبة والمهمات المستحيلة كما ينفذها

الرجال ؟ ولكن في الميدان اختبرت ان الزعيم كان على حق وان نصف البشرية لا يمكن ان يهتم بالمطبخ وترتيب المنزل وانجاب الاولاد فقط ؟!

وكم كنت اغتبط طوال نضالي الحزبي . عندما اشاهد رفيفات يتطوعن للقيام بمسؤوليات اساسية . كم فرحت عندما نالت نجلا معتوق حداد رتبة الامانة ومثلها جمال ناصيف ؟

وان انسى ، لانسى ، يوم كنت احاضر في بلدة قانا - قضاء صور سنة 1976 وعلى جانبي المنبر رفيفات في عمر الورد يحملن البنادق ويحرسن الاجتماع في وقفة عسكرية ، شعرت انها وقفة عز للمرأة في بلادي !..

ومنذ اللحظات الاولى لانتمائي الحزبي كانت هناك وجوه للمرأة تبرز في العمل الحزبي بخفر وتواضع وتستر ، ابرز هذه الوجوه في عهد التأسيس الاول كان وجه عفيفة حداد وكلود تابت وام فخرى المعلوف !.. ثم فاييزة معلوف انتيبا التي جاهدت معنا الجهاد الحسن في الاربعينات .

عفيفة حداد التي شاهدها آخر مرة منذ ثلاثة عشر عاما في ديترويت ولها ولد ارتني صورته كولونيل في الجيش الاميركي ، هذه الشابة ككل افراد العائلة ، شاركت مشاركة فعالة في عملية التأسيس . والدها في المطعم وهي في المنزل ، واخواها بين المنزل والمطعم ، كانوا كلهم حركة دائمة ، يعملون لانفسهم ، لكسب الود وحفظ الكرامة ، ويعملون ما استطاعوا في سبيل الحزب . كما كان مطعم آل الحداد في شارع بلس مصيدة . كان المنزل ايضا مصيدة ، كانوا يؤجرون غرغا مفروشة ، يشغل احداها سعادة نفسه ، ثم جئت انا وطالب صيدلة من الموصل نحل محله ، ومن تلك الغرفة خرجت وانا سوري قومي كما خرج الطالب الصيديلي سوريا قويا . كان احدا اذا افلتت من فؤاد (توفي منذ عامين او ثلاثة) يعلق بيوسف او بعفيفة ، ولكن المعلم كان العين الساهرة التي متى وضعت يدها على اي مرشح ، يفلتت من هذه اليد المباركة بصعوبة قصوى !..

يكفي في ذلك العهد السري ، ان تتجراً امرأة شابة على اداء قسمنا الحزبي الرهيب ! وان تتدرب على القيام بالمهمات الدقيقة على اكمل وجه ، ان تحمل الرسائل والاشارات السرية والتعليمات ، وان تمر بين آلاف الاعين والاذان وتخرج سالمة غانمة !..

يكفي مثلالندكر عفيفة حداد بالخير ، انها كانت في السجن الاول ، تحمل الزاد الى

حبس الرمل سنة 1935 دون ان تنهار اعصابها او تتراجع ، يكفي انها نفذت بدقة تستدعي الاعجاب موجبات القسم والزاماته . فما عصت امرا ولا فضحت سرا ولا تخلت عن رفيق في حاجة تستطيع سدها !..

اما كلودا ثابت وهي عنوان الاناقة والرصانة جمعت في جمالها الساحرين المسحة الاوروبية والطابع السوري ، تخالها اذا شئت قادمة من العائلة المالكة في لندن ، ويمكنك ان تشبهها في الوقت ذاته بغيداء تمتطي صهوة جواد قادمة من الصحراء .

كلودا ثابت ، كانت ذات ثقافة عالية ، تتكلم الانكليزية كالانكليز ، وتنطق بالعربية كأحسن ما ينطق بها ابناء الشوف ، هي من عين زحلقتا اصلا ، وقد رببت - كما ربي اخوها نعمة وفلاو - في الرفاه والنعمة والترف ، في قصرهم في بئر حسن !..

بعد بيت جرجس سمعان الحداد الذي لا يزال قائما في شارع جان دارك في رأس بيروت ، انتقل الحزب الى قصر آل ثابت وسيدته القادرة كلودا . لان الوالدة كانت قد عجزت او توفيت

وفي ذلك القصر اصبح الحزب حزبا مختلطا ، صار جامع شمل الارستوقراطية الراقية والبروليتاريا من الفلاحين والعمال البسطاء الاميين ، والبورجوازية الصغيرة والكبيرة من اطباء ومحامين وطلاب جامعيين !.. وفي كوخ رأس بيروت كان يلتقي الجميع متساوين .. كما في قصر آل ثابت يلتقي الجميع متساوين .. منذ عهد التأسيس حققنا الوحدة الاجتماعية وقضينا على الفروقات والمسافات الطبقية لقد كان يجلس رئيس المجلس الاعلى وكان يومذاك نعمة ثابت وهو ابن الاثرياء الى جانب اي عضو « بويجي » دون ان يشعر بأى حرج ، الحزب صهرنا في العقيدة وفي وحدة روحية حتى الان لم يفهمها البعض على حقيقتها .

ان كلودا ثابت ، بفضل اخيها وبون ان تقسم يمين الانتماء انت من الخدمات ما عجز عنه شقيقها نفسه .. فكم من الاتصالات والمقابلات والمهمات الناجحة جرت بمبادرة منها وبمساعيها والخطط التي كانت ترسم ! كل ذلك وهي لم تقسم يمين الانتماء على ما اعتقد .

اني اتحدث عن عهد التأسيس وقد صار تراثا وتاريخا . اما اليوم فمع الاسف ، لا نعمة ولا كلودا معنا . ذهب كل منهما في طريقه وعلى طريقته . انما نحن الذين ما نزال على الدرب المستقيم ، ندون ونسجل ، لا يمكن ان ننسى تلك الحقبة من تاريخنا وخاصة لا يمكن ان ننسى تدوين وتسجيل المآثر . حتى اذا وصلنا الى المساوىء بوناها ايضا ، بروح الانصاف والعدالة .

اما ام فخري المملوف ، اطال الله بعمرها ، فيكفي انها كانت امانا جميعا ، يكفي ان بيتها كان من الفجر الى النجر ملتقى المرشحين والاعضاء والقيادات . ما رايناها تعبس يوما ونحن ندخل ونخرج بدون استئذان ، نأكل ونشرب بدون استئذان ، ام فخري اسم لا يمكن ان ينسأه الحزب لانها كانت هي وافراد العائلة جميعهم من مداميك اساسه . ندون ونسجل ونقر بالفضل لنوي الفضل .

■ في طرابلس :

ولننتقل الى طرابلس الفحاء ، ان السجل الذهبي للحزب فيها يحمل في مطلع اسم الامينة السابقة نجلا معتوق حداد . اعتقد الآن انها اكبر الاعضاء سنا . لقد تجاوزت السبعين . انها تتقاعد بحق وتتصرف الى تدبير شؤون صحتها وعائلتها بقدر ما تسمح صحتها وسنها ، الا انها مناضلة بحق ، فقد ناضلت ضد زوجها . وضد محيطها . وضد نفسها احيانا لتظل طليعة المرأة الشمالية القومية . كانت تترك زوجها واولادها لتحضر الاجتماعات وتقوم بتنفيذ ما يعهد اليها من اوار ومهمات . كانت تحضر الى دمشق ساعة تطلب . كانت تسعى اليها في مخابئنا لتحمل اليها المال والزاد .. بحق منحها سعادة رتبة الامانة في مطلع عهد الرتبة .. انها ما تزال على ايمانها .. ويكفي بعد تاريخها النضالي الطويل ان ترتاح وهي مؤمنة بالقضية .. ومؤمنة رغم ما شاهدت من احوال وتحملت من مأس .

ولاننا في الشمال لا بد ان نذكر بالخير عائلة كانت قومية اجتماعية ومناصرة هي عائلة اسكندر سمعان الحلبي . وبناته اميلي ومارغو وليلى .. الاشد حماسا وايمانا ووعيا كانت اميلي ، شقراء طافحة بالحيوية والذكاء ، يضيفان على جمالها جمالا . اميلي كانت مطعم جورج عبد المسيح ومعبودته الساحرة . احبها وكانت تعرض عنه في البداية الى ان تزوجا واختلفا وخسرناهما معا . لقد كانت اميلي وبيتها مركز اشعاع في طرابلس الفحاء ساعدت في البدء على انتشار الحركة وكانت مع عائلة الامين انيس فاخوري (شقيقة واخوانا) ومع باقي المناضلين الابرار من العاملات الناشطات . حتى ان اميلي بدأت تكتب وتخطب في الاجتماعات العامة . وكنا نعداها لمستقبل كبير ، الا ان المستقبل خيب اماننا لاسباب سنجلوها في سياق هذه الذكريات .. ويتحمل غير اميلي حلبي وغير اهلها تبعاته وواقعه !.. لن انسى ما حبيت اني كنت ازور جورج عبد المسيح في مستشفى سان شارل الالماني في بنائه القديم محل الهوليداي ان على اثرقضم انه باسنان المهندس جورج ابراهيم حداد فوقع عيني على رسالة في جيبه مكتوبة على ورق ازرق كنت اعرف ان اميلي حلبي تكتب رسائلها على مثله فوشوشته قائلا : لعل

المكتوب وسام من اميلي : فhez رأسه سعيدا بالنكتة ! .

بعد خروج سعادة من السجن ، سنة 1936 ورغم اننا كنا قد اعدنا له منزلا ، تعرف بواسطة نعمة ثابت الى السيدة وداد ناصيف وكان بيتها في مطلة الصنائع ، صار هذا البيت مركزا سرليا نلجأ اليه لعقد الاجتماعات السياسية واللقاءات الاذاعية ، وعندما القي القبض على سعادة كما سنشرح في 17 اذار 1937 بعد حادثة بكفيا كانت وداد ناصيف - الشجاعة - ترافقه في السيارة لتساعده على اتقاء مؤامرات الانتداب والسلطات اللبنانية . في دارها كما ذكرت سابقا اجتمعنا بالاستاذ حميد فرنجية وصلاح لبكي وجورج حكيم وتداولنا في انشاء المجلس الاعلى وصلاحياته ، ومن منزلها انطلقت مع عبد الحكيم مراد - المحامي الذي كان عميدا للاذاعة في فترة من الفترات لمقابلة السيد كييفر . تلك المقابلة التي نكرها سعادة في احدى مقالاته في الزبوعة في الارجتين .

لقد تحملت السيدة وداد - وكانت طريحة الفراش اكثر الاوقات - ازعاجات جواسيس السلطة حتى مغادرة سعادة الوطن في 23 ايار 1938 .

والمير امين ارسلان وزوجته حرية ساعدانا في المرحلة العصبية التي كنا نجتازها بين منتصف 1936 حتى سفر سعادة الى المغتربات . كان المير امين من فرسان السياسة وراءه تاريخ حافل بالمواقف الوطنية الجريئة . واذا كان لم يدخل الحزب ، فقد دخلته عقيلته وشقيقتها ونشطتا نشاطا يذكر بالخير . في منزلهما عقد المجلس الاعلى الجلسة التي حوكم فيها الامين انيس فاخوري عن اتهامه سعادة بهدر اموال الحزب (ويا لها من اموال !) .. وحكم باسقاط امانته وفصله ستة اشهر كما ذكرنا في حلقة سابقة .

في تلك الدار الكريمة كنا نعقد حلقات اذاعية ولقاءات سياسية على مستويات متفاوتة ، من شعبية الى ثقافية الى دولية .

جمال ناصيف ووالدتها كانتا - خاصة الصبية الحلوة جمال - من المشتركات في تأسيس الفرع النسائي في الحزب والعاملات على انمائهن وانتشاره . ولا استبعد ان يكون سعادة قد عناها عندما قال قد تدرك المرأة بقلبيها ما لا يدركه الرجل بعقله .

كانت سلمى صائغ شهيرة في لبنان ومصر كاديبية متحررة تطالب بحماس وايمان بحرية المرأة وحقوقها ، دخلت الحزب مع الشاعر صلاح لبكي زوج ابنتها عائدة وخرجت

منه بخروجهما . كان المهندس جورج حداد يستعين بها في بعض المهمات عندما تسلم منفذية بيروت ، وكان منزلها ومنزل صلاح ملتقى رجال الادب والفن . في منزل صلاح التقى سعادة بالفنان الشهير يوسف الحويك رفيق جبران خليل جبران في باريس ، والنحات المتفوق . واني لا انسى سماعي من فم سلمى صائغ عبارة قالتها للزعيم ، على اثر زيارة قام بها المير خالد شهاب له في دارها : يا زعيم انك مصور في نص قلبي .

ان ما رويته من اسماء لا يشكل الا جزءا من سجل المناضلات السوريات القوميات . لان عددهن غير محصور من جهة . ولان زوجة كل عضو او امه او اخته ، كانت مساندة له في نضاله وجهاده . والجنديات المجهولات في الحزب كثيرات في كل المناطق . في عهد التأسيس وبعده ، انني اعتقد ان اعتقال سعادة واعتقال اعوانه معه وزجهم في السجن سنة 1935 كان يمكن ان يتسبب بانهايار شامل . لو لم تقف وراء سعادة واعوانه المرأة السورية القومية اما او زوجة او اختا او خطيبة او عروسا او قريبة . فتشجعه . وتحمل له الزاد والعزاء . وتطل عليه كل اسبوع بالابتسام والالهام ، وتبسو وكأنتها فخورة باعتقاله ، بل كان انكشاف الحزب هو دليل عافية شعبنا وأمتنا وانتفاضتها ضد الاستعباد والمظالم .

ان الجنديات المجهولات هن بلاريب في كل حي وقرية ودسكرة من سوريا الطبيعية فيها سوريون قوميون .

اننا ونحن نتحدث عن دور المرأة في التأسيس ، لا بد من ان نشير الى ظاهرة غير مشجعة ، منذ سنوات لم تحز اية سورية قومية رتبة الامانة ، ومن زمان لم تصل احداهن الى مركز عميد او عضو في المجلس الاعلى . المرأة في الحزب ، المساوية كليا للرجل في حقوقه وواجباته . لم تتفوق كما ننتظر لها ونأمل .. اننا نقدر ظروفها ، ولكننا لا يجوز ان نتصور ان امتنا عاقر بالعظيمات او ان حزينا عاقر بالقائدات .

علما اني لا اريد ان اقلل هذا الباب دون ان اذكر ولو على عجل اسماء عزيزة علي وعلى الحزب في عهد التأسيس كانجال عبد المسيح وفايزة معلوف انتيبا وأدال معروف صعب وأديبة شامية وأدال كلاب ونعم فاخوري واخوات الفقيدي زكريا لبابيدي وسواهن ..

الرقيم والقوميون امام القضاء

بعد المحاكمة الاولى في كانون الثاني 1936 امام المحكمة المختلطة برئاسة الاستاذ جان روسيا (لا يزال حيا يرزق في بلدة بارات Berat في الهوت غارون Houte Garonne في فرنسا وعمره 86 عاما) رفع القضاء المختلط يده عن الدعاوى التي كانت تساق ضد القوميون لتصبح من صلاحية القضاء اللبناني . كنت محامي الحزب وكان معي من المحامين يومذاك الاستاذ موريس الجميل الخ .. الذي انتقل من صفوف الحزب الى صفوف الكتائب سنة 1937 فكان لنا خسارة كبرى ، والاستاذ عبد الحكيم مراد والاستاذ اديب الحسنية وكان يساعدنا من وراء الستار الاستاذ الشاعر الشيخ ابراهيم المنذر (النائب يومذاك والذي لم يتعاط المحاماة جدياً) .

الدعاوى التي اذكرها كانت محاكمة عبد الله الجميل وعارف الجردي وخليل ابو مجاهد ورفاقهم امام محكمة الجنايات برئاسة الرئيس الصلح . ومحاكمة عجاج المهتار ورفاقه امام محكمة بداية جراء بيروت برئاسة الرئيس وفيق القصار ومحاكمة غنود كرم امام نفس المحكمة ثم محاكمة وديع مجاعص وفؤاد فرح وسواهما امام محكمة بداية جزاء بعيدا برئاسة الرئيس مسعود حنين في اعتقادي ان ملفات هذه الدعاوى فقدت او اتلقت او اهترأت ، فعلي ان اتكل على الذاكرة فقط في محاولتي لسرد بعض وقائعها .

كانت جريدة « الرابطة » وجريدة « المساء » الاولى رئيس تحريرها ابراهيم الحداد والثانية عارف الغريب ، تشنان حملات شعواء ضد الحزب وسعادة شخصيا ، وتباريان في ايهما تعنف حملتها عن الاخرى ؟ .. بوجه عام لم تكن الصحافة في لبنان والعالم العربي ودية للهجة تجاهنا . بل اني انكر ان جريدة او مجلة انبرت تدافع عنا . « الصحافي التائه » كتبت بلسان صاحبها اسكندر الرياشي اخف الصحفيين دما واقربهم الى القلب مقالات تصف سعادة باول اشتراكي في الشرق على اثر انكشاف امر الحزب واعتقالنا . والصحيفة التي كانت لهجتها معتدلة كالنهار مثلا كنا نعتبرها موالية وصديقة . المجلة - كمجلة المعرض لصاحبها ميشال زكور - التي

قبلت ان تنشر بعض مقالاتنا ، بدت لنا وكأنها « مجلتنا » نتلقفها تتناثشها من ايدي الباعة . اما الصحف الخصيمة - واجروؤ فاقول - العوة فكانت كل الصحف الباقية ، كان منتظرا ان تتعصب لنا الصحف « الوطنية » التي كانت تنادي بالوحدة السورية ، ولكن علي ناصر الدين وآل الصلح وكل الوطنيين ما فرحوا ان يتزعم حركة « الوحدة السورية » رجل مسيحي مغمور اسمه انطون سعاده . فيما كانت اسماء القادة المحمديين ترن في الخافقين .

الصحف اللبنانية المتزمتة - التي لا تزال على قيد الحياة حتى يومنا هذا - ناوأتنا باسم اللبنانية او المارونية السياسية التي اوصلتنا بلبنان الى ما نحن فيه من بلايا ورزايا . والصحف الوطنية القائمة بالوحدة السورية رفضتنا رفضا عدائيا لاننا نقول بالقومية السورية لا بالقومية العربية . عكس الجريدتين اللتين اساءتا الى الصحافة اكثر مما اساءتا اليها كانت الرابطة الشرقية والمساء . لقد بلغتا حدا من التهجم المقذع لم تتحمله اعصاب شبابنا المؤمن ، الذي دخل الحزب على أنه بطولات وقداء وتضحية بالذات . وعلى انه حزب الحياة الجديدة والقيم الجديدة والنظام الجديد القادم من امجاد الماضي لكي يبعث هذه الامجاد ويصلها بخط نفسي فكري عقلاني حضاري يضعها في منطق العصر ومسيرة التاريخ الصاعد وخدمة الامة السورية العربية والعالم العربي كله .

لم يطق بعض شبابنا المسبات والاتهامات والافتراءات والشتائم فتنادوا واجتمعوا وقرروا - نون علم القيادة - بان يؤدبوا عارف الغريب وابراهيم حداد . فابوهما بالعصي للاول وبمحاولة قتل الثاني دهسا . كان ابطال هذه الهجمة عبد الله الجميل - منفذ بيروت آنذاك - وخليل ابو مجاهد وعارف الجردي وسواهم .

انكشف امرهم ، اذ كان اثنان منهم في مطعم يتحدثان عن كيف اقتحما منزل عارف الغريب وتمرجلا ، فاذا بالطولة المجاورة طاولة رجال التحري، لحظات وكان الاثنان في دائرة الشرطة .

وسيق الجميع بعد التحقيق الى محكمة جنايات بيروت برئاسة المغفور له الرئيس سامي الصلح ، الذي كان لا يزال في القضاء تراوده السياسة مراودة ناعمة الى ان وقع في حبالها وهجر القضاء ليموت في احضانها .

■ بامكاني اعتقال زعيمكم :

في التحقيق استدعاني المدعي العام الاستاذ ديمتري الحايك ، وقال لي : « ان نظام

حزبكم مركزي تسلسلي . ان بإمكانني ان اصل في هذه الجريمة الى رأس زعيمكم معتمدا النص الدستوري الصريح ، الا انني لا أفعل لأنني اعتقد ان الزعيم لا يجيز مثل هذه « الصيبيانيات الشرسة » وبالفعل كان بإمكانه – استنادا الى دستور حزينا – ان يعتبر ان منفذ عام بيروت ما أعطي الأمر بالتأديب الا بناء على أمر سعادته .

اما في المحاكمة التي انكر ان موقف المتهمين فيها كان جريئا ، وهجوميا ، بفضل عبد الله الجميل وايمانهم بمشروعية ما ارتكبوه انتقاما للحزب وكرامته وشرفه ، فقد حدث ان الرئيس الصلح ظل هادئا مرحا من اول الجلسة الى آخرها ، الامر الذي دفع بي بعيدا في استغلال الهدوء والمرح لصالح الحزب وصالح المتهمين .

قلت يومذاك : بعد ان لت المتهمين على اعتدائهم وتفردهم وعلى تمسكنا بحرية الصحافة وحرمتها ، ان الحزب السوري القومي ليس حزبا للقوميين ، مطويا على اسمائهم . انه ملك الشعب كله ، والقضاة من الشعب بل هم من ارقى المواطنين ثقافة واخلاقا .. وعندما صحت بالقضاة :

من منكم لا يؤمن بفصل الدين عن الدولة ؟

من منكم لا يؤمن بالسيادة والاستقلال ؟

من منكم لا يؤمن بنهوض هذا الشعب من تحت نير الاقطاع والرأسمال والطائفية ..؟

لذلك فانتم ايها القضاة سوريون قوميون وان لم تدخلوا الحزب رسميا !.. فكادت المحكمة ان تنقلب عن كراسيها لكثرة ما ضحكت واحتج رئيسها سامي بك قائلا :

لا يا استاذ .. لا يا استاذ .. نحن منا قوميين ! لا تدخلنا بها المسألة نحن قضاة يا استاذ ويس !

والمهم ان سامي بك ، واعضاء المحكمة يومذاك ، كانوا يعرفون ما تعني نزوات الشباب ونزقهم ، فلجأوا الى العدل مقرونا بالحلم والحكمة فادانوا الفاعلين ، ولكن منحورهم الاسباب التخفيفية الى اقصى حد ممكن !..

كانت هذه الحادثة الاولى والاخيرة في تاريخ العنف الحزبي لان مؤسستنا وقفت منها موقفا حازما دون ان تتخلى عن الذين قبلوا السجن واحتملوه معتقدين انهم يؤدون واجبا بتأديب من لا تريد السلطة تأديبهم باسم القانون والعدالة او من تدفع بهم السلطة لتهديد كرامة المناضلين والمفكرين تحت ستار حرية الفكر وحرية الرأي وحرية القلم ، كانما الحرية الحقيقية هي ان تكون حرا في تأييد رأي السلطة ومعتقداتها ، لا حرا في ان

تعتقد ما تشاء ..

■ المحاكمة الثانية :

اما المحاكمة الثانية ، ارجح انها جرت امام محكمة بداية الجزاء برئاسة الاستاذ وفيق القصار الذي اصبح فيما بعد رئيس مجلس شوري الدولة واحد كبار القانونيين الشرفاء (هو الان متقاعد) .

كان بطلها الشاعر المناضل الرفيق عجاج المهتار ، عرف بان سعادة هدف مؤامرة في السجن تساء معاملته وتجرح كرامته ، فحرض عددا من الرفقاء وقادهم الى سجن الرمل في مظاهرة منظمة . ولو ان احدا منهم كان يحمل سلاحا لصنوا بالرصاص واعقاب البنادق ، لكن المظاهرة كانت سلمية وقعت في الساعات التي كان يرى فيها النور ولدي البكر صباح ، ولو ان اسم عجاج لا يتلاطم بالامواج تعوزه الموسيقى والرقعة الشعرية لما كان اسمه صباحا بل عجاجا .

القي القبض على بعض المتظاهرين دون كبير عناء لانهم لم يكونوا الوفا ولا مئات وتوارى الباقون ولم تعرف اسمائهم الا اذا كانت راسخة في ذاكرة شاعرنا المهتار وقد سيقوا الى المحاكمة ، فكان قائدهم على مستوى المسؤولية عجاج المهتار لم يكن يوما الا شجاعا وهجوميا . في تلك المحاكمة كان الموضوع ان المتظاهرين عدا انهم اقتحموا الساحة الخارجية لسجن الرمل . هتفوا تحيا سوريا ويحيا سعادة ، فكانت مرافعة عبد الحكيم مراد . ان تحيا سوريا لا تعني ان يموت لبنان .. بل بالعكس ، وان كلمة تحيا سوريا ليست جريمة اذ من من اللبنانيين يريد ان تموت سوريا لا ان تحيا ؟ ..

في هذه المحاكمة - على ما اذكر - ومن باب التحدي والفروسية وقف فؤاد حداد - احد الستة الاول في الحزب - وهتف في قلب قاعة المحكمة تحيا سوريا فكاد ان يساق الى السجن وان يحكم لولا حكمة الرئيس القصار ومرونة محامي الدفاع ..

اقول على ما اذكر لان هتاف فؤاد حداد وقع ولكن قد يكون في مناسبة اخرى . محاكمة الزعيم مثلا عن منشور 17 اذار 1937 .

■ انارصاصة :

محاكمة طريفة ايضا كانت محاكمة غندور كرم ، الذي اوردت اسمه في امسية صافيتا وكيف سرق قصيدة نظمها الشاعر فيكتور خوري في مناسبة عرسى .. فاختطفها غندور وادعاها والقاهها وكأنه هو الناظم ! . غندور كرم هذا قتل في الاحداث الدامية سنة 1958 ، اجارنا الله من الاحداث

الدامية في لبنان التي لا تزال نعانيتها في هذه اللحظات مع الاسف .
وغنود كرم هذا ، اذا لم يكن شاعرا ، فقد كان بالفعل متقدما وطنية وشعورا ..
كان في نطقه بياننا وفي سرده بلاغة ، وكان في مظاهره رجل عنفوان وتحد ، اما اطواء
نفسه فلا اعرفها وليس بين يدي كتب او مقالات او مواقف فاحلل واقارن واستنتج ! ..
وقف في المحاكمة واطلق امام المحكمة كلمته الشهيرة انا رصاصا في مسدس الزعيم
يطلقني حيث يشاء ! .. وذهبت مثلا .

■ محاكمة الزعيم :

لم يصدر الحكم عليه باكثر من ثلاثة اشهر سجن على ما اذكر ، وكل ما نسب اليه
انه كان يكتب على الحيطان ليلا بعض العبارات الحزبية ، والتهكم على السلطات ؟ ..
اما المحاكمة الاكثر طرافة فكانت تلك التي جرت برئاسة الاستاذ كمال عيتاني
- وكان لم يعين بعد رئيسا للاستئناف ، بل كان قد حل مكان الرئيس القصار الذي نقل
الى مرتبة اعلى - لزعيم الحزب بتهمة اصدار بيان يعلن فيه الحكومة اللبنانية حكومة
عاصية .

وكان قد تطوع للدفاع عن الزعيم الاستاذ موريس الجميل الذي كان قد انتمى الى
الحركة رسميا كما اشرت فوق ، وكنت انا وعبد الحكيم مراد واديب الحسنية . وكنا قد
نصحنا سعادة ان ينكر صدور البيان عنه بعد ان ادى مفاعيله في التأثير على الحزب وعلى
الشعب . فلما سأل الاستاذ العيتاني رئيس المحكمة عن البيان وعن توقيعه
عليه قال : « هذا البيان يحمل اسمي لا توقيعي » .

يلاحظ انه لم ينكر البيان فكان جوابه جواب محام بارع .
التفت الرئيس الى النيابة العامة وكانت ممثلة بالاستاذ وجيه خوري مدعي عام
بيروت وسأله هل لديكم ادلة اثبات ، فأجاب بعد ان بحث في ملفه اعتقد ان عندنا الاصل
فالح الرئيس بابرار هذا الاصل فوق المدعي العام بعد ان فتش في اوراقه واعلن ان ليس
لديه دليل غير اسم انطون سعادة على البيان . فتذاكرت المحكمة لحظات واعلنت براءته
بعد ان ترفع كل منا ببضع كلمات ، كان اهمها ما شرحه الاستاذ موريس الجميل عن
عقيدة الحزب السورية القومية ! ..

■ حادثة بكفيا :

اما المحاكمة الاخيرة فكانت امام محكمة بداية جزاء بعيدا ، كان المتهمون فيها
سبعة عشر رفيقا على رأسهم وديع الياس وفؤاد فرح . كان قد قبض عليهم اثر حادثة

بكفيا التي وقعت بمناسبة الاحتفال باول اذار سنة 1937 في ساحة البلدة المحيطة باوتيل كونتينتال .

كان لدي وثيقة من جميل قيامه احد قادة القوميين في تلك المظاهرة التاريخية ولكنها فقدت .

ابرزما يرويه الرواة - وقد رواه الامين جريج في كتابه مع انطون سعادة - موقف الزعيم ورباطة جأشه وبسرعة خاطره .

اذكر ان قائم مقام المتن الذي اشرف على تنفيذ قرار منع الاجتماع كان فؤاد البريدي الذي رقي الى رتبة مدير للخارجية والمغتربين في نهاية المطاف الاداري ، وان قوة من الدرك كبيرة تجمعت في مكان الاحتفال لمنعه بالقوة ، وان سعادة ابلغ بما وقع فامر بتطويق الدرك . فطوقوا . ولما نشبت المعركة كان سعادة قد انسحب من الفندق وامنت سلامته رغم اصراره على البقاء للاشراف بذاته على التطورات ، ولم يقع في المعركة قتلى بل عدد من الجرحى على رأسهم بعض فرساننا الاشداء ، وبيع الياس وفؤاد فرح ، وبيع الياس على ما قيل لي كان يمسك برجال الامن اثنين اثنين ، فينتزع بناذقهم ويحطمها على ركبتيه .

وجرت المحاكمة في بعبداء امام محكمة بداية الجزاء وكان يرأسها القاضي الشاب الاستاذ مسعود حنين . وقد اكتفى في احكامه بالمدة التي قضاه الرافقاء في السجن ، فكان حكمه نموذجاً من التفهم لوضع الذين قاتلوا الدرك دفاعاً عن الاجتماع الذي لم يمنع الا في آخر لحظة . واستجابة لمطالب واحتجاجات خصومنا السياسيين من اهالي بكفيا .. هؤلاء الخصوم الذين كانوا صغاراً فكبروا ولا يزالون يكبرون بالطائفية والانسياق للارادات الاجنبية .. حتى توصلوا الى ارتكاب جرم الخيانة العظمى بتعاملهم علنا مع اسرائيل .

في ختام هذه النبذة عن الحزب والقضاء اللبناني . يجب ان نذكر بالخير هذا القضاء ، خاصة في عهد التأسيس فمن حسن قبلان الى صبحي المحمصاني الى جورج مراد ، الى كل الذين حققوا مع القوميين او حاكموهم فمن نكرنا فوق ومن لم نذكر سلسلة من القضاة الفضلاء النزهاء . ما تأثروا بسورية الحزب (هم العروبيون او اللبنانيون) ولا تأثروا بمعارضته هم المواليون بحكم وظائفهم ، بل حاكمونا وحكموا بالعدل ، خلافا لما كشفت عنه الايام . بعد تلك المرحلة ، حيث صارت الاحكام تصدر علينا بأمر السلطات الحاكمة ، وسنأتي على تفصيل ذلك في حينه !.

سعادة الانسان .. والهجوم على حماه

كنا نسكن في منزل المرحوم حمزة شاتيللا . ابو عبد ، في شارع الصيداني ، لقد تغيرت المعالم في السنوات الاخيرة ، فصار شارع المقدسي ، شارع البارات والفنادق والمحلات التجارية الباريسية الطراز ! .
كنا نتجاور مع آل المعلوف وبتبادل الزيارات .

لم يكن يمر اسبوع الا والمعلم يمر بنا ، تارة مدعوا وطورا بدون دعوة ، فقد ارتفعت بيننا الكلفة ، وسادت علاقاتنا روح رفاقية . كنت قد اصبحت ناموسا (امين سر) لمجلس العمدة عوضا عن عمدة الاذاعة التي اوكلت اولاً الى صلاح لبكي ومن بعده الى فخري المعلوف ثم الى سواه وكانت تعقد احيانا جلسات مجلس العمدة في منزلنا هذا .
في المحاماة ، كنت غرسة صغيرة قد نمت ، اجالس كبار المحامين كحبيب ابي شهلا وكميل اده وشارل كاتسقليس وجان جليخ . وسواهم . كما كنت قد اصبحت معروفا لدى القضاة الفرنسيين ، كديزانكل ودييان وروش وقيتي واران ومانياني فضلا عن القضاة اللبنانيين كبارا وصغارا .

وكان خال زوجتي - الذي اكرر اسمه دائما وانكره بالخير والعرفان - المحامي ابراهيم خوري قد اصيب بالسرطان . واوكل الي ادارة المكتب وملاحقة الدعاوى .
بهذه الصفة تعرفت الى مغترب من دوما ، كان في بوسطن ماس ، واختلف مع مستأجري منزل له في فرن الحايك التحتاني - حي اليسوعية . اسمه حنا جرجس ابو زيد ، كان هذا الموكل مثال المغترب اللبناني الساذج ، الذي ينبهر في الولايات المتحدة بما يشاهد من غرائب وعجائب فيطير بعض عقله ويبقى البعض الاخر .

الخلاصة ، ان الموكل المتقدم في السن جون . ج . ابي زيد ، ليس فقط مغتربا كريما يعود الى الوطن الام ، ببساطة وتواضع ، بل يحمل الى الوطن كتابا يثبت فيه خطأ نظرية نوران الارض حول الشمس ، ووصحة نوران الشمس حول الارض ، وسلاحه في اثبات هذه النظرية بعض من الزجل ، وبعض من روح النكتة ، وكثير من الجهل والادعاء والمزاعم الخيالية .

وبالفعل جئت بالرفيق جورج سركريس - وقد اصبح في ما بعد اديبا وشاعرا - وكان قد تدرب على قراءة جون ج . زيد فاذا ما وقف وبدأ بمقطع او فصل او سطر ، يقع الكتاب من يده ويقهقه حتى البكاء .
قبل ان يدفع لي سلفة على بدل اتعابي عن دعواه التي بقيت في مكتبي سبعة عشر عاما نقدني كتابه « عن دوران الشمس حول الارض » .

كان الكتاب انيق الطبع ، جذاب الغلاف ، ثمين الورق ، حملته الى البيت في تودة ، معتقدا اني احمل كنزا ! ما ان وقعت عيناي على الصفحات الاولى ، حتى رحت اضحك .. واضحك ! الى ان كاد يغمى علي من الضحك ، عوض النظريات العلمية عن الافلاك والنجوم والارض والسماء وجدت ابياتا من الشعر العامي تشيد بعلم النجوم الاميركي .. من الفلك ودوران الارض والشمس ، هبطبنا جون . ج . ابي زيد الى علم النجوم !.

صار هذا الكتاب عندي علاجا للاعصاب ، كلما شعرت بالكآبة والخيبة او انتابني شعور باليأس لجأت الى مستشفى الشاعر العلامة الفهامة جون ج . ابي زيد .

دعوت سعادة وفخري المملوف الى العشاء ، وانا اقصد ان اقيم من بعد الطعام مأدبة ضحك على مائدة العلامة الفهامة جون . ج . ابي زيد .
وجلسنا الى مأدبة الضحك .

فاجأنا سعادة بالامر ، لانه لم يكن على استعداد للاطلاع على ادب الفلكي العلامة الفهامة جون ج . ابي زيد . فما ان بدأ جورج سركريس بالقراءة حتى بدأت ملامح سعادة عن مثل التساؤل : اصحيح ما تقرأ يا رفيق جورج ؟
ويستمر الرفيق جورج يقرأ ويضحك ، ثم يتمالك اعصابه فيقرأ .. وسعادة وفخري المملوف يضحكان ولا يصدقان ان كتابا مطبوعا على ورق صقيل بهذا الشكل يمكن ان يحمل سخافات مضحكة الى هذا الحد ؟.

كان سعادة انسانا جديا في اوقات العمل ، قلما يخرج عن وقاره وجديته ، الا انه في ذلك الزمن من عهد التأسيس وهو لا يزال في مطالع الثلاثينات من عمره ، كان يحب ان يشرب كأسا ويدخن غليوننا او سيجارة ، وتستهويه نكتة ظريفة كما يستهويه مجلس انس ومرح .

في تلك الليلة ، على رنات اشعار ابي زيد الفلكية ، ترنح سعادة وانطرب كما لم اره لا قبل ولا بعد ، كان يجلس على كرسي فوتيل . وكذلك الامين السابق فخري المملوف فما

مضت اكثر من دقائق حتى كانا ينزلان عن الكرسي - وزوجتي وانا ايضا -
ونجلس على السجادة !..

■ كانت مأدبة ضحك .. مميت !

جورج سركييس لا بد انه يتذكرها .. أه لو ان بين يدي نسخة من كتاب جون . ج .
ابي زيد لاضع بين يدي الشعراء بعض سطورها واشعارها . لكي يسروا عن انفسهم
اجواء المساة التي نعيشها على ارض لبنان في هذه الايام اذا كان بالامكان ان ينسى
الانسان جو هذه المساة بمآب الفكاهة .. والضحك !.

■ اكرم الحوراني والهجوم على حماه 1937 :

اكرم الحوراني : المحامي الناشئ على هدير العاصي في حماه ، بدأ حياته السياسية
ثائرا على محيطه الصغير . وكان تعبيره الاقوى عن رفضه للواقع انتماءه الباكر الى
صفوف الحزب السوري القومي . اجل ان اكرم حوراني الذي اصبح فيما بعد الساعد
الايمن لحسني الزعيم والذي صنع له بيانات انقلابية والذي توصل الى ان يكون نائب
رئيس الجمهورية العربية المتحدة كان في مطلع حياته السياسية سوريا قوميا . كنت انا
وكيله في بيروت وكان وكيلي في حماه . ثم كنت انا في مجلس العمدة يوم كان مركز الحزب
فوق محلات ابي راشد تجاه الجامع الكبير وكان اكرم حوراني منفذا عاما لحماه .
الحزب ، في الشام كما في لبنان ، كما في كل بقعة من بقاع الامة السورية ، كان
تحديا للعقلية القديمة المتحجرة ، كان حربا على الاقطاع العقاري والديني والسياسي .
كان رمزا للتقدمية والثورية .

اول من ناصبنا العدا في حركتنا الثورية التقدمية كانوا رجال الدين ورجال الاقطاع
والزعامات السياسية التقليدية هذا عدا المؤامرات الاجنبية المتحالفة باستمرار مع كل
هذه الفئات لضربنا واضطهادنا وتفشيلنا بأي ثمن ولو كان الارهاب الجسدي تصفية او
سجنا !..

في حماه لم ننج من هذه العقلية العتيقة العفنة . كان نائب حماه يومذاك الدكتور
توفيق الشيشكلي . « جماعته » - رغم ان صلاح شيشكلي واديب شيشكلي قد انتميا
سرا او علنا الى الحزب - هاجموا مركزنا وكسروا ما فيه كما احرقوا الاوراق
والاضرابات او اتلفوها .

هرول اكرم الحوراني الى بيروت يحمل الينا النبأ . كانت ايام صيف فاجتمعنا على
شرفة مكتب الحزب برئاسة سعادة وحضور العمدة ، ودعي المنفذ العام اكرم لاعطاء
التفصيلات عن الحادثة ، واقتراحاته في الرد او عدم الرد ، فقدم تقريرا مفصلا وخطة
متكاملة لمقابلة العنف بالعنف .

تدارسنا الموقف ، واتخذ سعادة قرارا بالموافقة وتسلم المنفذ العام امرا باستتفار قواتنا في حمص وصافيتا وجوارها ووضعها تحت امرة منفذ حماه ..
يبين لي ان ردا عنيفا لم يحصل آنذاك وان المحادثة لم تترك نيولا كأنما سويت بالتي هي أحسن .

الا ان مبدأ الرد اقر ، وعندما كان سعادة يعلن اننا لا نقصد في الحياة لعبا ، واذا هوجمنا لسنا نعاجا بل اسودا . واننا نبحت عن القتال لان دع القتال يبحث عنا ، كان يعني ما يعلن ، رغم ان القوى العتيقة في حماه كانت طاغية ، الا ان الحزب الناشء ، وقائده فيها اكرم الحوراني ، الشاب المطل على السياسة لم يفرغ ولم يهب ، بل استتفر قواه واعدها لهجمة معاكسة ، تكيل كيلين مقابل الكيل الواحد وصاعين مقابل الصاع الواحد .

وعلى نكر الاستاذ اكرم الحوراني ، الصامت الان والمتوارى عن الساحة العامة ، لا ارى مندوحة عن رواية واقعة جرت لي معه على ضفاف العاصي في 19 آب 1939 اي قبيل اعلان الحرب الكبرى الثانية . كنت في حماه اتابع دعوى لموكلي المأسوف عليه عجاج الشويري ضد احد وجهائها عبد الكريم الرستم . قصدتها بنفسي واستعنت بالاستاذ اكرم . وفي المساء رحنا ننتزه في عربة خيل على ضفاف النهر ، وتلوح لنا من خلال الماء والبساتين الاضواء الساطعة من قصور آل البرازي والعظم « سنهدم يوما هذه القصور » قال لي اكرم : ما كان يهمني انا ، هو معالجة فتوره تجاه الحزب .
سألته : هل ينست ؟ اجابني : الزعيم يرسل لي سوريا الجديدة من البرازيل ، اقرؤها بلهفة ، انا مؤمن بالنهضة ، لكن لم تكتب لها الحياة في حماه ، الرجعة اقوى منا واشرس مستحيل ان نعلن عليها حربا . لاننا مغلوبون سلفا .. قلت وما السبيل ؟ فاجاب : سانشىء جمعية او حزبا في قلب حماه ، من شباب حماه ، وسأعمل لاصل الى مركز قيادي . اقسم لك اني حالما أصل سأعود الى صفوف الحزب واسخر كل نفوذى وما اكون كسبت وانجزت لمصلحة القضية .

سمعت تلك الكلمات ولكني اتذكرها بأسف وحرقة لان الذين وصلوا من رفقائنا وقفوا عند محطات النفوذ والوجاهة التي بلغوها وتخلوا عن الطريق الطويل الشاق ، طريق النهضة التي لا نزال على ايماننا بها ، نعطي ونضحى ، غير مباليين اننا سلام او اننا جماجم .

اكرم الحوراني اسس الحزب الاشتراكي العربي ، كما اسس ميشال عفلق حزب البعث ، والتقى القطبان في حزب البعث العربي الاشتراكي واقتربا فيما كان يجب الا

نفترق . صحيح اننا سوريون قوميون والبعثيون قوميون عرب . ولكن كم من نقاط التقاء بيننا ؟ .

وعلى الصعيد العملي نحن الان في خندق واحد . كان بالامكان ان نكون في هذا الخندق من زمان لولا الخلفيات والحساسيات . ولولا حادثة العقيد عنان مالكي ، الذي اغتيل باسم الحزب والحزب من اغتياله براء كما سنرى عندما نصل الى موضوعه .

■ عرس فريوه - صائغ :

في يوم واحد عرسان قوميان . واحد لآل فريوه والآخر لآل الصائغ . كان ذلك في ضهور الشوير في صيف 1937 ، في منزل هو نفسه حاليا اوتيل فيلا صوايا . سعادة مدعو الى العرس ، والعروسان رفيقان . ونحن في ضهور الشوير التي كان قد طغى عليها الطابع القومي . من لم يدخل الحزب تهيب فصمت ولم يجرؤ على المعارضة . اما القوميون فقد تمكنوا من استقطاب الاكثية الساحقة من المواطنين . كان يجب ان نستقل المناسبة والا فما معنى ازالة الحواجز بين مختلف الطوائف والمذاهب ؟ .

المعلم يمر في منزلي - وكان عبارة عن غرفة ومطبخ وشرفة - يا لذكريات الفقر وما اطيها - ويطلب الي وضع قانون مستعجل للزواج المدني ، على الاقل في ما يتعلق بالمراسيم والشكليات .

المحامية تسعف في مثل هذه الحالات الطارئة ، تذكرت القوانين الفرنسية ، تذكرت كيف ان الزوجين في فرنسا يسجلان عقد زواجهما في سجلات النفوس المدنية قبل المراسيم الكنسية . كيف ان المختار - في دار المخترة - يعقد زواج العروسين Le Maire .

كان علي ان اشترى سجلا . فاشتريت السجل .

ثم كان علي ان اضع نموذجا لزواج مدني فوضعت .

واني لانكر كيف سجلت اسم كل من العروسين وعمرهما . ومحل اقامتهما ، كما سجلت اسماء الشاهدين ، وكيف نظمت محضرا رسميا ، ثم انتقلت الى ساحة العرس .

لا تنمحي من خاطري صورة الرفيقيين انذاك جميل حبيبة الذي اصبح الشيخ جميل واخيه عادل . كانا في مطلع شبابهما في ذلك العرس - العيد . يرتديان بزة بيضاء

يزهوان بالوان الفجر الشويري ، ويحملان على جبينهما كل عز الشوير ومروءاتها.
جئت الى الدار حيث تقام الافراح ، فاحضر لي الاهل طاولة مزينة بالورود والزنايق ،
وعلى الطاولة شمعتان ، فاجلست سجل الزواج في وسطها يعتز هو ايضا انه اول
سجل ، اول صفحة في تاريخ الزواج القومي الاجتماعي المدني ، العلماني ، القائم على
توافق ارادتين وتلاقي قلبين وامتزاج روحيين .
ورحت انتظر .

الساعة الثانية تماما اقبل السادة المطارنة من طائفة الروم الاثونكس ايليا كرم
وابيفانيوس زائد .

ثم اقبلت العروسان ، فمرتا اولامع العروسين بطاولة الاحوال الشخصية في الحزب
السوري القومي ووقع الجميع مع الشهود على عقد الزواج المسجل في السجل .

ثم وقفت بصوت جهوري سألت كلا من العروسين ؟

هل يرضى واحدهما بالآخر زوجا له مدى الحياة ؟

فكان الجواب بالطبع : نعم .

ثم اعلنت : طالما ان هذه هي ارادتكما فاني اعلنكما باسم سوريا وسعادة زوجين
سوريين قوميين ..

بوت القاعة بالتصفيق .

المعلم كان بين المدعويين . كان يصفي الي اطرح الاسئلة ، كما كان يتفرج على
العrsان يوقعون السجل . اين ذلك السجل الان ؟ لقد جرفته كما جرفت كل اوراقنا
ووثائقنا الملاحقات والتفتيش ؟

كم عقدت من بعد عقود للقوميين ، الى ان اسمتني جريدة « النهار » في احد
الاعراس القومية « بطيريك الحزب » .

صحيح ان العقود لاقيمة قانونية لها . انها رمز لما تنوي تحقيقه في مقبلات الايام ،
انها الرمز الذي يعبر عن ثورتنا الاجتماعية في مؤسسة الزواج ، انها ليست تلاقي
زوجين من طائفة واحدة وفقا للطقوس والمراسم بل تلاقي ارادتين مصممتين على الحياة
معا تحت سقف النهضة القومية ، لبناء العائلة الصالحة مدمكا في اسس الوطن القائم
على الولاء القومي والتحرر من كل العقد القديمة التي تسببت مع الزمن بتفسيخ
مجتمعنا الى كونفدرالية طوائف ومؤسسات طائفية !

في صوفر .. مع رياض الصلح

ليس من ناقل القول ، ان أؤرخ علاقاتي برياض الصلح. كان مع عبد الحميد كرامي دليلي الى الايمان بالوحدة السورية وبالتحرر من الانتداب . كانا يمثلان لي ، مع رجالات الكتلة الوطنية في دمشق النضال الوطني النموذجي عندما كنت طري العود ، احبو على دروب المعرفة .

لما اصيحت محاميا ، حدثت لعماد الصلح حادثة مع القاضي الفرد ثابت فضريه تطوعت للدفاع عن آل الصلح ونشرت الصحف يومئذ اسمي في لائحة المتطوعين ، مما سبب لي في مطلع حياتي المهنية عداوة مع القاضي الكبير ظلت تطاربنني الى ان احيل الى التقاعد وصار محاميا ..

جيلنا كان يبحث عن طريق الخلاص . كنا نصفق لكل من يقف في وجه المستعمر ، كنا نصفق لكل من يطالب بالوحدة والحرية . كنا بحاجة الى دليل وقائد .

كان مكتب رياض الصلح – كما اذكر – في الطابق الارضي من بناية في سوق الجوخ المتفرع من شارع النبي . قابلته لأول مرة . فاذا به ممتلىء حيوية . يشع النكاء من عينيه ، كانت شخصيته جذابة ، سريع الخاطر ، سريع النكته ، لا يهدأ له عصب .

■ اللقاء منطقي

المنطق كان يفرض ، بعد ان تأسس الحزب السوري القومي . ان يلتقي كل العاملين للوحدة السورية – وان من منطلقات مختلفة او متباينة – في جبهة واحدة . الا ان الذي حدث كان العكس تماما .

فكما اسس الفرنسيون في الثلاثينات حزب الكتائب لمقاومة الحزب السوري القومي ، اسس رياض الصلح – او بالاحرى كاظم الصلح في الاربعينات – حزب النداء القومي لمقاومة حزبنا ، اشد ، ان المنطلقات والاهداف كانت متناقضة كليا . حزب الكتائب كان « فرنسيا » بينما حزب النداء القومي قام تحت شعار العروبة . لقد اتخذ الوطنيون السنيون في بيروت من القومية العربية حصان معركتهم ضد

الحزب وضد سعادة شخصيا . علي ناصر الدين في عصابة العمل القومي ومن بعده كاظم الصلح في حزب النداء . كانوا يرحمون انطون سعادة عندما يصفونه بالشعوبي ، من اين جاء هذا المسيحي بالقومية السورية فيما تيار العروبة جارف !!؟

■ اللقاء الاول والآخر :

اللقاء التمهيدي الذي تم بين رياض الصلح وانطون سعادة ، ولعله اللقاء الاول والآخر ، جرى في صوفر في منزل موسى نمور وكان رئيسا للمجلس النيابي ثم وزيرا للداخلية .

الامين جبران جريج يروي الواقعة في الصفحة 29 من كتابه « مع انطون سعادة » الجزء الثاني . ولكنه لم يسمع من سعادة نفسه وقائع اللقاء خاصة الواقعة التالية : « قال سعادة لرياض الصلح وقد سمعت ما قال من سعادة نفسه . ان « اهم ما قصدته في مبادئ حزبي الاصلاحية هو علمنة الدولة . والغاء كل آثار الطائفية من النصوص ومن النفوس » .

رياض الصلح وافقه على هذا الالغاء ولو كلف الدولة والشعب عشرة آلاف ضحية اشدد على كلمة عشرة آلاف ضحية التي جاءت في حديث رياض الصلح في صوفر منذ سنة 1937 كان الرجلان متفقين ان آفة الاقات في لبنان خاصة – والبلاد العربية عامة – هي الطائفية ، هي الحزبية الدينية ، قاتلة كل انطلاقة نحو التطور ، وقاتلة المصلحين والمفكرين ومعبدة السبل امام المستعمرين والعملاء والانعزاليين ..

■ علماني في باريس وسني في البسطة

ولكن رياض الصلح الذي وصفه السيد كيفر في لقائنا معه في المفوضية العليا صيف 1936 بانه علماني في باريس وسني في البسطة ، حسب الف حساب لزعامته السنية ، قبل ان يقرر محاربة انطون سعادة ، « المسيحي الدخيل على البسطة والزيدانية ورأس بيروت والطريق الجديدة » .

لو ان رياض الصلح وانطون سعادة تفاهما في صوفر على الوحدة السورية من جهة ، وعلى العلمنة من جهة ثانية ، ما كان سعادة اغتيل على يد رياض الصلح ، ولا رياض الصلح اغتيل على يد سوريين قوميين ثارا لزعيمهم ، بل لما كان لبنان كله اغتيل على يد الطائفيين !

انها الاقدار كم فوتت على هذا الوطن من فرص ذهبية !..

مجريّة النهضة: تشرّيس الأول-1937

اتجاه سعادة العفوي مند ان اصبح قادرا على العطاء الفكري - في سن مبكرة - كان الابد والصحافة ، دليلي على صحة هذا القول انه كتب مقالات قيمة سنة 1921 وما بعدها ، وان اول ما نشر من مؤلفاته كانت قصة « عيد سيدي صيدانيا » و « فاجعة حب » وفي سجنه الثاني الف قصة « دمية » التي فقدت . واول مهنة امتهن لم تكن التجارة ولا الصناعة كما يفعل سائر المغتربين طلبا للمال والجاه . بل مهنة الصحافة . وشاهدي على ذلك مقالاته في « الجريدة » و « المجلة » اللتين كان يصدرهما والده المجاهد الخالد الدكتور خليل سعادة . بل ان عودته الى الوطن سنة 1930 لم تكن للتعليم بل للصحافة بدليل التحاقه بجريدة « الايام » في دمشق لصاحبها نصح بابيل وتسلمه انشاء صفحة الشؤون الانترنسيونية فيها . ولقد كان همه الاول يعد انكشاف امر الحزب الاتصال بالرأي العام . فما كان يفوت لقاء مع الصحافة الوطنية والاجنبية . بل انه كان يدفعنا الى الكتابة والى الاتصال برجال الصحافة لنشر افكار الحزب وآرائه . ولما صار حزينا جسما حيا وقويا طرح علينا في مجلس العمدة (كنت قد اصبحت انا ناموسه ، (اي امين سره) جمع المال لاصدار جريدة كان قد هيا لها اسمها : « النهضة » .

نحن الذين كنا متهمين بالعلاقات مع الطليان والالمان ، بل ان بعضهم كاسكندر الرياشي زعم في بعض ما كتب ان البريطانيين هم الذين اسسوا الحزب بواسطة سعادة . لم تكن نملك ما نأكل . بعضنا كان يكتفي بوجبة طعام في النهار . وزعيمنا نفسه كان يشاركنا ما في جيوبنا ليتمكن من الترفيه عن نفسه بحضور حفلة سينمائية في الاسبوع ، و احيانا ليركب الترامواي و احيانا ليدفع اجرة مسكنه او ثمن ملبسه ومأكله .

من اين المال لاصدار جريدة ؟ ..

كان سعادة احيانا يطالبنا بالمستحيل . وظل الى اخر حياته يطالبنا بالمستحيل ، بل يحاول هو تجاهل ما نسميه مستحيلا ، ليظل على ظهر المخاطر والمجازفات ، لان

التاريخ لا يصنعه التعقل والتحليل وضمان النجاح دائماً . بل يصنعه اولئك المصممون على ركوب المستحيلات ليجعلوا منها حقائق راهنة او ممكنات رغم مظاهر الاستحالة . كان من المستحيل بنظرنا ، نحن المطالبين بتسديد اجرة المكتب . ويثمن القرطاسية ويتأمين الزاد والقوت والملبس للزعيم وكل منا لنفسه وعياله ، ان ندفع تكاليف اصدار جريدة ، واذا اصدرناها ، فكان اكثرنا يعتقد انها تستمر اسبوعا .. وتحتضر ثم تموت .

ان حزينا كان من الاساس حزب المثقفين والفلاحين والعمال . كان حزب الفقراء والمحرومين والمعوزين ، لذلك ظل حزبا محروما فقيرا ، معوزا .. ولا يزال حتى يومنا هذا في مثل هذه الحالة رغم ما يزعمه البعض عن ثروات خيالية في حوزته او حوزة . قادته !.. واني لازعم ان النهضات في العالم لم تتحقق الا على يد المثقفين والفلاحين والعمال ، على يد الذين يشعرون مع الشعب في الآمه وحرمانه وعبوديته ، ويقدمون انفسهم قرابين على منبج تحريره وتأمين حياة جيدة كريمة عزيزة له ولاجياله الصاعدة . لانهم اختبروا الام الحرمان واوجاع المهانة والعبودية .
الا ان سعادة الاديب والصحافي ومحاول المستحيل كان يطالبنا باستمرار منذ ان خرج من السجن الثاني ثم من السجن الثالث ان نوجد الموارد الضرورية لدفع تأمين الجريدة (500 ل . سورية) ولتأمين الورق والرواتب للمحررين والعمال ..

وكان الحاحه باصدار الجريدة يتوازى مع الحاح الظروف الموضوعية . فالانتخابات على الابواب والاحزاب البيغائية تظهر للوجود ، وان امامنا فرصة العمر ليكون لنا رأي وموقف .

لم يكن بالامكان لصحيفة « مستعارة » ان تستوعب حيوية سعادة الانتاجية ، ولا ان تستوعب مطالب هذا الحزب وحاجاته الاعلامية . وتتجرأ على التعبير عن ثورته واقدامه . وخرجت جريدة النهضة الى الوجود (راجع مع « انطون سعادة » لجبران جريج الجزء الاول صفحة 135) .

المشرف على التحرير كان سعادة مباشرة يعاونه عميد الاذاعة انذاك فخري المعلوف ، كنت انا قد استقلت في اواسط 1936 ، وعين مكاني صلاح لبكي ، وبعد ان صار صلاح خارج الحزب عين لهذه المسؤولية المنظر العقائدي الاول بعد سعادة ، اي الامين السابق فخري المعلوف .

■ جهاز التحرير :

اما المحررون فكان على رأسهم فريد مبارك يعاونه فؤاد سليمان ، يوسف الخال

وجورج عبد المسيح . وقد شاركت كل اقلام النهضة في الكتابة . واني لانكر ان الدكتور فايز صائغ كتب اولى مقالاته - وكان لا يزال في سن المراهقة - في جريدتنا وكانت مقالاته تبشر بان لكاتبها مستقبلا !.. لقد عهد الي الاهتمام بشؤون القضاء والمحاماة . كما كان سعادة يستحثني على الانشاء باستمرار متهماياي بالكسل ، اذا لم اقدم على الاقل مقالا في الاسبوع !.

امران اساسيان عالقان في ذهني عن جريدتنا العفائية :

اولا : التبويب .

ثانيا : المبدئية .

في ما يعني التبويب ، جرى اجتماع قبل صدور العدد الاول بمدة غير وجيزة ، لتحضيره والاتفاق عليه . الوحيد بيننا الذي كانت له خبرة صحفية بعد سعادة كان فريد مبارك (اين انت يا فريد في هذه الايام !؟) .

ليس من باب الخروج على المؤلف طرح سعادة التبويب الجديد ، التبويب الثوري ، ليس من باب المخالفة لعرف سائد في العالم ، بل انطلاقا من قاعدة واضحة ، هي تأثير الشأن الانترنسيوني في كل الشؤون الداخلية للأمم والشعوب ، وخاصة في بلاد مثل بلادنا كانت ترزح تحت نير الانتداب الاستعماري ، ان بين مؤرخينا كالدكتور جواد بولس من يعتقد جازما ان مصير الشرق الاوسط كله معلق على ارادات خارجية ، معلق على لعبة الأمم وان الشعوب المفروض ان تكون حرة في تقرير مصيرها ، حرة فقط نظريا وبموجب ميثاق الأمم المتحدة الا انها في واقعها محكومة بلعبة الأمم .

لم نكن فعلا نفهم نظرة سعادة في عمقها وابعادها حول هذا الموضوع ، انا نفسي انكر اني عارضت ، مستندا الى ان كل ما قرأته من الصحف الانكليزية والاميركية والفرنسية - وهي امهات الصحف العالمية - تبدأ بالافتتاحية ، والاخبار الانترنسيونية تأتي فيها بعد الاخبار المحلية ، لان القارئ العادي يهيمه بالدرجة الاولى معرفة ما يجري في بلاده ، بل ان قراء عديدين يهتمون من الصحيفة بمعرفة من مات ومن تزوج ومن سافر ومن اقام مأبنة جافلة ! كيف تسقط الحكومة لتحل محلها المعارضة ، وكيف ينزل الوحي من المفوضية ، بل كيف يتنافس الاسبون والخوريون على رئاسة الدولة .

المهم ان سعادة استمع لارائنا ، ثم اقنعنا بالتبويب الذي طرحه ، فقبلنا بعضنا عن قناعة والبعض الاخر لانه كان يعتقد ان الجريدة حلم لن يتحقق ، وليتحقق والتبويب

ثانوي جدا .
■ مسالة الاعلان :

اما الشأن المبدئي ، فقد جاء في اعلان نشرته « النهضة » .. الاعلان كان يتعلق بشركة بريطانية على ما انكر ، غضب المعلم وثار وكانت حجته اننا نعتبر انكلترا مسؤولة عن وعد بلفور وعن مساندة الصهاينة لانشاء وطن قومي في فلسطين ، ونقيم عليها القيامة في ما نكتب ونخطب ، بل حملها مسؤولية كل ما يصيب الشرق والغرب من ويلات ، ودمار وتقتيل ، وكانت بنظرنا مجسدة لما نسميه اليوم الامبريالية ، ثم ننشر اعلانا دعائيا لبضائعها او لأي شأن ، يستنتج منه اننا ننسى موقفنا منها . الجريدة العقائدية - يقول المعلم - لا يجوز حتى في الاعلان ان تناقض مواقفها . انني تعلمت وحفظت . والحزب كله تعلم وحفظ . وكل ما لا يتوافق مع هذه القاعدة يكون من باب السهو او الغلط .

■ ونكمل مع جريدة النهضة » :

لم نتعلم منها الاخراج والتبويب فقط ، لقد تعلمنا كيف تكون الصحافة في الظروف العصية التي كانت تجتازها البلاد . جريئة وصريحة ومقدامة ، كنا نتوقع ان يقطع لسانها منذ الايام الاولى ، الا انها مرت بسلام بضعة اسابيع .

■ « مشاكل » التحرير :

فريد مبارك ، مدير التحرير كان في مظهره وتفكيره نقيض فؤاد سليمان ويوسف الخال ، كيف تعايش هؤلاء الثلاثة تحت سقف « النهضة » ؟ لست ادري .

فريد مبارك رجل الهدوء تستفزه استفزازا لتخرج الكلمة من فمه موزونة خافتة ، بينما فؤاد سليمان يستفزع حتى جدران الغرفة التي يكتب فيها ، كان بركاننا ينفث اللهب حتى في احلامه ، دم خفيف ، ومحبة عارمة ، ولكن بشرط الاتحاده او تمس قدس اقداسه : الكرامة والمشاعر .

واما يوسف الخال ، فشباب ريان ، وبراعم تنفتق عن آمال ازاهر ، باكرا كان ينظم الشعر وكان شعره جميلا . من يرضى فؤاد سليمان عن شعره يكون شاعرا بالقوة والفعل معا ، وكان فؤاد يدرّب يوسف الخال تدريبا حسنا . هؤلاء الثلاثة تحت اشراف سعادة وتوجيهاته حملوا اعباء « النهضة » واعباء العيون التي كانت تترصدھا والديون التي كان ينوء بها كاهلها ، والنجدة الكبرى التي

انقذت الجريدة وانقذتهم كانت في تعيين الامين جبران جريج مديراً للادارة .

عطلت .. ثم عطلت .. وكنا نستبدلها « بشمس » كمال الغريب لشدة حاجتنا الى متنفس لما يعتمل في رؤوسنا من ثورة وغليان ، لكي يعلوصوت الحق ، ويعلومعه صوت الشعب المهيبض الجانحين ، المكموم الفم الذبيح اللسان !..

سعادة « الجريدة » و« الايام » القادم من وراء بحار الحنين والاختبار والمعاناة ، صب في « النهضة » فكره المنير ، فما وفر فرنسا ولا وفر كبرا ، ولا صغيرا ، كانت اقلامه - واقلام تلامذته - نافثات اللهب ، في وجه الحكام والمتسلطين وكل اقطاع سياسي او ديني ...

البطريك عريضة وحي زياده

البطريك عريضة :

لقد كنت منذ كانون الثاني 1924 الى حزيران 1938 تلميذا لمدرسة الفرير في طرابلس ومن رفقائي الرئيس سليمان فرنجية ، كما كنت من بعد تلميذا للاباء اليسوعيين في معهد الحقوق الفرنسي في بيروت ومن رفقاء صفي الاستاذ شارل حلو رئيس الجمهورية الاسبق .

كيف اكون ربيب الفرير والاباء اليسوعيين واكون سوريا قوميا اجتماعيا ؟ هذا سؤال جدي يطرح ولكنه لا يستغرب عندما نعرف ان الاستاذ نقولا الشاوي رئيس الحزب الشيوعي اللبناني تلميذ الفرير ايضا !؟

المهم ان البطريك عريضة كان اثناء دراستي الثانوية في طرابلس الشمال مطران الابرشية المارونية . وكان مقر مطرانيته في جوار بيت خالي حنا يعقوب الزاخم ، كان يسهر طويلا على شؤون رعيته وسراجه لا ينطفئ الا في الهزيع الاخير من الليل . وكنت تلميذا مجتهدا لا ينطفئ سراجي الا في الهزيع الاخير . كان من الطبيعي ان يسأل عني وكان من الطبيعي ان احترمه . خاصة ولا تمر مناسبة مدرسية الا وممثلو الدولة والاكليروس في الشمال يدعون لحضورها كتوزيع الشهادات في آخر السنة مثلا . وثلثي ونحصل منه على الرضى والبركة ، لذلك وعندما انتخب بطريكا على انطاكية وسائر المشرق في مطالع الثلاثينات اقمنا انا وفؤاد سليمان الذي كان قد اصبح معلما في مدرسة الفرير في بيروت احتفالا كبيرا . فنحن متعصبان للشمال اللبناني ، والبطريك عريضة من بشري ، في جوار ارز الرب . وقد قصدنا دار البطريكية وهنأناه واجلسنا على يمينه .

والبطريك عريضة اشتهر طوال حياته بالتقوى والورع ، وبالعناد والصمود في ما يعتقدده حقا . وقف في وجه الفرنسيين - وكم كان يجب ان يكون جريئا ليقف في وجههم - ايام معارضته العنيفة لسياسة احتكار التبغ وانشاء الريجي . وقد اكتسب محبة

الوطنيين آنذاك في لبنان والشام . وراح اسمه يذكر في الجوامع والكنائس تأبيدا وتقديرا . هتف الوطنيون باسمه في جامع أمية في دمشق .

ومع تلك الشعبية التي اكتسب . لم تمأله جريدة « النهضة » . ولم يمالئه سعادة الذي كان يحرم مقالاتها الرئيسية . فما ان القى خطابا في السادس من كانون الاول سنة 1937 حتى كان سعادة يرد عليه في الثامن منه بمقالات متلاحقة . مفندا فيها خطاب السادس من كانون . فما ترك منه شاردة ولا واردة الاورد عليها ردا محكما . انطلاقا من يقينه ان الخلاص في سوريا الطبيعية لا يمكن ان يتم الا بفصل الدين عن الدولة .

كان من المفروض علي وعلى فؤاد سليمان ان نتحرك وان ندعو الزعيم لتلطيف لهجته في مخاطبته لغبطة البطريك . الا اننا - واعترف دون موارد - لم نجرؤ على تلك الخطوة . لان سعادة في مواقفه المبدئية كان عنيدا وصارما . بحيث لا يسمع ولا يرى الا المبدئية .

لم يكن سكوتنا يمنعنا من متابعة المقالات - كما تابعها الرأي العام في الشام ولبنان - بشغف كبير . فلأول مرة في تاريخ لبنان السياسي الحديث ، يقدم زعيم حزب على معارضة علنية وصارخة لبطريك الموارنة . حاكم لبنان آنذاك من وراء الستار . لان الدولة المنتدبة - ومن تعينهم رؤساء جمهوريات وحكومات - لم تكن لتخرج على مشيئة الدار البطريكية وحيانا على رغباتها .

وكان سعادة واثقا من عقيدته ومن نفسه ثقة مطلقة ، انه انما يقدم لسوريا الطبيعية والعالم العربي الحل الامثل لكل المعضلات الاجتماعية والاقتصادية ، وان الوحدة الاجتماعية التي كانت تطرح لا تعني اقل من صهر كل الطوائف - رغم ما انتابها من انشقاق وفرقة واقتتال - في هذه الوحدة الاجتماعية . التي تنوب فيها كل الفوارق والخلافات ، لانها (اي الوحدة) هي الضمان الاخير لسلامة المواطن وسلامة الوطن ونموه ومنعته ورخائه .

ولقد قال لي سعادة يوما - بعدرده على خطاب البطريك في جريدة « النهضة » اني مستعد ان اواجه المجمع الانطاكي المقدس للطائفة المارونية ، اذا ما دعيت لاحدى جلساته ، لاناقشه في ان حامي المسيحية والمسيحيين في سوريا الطبيعية هو الحزب السوري القومي الاجتماعي وفصل الدين عن الدولة . لفرنسا ولا اوروبا . ولا امريكا . ولا اية قوة اخرى .

وكان سعادة بالفعل جديا في تصميمه على مقابلة المجمع المقدس ، ليحاوره ويناقشه ويحاول اقناعه بهذه الحقيقة التي تثبت الايام ، يوما بعد يوم ، انها هي الحقيقة الكلية ، فما يحدث على الساحة اللبنانية ، وما حدث خلال السنتين الغابرتين ، دليل حي ، على ذلك . فلوان الطوائف اقبلت على تعاليم سعادة ومبادئه لحافظت على معتقداتها الدينية محافظة تامة ، وحافظت في الوقت نفسه على وحدة هذا الشعب ووحدة هذا الوطن ، من المؤامرات الداخلية والخارجية .
اننا نحيل القارئ على سلسلة النظام الجديد - مختارات في المسألة اللبنانية - منشورات عمدة الثقافة في الحزب السوري القومي الاجتماعي سنة 1936 - 1943 الطبعة الاولى - اذار 1976 صفحة 119 ليتابع باي جراءة وباي روح علمية ناقش سعادة غبطة البطريك منتقدا دون تردد كل ما يراه خطأ او انحرافا عن العقلانية وعن خط النهضة القومية .

قصة مي زيادة :

بروي سعادة في كتاب الآثار الكاملة - ادب صفحة 181 ايام مي الاخيرة والدور الذي لعبته جريدة النهضة في انقاذها من العصفورية ومن ثم من مستشفى ربيز . وكيف انه مع امين الريحاني وعدد من الاصدقاء تابع قصتها مع ابن عمها الدكتور جوزيف زيادة الذي تمكن من احتجازها ووضعها تحت الحجر القانوني ثم العصفورية طمعا بالاستيلاء على ثروتها وارزاقها . وهو يلمح الى الدور الذي لعبته انا كمحام في عملية الانقاذ .
الحقيقة ان السيدة استير واكيم الموجودة حاليا مع زوجها في احدى الولايات المتحدة الاميركية هي صاحبة الفضل الاول في نقل قصة مي الى السعادة ومن ثم الرأي العام اللبناني . فقد جاءتني في احدى الليا لي مع السيد نجيب علم الدين - الذي اصبح فيما بعد مديرا لطيران الشرق الاوسط ووزيرا للاشغال العامة - والسيد عادل تقي الدين الذي عين مدعيا عاما استثنافيا في زحلة مدة غير قصيرة . واسرت الي بان الادبية الكبيرة مي زيادة موجودة في مستشفى الدكتور ربيز - شارع كليمنصو ، وانها متهمة بالجنون ، وضحية مؤامرة ، وتعاني عذابا مريرا من التهمة والاحتجاز وهي في حالة انهيار كامل وحياتها في خطر ، فسارعت الى اعلام سعادة بالامر طالبا تدخله ، ولقد دهشت لتبني سعادة موضوع مي فوراً ولمست الغضب الذي انتابه . لقد رافقته الى النائب العام الاستثنائي كما كنت شاهدا على تعبئته الرأي العام بواسطة « النهضة » والعديد من اصدقائه من رجال القانون والسياسة .

من الناحية القانونية . ولان الدكتور زيادة كان قد استند الى تقارير طبية لاحتجاز مي لم يكن بالامكان انقاذها الا بحمل النيابة الاستئنافية - بناء على الاخبار الذي قدمناه - على تعيين لجنة من الاطباء لمعاينة مي واثبات صحة عقلها وادراكها ، وبالفعل عينت اللجنة وبالنتيجة صارت مي حرة ووضعت في منزل وراء محلة ابي طالب في شارع التلوخين وكان حراسها قوميين اجتماعيين . يومها حملت اليها مع الشاعر فؤاد سليمان باقة الزهر التي تناولتها منا قائلة : اهلا بازهار الثقافة ، لاننا قدمناها باسم الندوة الثقافية في الحزب .

انني اسجل ، وانا اكررها علق بذهني من قصة مي ان استير واكيم هي التي كانت مفتاح قضيتها كما اسجل الحمية التي عالجها بها سعادة رفع الظلم الواقع على مي . من تجني وجشع اقربائها . دليلا على تعلقه بالحق والقانون وتقديره العميق للادباء القوميين وللفكر بصورة عامة ، واستعداده لتحمل التضحيات احقاقا للحق ودفعا للمظالم ، وخاصة عن الذين اخصبوا التراث الفكري القومي اخصابا غنيا ومتفوقا كالادبية مي .

انا وفؤاد سليمان ، عندما انتدبنا لزيارة الادبية الكبيرة كان في ذهننا ليس فقط ادبها الجديد وفكرها الثوري في تلك المرحلة ، بل بالاضافة اليه حب جبران خليل جبران لها وحبها له . وتلك الرسائل التي تبادلها وكنا نعرف عنها اكثر مما نعرفها .

ان الجهود التي بذلها سعادة لانقاذ مي ، والتي كانت بالنتيجة السبب الاول في اطلاق حريتها ودعوته الى منبر الجامعة الاميركية ، تدل على ناحية في مناقبيته لم يكن من الجائز اغفالها . فمي لم تكن في الحزب ، ولم يكن يعرفها الامن ادبها ، وتطوعه انما يدل على ظاهرة في نفسيته الجميلة : رفع الحيف عن المظلومين وتكريم الادباء المستحقين .

الزعيم في وجدان الكلورة الأخضر

ماذا عسى الانسان ان يتذكر - خاصة اذا كان جلده جلد شاعر - وهو على فوهة بركان يهيم بالانفجار ، او على ظهر زورق تتلاطمه الامواج وهو على الغرق وشيك ويحارته يشتركون في اغراقه ! لبنان الاخضر ، لبنان الامل بان يكون نطاق ضمان للصراع الفكري الحر ، اي نطاق ضمان للقيم التقدمية ، يبدو وكأنه يحترق او يحتضر او على وشك الاحتراق او الاحتضار ، رئيس الجمهورية الياس سركيس الذي انتخب بما يشبه الاجماع ، تؤيده دمشق وتؤيده التشكيلات الانعزالية المتجمعة في الجبهة اللبنانية ، كما يؤيده كل محب لانقاذ لبنان وسلامته . يهدد بالاستقالة لانه لم يستطع ان يحكم . ما من مفكر متتبع للاوضاع اللبنانية الداخلية وللعبة الأمم ، الا وكان ينتظر للرجل مثل هذا المصير او مثل هذا الموقف ، ان الاستقالة اذا وقعت او وصلت الى نقطة اللارجع ستعطينا حتما الى الحرب الاهلية الشاملة ، والحرب الاهلية الشاملة مقبولة في اي بلد ، كما وقعت في اسبانيا في الثلاثينات وكوبا في الخمسينات ، مقبولة رغم احوالها وفضائنها وما يرافقها من قلق ومذابح وتهجير . لانها تستهدف بالنتيجة الثورة على القديم البالي ، لتجديد الحياة وتطوير العقلية واصلاح الاعوجاج ! .

الا اننا في لبنان ، وقد خبرنا الحرب الاهلية واكتوينا بنارها ، وشهدنا بشاعتها وعجائبها وغرائبها البربرية المذهلة ، نرى ان تجدد هذه الحرب هو كارثة ما بعدها كارثة . وان المسؤول الاول عنها هو التحالف الشمعوني - الكتائبي - الاسرائيلي .

انني وانا اقرأ رسائل بن غوريون الى موسى شاريت سنة 1954 اراها تتحقق حرفيا . فاسرائيل تلقت الحلف الكتائبي الشمعوني ، واتخذت منه حصان معركتها ضد لبنان وسوريا الطبيعية والعالم العربي اجمع . انها تريد زرع اسرائيل ثانية ، وثالثه ورابعة اذا امكن لكي تبرر وجودها ، ولكي تكون المهيمنة عليها جميعا . لقد قال الرئيس المفجوع سليمان فرنجية ، الذي ابت عليه وطنيته الاستمرار في حلف انفضح اخيرا في تعامله مع اسرائيل ، بان اللبنانيين لم تسعهم عشرة الاف من الكيلومترات

المرعبة فكيف يعيشون في الف كيلو متر مربع ؟ ثم ان اللبنانيين منتشرون في طول هذا العالم العربي وعرضه . فماذا يحل بهم لو تقوقعوا في دويلة مسيحية عنوة للعروبة والاسلام ، وحليفة لاعدى اعداء العروبة والاسلام : اسرائيل ؟

في هذا الجو الخانق ، لا بد من متابعة الاستنكار والتذكر والتذكير ، الانسان لا يمكن ان يقهر الواقع باليأس بل بالانتاج ، والحقيقة الكلية تبقى : ان المؤمنين بالحياة والمستقبل هم الذين يعرفون كيف يقهرون اليأس ، كما يعرفون كيف يقهرون الخوف ، كما يعرفون كيف يقهرون الموت !

موضوعنا في هذه الحلقة الشاعر صلاح لبكي وقصة قطع اذن جورج عبد المسيح
بأسنان المهندس جورج ابراهيم الحداد ...

الحزب .. وصلاح لبكي :

لقد تكررت في حلقة سابقة كيف ادخلت صلاح لبكي الى صفوف الحزب وكيف وصل فيه الى اعلى المراتب من رئيس اللجنة التنفيذية سنة 1936 الى عميد للاذاعة الى رئيس للمكتب السياسي او لعضويته سنة 1937 .. وانكر الآن نقلا عن المأسوف عليه كاظم الصلح في عدد النهار الممتاز لسنة 1975 صفحة 67 كيف انه حضر مؤتمر الوحدة السورية مع مأمون اياس وفوزي البردويل في دار ابو علي سلام وقال بانه يتكلم باسم خمسة عشر الف شاب يطالبون بهذه الوحدة . كما انكر كيف انه بحضوري قال لكيف في سجن سعادة الثاني : انه اذا ثبت ان الحزب على علاقة بايطاليا او المانيا فنحن لا نمشي .

هنا علي ان اطرح السؤال بصراحة واجيب عليه بصراحة : هل أمن صلاح لبكي
ايماننا مطلقا بالعقيدة السورية القومية ؟

جوابي ان ايمانه لم يكن ايماننا رسوليا ، لم يكن ايماننا من النوع الذي يدفع بصاحبه الى التضحية العظمى في سبيله ، كان ايماننا شعريا ، نوعا من الايمان المرجرج ، نوعا من الايمان السياسي اذا جاز مثل هذا التعبير .

وينهض هنا سؤال : لماذا دخل اذن الحزب ؟

بعد مرور حوالي الاثنتين واربعين سنة على دخوله ، يمكنني من جمع مختلف المقدمات
ان اصل الى النتيجة التالية : الذي اقنع صلاحا - وكان قد اشتهر كشاعر وكمحام -

هو بالدرجة الاولى الفنان يوسف الحويك الذي كان بدوره متأثراً بايطاليا والذي آمن بالزعيم كقائد ملهم ، كما كان متحرراً من العقدة المارونية المترتبة ، بل اكثر من ذلك كان على مذهب جبران خليل جبران رفيقه في باريس سنة 1909 في وحدة سوريا الطبيعية ، (راجع كتاب الاديبة انفيك شيبوب عن جبران والحويك في باريس) .

تقاعس فطرده الحزب :

وكانت صداقتي وزمالتتي لصالح الدافع الاخير له الى الانتماء الذي تم على يدي .

هل في انتماء صلاح البعض من الانتهازية ؟ لا ابرؤه من هذا اليسير الانتهازي ، الا انني انصافه ، لا يسعني الا الجزم بانه تحمل باعصاب هائلة السجن الذي زاره من بعدي ، كما تحمل باعصاب هائلة المشكلات التي كان يواجهها في العمل السياسي والاداري ككنايب للزعيم او عميد للاذاعة كما انه يكتب ويخطب قريبا جدا من ألب النهضة كما نفهمه ونعيه وان يكن ليس الالب الذي نطمح اليه .

الى هذا اضيف ، ان صلاح ليكي كان زميلا في الدراسة لحميد فرنجية في مدرسة عينطورة ومعهد الحقوق ، وكانت الصداقة بينهما قد بلغت درجة الاخوة .. وكان حميد فرنجية من كتلة بشارة الخوري . ولا مجال للنكران ان صلاحا كان متأثراً وهو داخل الحزب ، بالسياسة « الخورية » المخاصمة حتى العدا للسياسة « الادية » (اميل اده) .

ان ميل الحزب للكتلة الادية - خير الدين الاحدب - في انتخابات 1937 اريك صلاحا الذي كان يحاول جر سعادة الى موقعه السياسي عوضا عن التقييد بتعليماته وتوجيهاته . هذا فضلا عن ان حياة صلاح الخاصة لم تكن مهيأة لاحتمال المراجعات والمضايقات والملاحقات والسجون . كان صلاح يحب الكأس ، كما يحب السهر ، والطاولة الخضراء وان تكن عائلية كما كان يحب الشعر والادب والفن ، كما كانت له علاقاته « ومجتمعه » واترا به واصدقاؤه واكثرهم بعد حادثة بكفيا كشفوا عن عدائهم للنهضة القومية .

كل هذه العوامل مجتمعة - الى جانب الضغط الخفي من انصار الام الحنون وفرسانها - اثرت في تصرفات صلاح وسلوكه . فاضطررنا لاستدعائه الى جلسة مجلس العمدة برئاسة سعادة في مبنى شارع المعرض ، لاستجوابه ومحاكمته فجاءنا الجواب بانسحابه من الحزب لاسباب نكرها ولكني لا اتذكرها ..

في تلك الجلسة تم اتخاذ القرار بطرده من صفوفنا . لو ان محضر الجلسة تلك لا يزال موجودا لقرأ الناس اني كنت الوحيد الذي استمهل ريثما يتم الاتصال بالمتهم ، لاني كنت بالفعل اذن بقيمة ابداعية كصلاح لبكي ، تترك صفوفنا بهذه السرعة وبون استجاب ومحاكمة ودفاع ، او على الاقل بون معالجة لوضعه النفسي ، الزعيم والعمد كانوا على ما يبدو مقتنعين قناعة كلية ان صلاحا بلغ نقطة اللا رجوع في الخروج على الحزب وعقيدته وسياسته . واصبح عضوا أشل .

كزميل لي لم استطع الا البقاء على علاقة حسنة به ، وكان باستمرار وحتى وفاته سنة 1956 يكرر علي : لو سمعتم مني لكنتم اليوم في الحكم . كان يريد حصر نشاطنا في الاطار اللبناني .. كما يريدنا اليوم كل الذين لا يزالون يظنون ان الوحدة السورية القومية حلم من احلام التاريخ ، كما هي حلم من احلام المستقبل . بالنسبة لنا ، نعتقد ان المستحيلات كانت احلاما فصارت حقائق ، فكيف بوحدة طبيعية ؟ فالطبيعي والمنطقي والعملي ان تتوحد لا ان تتجزأ بفعل الارادات الاجنبية والحزبية الدينية والمطامع الخصوصية لمن لهم مطامع في الكيانية والتجزئة .

ونكرت واكرر ان صلاحا في آخر حياته عاد للتقرب منا - على الاقل في الشأن العقدي ، فقد لقيته مع الاستاذ هاني البيطار - احد كبار محامي الشام لنقنعه بتولي الدفاع عن الامينة الاولى في محاولة لاعفائها من المدة الباقية لها من العقوبة التي كانت تقضيها في سجن القلعة في دمشق ، اقتنع وتحرك ولكنه لم يستطع اكمال المهمة اذ فاجأه قلبه بانهياء كان نهايته المحتومة .

■ جورج حداد « ياكل » اذن جورج عبد المسيح :

طبعاً من نتائج طرد صلاح والحملة عليه اقلقت في وجهنا ابواب سلمى صائغ وحميد فرنجية وتأثر بصلاح - على ما اتصور - المهندس جورج ابراهيم حداد ، الذي كان من انكى اداريينا وانشطهم .

وقد اتهم جورج ، يومذاك - خطأ او صوابا لا اجزم - بانه استولى بطريقة غير مشروعة على بعض سجلات ووثائق الحزب ، فاتخذ بحقه نفس القرار الذي اتخذ بحق صلاح .

ولكن اذا كان طرد صلاح لبكي مر بون هزة كبيرة ، فطرد جورج حداد كاد ان يتسبب بجريمة قتل ، فقد التقى جورج عبد المسيح عند مدخل مركز الحزب ، وكان

مكتب جورج حداد في نفس البناية وحدث بينهما اشتباك لم تكن القوة الجسدية فيه متكافئة ، لان عبد المسيح مقتول الساعدين قوي الشكيمة ، عنيف ويطاش وجورج حداد لا يملك الا ثقته بنفسه وشبابه .

ووقعت المعركة ، فشهّر جورج حداد مسدسا صغيرا كان يحمله تحسبا للمفاجآت خاصة وقد وريته اخبار من اصدقائه في الحزب ان عبد المسيح يتوعده ويهدده في اجتماعات حزبية عقدت في الاشرفية .

اما جورج عبد المسيح فم يكن يقصد القتل ولا جورج حداد طبعا ، لان شهر المسدس لم يكن لاستعماله بل للتهديد به . اذا ما احس بالهزيمة ، فاخذ عبد المسيح اليد القابضة على المسدس وراح يشد بها كيما اذا انطلق الرصاص اصاب الارض لا اللحم والعظم . استفاد الحداد من ان رأس عبد المسيح اصبح في متناول اسنانه ، فقضّم اننه وفر راكضا لان الالم والدم اعميا بصيرة عبد المسيح فلم يعد بإمكانه الركض وراه .

نقل عبد المسيح الى مستشفى سان شارل ، فتوافدنا للاطمئنان عنه . وكان رأينا جميعا ان تصرفه كان تصرف القادر الذي عفا . كان تصرفا نبيلًا .

وتوليت متابعة الدعوى بحق الحداد الذي توارى ثم سافر الى العراق ، واشتعل العالم بالحرب الكبرى الثانية قبل ان تنتهي الدعوى بحكم ثم القي القبض علينا جميعا ، فاهملت ، ثم اختفت اثارها .

لم يحقد عبدالمسيح كما كان متوقعا ، واثناء تواريه في دمشق بعد استشهاد سعادة انكر جيدا ان جورج حداد كان يرسل له الهدايا ويقابله كلما سنحت الفرصة . التسامح ابن المحبة والمحبة رأس القيم .

■ لماذا لم أرافق الزعيم في رحلته الى الكورة :

كأنما قدر لي انا الكوراني الا ارافق سعادة الى الكورة ولو مرة واحدة .

لقد زار في المرحلة السرية بيترومين وبشمزين واميون ، ولم اكن معه . واعدت العدة لزيارة ثانية علنية كزيارة العلويين في التاسع من ايلول 1937 ، انا الذي ربيت في كروم العنب والزيتون ، وعلى الصخور والروابي ، من الارض الكورانية الخيرة كيف يمكن ان تفوتني مرافقة المعلم في هذه الزيارات جميعها لاتغنى بها وبه على رحاب بيابرها ؟

ليتصور القارئ العزيز ان المرة الوحيدة التي صحبت فيها سعادة الى مسقط رأسي دده كانت في 16 ايلول 1948 حيث القى خطابه التاريخي داعيا الى استخدام البترول سلاحا ضد الاستعمار ..

انا الكوراني المتعصب للكورانية وكورته .. الذي يحب بلاده لأنها صورة عن مسقط رأسه . كيف لا اكون الى جانبه ، في تلك الطلات الخالدات على القويطع ، وبدده وبيترومين وقلحات وعفصديق وبشمزين وبصرما ثم العاصمة اميون !..

الآن تذكرت كيف كنت احترق وانا اتصوره ينتقل من قرية الى قرية ومن منبر الى منبر وانا في زهور الشوير امضي ليلة سوداء يجرح سوادها صراخ حبيبيتي وهي تلفظ مع دمها النازف انفاسها النازفة !..

اجل في التاسع من ايلول 1937 لولا قدرة قادر كانت حبيبيتي قضت نحبا وانا والطب الساهر عليها بشخص الدكتور نسيب همام عاجزان عن انقاذها ، لم يكن لقوة ان تحول بيني وبين مرافقة سعادة الى كورتي الخضراء لولا ذلك الخطر المحقق بحبيبيتي !..

لقد نجت هي من الموت ، اما انا فلم انج من التحرق ، لم أنج لأنني اشعر وانا اذكرك اني احترق من جديد .

ولكن هل هذا كل شيء عن تلك الرحلة التاريخية ؟

بل هل ان الاهداف والمقاصد من تلك الرحلة اعطت ثمارها وكيف حصننا ما زرع المعلم ؟

اني استطعت ان اختصر رحلة العلويين بان غايتها كانت في الدرجة الاولى سياسية وجاء التبشير مصاحبا للسياسة . اما رحلة الكورة فقد كانت تبشيرية – تنقيفية . واذنا لم يكن قد علم بها الا ان الحياة غير العيش ، لكفى . ففيها اجاب على تعيش سوريا بتحيا سوريا .

لكي نفهم سعادة على حقيقته ، يجب ان نوقن بان القائد المعلم – مع ايمانه بالنخبة وبالديمقراطية التعبيرية – لم يكن ينتقص من قيمة فعل الجماهير وتأثيرها المباشر او المداور على نمو الحزب وازدهاره . اقول ذلك ، لأن البعض – وانا منهم – نعتقد ان صانعي الثورات هم قلة مصممة مؤمنة . الا ان هذه القلة الصانعة للثورات وللتاريخ الى حد ما تظل عاجزة عن تحقيق مراميها ومقاصدها ومثلها العليا اذا لم تتألب حولها جماهير الشعب مؤيدة او مناصرة .

من هنا كان يكرر سعادة امامي : « اريد ان اتعرف الى هذا الشعب ، وان يتعرف الي ، خنوني الى كل مكان ، انا لست من الذين يعيشون في الابراج العاجية ، انني اريد ان احيا في قلب هذا الشعب كما يحيا في قلبي » .

من هنا اقامته مهرجان بكفيا بمناسبة اول آذار 1937 وان أدى الى تصادم مع السلطة ، ويوم عماطور ، والعلويين وطرابلس ، من هنا خطابه التاريخي في اول آذار 1938 في جمهور من القوميين والاصدقاء . من هنا رغبته في الاجتماع باكبر عدد من رجال الفكر والصحافيين والكتاب والعمال والفلاحين والسياسيين ..

رحلة الكورة انن كانت في هذا الخط وانجازا لغرض الاتصال المباشر بالشعب .

صحيح اني لم اكن مع سعادة في رحلته هذه ، ولكنني كنت من الذين قطفوا ثمارها ولمسوا اثارها ، لقد اصبح الحزب في الكورة بعد خطب سعادة الثورية القطب الاعد لكل كوراني شاعر ونائر ومثقف . والامل لكل مواطن غير مشدود الى الزعامات التقليدية او خاضع لنفوذ رجال الدين ورجال الاقطاع ، وحتى هذا التاريخ يمكن القول ان الكورة رغم ما اصابها بسبب الحزب لا تزال قومية اجتماعية مستعدة لتقديم المزيد من التضحيات والدماء في سبيل القضية المقدسة .

لقد كانت الكورة - وستظل - بيت الحزب السوري القومي الاجتماعي ومكآه وسيفه وترسه . قد تطفى على بعض اهاليها بعض المنافع او القوى الخارجة عنها . ولكنها تظل الوفية للزعيم وعقيدته ومؤسساته . كم ضحت من اجل ان يكون ممثلها في المجلس النيابي ذاك الذي اسميته سنة 1953 النمر الابرص ابن الكورة رئيسنا الحالي الامين الدكتور عبد الله سعادة . ثم كم من قادة الحزب انجبت هذه الكورة الخضراء .. محاولة احتلال سراي اميون احتجاجا على سوء معاملة سعادة في السجن سنة 1936 ، قام بها شباب اميون والكورة .. الى جانب العديد من الكورانيين الذين مروا في السجون والمعتقلات من طرابلس الى المية ومية ومن القلعة الى سجن الرمل !.. واخيرا قافلة الشهداء التي ختمت بالدم كل تلك التضحيات الجسام .

ان كورتنا ليست كورة الذهب والزيتون فحسب ، انها كورة الشعر والاب والتفافة .. كورة الوعي الذكي للنهضة ، للشأن القومي ، وللعدالة الاجتماعية ، وللمحبة وللتقدم ، كانت وستظل مؤنلا للحياة الجديدة .

لعل كلمات سعادة في رحلته الكورانية ، هي بعد كلمته في بشامون « الحياة كلها

وقفة عز « الكلمات النارية المشرقة والمشعة في قاموسنا الاخلاقي - المناقبي -
النضالي :

- « ليس عارا ان ننكب ولكن العار ان تحولنا النكبات من اشخاص اقوياء الى
اشخاص جبناء .

- « ان العراك بيننا وبين القوات الرجعية لا يقف عند حد فكلما ازددنا نموا كلما
ازداد الضغط .

- « سواء فهمونا ام اساءوا فهمنا فاننا نعمل للحياة ولن نتخلى عنها .

- « ان طريقنا طويلة لأنها طريق الحياة . انها الطريق التي لا يثبت عليها الا
الاحياء وطالبو الحياة . اما الاموات وطالبو الموت فيسقطون على جوانبها .

- « ان فيكم قوة لو فعلت لغيرت وجه التاريخ .

« لو شئنا ان نفر من النجاح لما وجبنا لنا منه مقرا » .

بمثل هذه الآيات اراد سعادة ان يزرع الثقة في نفوس المواطنين والرفقاء في زمن
كادت الناس تضيق لان كل شيء كان يدعوها الى اليأس والضياع . « ان فيكم قوة لو
فعلت لغيرت وجه التاريخ » . اليس في هذه الاية ما يدفع بالاعضاء والمواطنين الى
العمل والعطاء . بعد ان كانوا يتصورون انهم سيظلون الى الابد تحت رحمة الحراب
السنغالية مغلوبين على امرهم ، مستعبدين .

بالثقة بنفسها وبالمستقبل وبروح العمل والعطاء صبرت الكورة على كل مراحل
الارهاب التي مرت بها . كل الذين آمنوا فيها بسعادة وتعاليمه رفضوا القطعانية
والانسياق وراء نوبي السلطان وحاربوا في صفوف الحزب حرب العز والكرامة والتقدم .

سعاد رفض التسوية

■ حل الاحزاب البيغائية

■ بتاريخ 17 تشرين الثاني 1937 حلت الحكومة اللبنانية التي كان يرأسها خير الدين الاحدب الجمعيات ذات الاتجاهات او الاهداف شبه العسكرية وشمل الحل القمصان البيضاء والنجادة والكتائب اللبنانية .

وتمردت يومذاك الكتائب وحدها على قرار الحل ، ونزل الشيخ بيار الجميل وبعض من رجاله الى ساحة البرج في شكل تظاهرة ، اضطر وزير الداخلية حبيب ابي شهلا الى اعطاء الامر بقمعها بالقوة . فقمعت وجرح وسجن الشيخ بيار وعدد من اعوانه .

ليس هنا مجال تكرار ما يعرفه الجميع ، من قول سعاد اذا كان بيار الجميل يريد سحق رأسي فأنا اتمنى سلامة رأسه ، وان بيار الجميل جندي شجاع وقائد فاشل (او ضيق) ..

مجال التكرار هو كيف ان سعاد في ايلول اي شهرين قبل مرسوم الحل وفي مقالاته في جريدة النهضة البالغة احدى عشرة مقالة حمل حملة شعواء على الاحزاب البيغائية ، اي الاحزاب التي قلدت الحزب السوري القومي الاجتماعي في المظاهر الخارجية نون ان يكون لها قضية تبرر قيامها .

قلت وأكرر ان الكتائب انشئت بأموال فرنسية وبتحريض من ممثلي الدولة المنتدبة لمحاربة ومقاومة الحزب القومي ، ولو راجعنا كراريس نظامها القديمة العائدة لسنة 1937 وما بعد لوجدنا انها في صلب تلك الكراريس تعلن حزينا حزب الخيانة العظمى لانه يسعى لوحدة سوريا الطبيعية وتحرير الشعب السوري من التجزئة والاستعمار وتجديد حياته بالتعاليم والنظام القومي والاجتماعي .

وأني هنا لأنكر جلسة جمعتي فيها ظروف الشوف الانتخابية سنة 1951 بالرئيس كميل شمعون والقائد الشهيد كمال جنبلاط في منزله قرب المتحف . هناك قرأ لنا

الرئيس شمعون رسالة واردة من احد انصاره في واشنطن يعلمه فيها انه تأكد من ان فرنسا والولايات المتحدة تمولان - وتسلاحان - الكتائب اللبنانية .

كما اني اذكر هنا حديثا للرئيس شمعون في قصر بيت الدين قاله لي بحضور الدكتور جورج صليبي . وهو يضع على المشرحة رجال المارونية في لبنان فوصفهم كما يلي :

بطرس اعلى كلما طالت قامته كلما صغر عقله

وحميد فرنجية شايف الله من كتفه ونازل .

ان الاسباب الموجبة لحل الاحزاب الفاشستية اي شبه العسكرية تصلح اسبابا لعلها اليوم ، مع هذا الفارق انها في الماضي كانت عسكرية في المظاهر والملابس والتنظيم ، اما اليوم فهي عسكرية بالفعل ، لها كادراتها واسلحتها الحديثة ، لا ينقصها الا الطيران ، وكان مطار حمامات معدا لان يكون مريضا لطيرانها .

صحيح ان الشيخ بيار الجميل جندي شجاع ، ولكن ما نفع هذه الشجاعة اذا كانت في خدمة تمزيق لبنان وتقسيمه وصهينته ، وتحويله من بلد عربي الى بلد « اسرائيلي » خاضع لابشع دولة عنصرية دينية على الارض ، ومجربو بعجلة الامبريالية العالمية . ما نفع هذه الشجاعة التي لم تستطع الحيلولة بون المذابح والجرائم التي ارتكبتها الكتائبون ؟ ما نفع هذه الشجاعة تؤيد التدخل السوري ثم تطعنه صدرا وظهرها ؟

كم كنا نتمنى لو ان الحكومات اللبنانية المتعاقبة ، ما دغدغت الكتائب ، عهدا بعد عهد ، بما فيه عهد الرئيس شمعون ، لتأخذ هذا الحجم الذي تأخذه حاليا ، فتصبح قادرة على التهديد بتحقيق التقسيم بالسلاح او بالسيطرة على كامل التراب اللبناني لتقيم حكم الحزب الواحد « (المستبد العادل ؟) » الفاشستي الطاغية .

ان الكتائب التي شجعته العهود المتعاقبة لتكون القوة الضاربة بيد المارونية المتزمتة ، تحت ستار صيانة الحضارة المسيحية - الغربية في لبنان ، اصبحت مع الاسف قوة ضد لبنان وضد وحدته ، وقوة ضد العرب اجمعين بل قوة ضد الحضارة والانسان والحرية ! .. ان الكتائب والشمعونيين هم ايضا بما يرتكبون من جرائم اعداء المسيح والمسيحية في هذا المشرق العربي كله .

ليت الحكومة التي حلتها في ذلك الزمان سنة 1937 اُبقت قرار حلها نافذا ، انن لما كان اصيب لبنان بالشرور والمآسي التي تتجدد كلما طاب للكتائب والشمعونيين ان

يجدونها ، تحركهم اصابع اسرائيل ومن وراء اسرائيل ، ذلك لأن سياسة لبنان لم تكن يوما من الايام الا سياسة التوازن بين العائلات والخصوصيات ، لو ماشت الكتائب سنة 1937 سياسة الرئيس اميل اده لما صدر مرسوم بحلها . عقلية الحكم في لبنان ونظامه المهترىء مسؤولة جميعها عن تشجيع الكتائب وعن الشرور التي تسببت وتتسبب بها .

غدا عندما يعود لبنان الى استقراره ورشده ، الى ضميره ووعيه سيرى الكتائبون والشمعونيون ان احكام القضاء اللبناني نفسه ستدينهم بتهمة الخيانة العظمى ، لان تحالفهم المفضوح مع اسرائيل ليس له اسم اخر ، ولم يعد بحاجة الى أدلة . ان الخيانة العظمى عقابها معروف في قانون العقوبات اللبناني ، وبين الكتائب والشمعونيين جهابذة قانون ، يعرفون النصوص اكثر منا .

■ لماذا غادر سعادته ارض الوطن الى المغتربات وكيف ؟

ذكرنا في الحلقات السابقة كيف ان سعادته قرر اتخاذ موقف سياسي في انتخابات خريف 1937 .. وكيف ان هذا الموقف السياسي كان مفاجأة لبعض الرفقاء وللعديد من المواطنين .. لا دفاعا عن القرار بل توضيحا له ، اذكر ان الموقف السياسي مكن الحزب من اصدار جريدة النهضة ، ومكنه من العمل الحزبي العلني ولو بدون اخذ علم وخبر وفقا لقانون الجمعيات العثمانية الصادر سنة 1909 والذي لا يزال ساري المفعول .

لولا التفاهم مع الحكومة ما كانت رحلة العلويين ، وهي رحلة تأسيسية بكل ما في الكلمة من معنى .

لولا التفاهم مع الحكومة ما كانت رحلة الكورة وطرابلس وهي رحلة تأسيسية ايضا لأنها الزيارة الاولى العلنية للمنطقة .

ان للمواقف السياسية ثمنا ، بالنسبة لحزب عقائدي ، يفوق بكثير تساهل الحزب ، ويكفي ان يكون الثمن اصدار جريدة يبلغ بواسطتها الرأي العام اراءه وافكاره ، تعاليمه ومبادئه ، اخباره ومواقفه ، فضلا عن ان التساهل لا يعني التنازل .

احب ما كان على قلب المعلم مواقف التحدي والمجابهة والمواجهة . من رؤوس الزوبعة ، علم الحزب ، رأس يحمل اسم القوة : حرية ، واجب ، نظام ، قوة ، ومن أقوال سعادة : نحن حزب قتال . ونحن حركة هجومية اي متحدية . فالقوة ، في القرار والموقف والفعل ، كانت من طبعه وهي طابع الحزب تاريخيا . اما الموقف السياسي ، في

الظروف الموضوعية التي كان يجتازها ، فهو مبرر كل التبشير ، فلكي يتمكن الحزب من التحدي ، يجب ان يكون موجودا . وفي الواقع الذي كنا نحياه كان يجب ان نصبح كائنا حيا مستكملا جميع شروط الحياة ، لنقف على ارجلنا ، وندافع عن انفسنا وعن القضية ونباضل في اعداد اسباب انتصارها . ليست القضية نظريات تحفظ وبها نبشر ، انها نضال مستمر لتحقيق النصر .

هذا الموقف السياسي ، حمل بعض الاعضاء ، على التمرد . كان من العسير - اذا لم يكن من المستحيل - ان نتقف الرفقاء ونديهم على الانضباط والتقيد بالقرارات الحزبية ، قبل ان يمر الوقت الكافي . الطفرة محال حتى في الاحزاب العقائدية بل انها اكثر ما تكون محالا في الاحزاب العقائدية . للنمو الطبيعي شروط لا يمكن تجاهلها او تخطيها في اية عملية غرس او زرع .

رغم ان عددا لم يكن قد كبر بقدر ما كبر تيارنا ، مناصرين ومؤيدين ومعجبين ، فان سعاده رفض التسوية . لم يسمح بالعصيان . كل الذين ثبت بتقارير رسمية وبعد التحقق ، انهم تبغوا القرار ولم ينفذوه عوقبوا بالفصل او بالطرده . اخر ما كان يلجأ اليه سعاده هو التساهل . كان صبورا ولكنه لم يكن متساهلا في ادارته وفي طبعه . التساهل السياسي شيء ، والتساهل في الادارة شيء اخر .

ان عصيان بعض الرفقاء - في بعض المناطق - مرده الى التحيزات العائلية المحلية ، او الاستزلام للاقطاعيين والرأسماليين وعملاء الانتداب ، او الى بعض المنافع الشخصية . كان من العسير فك الارتباط بين الرفقاء المنتمين الى العائلة الجبلية التي في تقاليدنا التعصب لمرشح من فئة معينة ، انني اشهد هنا ، ان موقف سعاده المبدئي ، من المتمردين او المخالفين للاوامر ، كان ذا أثر فعال ، في تاريخنا السياسي . فالقوميون الاجتماعيون فهموا دفعة واحدة ، ان قرارات الحزب تتخذ لتنفذ وان قسمهم الحزبي القاضي بخضوعهم لانظمة الحزب وقراراته ليس كاملا بل التزاما .

لم يطل عهد الغزل بين السلطات وبين الحزب ، فما ان تبين ان « النهضة » صوت صارخ معارض حتى كان التعطيل الاداري نصيبها .

ثم لجأت السلطات الى محاربة الحزب مداورة .. راحت تحرض بعض من تعاون معهم في الانتخابات النيابية ليتهموا سعاده شخصا بانه قبض منهم ما لا وما وفي بتعهداته . اخذت المؤامرة على سعاده والحزب شكلا جديدا اقل ما يوصف به انه لا اخلاقي .

احدهم الاستاذ غبريال منسى اقام بالفعل دعوى لدى النيابة العامة حولتها الى الاستاذ رضا التامر ، قاضي تحقيق بيروت آنذاك ، وكان آخرون من المرشحين الفاشلين يحرضون على اقامة مثل هذه الدعوى للتشهير بسعاده والحزب ولاتهامه ومحاكمته وادانته زورا وباطلا .

وكان سعاده قد صمم بعد ان امضى ستة اشهر في السجن سنة 1935 - 1936 واربعة اشهر سنة 1936 ثم ثلاثة اشهر سنة 1937 ، وبعد ان طبع شرح المبادئ كما طبع نشوء الامم ، ان يسافر الى المغتربات للاتصال بفروع عبر الحدود والاتصال بالعالم حيث يتسنى له ذلك .

فلما احس ان النية متجهة لاستعادته الى السجن بتهمة ملفقة شائنة ، وعرف ان مذكرة توقيف اعدت له من قبل المحقق رضا التامر ، سافر فجأة يرافقه جورج عبد المسيح الى الاردن . كان ذلك في 23 ايار 1938 على ما انكر (سعاده ذكر انه ترك في II - حزيران)

ولمذكرة التوقيف هذه قصة لا تخلو من طرافة .

كلفنا بالتأكد من صحة الخبر الذي نقل الى الزعيم عن صدور هذه المذكرة ، فقابلت المحقق رضا التامر الذي اكد لي بان الدعوى المقامة عليه غير جدية وانه استدعاه بمذكرة جلب ليستجوبه فقط . فعدت مطمئنا ونقلت طمأنينتي اليه . الا انه كان ادري بما يحاك له في الخفاء بل قد تكون وردته اخبار موثوقة من مصادر اخرى اكثر اطلاعا .

من قبرص كتب لي رسالة يقول لي فيها : (حزيران 1938) اذا اسلمتني السلطات البريطانية الى لبنان ، فتكون انت يا عبد الله الذي اسلمتني .

احسست بقشعريرة . ارتعبت . هل يمكن ان تكون السلطات الفرنسية قد طلبت من بريطانيا استرداد سعاده . لماذا وكيف ؟ وهل الاسترداد ممكن في دعوى عادية لا طائل تحتها .

هرولت الى قلم النيابة العامة التمييزية ، ورحت ابحث في السجلات من تاريخ سفره حتى اخر صفحة واخر واردة ، اذا كان هناك طلب استرداد او لا . فلما لم اجد شيئا سري عني ، ونزل عن رأسي جبل من الهم والقلق ! .. خفت فعلا ان تكون ثقتي برضا التامر قد تسببت عن غير قصد بتنفيذ مذكرة التوقيف بواسطة بريطانيا .. لقد اخذ علي سعاده اني طيب القلب ، واني صدقت قاضي التحقيق ، وان قراءة

التاريخ تدل على ان السلطات الحاكمة لا تترفع عن اية مؤامرة على نهضة مثل نهضتنا
وحزب مثل حزينا .. وزعيم مثل زعيمنا ..

الايام اثبتت ان سعاده على حق ، فلو احضرته امام قاضي التحقيق لكان مصيره
التوقيف .. !

اما في الاردن وفلسطين ، فيعرف الامين كميل جدع اكثر منا جميعا ماذا حدث .
وكيف تنقل سعاده مبشرا ثم سافر الى قبرص فايطاليا والمانيا والبرازيل ..
والارجنتين ..

الا انني وقد اقامت في عمان عشرة اشهر سنة 1962 - 1963 فارا من وجه المظالم
على اثر الثورة الانقلابية سنة 1961 لقيت السيد ابو فيصل وهو معروف في عمان وفي
الحزب - واخبرني عن المقابلة التي تمت بين الامير (الملك عبد الله فيما بعد) ، وبين
سعاده ، بحضوره هو شخصيا لانه هو الذي حصل على الموعد بسبب صداقته الحميمة
للامير .

دخل سعاده الى الديوان الاميري ، نون ان يكون على علم مسبق بالبروتوكول على ما
يبو ، وسلم على الامير عبد الله وجلس قبل ان يجلس الامير . بقي الامير واقفا نون ان
يلفظ كلمة . فهم سعاده ان المقابلة انتهت . فحيا وانصرف مع ابو فيصل . غضب
الامير كما غضب سعاده . ومع ذلك عادا فتلاقيا سنة 1947 كما سنروي فيما بعد ..

في رسالة من قبرص الى المجلس الاعلى ، يقول سعاده انه كان يروي لاحد اصدقائه
على شرفة الفندق حيث كان يقيم كيف داهمته قوات الدرك عند مخفر المريجيات في اذار
1937 بعد مظاهرة بكفيا والاصطدام بالسلطة والقت القبض عليه ، وانه فجأة ضرب
على يده على الطاولة وهو يروي لصديقه الوقائع : في هذه اللحظة ، عرفت من وشي بي ،
انه م . ا وذكر اسم الواشي في تلك الرسالة ..

الواشي طرد من الحزب ليصبح خادما للاقطاع . لقد باع سعاده بوظيفة . فيا للعار .
كان يهوذا اكثر امانة للسيد المسيح !

قبل سفره اصدر سعاده مرسوما بتعييني رئيسا لمجلس وكلاء العمد . وحول العمد
باجمعهم كل عميد الى منطقة من المناطق ، عبد المسيح للعلويين . نعمة ثابت للبقاع ،
جبران جريج للمتن .. مأمون اياس للشام . الخ ..
ثم اصدر مرسوما باحالة جميع صلاحياته القيادية من تشريعية وتنفيذية وعسكرية الى

المجلس الاعلى مجتمعا أرسله الينا قبل مغادرته فلسطين .

اما المجلس الاعلى الذي اولاه صلاحياته قبل مغادرته الوطن فكان مؤلفا من الامناء : فخري المعلوف رئيسا ونعمة ثابت وجورج عبد المسيح ومأمون اياس وعبد الله قبرصي ومعروف صعب وسواهم اعضاء . وبعد سفر فخري المعلوف انتخب المجلس الامين نعمة ثابت خلفا له او كان لا يزال الاتصال بالزعيم متيسرا فاقترح عليه التعيين فعين .

اما مجلس وكلاء العمدة فلم يفلح برئاستي كثيرا . لم اكن طوال حياتي الحزبية قد مارست العمل الاداري . كانت خبرتي ناقصة لذلك لم تنجح التجربة فاضطر المجلس الاعلى ان يعين مجلس عمدة برئاسة الامين معروف صعب (توفي في اوائل سنة 1977) واحتفظت انا بمركزي القيادي في المجلس الاعلى .

بعد سفر سعاده خف تصادمنا مع السلطة ، الزعيم وحده كان يقلقها بشخصيته الفذة وتأثيره الخارق على الجماهير وديناميكيته الفياضة . كان علينا ان نتابع التبشير . ان نقى الحزب العثرات والمزالق . ان نحل المشاكل التي تحدث بين الاعضاء والمسؤولين وان نسهر على سلامة العقيدة وسلامة الحزب ونموه .

لا ننسى ان من اهم اسباب اضطهاد الحزب ، كان ما اشيع عن علاقته بدول المحور وخاصة الطليان والامان . وقد كبرت الاشاعة وضخمت بايحاء من المفوضية العليا الفرنسية ، بعد ان مر سعاده في ايطاليا والمانيا ، فقد قيل يومذاك انه قابل الدوتشي والفوهرر ، وان الفوهرر اعجب به ايما اعجاب فخصص له قطارا خاصا لنقله من برلين الى ميونيخ .. بل قيل في ما بعد انه مقيم في برلين او روما !

والعجيب الغريب ان المحاكمات الاستثنائية في دمشق ، (وسنأتي على نكرها تفصيلا) صورت سعادة بصورة خيالية تشبه الاساطير عندما مر في ايطاليا لزيارة احد اصدقائه من عتداء الجيش .

والحقيقة ان ما جرى في المانيا نقله الي احد افراد مديرية حزبنا في برلين الامين المسوف عليه محمد القاضي عندما لقيته في فنزويلا سنة 1963 .

لقد اعدت له المديرية وكان مديرها مصون عابدين بك وكانت مؤلفة من الطلاب الشاميين واللبنانيين والفلسطينيين استقبالا مشهودا . كما اعدت له لقاء مع رئيس

منظمات الشباب الالمان الذي اعجب به ايما اعجاب وجلس معه ثلاث ساعات عوض الساعة المخصصة للمقابلة . اما مع الدوتشي والفوهرر ورجال الحكومة فلم يجر له اي لقاء او مقابلة . رحلته لم تكن لاقامة علاقات مع بول المحور كما شيع المغرضون . بل كانت للاطلاع ميدانيا على ما يجري وللاتصال بالرفقاء من الطلاب ، واني لانهب ابعد من ذلك . لم يكن سعادته بعد قد اصبح قائدا لالاف الشباب لكي يهتم باستقباله الدوتشي او الفوهرر ! ..

بل لدينا دليل قاطع في خطاب اول حزيران 1935 عندما كان الحزب لا يزال سرىا ، وقد حزننا سعادة فيه من الدعوات الايطالية والالمانية ، واعلن مبدأ لم يحد عنه طوال حياته وهو ان تكون العلاقات بين الحزب (الامة السورية المصغرة) وبين اية دولة اجنبية قائمة على اساس الاحترام المتبادل وعلى اساس احترام حقوق ومصالح شعبنا السوري وقضيتنا القومية . هذا الدليل القاطع يفرض في ما يفرض ان المانيا وايطاليا اللتين كانتا بحاجة الى عملاء لا الى حلفاء لا يمكن ان تتعاوننا مع رجل عقائدي متصلب ، شديد المراس ، لا يساوم ولا يهادن لا كزعيم للحزب ولا كناطقون سعادته .

لقد بنى اعداء النهضة واعداء سعادته الغلالي والقصور على اثر هذه الزيارة الى برلين وروما ، فحرضوا عليه حكومة البرازيل التي امرت بتوقيفه قيد التحقيق طوال ثلاثة اشهر . خرج من بعدها ناصع الجبين كما خرج الحزب من كل المحاكمات التي مر بها في عهد الفرنسيين والعهد الاستقلالي . بريئا منزها عن اي تعامل مع دولة اجنبية لغايات مادية او لمنافع خصوصية . ولكن الحجة الحاسمة لكل الافتراءات ، هي ان الالمان حكموا لبنان بواسطة فيشي والجنرال دانز مدة غير قصيرة كنا فيها نعانى الام السجون ومخاطرها . ان وفدا من المطارنة ورجال السياسة والفضل توسط لنا لدى الجنرال دانز فاستجاب واصدر عنا عفوا عاما ولم يتوسط لنا الالمان ولا الطليان . فالعلاقة بهم نوع من الخرافة الشائعة ! ..

في المرحلة ما بين سفر سعادته وعلان الحرب العالمية الثانية ، لم يحقق الحزب كبير امر . غلبت كما سبق القول على اعمالنا الروتينية الادارية . تجربة المنفنيات الكبرى والمنفذين العاملين الاقطاب كنعمة ثابت وجبران جريج ومأمون اياس وجورج عبد المسيح لم يطل عهدا لتعطي ثمارها ، القصد منها ، يقول الامين جريج كان دفع التفاعل الحياتي بين ابناء المنطقة من مختلف الطوائف والعائلات والفئات لتحل محل علاقاتهم الضيقة علاقة جديدة مستمدة من الحياة الجديدة وقواعدها الراقية فيشعرون

بما اسماء سعادة بالوحدة الروحية العميقة بين بعضهم البعض .

قلت ان مجلس عمد جديد تأسس برئاسة معروف صعب ، شغل فيه جورج عبد المسيح عمدة الاذاعة ، الا ان هذا المجلس لم يترك اثرا يذكر . رئيسه سافر الى العراق دون ان يعلم العمدة الاخرين بسفره .

ان الحقيقة يجب ان تقال : لم نكن كلنا مجتمعين بقاديرين على الحلول محل سعاده ، لا في الحركة ولا في الابداع ، لذلك كان غيابنا عسيرا لكل منا ، ولنا كمؤسسات مركزية وفروع .

عندما عاد من غيابه القسري ، اذ طال حوالي الثمان سنوات ، قال لنا : انقذتم شرف الامة . لقد اعطانا اكثر مما نستحق بكثير اذا كان المقياس ما انتجنا . واعطانا حقنا اذا كان المقياس صموينا وصبرنا وتضحياتنا ، وانعكاس مواقفنا البطولية في السجن وخارجه على روحية الاعضاء حيثما وجدوا ، اذ ما طلبناهم لبذل او لموقف عز الا ولبوا بحماس وشجاعة وايمان .

والى ذلك ، لم يكن الانتاج صفرا ، فتحرك المناطق تم بالجهود التي بذلها كل منفذ في تنفيذته ، لا انكر بالضبط جهودا لنعمة ثابت في البقاع ومأمون اياس في الشام ، ولكني انكر جهود جبران جريج في المتن وعبد المسيح في العلويين : بوابات كيليكيا ومضيق بيلان ! ..

بل ان عميد الدفاع مأمون اياس بواسطة وكيله منير الملاذي كان قد قرر - لأول مرة في تاريخ الحزب - انشاء مخيم تدريب في صيف 1939 وكان انشئء لو لم تدهمنا الحرب باهوالها وفواجعها .

الحرب العالمية الثانية .. والاعتقالات

كنت قد بونت مذكرات عن تأسيس الحزب وعن سجن القلعة ، فصلت فيها كثيرا من الوقائع في وقت كانت لا تزال طرية في ذاكرتي ، مذكراتي عن التأسيس في حوزة جورج عبد المسيح اغتصابا ، ومذكراتي عن سجن القلعة تاهت في ملاحقات سنة 1949 . كل شيء يمكن ان ينساه المرء الا جراحه العميقة . كانت الجراح التي اصابتنا ابان الحرب عميقة لا يمكن ان تنسى حتى ولو مر عليها جيلان كاملان او اجيال عديدة ...

قبل اعلان الحرب ، يبدو ان سعادته كان يتوقعها . فقد ارسل لنا بيانا يدعونا فيه الى الحذر والاستعداد في اب 1939 ، يدعونا فيه الى ممارسة البطولة ، يذكرنا بايام بكفيا وعماطور وتربل وسواها .

البيان دعوة الى اغتنام فرصة اندلاع الحرب لتحرير بلادنا وتحقيق قضيتنا . لا بد ان البيان سينشر في جزء قادم من الاتار الكاملة . وهو منشور في النظام الجديد - طبعة دمشق .

ليس اسوأ من حفظنا في انفصاح خططنا وانكشاف اسرارنا . هذا البيان تسلمه جورج عبد المسيح بوصفه عميدا للاذاعة انذاك . وطبعه ولفه رزما رزما ، وكتب على كل رزمة عنوان المسؤول المرسله إليه ، وسلمه الى مدير المواصلات ، فرفضه ؟ وكان ان ارسله الى الغرفة التي كان يختبئ فيها جبران جريج وانيس فاخوري . نوهمت الغرفة بغيابهما من قبل الامن العام ، وضبطت منها الرزم والبيان وعناوين المسؤولين وكان هذا البيان الدليل اننا نعد مؤامرة ترمي الى الاعتداء على سلامة الدولة الداخلية والخارجية ، المعاقب عليها بالاعدام ، لان العسكريفسرون مثل هذه البيانات بعقليتهم العسكرية لا بعقليتنا المدنية . وسنأتي على الفقرات من البيان التي حوكمنا على اساسها .

اعلنت الحرب ونحن مدعوان انا وزوجتي الى الغداء في دارة الدكتور فؤاد غصن في

ظهور الشوير . تبلغنا الخبر على الراديو فعلقت لقمة الطعام في حلقنا . من بين الحاضرين ، كنت وحدي اوجس خيفة ان اساق الى السجن ، للعلاقة « الوهمية » بدول المحور . انا اذن متعاون مع اعداء فرنسا . الحزب اذن « عدو » فرنسا . ومصير « العدو » في زمن الحرب معروف ! ..

فجأة يوم اعلان الحرب تغير كل شيء في ظهور الشوير وكل مكان . فقد البنزين من المحطات . بدأت السلطة بمصادرة السيارات كبيرها وصغيرها . المواد الغذائية طارت من الاسواق (وويل لكم يا اثرياء الحرب كيف اثريتم لولا اخفاؤكم المون لبيعها باضعاف اضعاف اسعارها 1؟) .. الذعر خيم على لبنان .. شبح المجاعة وصور الجثث على الطرقات اطل من اعماق النسيان ! .. في هذا البلد الصغير ، هكذا نفهم الحرب : ارتعابا وجوعا وسجوناً ومشانق . متى نفهمها اقدماً عليها واقبالاً ، بلوغاً لمرحلة السلام العالمي ، السلام الذي لا حروب بعده ولا من يحزنون ، لانه السلام الذي يسلم فيه العالم بحقوق كل الشعوب وكل الامم !

بدأت الحملة على الحزب فوراً . كان عبد المسيح اول ضحاياها . دوهم في منزله في بيت مري - على ما اعتقد - وسيق الى السجن .. ثم ما لبث ان استعاد حريته ، كان اخلاء سبيله خدعة ، لان احتجاجه نبه قيادي الحزب ، فتواروا ما عداي . كنت اتحصن بالمحامية والنقابة . ظننت ان زمن الحرب امتداد لزمن السلم . وان صوت النقابة يعلو على صوت المدافع والارهاب وان فرنسا لا تتجرأ حتى في زمن الحرب على نقابة المحامين .. كنت طيب القلب في اعتماد هذا المنطق ! ..

ما لبث عبد المسيح ان اعيد الى الققص .. كانت السلطات تخشى بأسه واقدامه . اعتبرت ان القبض عليه يعني الاستيلاء على الذراع الضارب وبالتالي شل اي محاولة تحرك حزبي عنيف .

كان نعمه ثابت قد تعاهد مع ماري حليبي على الزواج ، فتوارى على ما اظن في الشمال ثم استسلم لما عرف ان منزله يداهم وان السلطة جادة في اثره . لم يستطع الافلات الا جبران جريج ومأمون اياس . عندما التقينا في سجن القلعة اطلعني نعمه على اسباب استسلامه . لم يكن قادراً على الاختفاء بسهولة . التواري فن وبراعة ودهاء مع قسط كبير من الحظ للمساندة . ويبدو ان نعمه لم يكن فنانياً في فن الاختفاء من وجه المظالم - لم يكن محظوظاً .

جبران ومأمون بقيا انن حرين لا من اجل الاستمتاع بحرية الحرب – اذا كان من اثر للحريات في زمن الحرب – بل للاشراف على روحية الاعضاء . وتهدئة اعصابهم ، وأعدادهم نفسيا لتحمل التضحيات . نحن مستهدفون ولا ينقذنا من المآزق الا مواقف البطولة ، والصبر والاحتمال والانضباط الكلي ، لان اية كلمة ، اي اشارة ، يمكن ان تفسر تفسيراً يتناقض كلياً مع مضمونها الحقيقي .

رحمة الله على الشيخ الشاعر والخطيب والصدیق ابراهيم المنذر : عندما عرف بان بعض الرفقاء من القياديين زجوا في سجن القلعة من قبل السلطات العسكرية الفرنسية كتب لي وريقة جاء فيها : «لسانك حصانك ان صنته صانك .. وعند تغيير الدول احفظ رأسك » ترك لي هذه الوريقة فلما لم يجدني عاد في اليوم التالي وترك ورقة اخرى وكلتاها تحملان توقعيه : المنذر . وسنرى كيف ترجم ترجمان المحكمة العسكرية هذه الوريقة فعوضاً ان يكتب الاسم المنذر (اسم الشيخ ابراهيم المنذر A Lavertisseur) كتب اي من انذر ينذر منذراً ، مما يمكن تأويله الف تأويل في زمن قطع الرؤوس بنون فؤوس .. !

الى سجن القلعة

كان ذلك في 22 ايلول 1939 . كان مكنتي في شارع المعرض بناية العبد ، وكنت اصطاف في عاليه مع عديلي الدكتور توفيق فرح وزوجته وابنه البكر طلال . كانت ظروفنا المادية الضيقة تجبرني على ملازمة مكنتي يوميا . فنزلت كعادتي للقيام بواجباتي المهنية . لم تكن لي مسؤولية حزبية سوى عضوية المجلس الاعلى . فلما قبض على بعض زملائي من المسؤولين ، ظننت ببساطة ما بعدها بساطة – ان نقابة المحامين تحميني هذه المرة ايضا والا فنحن في 22 ايلول وعبد المسيح اعيد الى السجن في 16 ايلول والباقيون صدرت بحقهم مذكرات توقيف على التوالي . لو ان السلطة العسكرية تنوي بي شراً ، لما وفرتني حتى الساعة .

تأجيل القبض علي كان الشرك الذي اوقعني فيه .

المهم اني كنت خالي البال كأن الدنيا بألف خير . وكأن السلطات العسكرية الفرنسية لا هم لها في الحرب الا صيانة حرية عبد الله قبرصي والاشفاق على شريكة حياته وطفليه الصغيرين صباح وضحى ومراعاة خاطر نقابة المحامين المحترمة . وكان ان دخل علي شاب انيق اللبس ، اسمر الوجه اسمه نديم ابو عراج « مشغرة »

مفتش في الأمن العام الفرنسي ، وطلب الي بلهجة الأمر المهذب ، ولكن العابيس ، مرافقته لمقابلة المدير .

قلت : هل اعطي لائحة بجلساتي ودعاوي الى خالي الاستاذ فهيم خوري جاري في المكتب ام ان المقابلة قصيرة ؟

قال المفتش : لا . لا . دقائق وتعود الى مكتبك . لا لزوم لضياح الوقت .
نزلت الدرج ، وقلبي يخفق ، ولكن بدون هلع ، لم اصدق ان المشوار قصير ، ولكني لست في السجن . وحيدا . لقد سبقني الامناء والرفقاء فلماذا استثنى .

كان في الزاوية من شارع المعرض ، على مقربة من محلات ابو راشد ، رجل وسيم الوجه ، انيق الملبس ، عرفت انه المفتش الآخر المير فريد شهاب . كم لنا مع المير فريد من لقاءات وصادقات وحسابات .. الم يصبح بعد سنوات رفيقا لنا في سجن راشيا ؟
المير فريد وابو عراج اذن اخذاني الى الأمن العام ، الذي كان قريبا من حاووز الساعاتية في بناية قديمة ..

استقبلني ، اول ما استقبلني المفتش العام جان حاجي توما (الذي اصبح في ما بعد سفيرا) وكان يجلس وراء مكتبه كأكبر وزير في اعظم دولة .

قال : انت محال الى المجلس العرفي بتهمة الاعتداء على سلامة الدولة الداخلية والخارجية .. انتظر قليلا .. قالها بلا مبالاة وبازدراء .

سألت : انن الى المشنقة طالما الى العرفي . (تذكرت شهداء 6 آيار)
الجواب : التهمة خطيرة .

وجه جان حاجي توما ، وجه وسيم بشوش ، ولكن بشاشته جافة كبشاشة مطلق موظف في أي امن عام في الدنيا .. ووسامة وجهه سودتها الاوراق « السوداء » المكدسة على طاولته وكلها تقارير .. ومذكرات القاء قبض .. لحظات واطل علي مدير الأمن العام كولومباني . كان بيني وبينه اندازات كان اسمي عنده يرن خصومة ونفورا .. توكلت ضده بواسطة احد انصار الرئيس اده ، بولس عواد ، في دعوى تحيز لآل الخوري . كيف تجرأت حتى كمحام ان اقبل دعوى ضد مدير الأمن العام الفرنسي ؟ كانت خطيئتي مميتة على الاقل بنظره .

قال : أنت عبد الله قبرصي المحامي ؟

قلت : نعم انا هو .

قال : الظاهر انه ليس عندك دعاوى . نحن سنجد لك شغلا عندنا .

قلت : شكرا حضرة المدير .

كان علي ، كما على أي متهم او مشبوه يدخل الأمن العام في زمن الحرب ، ان يكون حذرا ويقظا ، وقصير اللسان ، كلمة وتفتح الزنادين والسياط والمسبات . سيأتي الحديث عن الملازم بوتيون Boutillon وكم اخترع من كلمات الالهانة ومن الشتائم والتحقير وكم ابداع في فنون التعذيب والتأديب .

قلت شكرا وظللت واقفا ، فيما عاد كولومباني من حيث اتى واقفل وراءه الابواب . اقفل وراءه ابواب الحرية ، لتفتح في وجهنا ابواب الظلام .

برهة واذا بشاب طويل القامة . مهتقع اللون ، مأخوذ بالخوف ورهبة المكان ، يمر في نفس خط سيرى الى ان يصل الى الكرسي المجاور لي . لا اعرف باي الهام ادركت انه قومي رغم ثقتي بان القوميين لا يخافون فطمأنته وذكرت له اسمي . كان يعرفني بالاسم اما انا فعرفت ان اسمه الياس قدسيه من حلب . تفاهمنا بسرعة البرق - من اشارة من ابتسامة ، من كلمة تعرف ان جارك قومي اولاً ! ..

انتهت معاملاتنا بسرعة .

خرجنا نبحث مع مرافقينا عن سيارة تاكسي .

كان حظنا كبيرا : رفيق اسمه لويس نصار من أخلص وأطيب رفقاءنا كان يمر من هنالك أو ارسل خصيصا لنقلنا . لست ادري . الى الآن لم اسأله . نقلنا الى سجن القلعة مجاناً ..

أنا الذي كنت أطمئن الياس قدسيه ، هل كنت مطمئناً . يخطيء من يعتقد ان الذهاب الى السجن في زمن الحرب كالذهاب الى نزهة صيد او الى حفلة مصارعة ثيران ! .. الذهاب الى السجن يعني اما الى خشبة الاعدام او الى الزنزانة ليبقى حتى معاهدة الصلح ! ..

الاعدام قد يتم بسرعة اما الزنزانة فلا تفتح ابوابها بعد ان تنغلق الابقدرة قادر او يحظ اكبر من الحظ ..

كان يجب علي كظم الغيظ او الالم والخوف . من وصل في الحزب الى مسؤولية القيادة وجب ان يكون قدوة . لقد كظمت غيظي وخوفي ، لكي ابدد مخاوف رفيقي الياس قدسيه الذي بدا وكأنه ارتاح الى رففتي وهدأت نفسه . الانسان سريع التأثر بالانسان والخوف ميكروب ينتقل بالعدوى كما الشجاعة تيار ينتقل من الروح الى الروح ! .. دخلنا الى مكتب السجن . معاملات الإدخال سهلة . تفتيش وقيود ووجوه عسكرية

عابسة . نحن ضيوف ثقلاء على الفرنسيين لاننا بنظرهم عملاء للعدو .
ثم مررنا بباحة السجن فاذا امامنا ملعقة وشوكة وكاسة وقصعة للطعام
وحرامات . كلها أكلها الصدا والغبار وكان علينا ان نستعملها .. هي يأكلها الصدا
ونحن نأكلها مع الصدا . اما الحرامات فافضل منها النوم على الارض العارية ! ..
كان الاستقبال في السجن استقبالا حماسيا . الترحيب بنا من كل القوايش .
حتى الاخوان الاكراد من قاووشهم الوسيع وقفوا يرحبون بنا بلغتهم وعلى طريقتهم .
كل تلك الوجوه الحبيبة ، من نعمة ثابت الى اديب قدورة الى كامل ابوكامل الى جورج
عبد المسيح ، والعديد من الرفقاء ، لم تكن في تلك اللحظات تساوي ضمة من جورجيت
وصباح وضحي ! او نسمة حرية من ظهور عاليه ، ساعات الالم تقلب كل المقاييس
وتعطل كل المنطق .

القلق الضاغظ هذه المرة الامر من السجن والاقسى والاعنف ، ات من الخارج في
السجن الاول ، فقدنا العروس ثم لقيناها . كانت المسافة اقصر من قيد انملة ، بين
السجن والعرس اما اليوم فعروس وطفلان ولا معين ولا مورد ! ..
هذا هو السجن الحقيقي للزوج والأب الذي يدخله جاهلا مصيره مضافا اليه جهله
مصير زوجته وطفليه .. هو على كف عفريت وهم على كف عفريت من نوع آخر ..
السجن الحقيقي ليس فقط في ان تفقد حريتك ، فلا تتكلم الا باذن ولا تدخن الا
باذن ، ولا تأكل او تشرب او تنام الا وفقا لمشية السجان ، السجن الحقيقي هو انك
انسلخت عن زوجك وولديك ، وانسلخوا عنك وانسلخت عن حزبك وانسلخ عنك . انت
في عهدة السجان والجيش الفرنسي اما حزبك وعائلتك ففي نمة من ؟ .. في نمة القضاء
والقدر والحرب ! .. الحرب التي لا يذكر منها الناس الا الجوع والوباء .. تلك كانت
الطامة الكبرى . تلك كانت مأساتي في سجن القلعة .. كانت زوجتي وولداي الصليب
الذي سمرت عليه يداي ورجلاي وكان حزبي والى اين مصيره صليبي الآخر ! ..
سجن القلعة .. وما ادراك ما سجن القلعة .. لقد اصبح الآن اثرأ بعد عين . لقد
هدم من أساساته .

هدمته الدولة . ليتني عرفت انن لشفيت غليلي منه بالاشتراك مع الهادمين في بعثرة
احجاره وتحطيم اخشابه ! .. الا يحق للانسان ان ينتقم من الاحجار ، والاشخاب
للثأر منها متى عجز عن الثأر من البشر والماضي والحاضر والمستقبل ! ..
سجن القلعة ، اسجن هذا الذي وضعنا في زنزانته وقواويشه ام مزرب حيوانات ؟!

هل يصلح مزربا للحيوانات ؟ هل هو مقبرة ام مستودع نفايات ام مركز لتعذيب الانسان باسم القانون !

لواحد وحده لا تتسع الزنزانة فكيف نعيش فيها انا والياس قدسيه ؟
القاوش يتسع لعشرين او خمسة وعشرين سجيناً لقد زجوا فيه حوالي الخمسين اذا اراد احدهم ان يقلب من جنبه الشمال الى جنبه اليمين يجب ان يقف على قدميه ليركز وضعه . وليس لك انت السجين العبد ان تحتج . اذا تجرأت منعت عنك الشمس والمقابلات والزاد من الخارج .

في زنزانتنا وباقى الزنزانات لا بيوت خلاء . لا ضوء الا كمشة من شبه نور تهبط من طاقة على علو ثلاثة امتار . والباب لا يفتح الا بتساهل من الحارس . كم كان حراسنا طيبين . كم نذكرهم بالخير واحدا واحدا لأنهم كانوا يتساهلون ويتركون الباب مفتوحا كرما منهم ومنة .

اطال الله بعمر الياس قدسيه ، لقد اسمى نفسه كناس صاحب الجلالة - صاحب الجلالة يعني انا اتعس خلق الله في سجن القلعة - لأن عليه كانت واجبات التكنيس والتنظيف وتفريغ « التينات » من اوساخنا في براميل وضعت لهذه الغاية في الخارج ..
في الليل - في منتصف الليل كانت تمر الشاحنات ، فتفرغ البراميل بكل ما فيها من روائح « عطرة » ، فيكاد واحدنا يختنق رغم انه نائم . لم تكن الروائح كريهة فحسب . لقد كانت سموما . كان واحدنا يستيقظ كل صباح ، ويتحسس انفه اذا لم يكن مليئا بالاوساخ .. واحيانا يجد ان انفه ليس فارغا منها . الروائح تتكسد وتتجمد في الأنف كما لو كنت مصابا بالزكام . أرجو ايها القارئ الا تتقيأ وانت تقرأ هذه الوقائع .

انصافا للفرنسيين ، نذكر ان سجن القلعة ليس من صنعهم ، انه ارث من الدولة العلية ، العسملية ، ولكن نعتب على الذين هدموا الباستيل سنة 1789 كيف استطاعت أعينهم ان ترى باستيل الا تراك بون ان تدكه من اساساته فتبني مكانه سجننا عصريا على صورة حضارة فرنسا وتراثها ؟ ولكن في فرنسا نفسها لا تزال السجون .. القديم على قدمه ؟

لم يكن لنا الحق بنور الشمس الا نصف ساعة في الصباح ونصف ساعة في المساء . نحن متساوون في الكرامة من هذا القبيل مع سائر سجناء لبنان . « الطلعة » في سجن الرمل كما في سجن القلعة كما في سجن القبة ، هي طلعة الصباح وطلعة المساء . نصف ساعة كل مرة وما زاد على ذلك هو تجاوز على القانون ، والسجان رجال قانون

من الطراز الاول . انهم يطبقونه بحذافيره . كل مخالفة تقمع بشدة جاءت من السجين
او جاءت من السجنان ! ..

الصدمة الاولى كانت مزوجة اذن . الزنزانة ، الزريبة ، والظلمة والاساخ
الوبائية ، والقلق والهـم الاتيان من الخارج .. زوجة لا تزال عروسا وطفـلان احدهما
يحبو والآخرى رضية وحزب علقنا عليه آمال امة ، معلق بين حقد الفرنسيين وحقد
الطائفين وشعب مغلوب على امره يبحث عن لقـمته قبل اي شيء آخر .

تأملات في السجن .. والعقاب

اما الصدمة الثانية فالطعام والشراب .
كان علينا ان نأكل الكامال Ganelle ونشرب في الكار Quart والكامال كما وصفناها والكار - الطاسة كما وصفناها ايضا . والملقعة من الطراز عينه .
الصدأ جاثم في قلبها جميعا ، اذا حاولت انتزاعه بالصابون صدأ الصابون ، والصدأ متشبث بهذه الأدوات تشبث العلق .
كان من حظ الياس قدسيه ان طاسه وصحنه لم يكونا في بشاعة طاسي وصحني .
كنا نأكل في صحن واحد .
ما هو الأكل ؟ ليس افضل من سجن الرمل . فالقروانة قروانة سواء في سجن الرمل او سجن القلعة . تلزم للمتزمين تجار ، يهمهم ان يربحوا لان يحافظوا عل سلامة السجناء ! ..
اجل التجارة من عهد الفينيقيين تجارة بكامل معنى الكلمة لا فرق عندها ان تكون البضاعة حيوبيا او قماشيا .. او ارواح العباد !
كيف يمكن ان يأكل السجن كل يوم ، نفس الطعام ، وهو رز مسلوق بالشحم واللحم . شكرا لله ان خبزنا كان من خبز الجيش . انكر ان احد الزملاء اهداني قطعة من الجبنة « البقرة التي تضحك » !! جرأتها الى مئة قطعة ، ورحت اتوهم اني اكل جبنة مع الخبز ! .. كان الخبز يمتص الجبنة قبل ان تصل الى فمي فلا اشعر لها بطعم . لقد اكلت وهما اسمه الجبنة ..
والصدمة الثالثة تصرف بعض السجناء وبعض السجناء .. فبينما كان دارسو وادافيد وسيمونا وفرانتشي وريغال والعشرات الذين مروا بنا ، من الفرنسيين الظرفاء ، الكرماء النفس والمحتد . كان غرى وكلوزا واسماء تقوتني الان ، من الفرنسيين بالاسم لا بالروح .
مع الاول ، كان السجن في شبه عرس . هرج ومرج وتدخين . صار السجناء

يشعرون ان هؤلاء اصدقاء لا سجان . بينما الاخرون لا يتورعون عن انزال عقوبات بالمخالفين ، فما ان يطلوا حتى يدخل السجن في كهف السكوت المطبق . كان السجناء يشعرون ان هؤلاء اعداء لا سجان .

اما الصدمة الرابعة . فأمر السجن نفسه . انه الاديديان شيف مارتز Mertz من الالزاس لوران . وجهه وجه الماني لا وجه فرنسي . صلف . مستكبر ناشف ، يسير متفقدا الغرف والزنايات ، فاذا شبح الموت الاصفر مخيم على القلعة .. ويل للسجين المخالف ويول للسجان المخالف . الاديديان مارتز من حفظة « الكتاب » ومن منفذيه .. لا يتساهل في الفاصلة ولا في العازلة ولا في الواصلة . ما كتب قد كتب وما قرر قد قرر . القانون في يد والقصاص في اليد الاخرى .

يخرج الامر عائدا الى مكتبه او بيته القائم فوق المكتب ، فنعود الى الهرج والمرج ، او الى صمت القبور والكهوف .

واما الصدمة الخامسة فكانت لي وحدي من احد السجان الغلاظ القلب واللسان . نسيت اسمه ، لعلي ذاكر قبل ارسال المقال الى المطبعة .

مر السجان الغليظ القلب واللسان امام زنزانتنا . تطلع فينا شنرا . القى نظرة على الداخل فاذا الصحن والطاسة والمعلقة الصدئة كلها مرمية عند مسرب المياه . هز رأسه قائلا : سوريون وسخون Sales Syriens . فوقفت في وجهه غاضبا أصبح : أنت فرنسي وسخ Sale Francais . وصحت بالرفقاء داعيا الى غضبة قومية اجتماعية . فما ان عرفوا بحقيقة الامر حتى هجموا على الابواب الحديدية يحاولون اقتحامها للانقضاض على العريف الغليظ القلب واللسان . وهب السجن كله متضامنا معنا . جاء الاديديان مارتز ، فاخبرته الواقعة وانا ألهث خنقا وغيظا . كنت اظن ان الرجل سينتصر لعريفه وينحاز . سأل بعض الجيران فأيدوا روايتي ، طلب من السجناء العودة الى الهدوء ثم امر العريف بان يعتذر علنا وابعده فورا عن حبس القلعة الى مكان اخر .

ادركت لتوي ان الاديديان مارتز رجل عسكري عادل . وان مظهره لا ينطوي على حقيقة نفسه . بدأت بيننا صداقة بعد ان كنت لا اطيع سحنته . صار يعتمدني ترجمانا بينه وبين السجناء كان يجب ان اصور سجن القلعة على حقيقته ، حتى اذا سردنا بعض الوقائع والأخبار التي دارت بين جدرانه ، يفهمها القارئ في الزمان والمكان . من جهة اخرى ليرسخ في ذاكرة الاجيال ، ان رجال النهضة القومية الاجتماعية ، امضوا اشهرا بل سنوات في هذا السجن ، الذي لا يصلح الا ملعبا للجرذان والفئران ، لا

سجنا للعقائديين المناضلين . او حتى لأي مخلوق ناطق جلده جلد انسان ، وقلبه قلب انسان .

كنت اتمنى لو ان سجن القلعة بقي قائما ، اذن لجعلنا منه مزارا ومتحفا للدلالة على شراسة بني البشر في القمع والردع .. والعقاب ..

كنت اتمنى ولكن .. كيف يحق لي - انا من لبنان - ان اتمنى هذا التمني الغاشم ؟ الا يرى العالم الان ان لبنان بطوله وعرضه اصبح يصلح ان يسمى سجن قلعة ، لا للعقاب والتعذيب النفسي والجسدي فحسب ، بل ... للدلالة كيف ان بلد الحضارة والاشعاع والنور استحال الى بلد البربرية والسلب والنهب والذبح على الهوية .

تأملات في السجن .. والعقاب

كنت احيانا ، وانا اجتر مرائر السجن اخلو الى ذاتي الداخلية ، الى وجداني وعقلي ، خلوات تأملية كتلك الخلوات التي يقيمها الرهبان في اديارهم ، للصلاة والعبادة ومراجعة النفس .

كنت اسأل نفسي : لماذا نحن في السجن ؟ ما هو الذنب الذي ارتكبهنا بحق فرنسا ، بحق القيم التي ثارت فرنسا لانتصارها على ارضها ، وفي الغرب والشرق ! اذا كنا نبشر بوحدة بلادنا وبنهوضها ، ونطعن في معاهدة سايكس - بيكو ووعد بلفور ، ونسعى لتجديد الحياة في شعبنا ، في نظرتة الى الحياة والكون والفن .. اذا كنا مثاليين عقائديين الى هذا الحد ، هل نستحق العقاب من فرنسا ام نستحق الاوسمة ؟ !! .

الامة التي اعلنت حقوق الانسان ، في الحرية والاخاء والمساواة ، هذه الامة ، تريد حقوق الانسان سيدة في شعبها وعلى ارضها ، اما خارج حدودها ، فلا حقوق الا لانسانها ولشعبها ولجيشها وممثليها ؟
ما هذه المغالطات ؟

يحارب الغرب باسم العالم الحر ، المحور الفاشي - النازي - الياباني ، فبأي حق اذا كانت حربه حرب الحرية والاحرار ، يزع بالقوميين المثاليين في غياهب السجون ؟ .. هذه التأملات ، لو قلتها يومذاك للمحققين والقضاة لظنوا انها هذيان .. او نقيق ضفادع .

ولكن ، لانسان السبعينات ، في الربيع الاخير من القرن العشرين ، الا تقال ، الا تفهم ؟؟ الا تصلح دفاعا .. عن الابرياء ؟

وأغوص في بحر التأملات ، في اوقيانوس التأملات لان كلمة بحر لا تكفي لاسترسال خيال السجين الذي غرق في زنزانة طولها متر وسبعون وعرضها متر .. وهي نعمة من نعم الخالق بالنسبة للسنتيمترات التي يشغلها السجين الواحد في القاوش المجاور .
اغوص اذن في بحر التأملات .

انا سجين سياسي ، انا الطامح لتحرير شعبي ورقيه وتقدمه . هل سرقت . هل نهبت هل قتلت . هل ارتكبت ما يخرق القانون او يعاقب عليه القانون ؟ ..

اني اضحي بزوجتي واولادي واهلي ، اضحي بمهنتي وصحتي ، وقد ادفع حياتي الى خشبة الاعدام ، راضيا مطمئنا ، في سبيل مثلي الاعلى ، لست اذن شريرا ، لست مرتكبا . لست آثما ولا ظالما ولا مخريا .

هب اني اعمل لطرده فرنسا من سوريا وبريطانيا من فلسطين ، الست صاحب ارضي وسيد كل شبر من ترابها المقدس ؟

ما شأن فرنسا في ترابي وبلادي ووطني وشعبي ؟ بأي حق يحكم على ابناء وطني باسم الشعب الفرنسي في المحاكم العسكرية الفرنسية على ارض لبنان والشام ؟ وفوق هذا ،

اذا كان لفرنسا – لانها دولة القوة والسلطان – ان تسن الشرائع والقوانين لشعبي وبلادي ، فكيف تساوي بين السجين العادي ، السارق او القاتل او السالب او المعتدي على اعراض الناس ، وبين السجين السياسي ، المناضل في سبيل عقيدته ، عقيدة التحرير والتقدم ؟

امن العدل ، وانا في هذه الزنزانة الضيقة – شكراً للمولى انني لست في القاوش – وعلى بعد سنتيمترات متهمون بسرقة سلاح الجيش ، او فارون من الجندية ، او مرتشون او راشون ، او مرتكبو جرائم شائنة معيبة ؟

هل يجوز ، في عالم الحضارة وسيادة العلم ، ان يتساوى المثالي بانباء الاثم والرذيلة اعداء المجتمع والانسان والله !؟

هنالك قاض نكي عالم اسمه فريد الزغبى ، ومحام لامع اسمه رولان ابو شديد ، الاول كلف بوضع تصميم لسجن عصري وقانون جديد للسجون . والثاني دخل السجن بالاتفاق مع النيابة العامة في بيروت لدرس احوال السجناء واحوال السجن ..

الاول اسهم في دفع فكرة بناء سجن رومية الحديث الذي يتسع فقط لسبعماية سجين . والثاني اسهم في وضع كتاب - كتبت انا مقدمته - عن احوال السجن والسجناء - من قرأه عرف المعاناة الرهيبة التي عاينها كسجناء سياسيين وعائناها من قبلنا معلمنا وزعيمنا سعادته في سجن الرمل - (حظه كبير انه لم يزر سجن القلعة ، اذن لاستشهد اختناقا لا اغتالا باسم القانون ..)

لقد كتبت في جريدة « كل شيء » سنة 1949 انا عائد من السجن ، صرخة في وجه المسؤولين ليهدموا سجون لبنان العهد حجرية ، وبينوا في لبنان سجننا عصريا ، على غرار ما يجري في عالم الحضارة .

لقد زرت سجننا في اليابان مبني سنة 1909 .. وجدت في كل غرفة طاولة وكرسیا وكتبا . وجدت في السجن ملعباً . وجدت في السجن مصنعاً . وجدت مسرحاً تقدم فيه الفرق الفنية تمثيلات اسبوعيا وفي حال التعذر افلاما سينمائية تتناسب مع نفسية السجناء .

رأيتهم في اليابان يطعمون السجناء نفس الماكل ويسقونهم نفس الشراب الذي يتناوله الحراس والموظفون الحكوميون . رأيت ذلك بعيني . ان حضارة الانسان هي في سجونها لا في قصوره وداراته ومسارحه فقط !

لقد أرسلت صيحات متواليات من على المنابر ، قابلت مسؤولين كبارا ، وكتبت في امهات الصحف مطالبا بالسجن العصري في لبنان ، وبقانون للسجين السياسي في لبنان ..

ما اصغى الي احد . هنالك جمعيات وكهنة ومشايخ من نوي الضمائر الخيرة تتعاون لتخفيف متاعب السجناء وتقديم مساعدات لهم تذكر فتشكر . ولكنها مراهم لا علاج . انها صدقات او مشاعر او عواطف او تقدمات . انها ليست ما ارجوه - ما اتمناه - ما اخطط له من نظرة جديدة الى السجن والعقاب .

لا علاج للسجون في لبنان إلا بهدمها - وقد تهدم اكثرها - وتشبيد سجون على نمط عصري . واستئنان قوانين تحترم فيها حقوق الانسان السجين لان السجين لا يزال انسانا واذا اجرم لم يصبح بعد حيوانا .

ثم لا يجوز - لا من باب الامتياز ولا من باب الترف - ان يتساوى في السجن

العصري ، رجل الرذيلة مع رجل الفضيلة . السجين السياسي يجب ان يكون له قانون خاص يرعاه . اخذاً بعين الاعتبار مثاليته وروح التضحية والوعي الذي دفعه الى الايمان بالقضية التي دفعته الى الغياهب ، الى التمرد الى الثورة حتى على القانون .
ثم أتأمل .. واغوص اعمق فأعمق .. العقاب . ما هو العقاب ؟ القانون ما هو القانون ؟

افهم الفلسفة التي انطلق منها المشرعون . افهم تطور الاجتماع البشري وبلوغه مرتبة الدولة القومية الديمقراطية . افهم حكم الشعب للشعب . هذه الاكثوية « العصرية » . ولكن أليس من حقي التساؤل او التسال :

الذي ارتكب جريمة ، لماذا ارتكبها ؟ هل ارتكبها باختياره ، هكذا لانه قتل كمن ذهب الى عرس او دعي الى مأدبة ، او احتسى كأس ماء وهو عطشان ليتبرد ؟

ليس هنا مجال بحث هذا الموضوع في تشعباته وتفصيله ، واصوله وفصله ، ولكن الا يجوز ان نطرح مع علماء بوسطن المسألة المسماة بالديترمينيسم **Determinisme** الحتمية ؟ طرح علماء بوسطن الحتمية لينفوا حرية الانسان في ارتكاب الجريمة . ان بعض الناس يولدون مجرمين ، ويرتكبون حكماً متى توافرت الظروف النفسية ، جريمة اعدوا له منذ ولادتهم . انها الحتمية ..

ان علماء بوسطن يتوخون من تجاربهم ، وقد اجرؤا هذه التجارب في مطالع الستينات ، اثبات كون المجرم مسوقاً لارتكاب جريمته بغريزته بتكوينه البيولوجي - النفسي تدفع به حتماً الى ارتكابها ، لانه بنشأته وبيئته وتربيته معد ، مهياً لارتكابها .

كل الجرائم مبنية على حرية اختيار الانسان وسلوكه .. فاذا صحت تجارب علماء بوسطن . وكان الانسان في بيئة معينة ، من والدين معينين . مهياً منذ ولادته لارتكاب جريمة معينة ، اين تكون المسؤولية ، اين تكون مسؤوليته ؟

فاذا انتفت عن الانسان المسؤولية بطل جواز انزال العقاب باي مجرم ، لا عقاب بلا مسؤولية ، حتمية ارتكاب الجريمة تفرض حتمية الغاء المسؤولية وبالتالي العقوبة .

هذا الانسان المريض . الذي دفع به المجتمع اللامبالي الظالم ، المستبد القهار الى ارتكاب جريمته كيف يجوز ان يعاقب باسم المجتمع المسؤول عنه حكماً ؟

فاذا كانت التجارب في بوسطن تقوم على مبدأ اللأخيار والحتمية ، هل يجوز ان

يعامل المجرمون المحكومون وكأنهم بطلوا ان يكونوا بشرا ؟ .. اليس من الانسانية ، ان يعتبروا مرضى ، سقطوا في الشر في ساعة تخل كما يقول الناس ، وان يكون السجن مستشفى لهم لا جحيما .

كم من انسان دخل السجن لشهر ، فتعلم في السجن « فن » ارتكاب الجرائم من سجناء مجرمين خبراء علموه التفنن في السرقة او اللواط او انتهاك الاعراض والارزاق . فهل يكون هذا الانسان ، هو مرتكب الجرائم ما بعد السجن ، ام المجتمع الذي باسمه ارسل الى السجن ليشفى فاصيب بسرطان الجريمة .

قد يكون سجن القلعة مفيدا ، لانه دفع بي الى كتابة هذه التأملات ، قد يمر بها الكثيرون يهزون رؤوسهم استخفافا . اما الذين اکتوتوا بجرمه فانهم سيعوبون الى التأمل من جديد . واني انتظر صيحات وصراخا من كل حذب وصوب ، ليصبح لنا في لبنان سجن عصري ، يحترم فيه الانسان ، فيعالج ويساعد ويعاون ، لا يركل ولا يرفس ويشتم . فيحس ان الحيوان افضل منه ، وينمو في صدره الحقد على سجنائه ومجتمعهم ، فيعود الى التكرار على افظع واشنع !

ثم ختاماً لهذه التأملات ، ويعد الذي حل بعيالنا ونحن في السجن او ملاحقون بالبراري والكهوف ، هل يجوز لي ان اسأل : ما ننب زوجة السجن واطفاله ليعاقبوا معه ؟ اذا كان هو معيلهم الاوحد ووقع في الخطيئة ، ما ننبهم هم ؟

الا تقضي حكمة الفقهاء والمنظرين والقائلين بالتضامن الاجتماعي ان يجدوا حلا لمعضلات العائلة البريئة التي ارتكب ربهها جريمة فكان كل فرد منها ارتكبها ؟

ان السجن العصري يستتبع وضع تشريع عصري اخر تأخذ به الدولة على عاتقها عائلات السجناء الذين لا معيل لهم الا والدهم السجن !

السؤال .. البكيت

كيف يمكن ان يعيش الانسان ، في ابشع مكان واضيقه ومقهورا مستعبدا مقيدا ، لا يملك لا الشمس ولا الهواء ولا الماء ، لا يملك الا ان يطيع ويخضع ، كيف يمكن ان يعيش بلا حبيبة ولا حب ، وبلا شوق الى فلذات كبده ، الى اجزاء روحه ؟

اجل ، في اضيق وابشع مكان في سجن القلعة ، كان خيالي يستحضر حبيتي وولدي صباح وضحى ، في اليقظة والحلم ، في الوعي واللاوعي ، احبائي كانوا طيوفاً تمسح عن جبيني هموم الانفراد ووحشته .

ماذا يملكك يا سجن القلعة ، لو لم يكن لنا خيال ، يجتذب الاحبة الى زناقتنا ؟

ماذا يملكك يا سجن القلعة لولا الاحبة ولولا الخيال ولولا ان الانسان عجيبة يعجنها القدر على صورته ومثاله ، تلين متى يلين ، وتيبس مع بياسه !

ولكن الحلم ، الخيال ، الشوق ، صار حقيقة . تلك التي تعلمت منها الحب والحنان موجودة الان وبسحر ساحر على شرفة المنزل المطل على السجن، في بيت الصديق الشيخ شكيب عبد الملك ! ..

كنا نسير صفوفنا داخل صفوف في ساحة السجن ، لتستوعبنا الساحة ، في « طلعة » بعد الظهر . كان ذلك في اواخر ايلول 1939 عرفت حبيتي بانني في الساحة ، فسارعت الى استراق نظره مني لان مقابلتنا نحن قادة الحزب في الانفراد كانت محظورة . لا مواجهة قبل انتهاء التحقيق هكذا قرر قاضي التحقيق .

كنت اسير الى جانب السيد نبيه العظمة ، احد اركان الحكم الوطني في الشام . فاذا بالانظار - الانظار كلها - تتجه الى فوق ، فاتجهت انظاري الى فوق .

يا للحبيبة على الشرفة ! اين صوت فيروز يغني ذلك المشهد الاخاذ؟ سجين وراء الحديد ، وراء الاسوار ، تكتشفه حبيبته وتطل عليه من فوق الاسوار والحديد ، فاذا

العين في العين ، واذا الفرحة والدهشة .. واذا السجناء والحراس .. والسجن عيون على حبيتي وهي تناجيني شاكية باكية ، وانا جيها لاقول لها : احبك من وراء الحديد والاسوار .. احبك اكثر .. احبك الان كما احببتك بالامس كما ساحبك الى ان يتعب الحب .. ويتوارى في ظلام الاجيال .. وراء حديد واسوار ليست من صنع الانسان . نسير في الصف ، فنبلغ نقطة لا ارى فيها الحبيبة . يغيب وجهها من جديد خلف الاسوار .. اتخلى عن رفيقي السيد نبيه العظمة ، لاعدو الى نقطة التلاقي .. لحظات والسجن انتبه ، مديرا وسجانا وسجناء . انتهت الطلعة .. ودخلنا الى كهوفنا المكلسة وبدأ التحقيق في كيف خرقت زوجة عبد الله قبرصي القوانين والاسوار والحديد ! . التحقيق في الخارج مع اهل الدار ورب الدار مفوض شرطة . والتحقيق في الداخل مع السجن الذي لا يرى نور الشمس ، فمع اي رسول يرسل اخباره للحبيبة ، ويتواعدان ..

الاجيدان مارتز يحضر على عجل ، بجد وغضب يقول لي : « انا لا اعض الا صامتا ، اما اذا عويت فاستعريض عن العضة بالعواء ، انت ترى اني اعوي . كيف عرفت زوجتك انك هنا ، واثت في ساعة « الطلعة » بالضبط ؟ اهي Debrouillarde (شاطرة) الى هذا الحد ؟ »

قلت له : « ان زوجتي فطنة . والجيران قد يكونون من اصدقائها . اسألوها قبل ان تسألوني . انها لا تكذب .

ستقول لكم الحقيقة . ليس في الامر جريمة الخيانة العظمى . ليس كذلك يا حضرة الاجيدان ؟

ابتسم ابتسامة صفراء ومضى الى المكتب . ولكنه لم يعض بل عوى ! .. في اليوم التالي ، كان العمال يعملون على اعلاء الاسوار لكي تصد عن الابصار مطل الشرفة .. عوقبت الاسوار واعفيت انا وجورجيت وآل عبد الملك الاكارم .

لقد تجرأت زوجة عبد الله قبرصي واطلت عن البلكون ولحت زوجها لحظات واطمأنت ورحلت ؟ فأين ، اين الجريمة ؟ ..

ثم ، ما نذب الشيخ شكيب عبد الملك لترسلوا له الشرطة ولتزعجوه بالسؤال والجواب . ماذا جرى يا سادة ؟ ..

هذه حادثة ، او حدث في تاريخ السجن ، يسمون هذا التلاقي الرومسي حديثا . انه

لحظة تمرد على كل شيء . تمرد من اجل الحبيب . ايها الحب كم ثمن الحياة بدونك
بخس ورخيص ؟ الحرية نفسها ما قيمتها اذا لم تزين جيدها بلالك المساسية !
واليكم حادثة ثانية لا تقل طرافة عن الاولى ..

واستطاعت زوجتي ان تحصل على اذن بمواجهتي . لكنها تجهل قوانين السجن ،
فالاذن بالمواجهة موقع من المدعي العام العسكري لا من قاضي التحقيق . الاذن غير
قانوني . مر علي المسؤول في مكتب السجن فما انتبه . دخلت زوجتي يرافقتها ولدي
البكر صباح الى غرفة المواجهة . وانتظرت قدومي .

استدعيت من الزنزانة اللعينة ، فهرولت ، يكاد يسبقني خفقان قلبي ، عرفت ان
القادمة هي .. لم تكتف بالطلاة عن الشرفة .. لقد حاولت ان تراني ، ان تعرف اين انا
وماذا حل بي . قيل لها اننا مغمورون بالرمل حتى الرأس ، واننا نموت ببطء في هذه
الوضعية ! .. هكذا تضخم وتزور الاخبار ايام الحرب . والناس تصدق كل
الشائعات مهما كانت غريبة او عجيبة !

وصلت الى ساحة السجن ، اعدوا لاهثا . واذا بالسرجان شف كلوزا يعترضني .
الاذن غير قانوني . لا مقابلة . عد من حيث اتيت . هو طويل القامة عملاق وانا قصير
القامة عكس العملاق تماما .. وقف بوجهي فيما كان ولدي صباح ولم يبلغ الثالثة من
عمره يفلت من يد امه ويركض نحوي صارخا : بابا بابا .

من اين اتت القوة للسجين المرهق ، المعذب ، الجائع ، كيف اصبحت انا العملاق
والسرجان شيف كلوزا الضعيف القصير عكس العملاق تماما ؟

دفعت السرجان بيدي ، وبكل ما تبقى لي من عزم ، وسارعت الى صباح ، واخذته
بين ذراعي ورفعته ، ورحت اقبله ويقبلني وهو يصيح : بابا . بابا . انا اشتقتك ! ..
اشاح كلوزا بناظريه وراح يمسح دموعه ! ان جنديا سنغاليا واخر من العلويين كانا كل
في موقعه للحراسة ادارا وجههما صوب الحائط وترغرغت عيناهما بالدموع . ذلك
المشهد كان بإمكانه ان ينزل الدموع من عيون الصخور ! ..

اما حبيبتني ، فحزينة وكئيبة وصاخبة معا ، كيف تفلت الفرصة من يديها ، هي
التي غامرت وحدها - من بين القوميات - لتكسر شوكة القانون الرهيبة في زمن
الحرب ! ..

قلت لها فيما كان يحاول كلوزا كم فمي : انهبي الى مكتب الاستاذ شارا، خوري .

ليحضر الي لانظم له وكالة . خابري النقابة .. (دائما كنت اتسلح بنقابة المحامين ،
ولكن انسى اننا في الايام السوداء)

وعاد السرجان شيفكلوزا يبحث عن قميصي اذا كان صباح دس لي ورقة ما في
لحظات عناقنا !
يا لسماجة السجان .. ويلاهتم احيانا !

ويا للقلب البشري الذي فيه من القوة ما في الايمان الذي يزلزل الجبال ! ..
■ الرسالة .. البلية .

في سجن القلعة كان عدنا يتكاثر يوما بعد يوم . وكان السجن يكتظ من جهة ثانية
بالمحالين امام القضاء العسكري . في زمن الحرب الشبهة تصبح دليلا . كل قواعد
الحقوق تتهاوى امام المدافع .. وسلامة الجيوش والامن العام . المناضلون في سبيل
الاستقلال يصبحون متآمرين على فرنسا والبلدان الواقعة تحت انتدابها !! ..

في هذا السجن ، حيث كنا ننتظر ، فوق سمومه وادرائه واوساخه ورهبتة ، التعذيب
والتحقير وسوء المعاملة من قبل الحراس والمحققين بدا لنا وكأننا نفيق من حلم مزعج .
هذا الاديديان مارتز - الخشن المظهر ، القاسي الملامح - انبعث انسانا هادئا ،
صارما في القول مرنا بالفعل . فما طلبت منه خدمة الا وقدمها ، ولا سئل حاجة الا
ولباها اذا كانت في حدود الامكان والقانون . وهؤلاء الحراس من دارسو Darrsault
الى ابو علي Bernard الى سيمونا Simonet الى ريغال Pegale واندره Andre صاروا
لنا اصدقاء . كنا ننتظرهم معذبين فاذا هم مؤاسون . يأتوننا بالصحف ، يحملون
لنا في جيوبهم الفاكهة ، يقبلون علينا وكأننا طلاب جامعة واحدة ، لا حراس
ومحرسون ، العلاقة معهم دائما علاقة اخصام واضداد والشعور الدائم عدم الثقة
المتبادل بين الأمر والمأمور .

على المقلب الغربي من البحر المتوسط تعيش شعوب طيبة لولا ان افسدها حب
التوسع واستغلال موارد العالم وخيراته تحت ستار الحماية والاستعمار . لقد اصبحت
شعوبها مستعمرة بعدما كانت شعوبها هادية في ما حققت من منجزات حضارية وثورات
فكرية اجتماعية وسياسية واقتصادية .

اجل هؤلاء العرفاء من طاقم سجن القلعة Prison Prevotale فانهم ما يزالون
في ذاكرتنا وجوها انيسة ، والسنة مهذبة ، وقلوبنا تفيض بالمحبة والاتسانية ، واحد

يجب ان نسجل له صفاقته وصرامته وحقده واسمه غري Gris فلنذكر صاحب الفضل بفضله ، والحاقد الشرير بحقده وشره .

المهم ان التحقيق بدا بصغار الموقوفين . الموقوفون الذين لامسؤوليات لهم ، الذين ليسوا في الجهاز السياسي او الاداري ، سيقوا الى المحقق العسكري الكومندان فيتى Vitu اثنين اثنين بعد الاستجواب كانوا يحولونهم الى سجن الرمل ، لكي لا يتصلوا بنا ، فنعرف منهم التهم والاستئلة والاجوبة .

وصل الدور الى الرفيق الياس قدسيه ، رفيقي في الزنزانة المشؤومة . كنت قد امضيت واياه ما يقارب الثلاثة اسابيع . يحمل واحدنا الاخر بروح الاخوة . كنت عزاءه وكان عزائي . لولاه لكانت غرفتي تضيق بي كما اضيق انا بها . بل لولاه لما اكلت ولا شريت . كان يتولى كل مستلزمات راحتي ، الى ان اسميناه « كناس صاحب الجلالة » .. الرفقاء القوميون كانوا يكونون للامناء ، احتراما واجلالا كبيرين ، لانهم من الصحابة ، ولانهم الامناء على النهضة . سنة 1953 لدن مررت بالاردين لعمل مهني عقدت اجتماعا للمديرية في عمان . كان احد الرفقاء يحجب وجهي عن الاخر بطريقة جلوسه فانتهره الرفيق قائلا : اجلس مستقيما ، لنرى وجه الامين وتبرك بمرآه ..

اذن لم يكن غريبا ان يحطيني الرفيق الياس بكل الاحترام ، وان يضحى من اجلي براحته . فلما طلب الي التحقيق احسست كائني سجتت من جديد ، فقد اصبحت وحدي ، ازرع الزنزانة ، جيئة ونهايا ، مرددا اسماء اولادي وزوجتي .. ومستعرضا الذكريات والايام الخوالي ..

كان بين المحامين الذين ترددت عائلتنا عليهم ، ليدافعوا ويرافعوا عنا ، محاميان بارزان : الكومندان كبودجال Capdegelle والاستاذ اموري Amory الاول فرنسي يرافع في المحكمة العسكرية وامام القضاء المختلط ، اما الثاني فرنسي الجنسية الا انه يتقن العربية .

وقع اختيار ام الياس قدسيه على الاستاذ اموري وكيلا عن وحيدها الياس . ووقع اختيار زوجتي ايضا عليه . يبدو انه كان خدوما ومتهاوداً .

فلما أنهى الرفيق الياس قدسيه استجوابه لدى قاضي التحقيق ، تراءى له ان يكتب لي كتابا يخبرني فيه بما جرى . وسلم الرسالة الى الاستاذ اموري الذي كان يأتي لزيارتي اسبوعيا . استدعيت الى المقابلة وبعدما ان اطلعني على ما يحدث خارج القضبان الحديدية والاسوار ، سلمني كتاب الياس قدسيه ، فقلت له : ماذا يمكن ان

يكتب لي الرفيق الياس ؟ دعني اقرأ الكتاب وامرزه . اجابني : انا مستعجل ، دسه في
حذائك ، لا يمكن ان يفتشوك ، انت ، بعد كل شيء ، محام .
قبلت الاقتراح على مضض وخلعت حذائي ودستت فيه الكتاب .
الآن يتراءى لي ، وانا استعرض هذه الواقعة ، ان احدائي الخارج شاهمني بعملية
الاخفاء فنقل الامر الى الحارس وكان اسمه فرانتشي Fratacci من كورسيكا .
دخلت مسرورا اني ساقراً رسالة الرفيق الياس السارة ، غير دار بما تحبئه
الاقدار .

استوقفني فرانتشي : تسمح لي ان افتشك قال لي .

قلت : سمعا وطاعة .

ظننت ان التفتيش مثل كل مرة شكلي . الا ان السرجان وصل الى قدمي
وطلب ان اخلع حذائي ، فقلت له هل تصل الى حذائي ، ما الذي حدث لك ؟

قال : اسمح لي ان اقوم بواجباتي .

وخلعت الحذاء الايمن البريء .

فقال لي : اخلع الاخر .

قلت : واذا كان هناك قطعة ورق اضعها لانه كبير على قدمي ، ماذا تفعل ؟

اجاب : نتحقق من الامر .

وعثر على الورقة ، صغيرة ، ممعوسة ، فكأني به وجد كنزا .. اما انا
فكأنتني خسرت كل الكنوز التي ادخرت خلال شهر .. فتقّة أمر السجن واصدقائي
الحراس وجميع العاملين ، ستمتصها تلك الوريقة – البلية . ورحت انهال على
الياس قدسية واموري المحامي بالمسبات والشتائم .. غيايبا .

اسوأ نهار وليل قضيتهما في السجن ، كانا في ذلك اليوم المشؤوم من تشرين
الاول 1939 (او اوسطه) . كنت منقبض الصدر . مشتت الخواطر ، نبيح
الجناحين . لقد اغتال اموري واليياس قدسيه المكانية التي بنيتها لنفسي ولرفقائي مع
ادارة سجن القلعة .. اغتالها بسداجة وخفة لا مثيل لهما ..

جاء الحارس دارسو مساء فرأني مشوشا . معصور النفس ، يأسا فقال

لي : ماذا في الرسالة ؟

قلت : ماذا يمكن ان يكتب لي الياس قدسية ؟ اذا كان هناك اسرار في الحزب ، فالمفروض ان اعرفها انا لا الياس قدسية ، الرسالة لا يمكن ان تحوي اي امر ذي شأن .

قال : حتى ولو حدث ، لا يجوز ان تلومك . نحن ننتهمك . ومن حقه بكل الوسائل ان تبريء نفسك : Vous avez le droit de vous disculper

وكان التحقيق معي من قبل مدير السجن مباشرة .

قال : لقد عرفنا كل شيء - فانصحك بان تقول لي كل شيء .

قلت : ان الرسالة من رفيقي في الغرفة سابقا ، وقد بعث لي بها دون طلب مني ، بل تطفلا منه واستبدادا ، مع احد السجناء القادمين من سجن الرمل .

قال : واموري ، المحامي اموري !

قلت : لم ينقل لي شيئا .

قال : تريد ان تبرئة .

قلت : هذه هي الحقيقة .

الصراع داخل الزنزانة

وكانت الحقيقة ان اموري عرف بانكشاف الرسالة - التي لا نعرف مضمونها حتى الان - فراح يستعطف صديقة لقاضي التحقيق الكومندان فيتني لكي لا يسيء اليه بنقل الحادثة الى نقابة المحامين . فوقع في خطأ أكبر .

ويبدو ان كل ذلك تم بسرعة خاطفة ، فخلال اربع وعشرين ساعة كان اموري قد سقط سقوطا مريعا . محام يهرب رسائل بين السجناء في زمن الحرب ! ..

اطلعتني مدير السجن على الوقائع ، وهنأني لمحاولتي انقاذ رأس زميلي المحامي اموري ، فأضطرت الى رواية القصة كما وقعت دون زيادة ولا نقصان .

كان العقاب رهيبا . الانفراد لمدة شهر . منع المقابلات خلالها وكل طعام يأتي من الخارج ، وحظر الاتصال بأي من السجناء او السجنان ، اما المحامي المسكين اموري فشطب اسمه من سجل المحامين وكاد قاضي التحقيق الكومندان فيتني ان يحيله الى المحاكمة !

وهكذا في سجن يغص بالسجناء امرت بان اعزل لابقى وحدي في زنزانتي الصغيرة . لا يحق لاحد ان يكلمني ! .. لا يحق لي ان اشاهد مخلوقا ..

لم يكفني السجن القاتل ، كان علي ان اتلقى رصاصة الرحمة ..

لم تكفني الزنزانة الواحدة ، حتى بليت بزنانة ، في قلب الزنزانة .

ولكن يعتقد الانسان انه يزرع بسهولة امام المحنة . وترتعد فرائصه خوفا من وقوعها ، ولما تقع تضربه فيصاب بالدوار .. ولكنه لا يقع . يحمل الانسان من الآلام جبالا ولا يركع ، وقد حملنا الجبال وما ركعنا ..

الايام الاولى ، من الزنزانة ، والانقطاع عن عالم السجن كله ، وعن النور والشمس والرفقاء كادت ان تضغط علي حتى الانهيار ولكنني صمدت . الايمان وحده ينجد الانسان في ساعات الضياع . الايمان بالنفس والقضية . الايمان بالخلاص . الامل ان يبقى الدرع الواقي من الهبوط الى الحضيض . والصمود يظل زاد المناضلين .

وجاء من يحقق الامل .

فرنسي من الجنوب، من سفوح جبال الپيرانا Pyrennees على حدود اسبانيا اسمه راغال Pégale فتح باب الزنزانة فجأة .. امر كل الباقيين باقفال ابوابهم . وطلب الي الخروج . توهمت ان الرجل يريد بي شرا . فاذا به يبتسم لي قائلاً : « منحتك خمس دقائق حرية على مسؤوليتي . اخرج بسرعة ولا تلتفت يمينا ولا شمالا . اركض . اركض كالجنون . ان الانفراد يجمد دمك في عروقك . يعطل دورة الحياة في جسدك . اركض اركض . كالجنون . تنشق هواء الحرية ملء رئتيك وقل في المستقبل : ان السرجان ريغال Pégale منحني خمس دقائق حرية . انكر اني فرنسي ومن الجنوب الفرنسي ! وها انا في نكرياتي ذاكر .

لم اكن ادخن يومذاك . والا لكان اعطاني سيجارة عرضها علي فعلا فاعتذرت .. السيجارة في السجن تقدم للسجين ، مخالفة للقانون من جهة ، ودليل كرم اصيل في زمن الحرب . وانطلقت كما ينطلق العصفور من القفص ، اصفق بجناحي المهيضين ، واعدو كالجنون فعلا في باحة السجن الداخلية .. لو رأني اي انسان غير السجان ريغال لاقتاندي لتوه الى العصفورية ! ..

الخمس دقائق صارت عشرا ، ثم خمس عشرة . والسرجان ريغال لا يقيس الزمن ، كان مثلاً يترنح من خمريتين : خمرة فرنسا ، وخمرة اهداء دقائق حرية الى اسير ! لم البث ان عدت الى مجالسة الظلمة والوحشة القاتلة . وانا اصلي : ارسل لي يارب « ريغالا » اخر ، فدقائق الركض والحرية لا تتمن . انها هدية آلهية للانسان الساقط عن عرش الحرية في ظلمات القلعة . بلا انيس او جليس حتى ولو كان حبيسا . في مثل تلك البلية ، ليس من شر يضحك الا ان يرفع الانسان عقيرته بالغناء ، رحت اغني بصوتي الكئيب . ولكن متأنيا ، كأنما اغني بون ان أغني . اغني من قلبي ولي وحدي : ..

انت عنوان الكرامة !

انت سوريا بلادي

رسالة وقصيدة

لم تدم المحنة كما بدأت . لقد ماشت طبيعة الحياة . بدأت كبيرة ثم راحت تميم . تتبخر تصغر .. وتنبو .

بعد اسبوع تسلل الرفقاء الى باب زنزانتني وبالاتفاق مع الحارس شممت رائحة بعض الزاد وبعض الفاكهة ..

وبعد اسبوعين صدر العفو عن « جريمتي الكبرى » بعد ان كانت حديث السجن .. اما زوجتي وولداي فظلا بعيدين شهرا كاملا بلا مقابلة ولا زاد يحملون .

ولما انتهى دوران الرحى على صدري ، كان الجميع قد نسوا انني ارتكبت تلك « الجريمة الكبرى » كانما كنت اخبىء مدفعا او قنبلة او حشيشة او كوكايين في حذائي . رسالة من رفيق الى رفيقة .. ليس فيها اكثر من كلمات الود والمحبة ، فلماذا كل الغضب ينفجر بوجهي .. !

وعادت الحياة الى طبيعتها .. يألف الانسان قيده كما يألف الحيوان رسنه .. حتى السجن يمكن ان يعتاده الانسان وان ينشئ معه رابطة مودة . او على الاقل رابطة تفاهم ، لولا قدرتنا على التكيف ما كنا من لحم ودم ولا كان باستطاعتنا احتمال تقلبات الطقس والزمن والاقدار !

والأحلى من كل شيء ، ان رفيقي في الغرفة اصبح الامين نعمة ثابت مجمع الرئاسة كما اسميته في حلقة سابقة . لقد نقلوه الى زنانتني او نقلوني الى زنانتته . ليس بين الذين خسرناهم الطف واكثر تهديبا وأناقة وكرما من نعمة ثابت . طلق اللسان بالانكليزية خاصة . بلوماسي في دمه ، يتقن فن الكر والفر ، واللف والدوران ، كما يتقن المواجهة والتصدي . كان مؤمنا ايمانا مطلقا . وهو ابن الغنى والقصور . تحمل اوباء واوساخ سجن القلعة كما تحملها اخر رفيق قادم من اقرب بيت في افقر مزرعة .

هذا الرفيق الذي كان بيني وبينه صداقة الى جانب الرفقة . كان بالفعل ، مدعاة اعجابي . بعد سقوطه سنة 1947 وطرده امنتم ان الشيطان كان حقا ملاكا او منافسا للعرزة الالهية (سنرى قصته بتفاصيلها في حلقة قادمة) .

كان نعمة مغرما وكان من حقه الغرام . حبيبته كانت م . حلبي . من الفيحاء . وكان يحلم بكثير من التحفظ بلقائهما يوما وبالزواج منها . وفي ذلك الانفراد روى لي كيف ان سعاده مغرم هو نفسه بفتاة حلوة . وانه يحلم قبل سفره بالزواج منها ، ولكن حلمه لم يتحقق لانها سافرت الى العراق خوفا من ان تتزوج احد ابطال تاريخنا القومي لانها لم تكن بسنها الطرية تدرك حقيقة قيمته كقائد وكأستاذ متفوق ولم يكن يدرك ذلك طبعا اهلها ونووها .

ونعمة رجل تقيف . واسع الاطلاع . وابن بيت علم ومعرفة . لذلك كان وجوده معي ، يغنيني عن مكتبة ، خاصة في كل ما له علاقة بالتاريخ ، والادب الانكليزي ، والسياسة .

ولم يكن نعمة كفخري المعلوف منظرا او مبدعا في فهم العقيدة وفلسفة سعادة الاجتماعية بقدر ما كان مؤمنا بسعادة وبيان القضية القومية قائمة على العلم . وانها

بالفعل في مبادئها الاساسية والاصلاحية تتضمن حلولاً جذرية لكل معضلات امتنا
والعالم العربي اجمع .

كان نعمة عندما دخل الحزب يتكلم العربية كما يتكلمها احد الاميركان او الانكليز او
الاجانب من اي قطر كانوا : لا يتقنها لا لفظاً صرفاً ولا نحواً ولا عبارات مركبة . الا انه
ثابر وتدريب وتعلم . ما ان انكشف الحزب حتى كان يكتبها ويقرؤها دون لكنة ولا
اجهاد . ان حزيننا ليس مدرسة علم اجتماع وتاريخ واقتصاد وجغرافيا ومدرسة فكرية
مناقبية بوجه عام . انه ايضا مدرسة للغة العربية .

عندما يقيم سجينان في زنزانة واحدة يسهل التمرد على الاختناق والاسر . تنقضي
الساعات في ابحاث واحاديث مفيدة . الروائح الكريهة والاساخ والابوئة تموت عند
اقدام نكتة طريفة او قصة طريفة ..

الا ان القلق والهـم يخـوان تحت الرماد .. في اية لحظة يمكن ان يفيقا جمرًا محرقا
او نارًا اكلة . ما اسهل ان تكون في السجن ضاحكا . مرتاح الخاطر ، الى حديث او
رواية ، فتمر اشباح في زنزانتك ، صامته ، تلقي عليك بجهنم ، فتختنق الضحكة في
حلقك ! او تستحيل الراحة الى كابوس مقيم .

كان وجود نعمة ثابت في زنزانتني ولو لمدة قصيرة نعمة بكل معنى الكلمة ، الا انه لا
يغني عن الحرية ولا عن الشمس ولا عن الحبيبة وفلذات الكبد !

ما ان سمح لنا بتلقي رسائل من الخارج - تمرطبا على المراقبة حتى رحت اترقب
رسالة من جورجيت ، تلك التي اقتحمت ابواب المحكمة العسكرية ، ثم ابواب
السجن ، ثم الشرفة المطلة عليه ، لا بد ان تكتب . الحب اقوى واعظم المهمين .

وجاءت الرسالة ، ارتعش وانا اذكرها ، الكلمات امام عيني لا تقرأ لان دموعها
انهمرت على اسطرها . فمحت الكلمات لتبقى الدموع . ابلغ رسالة شوق وارق كتاب
غرام . لو ان حبيبتني تحسن التعبير عن مشاعرها شعرا لنظمت لي قصيدة خالدة . اذا

لم يكن الشعر معاناة داخلية ، يحسن المعاني التعبير عنها . هل تكون شعرا حقا ؟ ..
حملت القصيدة الى الزنزانة اقرأها بصوت عال ، بعد ان اعدت تركيب الكلمات التي
محتها الدموع . حفظتها عن ظهر قلب . ثم افسحت لها مكانا تحت مخدتي لتكون

حرزا لي حريزا ! ..

كيف كان بالامكان ان اجيب على الرسالة برسالة مماثلة . صدقت اولم تصدق ايها
القارئ ، انا الشاعر لا تنزف عيني دموعا ، احس انها تقف في حلقي فاكاد اللفظ
انفاسي . هنيئا للذين يبكون ولو كانوا رجالا . الدموع فرج وبعض العزاء .

لم يكن من سبيل امامي ، الا ان الجأ الى الشعر . ان اصب كل الدموع التي تقف في حلقى شعرا . يجعل من الكلمات ارواحا تتجسد على الورق والحبر ، فما تكاد تقرؤها حتى تقفز الى قلبك فتسكنه بلا استئذان !

ولكن ما العمل . لا الورق ولا القلم مباح .. كان علي ان الجأ الى الحيلة ايضا . لقد استوليت على قلم من احد الحراس . بالتي هي احسن . ثم رحت انظم البيت من الشعر فاكتبه على الحائط الابيض . ان الذين جاؤوا من بعدي الى الزنزانة رقم 6 . قرأوا القصيدة بلا ريب .

كُتبتُها وتحنيت فرصة السماح بالورق والقلم . فكتبتُها وارسلتها اما مع احد السجناء او بالبريد . لست انكر الواقعة بالضبط . المهم اني نظمت اكثر قصائدي الجيدة وانا سجين او معتقل ولذلك اسميت مجموعتي الشعرية « وحي الظلام » اي ظلام يمكن ان يوحي الشعر اكثر من ظلام السجن الرهيب ؟
اما القصيدة فهاتها :

من اسير لشطره المحجوب
اي قلب يهدي واي شحوب
رق حتى كأنه حلم عنراء
وانوى كمحجر المنكوب
لم يبقُ الظلام غير خيالي
ينثل الشعر من عيون الحبيب
اي قيس مثلي فقد كان قيس
في فسيح من الرمال رحيب
وانا في الحديد يقتلني الصبر
واحيا في نقمة المغلوب
في حنيني حبي وفي املي حبي
وحبي في مشرقي ومغربي
ليس للاسر ان يطالك يا حب
وانت المولود فوق الصليب
ايه معبودتي ومرمى خيالي
ايه نجواي في نواي المذنب
لوح الله وجنتيك بلون الفجر

والشعر من شعاع الغروب
فاملأى السجن من طيوفك بالنور
بكل الندى وكل الطيوب
يخشع القيد عندهن وتلقي
بمصاييحها عيون الرقيب
يا لنعماي في ابتسامك يا مي^(١)
ويا للجحيم في التقطيب
جمع الكون في يديك
فما احلاه كونا من رقة ولهيب
كفكفي الدمع فهو اوقع في
نفسي عصيا من دمك المسكوب
نحن ابناء كل دهر عتي
نحن اولاد كل يوم عصيب
نحن حرية تموج على الدنيا
وكفارة لكل الذنوب
نحن للحق لن نعود الى النور
بغير الحق الهضم السليب
لك من بعدي « الصباح » المندى^(٢)
وضحانا^(٣) وامة من قلوب
وانا روحك المطل على الازمان
في كل شاعر وخطيب

(1) ابدلت اسم زوجتي جورجيت بمي ، لان اسم جورجيت ليس اسما شعريا .

(2 و 3) صباح وضحي ولدا الكاتب .

طعام ومحام ومرض ولقاء

اكتب هذا الفصل من ذكرياتي في اثينا ليل 31 تموز 1978 حيث اقضي اجازة استجمام رخص لي بها المجلس الاعلى الموقر ، في منزل ولدي ضياء ، على ربوة خضراء من ربي حي « سيسهيكون » (الروح) . الهدوء يضيء على الاخضرار مثلحا من الجلال الطبيعي المهيب . المدينة على مرمى العين بعضها صاحب ، في الاسواق التجارية والوسط المأهول بالشركات والمصارف ، وبعضها في طريقه الى البحر ، قوافل من السيارات لها بداية وليس لها انتهاء .. الناس في امان في ظل حكم بيمقراطي يرأسه الرئيس الذي حملة (الاتينيون) من المنفى الى السلطة .. انا مرتاح جسديا اما نفسي فمتعبة مرهقة . ليس لابن الوطن المعذب ، مهرب من العذاب اينما حل ورحل . اذا ضحكت او اكلت او سرت في الشمس او الظل ، او كنت على الشاطئ احدى بالسباحات والسباحين ، فأنا متعب مرهق . اني انقل على كتفي هموم بلادي وآلامها واوجاعها . كل القلق الذي يبلغ هذه الآونة حد اليأس او حد الرعب ، يقيدني بقيوده ويعصرني في معصرته . اني احسد اليونان ، احسد كل بقعة من الارض هادئة وهانئة . ان وطني لا يستحق كل ما يرتكب بحقه من الجرائم . ان وطني وطن الجمال والنكاء والفرح . لقد حوله الذين نسميهم الانعزاليين الى مقابر وجثث ومستودعات سلاح وذخيرة وبركانا قابلا للانفجار في اية لحظة . ان وطني ومواطني لا ينامون منذ ثلاث سنوات الا على جمر الغضا . انهم مشتتون في الارض ، اكثر مما لحق بهم من شتات عن طريق الهجرة والاعتراب ، بل انهم غرباء في وطنهم نفسه ، لانهم لا يدرون الى اين سيصل بهم سوء المصير ، يخرج ادهم من داره وهو غير واثق انه سيعود حيا .

هنا في اثينا النظام والقانون والحرية ، وهناك في لبنان على المقلب الاخر من حوض المتوسط لبنانيون تحكمهم بويلات مسلحة ، كل واحدة منها اقوى من تولتهم واقوى من النظام والقانون . انهم على كف عفريت ، ارزاقا وكرامة وحرية وحياة ! يا لهول هذه الصورة التي اغرق في سوادها كلما قفزت بخيالي الى احبائي في لبنان الحبيب .. انني اضيق نرعا بالصبر ، اتمنى لو استطع ان اجرد جيشا من الثوار الوطنيين ، احتل

بقوته كل اوكار الانعزالين وساحاتهم ومعاقلمهم ، واسلم السلطة الى الشعب اللبناني ، الذي قاتل خيروه ووطنويه ولا يزالون يقاتلون من اجل وحدة لبنان وتقدمه .. لقد حكم لبنان حتى الان اما اعداء الشعب حلفاء اسرائيل واما رجعيوه او اقطاعيوه . لقد ان الاوان ان يحكم لبنان ابناؤه البررة الوطنيون التقدميون وحزبي القومي الاجتماعي في طبيعتهم .

بعد هذا الفاصل ، فلنعد الى سجن القلعة . اني اشعر ببعض العزاء ، اذ اعيد نفسي الى اجواء السجن وزناناته واوبئته . يجب ان اتعذب ولو عبر الذكريات مع احبائي على ارض لبنان ! .. لا راحة للمناضلين حتى وهم نيام . النار تكويهم ولو كانوا منها على بعد الآف الكيلومترات .

ما لبث الجو القاتم ان فتحت فيه ثغرات انفراج . اهلنا حملوا لنا الزاد والثياب في الاسبوع الاول فصدوا بخشونة من قبل الحراس السنغاليين الذين كانوا على باب سجن القلعة .

اما في الاسبوع الثالث، فقد دخل الزاد والثياب.. وشممنا رائحة الاحبة عبر الاطعمة والالبسة .

اهلنا المساكين ، المعنبون . كانوا هم السجناء اكثر مما كنا نحن . ليس لهم هموم ، كانوا اما او زوجة او ابا او اخوة او .. رفقاء الا ان نخلص من الاسر ، والا ان نأكل ونلبس ولو على حساب حرمانهم هم .

ثم ليس هذا همهم الوحيد . احيانا في ايام الصيف كانوا يقفون صفا طويلا منذ الصباح حتى الظهيرة ، لكي يتسلم منهم الحراس السلال والرزم . لقد كانوا يفتشونها كأن تحت ازرارها ، او في طبقاتها ، او بين قطع لحمها وخضارها ، قنابل نرية او اسلحة او سموم !.. تحضرني وانا انون هذه السطور صور ام اديب قدوره ، وام الياس سمعان ، وأم الياس قدسية !..

ما كان يضمنيني انا شخصيا ان حبييتي وهي ام لطفلين ، ليس لها مورد رزق في غيابي الا والدها وخالها ، كانت تتلظى في رمضاء الحر ، او تقف تحت رذاذ المطر شتاء ، تحمل لي ما عز وهان ، ثم يردها الحراس خائبة لانني كنت امضي عقوبة الرسالة - البلية ، او عندما اعفيت من العقاب ، ان يهتكوا كل ما تحمل هتكا ، ويبعثروا ما جمعته ايما بعثرة ، بحيث يمتزج الرمل بالكباب والوحل بالثياب ، وتفتح المعليات ويسيل منها الزيت على .. السلال والالبسة !..

ثم لو كان السجن مخصصا لنا نحن السجناء « العملاء » - على حد تعبير اعدائنا

السياسيين - لكان الوقوف في الزمهرير او الحر ، هينا ومحمولا على اهلنا المساكين .
ولكن حبس القلعة كان مزرية لشذاذ الافاق من الهاربين من الجندية او المجرمين
العاديين ، من كل صقع من اصقاع الشام ولبنان ، بحيث كان الوقوف في تلك
الجموع ، كالوقوف على ابواب جهنم ، الحابل يختلط بالنابل .

اتصور زوجتي وكلودا ثابت وام اديب قبوره وام الياص سمعان وام الياص قدسيه ،
واقفات تتقاذفن الكريبات القادمة من الجبل البعيد او البويات من عشائر شمر ، او
اخوات او اخوة القبضايات من احياء بيروت او من انحاء الجبل .

كل هذه المهانة ، لم نكن نتصورها نحن القابعون في زرناناتنا العفنة كضامير الذين
زجوننا فيها . لقد عرفنا بها بعد العودة الى رحاب الحرية . ولكننا كنا كالذين يأكلون
الخبز، دون ان يحسبوا كم بذل الفلاح والفران من جهد ليصبح الخبز في متناول ايدينا
واقواهنا !

كنا يوم الاحد من كل اسبوع نعد انفسنا لحفلات وولائم . السجنين يصبح
كالطفل . لا يههمه من نبيه الا ان يملأ معدته ، وان يرى الشمس ولو دقائق معدودات ،
وان يتنفس ولو الاويئة والاوزاخ ، وان يحس بان قلبه لا يزال يدق في صدره دقائق
طبيعية .

كنا كل يوم أحد في عيد سعيد . قلت من قبل ان السجنين يألف قيده . لقد ألفنا
القيد ، واصبح من السهل علينا ان نعيد بين الجدران العفنة ، في القبور السوداء ،
عندما تتدفق علينا المأكول كشلالات جزين او شلالات قاديشا ! .. التفاح والاجاص
والكبة والخبز والمعلبات .. لا بأس اذا كانت كلها مفسخة او ممزقة او مكسرة ، المهم
انها زاد قادم اليها من تحت سماء الحرية مصنوع او محمول على الايدي التي نحب او
نحترم .

ما فرحة العرس ، لمن رقص وشرب في عرس ، باحلى من فرحة السجناء في عرس يوم
الاحد ، يوم المقابلة و .. تدفق الخيرات !

قلت يوم المقابلة ، لكي لا اكون ماديا ، ولكي لا اظلم السجناء ايا كان جنسهم او
ايا كانت تربيتهم . ليس الاكل وحده مصدر الفرحة والارتياح . انها المقابلة . ان يرى
السجين زوجته او ولده او أمه او أباه او أخوته او أهله الأبعدين أو أصدقاءه . ان كل
هؤلاء تجسيد للحرية أقول حقا . لأنني وان كنت أشاهد حبيبي أحيانا من وراء
القضبان ، الا ان تلاقي العين بالعين ، وسماع الصوت وكلمات الشوق والعزاء ، كان
يساوي بنظري لحظات من الحرية النسبية ! الحرية النسبية للسجين هي الحرية ..

كان هنالك حلاق - جزار من قرنايل من آل الاعور ، متهم بحيازة سلاح حربي
تأخينا واياه كما تأخينا مع التونسيين والجزائريين والمغاربة . ليس في السجن -
الغربة ، من يبقى خارجا ، الا المتزمت المنزوي الظالم نفسه .
الحلاق - الجزار كان ملائنا عشية المقابلات . كل لحية من لجانا كانت تصلح
لكاهن في الاسباع الاولى . عندما افرج الاديديان مارتز عنا ، كانت علامة الفرج ان
سمح لنا بالاستحمام والحلاقة .

كنا نقبل على الحمام - البارد طبعاً - لان لا ميزانية لتسخين الماء ، بزينة دزينة .
وكنا ملزمين بالمسير عراة الا من منشفة نستربها عورتنا ولو نخر البرد اجسادنا
والاعصاب .

كذلك كنا نقف صفا طويلا لنصل الى الحلاق - الجزار . كنا نعتقد ان نقوننا
الطويلة ستهوي تحت موساه في سرعة البرق . يا للأسى ! كانت كمنجل الحصاد . الاخ
الاعور كان يعتقد انه يحصد قمحا او يشحل صنوبراته ، وكان علينا ان نكظم الوجع
للخلاص من نقوننا الكهنوتية ! لم تكن الذقن « موضه » كما هي الحال اليوم ، والا
لكننا ارحنا واسترحنا .

يوم المقابلة - السبت او الخميس او الاحد - كنا انن في ملابس القارات الصادرة
عن الادارة ، كنا انن في ملابس العرسان ، ننتظر العرائس القادمات من وراء حدود
الظلام و .. القيود . ننتظر العرائس لشم رائحة عطورهن من بعيد !.. يا للأسى
والاسف .

النعمة الكبرى كانت في ان يحصل احدنا على امتياز . ان يسمح له الاديديان مارتز
بمقابلة في مكتبه او مكتب احد معاونيه بحضور احد الحراس . في الاسباع الاولى كان
السماح مستحيلا . تطف الامر بعد ان تقاربت بيننا المسافات ، وكنا ان نصبح
اصدقاء ، بان سمح لنا نحن القياديين وخاصة انا ونعمة ثابت بان اقابل انا زوجتي
وهو شقيقته ، في احد المكاتب ..

ارجو الا يتصور القارئ اني ابالغ . لقد مر زمن طويل على غربتنا القسرية في حبس
القلعة ، صعب ان يستذكر الانسان آلامه كما لو اقبل على وصفها وهي طرية ، بنت
ساعاتها ، انن لكانت في متناول يده ، يسليها عن قلبه بتعابير من اعماق عروقه !
اول لقاء على الطبيعة ، وجهها لوجه ، ولو بحضور شاهد ، كان لقاء بين قائم من بين
الاموات واحبائه الاحياء . عناق طويل ودموع . حبيبتي وفلذة كبدي صباح بين يدي
امام عيني الى جانبي يا لسعادة المظلومين في لقاء الاحبة .

وصباح الذي لم يكن قد بلغ الا الثالثة من عمره ، يقف على بنك في الغرفة ويسمعني ابياتا من الشعر لحافظ ابراهيم لقنته اياها امه :

خنوني للوغى معكم خنوني ممرضة لجرحاكم حنوننا
وان لم تفعلوا فخنوا رداي به لفوا الجراح متى دمينا

لقى صباح هذه الابيات فذكرني بطفولتي . نحن آل القبرصي جماعة خطابة . انها في دمننا هكذا بدا لي صباح وكان نمي يغلي في نبرته البريئة الحماسية .

لقد اطمأن قلبي . ان ولدي يكمل طريقي من بعدي . انها شريعة الوجود الازلية . الاباء يعتقدون ان خلودهم واستمرارهم في قلب الحياة ، يكون بالدرجة الاولى في اولادهم وللولد البكر حتى في يومنا هذا بعض الامتياز وبعض الاعتبار ! .. انه ولي العهد ، ..

لقد اطمأن قلبي مرتين . ان ولدي صباحا يكمل طريقي على دروب الحياة ويكملها بالروح التي نفختها فيه ! روح النضال في سبيل قصبتنا المقدسة .

لم تكتمل صورة السجن بعد .

المرض في السجن :

يجب ان نصل نهارنا بالليل . ثم ان نقول بعض كلمات عن المرض في السجن .. الليل .. انه النوم الباكر على الحصر المليء بالبق والقمل والتفرج على الجراذين تلعب فوق اغطيتنا .. ما كان بالامكان ان نغلق ابواب زناناتنا في الصيف والخريف . الابواب المفتوحة لم تكن فقط على ما بدا لنا للهواء الموبوء ، بل للجردان والفئران وكل انواع الحشرات الملوثة !

بعيني شاهدت الجردان فوق فراشي وفراش نعمة ثابت والياس قدسيه . كما كنا نكنس البق والقمل احيانا بالمكاس . هذا رغم اننا ملزمون صباح كل يوم بغسل الزنانات بالماء والقاء الحصر فوق الماء والجلوس فوقها طول النهار مبللة تفتك رطوبتها بمعدتك ورتيتك ..

يا للذكريات المضنية ! ..

ذلك السجن المريض - الذي نسيت اسمه - كان يئن في زنناته لعزله عن الاصحاء ، صارخا مستغيثا لا الحراس يستجيبون ولا السجناء لديهم حول او طول .. يجب انتظار الصباح ، ليحضر الطبيب ويقرر ، وغالبا ما كان القرار اعطاء المريض المسكنات وتركه يموت على مهل . المستشفى كان من نصيب المحظوظين فقط ، اولئك الذين لهم اهل قادرون على الوساطات والشفاعات .

لقد كنا نسمع انين المريض في جوارنا وصرخات استغاثته ونحن عجز ، لا نملك الا ان نتمزق .

وجاء دوري ، فأحسست على ليلتين متواليتين بخفقان مفاجيء في قلبي ، كنت اشعر عند حبوته بانني مصاب بديوار و غثيان . ثم لتكتمل الصورة اصبت بوجع مؤلم في معدتي . كنت اتصور اني من المحظوظين* . الا ان المساواة في السجن ، وخاصة بالنسبة للمرضى شريعة جامدة . يجب انتظار الطبيب .
كان عسكريا عبوسا ناشف الوجه والفم واللسان واليدين .
سألني بالفرنسية عن مرضي . فرويت الوقائع . ظننت ان نقلي الى المستشفى محتوم .

فماذا كانت النتيجة : حبوب بروميرال وحبوب انترافيوفورم ...! Bromurale enterovioforme لم اعمل بالوصفة . آثرت عليها الصيام . وكان الصيام نوائي الشافي .

هكذا اذن . كانت حياتنا في حبس القلعة .
لقد صبرنا كما يجب ان يصبر المناضلون على المكاره .
صبرنا في اجواء تنذر بالخطر الكبير ، ان هتلر يتنزه بجيوشه في ما اسماه مداه الحيوي في بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ..
غدا قد يتنزه في فرنسا بالرغم من خط ماجينو .

نحن المتهمون بالهتلرية ماذا سيكون مصيرنا ؟ هل كان يجوز ان نطرح هذا السؤال ولو سرا وخلصه ؟ هل كان يجوز ، وخشبة الاعدام لا تنفك تراود خيالنا الاسير ، فنضطرب لكي لا اقول نرتعب . الخوف من خشبة الاعدام اشد هولا من الخشبة والاعدام نفسه ! ..

عالم السجن والسجناء

■ لقد اكتملت صورة السجن وعالم السجناء بعد ان ادخل الشيوعيون الى قواويشه . اقتيدوا بالعشرات بعد مفاوضات هتذر وستالين . اذكر منهم ثلاثة وجوه : الشهيد فرج الله الحلو ، وامين سر الحزب الشيوعي نقولا الشاوي - رفيق ايام الدراسة في مدرسة الفرير بطرابلس - وسليم خياطة (من طرابلس) . في السجن ، كما في الجوامع المشتركة ، تغسل الاحقاد والخصومات .. فتنظف القلوب وتتصافى . ربينا على كره الشيوعيين وربوا على كرهنا . وصلت الاحقاد الى الدم . قتل ادوار شرتوني وهو يهاجم تجمعا قوميا في ساحة عصور يوم وعد بلفور سنة 1945 وقتل رفيقنا الشهيد ابراهيم منتش بخنجر شيوعي أرمني في شارع المعرض .

التناقضات العقائدية لا تزال قائمة . ولكننا في الخندق الواحد لمقاتلة العدو المشترك اسرائيل وعملائها والامبريالية وانابها . والتناقضات العقائدية نفسها تنحصر في مقارعة الفكر للفكر والتنافس المحب الواعي . المهم صفاء النية والنضال المشترك في سبيل التحرير والتقدم والوحدة . والا هم ان يتطور العمل الجبهوي باستمرار فينظم بدقة . وينزل تفاهم القيادات الى القواعد . فتخفف الصراعات وتهدأ الخلافات ليحل محلها التعاون ورص الصفوف في الايام المصرية التي يجتازها الوطن .

اذا خسرتنا وطننا ، اي فائدة تبقى للعقائد والافكار والمبادئ والفلسفات والسياسات !؟

اذن ، كان لقاءنا في السجن وديا للغاية . افادت بيني وبين الأخ نقولا الشاوي مشاعر الرفقة المدرسية ورحنا نتجول في ساعات الطلعة ، نتبادل المعلومات والآراء . لله كم يتطور الانسان ويتبدل عقلية وذهنية وافكارا . كنت وانا اقرأ ان نقولا الشاوي في قيادة الحزب الشيوعي اللبناني ، اهز رأسي متسائلا : اهذا الفتى ، الذي كان يخدم الكاهن في كنيسة المدرسة ، ويمر امام المنبح راكعا نصف

ركعة ، احتراماً واجلالاً ، يصبح شيوعياً ماركسياً لينينياً مؤمناً بالتفسير المادي
لنشوء الحياة ، كما يؤمن بحرب الطبقات ، وبكتاتورية البروليتارية . من الايمان
الكلبي الى الالحاد الكلبي على مذهب ماركس ولينين ؟
وفي السجن ، عند تلاقينا الأخوي ، سألت نفسي : في لحظة رجوع كل منا للآخر
بعد ان كان التحاقد قاعدة تعاملنا لا كلام ولا سلام ، بل اتهامات متبادلة لها اول
وليس لها آخر .. اليس الانسان نوعاً من الآلة ، تسييره الاقدار ، والمكان
والزمان ، تقول له : كن عاقلاً فيعقل ، كن مجنوناً فيجن ، كن حاقداً فيحقد .
اهكذا برمشة عين ، يتم التحول من الحقد الى المحبة ثم الى التفاهم على حياة
شجنية مشتركة . اجل سنة 1939 اقمنا اول تحالف شيوعي قومي في سجن
القلعة !.. كنا جبهة في السجن ، لنظل على العالم سنة 1975 جبهة وطنية ضد
الانعزاليين والرجعيين والامبريالية والصهيونية !..

الشهيد فرج الله الحلو ، الذي اذابه السراج في دمشق ، في سجن المزة ،
بالاسيد . فاطفاً كل اخباره وآثاره المادية ، مرتكباً اقطع جناية ، هذا الشهيد كان
بين الشيوعيين السجناء ارقهم جانباً ، واكثرهم دماثة ووداعة . اذكر كلمة قالها
لي : في كل الاحزاب ، يبرز افراد يتميزون بالاخلاق النبيلة والقلوب الكبيرة ..
والطيبة والوداعة ..

اما سليم خياطة ، وكان شائب الشعر ، خفيف الروح ، فقد اخبرني ان اصلنا
نحن القبارصة في الشمال من عكار ، وانه من آل القبرصي ، سميت عائلتهم
« بالخياطة » لان جدتهم كانت خياطة في طرابلس .

وجود الاخوة الشيوعيين في السجن ، قوى جبهة التقدميين ، فصار لنا حول
وطول . اذا أساء الينا احد ، اصبح بإمكاننا ان نهز الادارة هذا ..
كان هنالك سرجان من الراس اسمه غري Gris ذكرت اسمه قبلاً على انه خشن
وجاف وشتام ، اساليبه استبدادية . شكواته وانكر جيداً ان نقولا الشاوي قال
لأمر السجن بالحرف : ان اساليب غري هي اساليب هتلرية Ce sont des
Prochès hitleriens كما اذكر انه قال للادارة : تحابون هتلر في فرنسا وتتبنون
اساليبه في حبس القلعة !..

لم يطل بهم المقام ، هؤلاء الزملاء في السجن ، بل رحلوا الى الحرية .. بتحول السياسة الولية ، ومن « مشبوهين » صاروا حلفاء احرارا ، يعملون علنا. علاقة الاتحله السوفياتي بفرنسا فيتشي – او بفرنسا ديغول كانت ميزان الطقس ، فاذا حسنت العلاقة ، صفا الجو واذا ساءت اكفهر !..

قبل الشيوعيين كان لنا ايضا سند ومعين : نبيه العظمة وزير سابق ، وسيف الدين المأمون مؤسس القمصان الحديدية في الشام ، وسواهم من المناضلين كنا نأتنس بلقائهم ، فهم السجناء المثقفون ، الذين ما ارتكبوا جرما ولا نذبا ، الا انهم قتلوا هتلر في اشكال ملابسهم وتنظيمهم . الم يكن علم الزوبعة عندنا كما سيأتي وصفه سببا من اسباب اتهامنا بالتعامل مع المحور لانه يشبه الصليب الهتلري المعكوف !.. الم اقل ان زمن الحرب يقلب القواعد والمقاييس الحقوقية فتصبح الشبهة دليلا واثباتا؟! ..

■ سجن ام مربوط خيل ؟

كان نبيه المعظمة – وهو محارب قديم – واحد اركان الكتلة الوطنية ، ووزيرا سابقا ، ورجلا جليلا حقا ، رصين التفكير ، رصين الكلمة ، رصين المظهر . لم يكن قد بلغ سن العجز ولكنه تجاوز سن الكهولة . ما بدا لي الا صبورا حمل مثلنا اوساخ سجن القلعة بنفس رضية ، ولكنه تساءل معنا اذا كان هذا السجن مزيلة ام مربوط خيول في الاصل ، قبل ان يصبح مسكنا لقوم مثلنا كل نذبهم انهم يحبون الحرية والاستقلال ؟

اما سيف الدين المأمون – المحامي في دمشق – والذي اصبح في الخمسينات مدافعا عنا ضد المؤامرة السراجية – فقد كان في عنفوان شبابه ، يعرض على قيده باسنان قوية ، ولا يكتف غيظه من الفرنسيين الذين اقتادوه ليحاكم من اجل القمصان الحديدية ، منتظرا العودة الى الحرية بعد هزيمة فرنسا !..

لم يطل بالاخوة الشاميين المقام بيننا ، فنقلوا الى سجون الشام بعد ان حوكموا وحكموا في المحكمة العسكرية .

اما ثوار جبل الاكراد فهم في السجن كخارجه شديبو المراس ، الفوا شظف العيش وحياة الكفاح ، فالسجن عندهم نزهة . ما كان بالامكان التفاهم معهم لانهم لا يتكلمون العربية الا بصعوبة فائقة ...

والهاربون من الجندية الفرنسيون . هل هربوا جينا ام عن قناعة بان الحرب عملية

تقتيل جماعي ، لا يجوز ان يقرها - وبالأحرى الا يشترك فيها - انسان القرن العشرين !..

رأيت احدهم وهو فتى في الثالثة والعشرين يعمل في المطبخ مساعدا للطباخ فصحت به : ايهما افضل ان تحارب دفاعا عن ارضك ام ان تقشر البطاطا ... فأجابني بفرنسية باريسية : ان العمل هو الحرية Le Travail c'est libere ce sont des كانت فلسفة هذا الهارب من الحرب ورفاقه الشباب ، ان امهاتهم لم تلداهم ، ولم يتعلموا ويتتقنوا لكي يموتوا في ساحات القتال . انهم لا يؤمنون بالوطن والوطنية . انهم انسانيون والانسان اخو الانسان احب ام كره . وانهم غير مستعدين لان يقتلوا ولا ان يُقتلوا . هذه الشريعة التي بها يؤمنون هل هي شريعة الجبان ام شريعة الانسان ؟ .. على كل ان فلسفة هؤلاء الشباب غريبة عن فلسفتنا . نحن مع السلام ضد الحرب . لكننا لسنا مع الاستسلام ولا مع قبول الامر الواقع . ان اي سلام يجب ان يقوم على التسليم بحقنا . قد نصبح ضد الحرب وضد القتال وضد القتل عندما تتحقق نهضة امتنا ، وتستعيد هذه الامة سيادتها على كل شبر من اراضيها ، قبل ذلك لانرى للحياة شأنًا . انها حياة التسليم بالامر الواقع التي ما انشئء حزينا الا لرفضها ومقاومتها .

والجرمون العاديون والسجناء الابرياء ، كم جاعني سجين ، خاصة من المواطنين الشاميين او اللبنانيين - يشكو لي امره . انه بريء مظلوم .. واحد من كل الذين عرفتهم في السجن قال لي : لقد حكمت احد عشر عاما بالاشغال الشاقة . انه عقاب عادل . انا قتلت ويجب ان اكفر عن جريمتي ! اما الباقون فلم يعترف احد منهم بانه ارتكب اثما . كلهم مظلومون وابرياء بنظر انفسهم .

اما رفقائي فاشهد ان احدانهم ما ترجرج ايمانه ولا هانت عزيمته . المصيبة على الجماعة ترص صفوف الجماعة . كل قاووش رتب شؤونه واقام عليه مسؤولا . والمسؤول عنا جميعا كان أعلننا رتبة ومسؤولية في الحزب نعمة ثابت .
المشاكل مع الحرس :

الحرس الغلاظ القلوب منهم على الاقل .. فأتنا اذكر تماما خلافا كلاميا فجا بين أديب قدورة وبشير فاخوري واثنين آخرين واحد الحرس . فنظم بهم تقريرا فصدرت الاوامر بحلق شعورهم على الصفر . وما ان نفذت العقوبة وعادوا الينا صلعا ، حتى كانوا يستلقون على ظهورهم ضحكا . هكذا بروح رياضية مرحة كنا نحاول

ان نتقبل الكأس المرة والمعاملة الخشنة مع بعض الحراس .

هذا العالم السجني عالم قائم بذاته . انه مفصول عن الناس فصلا تاما . اذا قابل احدهم اهله فيحضور حارس او ترجمان ينقل بالحرف ما يسمع . انن الاتصال بالخارج مستحيل . نحن محاصرون ومحصورون في زنزاناتنا او غرفنا ، نتنفس اذا سمح لنا ونضبط انفاسنا اذا امرنا .

في مثل هذا العالم ، يتكون انسان خاص من كل انسان يعيش فيه برهة من الزمن .

الانسان السجني يصبح بلا شهوة لكثرة ما يضعون في طعامه من المسكنات ، يصبح جاهلا ومجهولا تتسلخ عنه حقيقة كيانه ، ويتلبس كيانا غريبا . ولولا ذلك كيف يمكن تصور نعمة ثابت واديب قدورة وبشير فاخوري ورشيد فرعون والياس سمعان وكل هؤلاء الذين ساقتهم السلطات المنتدبة الى سجن القلعة من المدللين ، المنعمين ، كيف يمكن تصورهم يقيمون في بؤرة من الفساد والاوساخ ، يتجمع فيها اناس لا تجانس بينهم ولا تعارف ولا انسجام ، يضطرون ان يتعايشوا في الصمت ، في الظلام ، وان تتبدل اذهانهم ، وترسخ اراداتهم ، وتتحني رؤوسهم وظهورهم ، نون ان يكون لهم اي حق او دعوى ..

الانسان الالة هو الانسان السجين . الانسان الالة الخاضعة المنسلخة عن حقيقتها انسلخا تاما . في هذا السجن ، في هذا العالم ينمو السجين كما ينمو الطفل . ينمو تدريجيا الى ان يصبح ابن السجن . صحيح انه نقيض ابن الحرية . ولكنه تابع لعالم جديد ، مقضى عليه بان يتقبل شرائعه ومشيناته واوامره ونواهيته بون تدمر ولا شكوى ، لان التدمر والشكوى لا تزيد بلاءه بلاء فقط ، بل قد تسبب في المزيد من تركيعه والمزيد من تعذيبه جسديا ونفسيا .

في هذا العالم السجني ، عشت حوالي الستة اشهر بلا انقطاع .. وبقدرة قادر ، في مثل ما يشبه السحر ، وانبثاق النور من الظلمة ، سمعت ذات صباح من شباط 1940 ان ابواب السجن ستفتح في وجهي ، واعدو اصفق بجناحي تحت الشمس .

صدق السرجان دافيد عندما كان يريد امامي : لا تخف ، لا تقلق ، هذه الابواب الحديدية ما اطبقت على احد من مخلوقات الله . لكل بداية نهاية . والابواب المغلقة ستفتح يوما .

ولكن كيف فتحت الابواب ولماذا ؟

التحقيق والقومندان فيتي

ادرك القارئ ولا شك خلال هذه الذكريات عن حبس القلعة ، ما هي عناصر الاتهام التي على اساسها ، صدرت بحقنا مذكرات التوقيف من قبل المحقق العسكري القومندان فيتي بناء على طلب المدعي العام العسكري الكولونال فارغ Farge انها تأسيس حزب سرري ، شبه عسكري ، وعلاقات مع دول محور . والحزب السري بتشكيلاته العسكرية وغاياته ومبادئه هو مؤامرة على سلامة الدولة الداخلية ، وعلاقاته بدول المحور ، دول العدو ، تشكل الاعتداء على سلامة الدولة الخارجية .

قلنا في سياق الذكريات ان مثل هذه التهم في زمن الحرب تؤدي في حال ثبوتها الى خشبة الاعدام رميا بالرصاص . وان تخوفنا لم يكن مجرد اوهام او تصورات فالمشانق التي علقها جمال السفاح في الحرب الكبرى الاولى لعدد من مواطنينا لم تستند على ادلة بقرما استندت الى نزعة اكثرية الشهداء الاستقلالية . بل ان قراءتنا لتاريخ الحروب ، والثورات ، دللتنا على سوابق في تعذيب وقتل من تعتبرهم السلطات العسكرية اعداءها نظاما او سياسة ، ليست قضيتنا امام المحاكم العسكرية الفرنسية ، اقل منها اهمية ، فالشبهة - نكرر القول - هي دليل للحكم - عندما يكون القصد من المحاكمات لا التحقيق والادانة ، بل الادانة مهما كانت الادلة واهية او كانت حتى مزورة او باطلة . ان السلطات الحاكمة مستعدة في سبيل تصفية الخصوم السياسيين والمثاليين مثلنا ان تخلق الادلة او تلجأ الى التزوير وشراء الضمائر لازاحة اي عائق من طريقها . لقد شهدنا - كما سنرى في حينه - محمد عركة سنة 1949 يشترى شراء ليشهد زورا بان سعادته - زعيمنا وقائدنا - كان يتعامل مع ضباط اسرائيليين بواسطة محمد جميل يونس ، ولقد فضحه انذاك وكيلنا المحامي النابغة اميل لحدود كما فضح التزوير الذي لجأت اليه السلطات اللبنانية الحاكمة ، الامر الذي لم يمنعها من القضاء بالاعدام وتنفيذه في مهلة 18 ساعة فقط .

الا اننا نشهد في هذه الذكريات ، بان القضاء العسكري الفرنسي بشخص المحقق القومندان فيتي Vitu ويحد البنى بشخص الكولونال فارغ ، كان نزيها ، ووجدانيا ، ومعصوما عن القناعات المسبقة ، التي تفسد كل تحقيق كما تفسد كل محاكمة . الا اننا نعرف بالخبرة ان المحقق والمدعي العام لا يملكان الحرية المطلقة في التقرير ، تبرة او اتهاما ، فهما ملزمان الى حد بعيد ، وفي دعوى سياسية كدعوانا ، الى الرضوخ

لاوامر القيادة وتوجيهاتها . نفوذ القضاء كقضاء هو في مدى تأثيره على تصويب قناعات القيادة العسكرية العامة او المسؤولين السياسيين ، في عملية توفيقية بين سمعة القضاء ومصصلحة الدولة . القاضي القادر هو الذي يؤثر في رجال السياسة لا الذي يتأثر بهم فقط .

بين القياديين كان اول من استدعي امام المحقق بعد الانتهاء من المتهمين الثانويين من الاعضاء والمدبرين والمنفذين العامين ، نعمة ثابت ، ثم جورج عبد المسيح ، ثم جاء دوري . لم يبذل المحقق اسلوبه وطريقته ، فبعد الاستجواب كان المستجوب اما يوضع في انفراد قاس بحيث لا يمكن الوصول اليه ، او يوجه الى سجن الرمل .

كان اهم ما جرى في بدء المواجهة ، ان طلبنا نحن القياديين مجتمعين ، لآخذ هوياتنا وتنظيم سوقنا الى المحكمة العسكرية التي لا يزال مقرها مقابل مركز سباق الخيل في شارع فؤاد الاول وعرفت حبيبيتي بهذه الدعوة الى المحكمة فاذا بها تحضر الينا في الموعد المقرر مع الامينة نجلا معتوق حداد ، فما ان ندخل الى الغرفة المخصصة لنا والتي يشغلها الان القاضي محمد علي صادق ، حتى تطل برأسها علينا قائلة : في كل مرة يطبقون عليكم ويسوقونكم الى السجن مثل العصافير . اي شيء استطعتم ان تحققوا الا ان تفرقونا في الهموم عليكم والركض وراءكم ؟ ..

لم ألها على هذا العتاب ، فانا ادري الناس بما كان يختلج في جوارحها من حزن علينا وآلم . الكلمات الموجعة الصادرة عن صفاء نفس لا تعتبر تشفيا بل تفريج كربة وفضة خلق .

كان لكل منا ملف لدى قاضي التحقيق . وبدون مبالغة اكرر عبارة قالها لي احد كتاب المحكمة العسكرية او تراجمتها ، ان ما ضبط من اوراق ووثائق وكتب من بيوت القوميين بلغ الاطنان . فغربلت هذه الاطنان . وانتقي منها ما يتعلق بكل منهم ، وجرى التحقيق على اساسها .

اما النقاط المركزية المشتركة فكانت واحدة : حول تأسيس الحزب ووسائل تمويله ونشاطه السياسي الداخلي والخارجي وتنظيماته العسكرية . واما الوثيقة الاساسية فكانت الى جانب نظام الحزب وبعض شعاراته ، نداء سعادة للامة والحزب قبيل اعلان الحرب الكبرى الثانية وتاريخه اب 1939 كما يبدو لي .

لم استطع - رغم مساعي الحثيثة - معرفة المواضيع والسؤالات التي طرحت على

نعمة ثابت وجورج عبد المسيح . كل ما قاله لي المحامي الاستاذ كابدوجال Capdegelle الذي حل محل الاستاذ اموري Amory في الوكالة عنا ، ان عبد المسيح فند ما ورد في نداء سعادة قبيل الحرب بدقة وعمق ولا ازال انكر اللفظة بالفرنسية Décortiqué ولهذا ذهبت الى التحقيق دون ان اكون على بينة من التهم الموجهة لي والاسانيد التي ركزت عليها .

دخلت على المحقق ، فارتاح بادىء ذي بدء ، انني اتقن الفرنسية ، فليس من حاجة لترجمان ، واضاعة الوقت . كانت الاسئلة تطرح علي والاجوبه بدون مباشرة على ضبط التحقيق . (أه كم نحن بحاجة للملفات لكتابة تاريخ محاكماتنا استنادا الى ضبوط لا استنادا الى الذاكرة)

كان وجه الرجل هادئا ، رصينا من الصعب استكناه ما في نفسه من مظهره . معتدل القامة ، ممتلئ الجسم ، وسيم الوجه ، بذته العسكرية تضفي عليه بعض المهابة التي يضيفها اللباس العسكري على اي انسان . ما شعرت - رغم ان مصير عنقي في شطحة من قلمه - انني امام رجل قاس او خصم او مبارز مدجج بالسلاح امام مبارزه الاعزل .

دخلت عليه . والقيد في يدي ، فأمر بفك القيد . ثم امر الحارس بالخروج . وبعد لحظات سمح لي بالجلوس فجلست . كنت اعتقد انني ساظل واقفا طوال فترة الاستجواب ، فاذا بالمدخل اليه ، سهل ومطمئن .

بدأ الاستجواب حول مسؤولياتي في الحزب فسرد لي هذه تباعا . الإانه شفع السرد بكلمتين مخيفتين . الاولى هي انني القائد الخفي للحزب Eminence Grise والثانية

اني احد اعمدته Un de ses Piliers

كان جوابي الاقرار بصحة ما ورد عن الوظائف التي اوكلت الي منذ التأسيس ، دون ان انكر اني كنت خلال ايام زعيما بالوكالة ، اما عن كوني القائد الخفي او احد الاعمدة ، فمجرد ورود هذه العبارات دليل على انها تقديرية وانها اراء وارادة في تقارير . الذي يبقو هو مسؤولياتي الحزبية والتبعية الجزائية المترتبة عليها في حال ترتب اي مسؤولية على الحزب كله .

وطال الاخذ والرد حول دستور الحزب « وهتلريته » والصليب المعقوف والشبه الكبير بينه وبين الزوبعة ، والميليشيا واعادها للثورة على السلطة المنتدبة ، واخيرا الوثائق

وهي عبارة عن تقارير موقعة مني مرفوعة الى الزعيم او مجلس العمدة او المجلس الاعلى حول مهمات كلفت بها ، ادارية وسياسية ، سواء في الشام ام في لبنان .

دام الاستجواب حول هذه المواضيع اسبوعا كاملا . ما كان القومندان فيتي مستعجالولا نحن مستعجلون . نتعمد التطويل والبطء في الاجوبة لكي تنوم نعمة الاستنطاق . اقول نعمة ، لان المجيء كل يوم في عربة السجن ، وان مقفلة ، رؤية الناس في الشوارع ، ومواجهة الشمس لدى الدخول والخروج من المحكمة ، ومقابلة الاهل كل يوم في الحل والترحال ، نعمة من الكفر عدم الاقرار بها .

عودة الروح .. عودة الحريّة

كان هم المحقق الأكبر ان يستكشف بدقة علاقتنا بالمحور ، وان يهتدي الى مصادر تمويلنا ، وان يتأكد من ان ليس لدينا سلاح ، واذا كان لدينا اين نخبؤه وكميته ونوعيته ومصدره .

طبعاً لم يكن هنالك ضغط لا معنوي ولا مادي لتقولينا ما لا نريد ان نقوله . وكان من البديهي ان ننفي نفيًا قاطعاً ومعللاً كل تهمة وردت من شهود زور او في تقارير ملفقة او موجهة .

لقد استوقفتني المحقق طويلاً عند المبدأ الاصلاحى السادس القائل بانشاء جيش قوي . فشرحت له تفصيلاً ان هذا المبدأ هو للدولة القومية عندما يتم التوصل الى تحقيقها لا للحزب الذي هو في طور التكوين . وكان يبدو لي مقتنعاً بما اقول لانني لم اكن اعتمد الخطابة ولا أتكلف البلاغة ، بل سرد الحقيقة ببساطة ومنطق .

اما عن مصادر التمويل فانكر اني سردت مقطعاً طويلاً ، مستنداً الى الدور القيادي البارز المنسوب الي ، وقلت : اذا كنت انا احد قادة الحزب اعيش بالتقتير والحرمان ، مديونا لصاحب الملك الذي استأجر في ملكه ، مديونا لصاحب الدكان الذي اشتري من مكانه حاجياتي المنزلية ، وللمستشفى الذي تولد فيه زوجتي ، مستشفى الدكتور حبيب الخوري سعادة في طريق الشام ، مديونا لصاحب الملك الذي فيه مكتبي ، فكيف يمكن ان يكون حزبي ميسوراً تموله المانيا وايطاليا وانا احد قادته غريق في الديون والحاجة والحرمان...؟

ونظمت لائحة باسماء الدائنين وعناوينهم والمبالغ المتوجبة بدمتي لهم . ولم يدر في خلدي انهم سيدعون تبعاً الى التحقيق في مكاتب الامن العام بناء على استنابة من قاضي التحقيق ليثبتوا صحة او بطلان مدعائي ، لا يجوز هنا الا ان افتح هلالاً لانكر بالخير المأسوف عليه كثيراً الدكتور حبيب الخوري سعادة فقد قال لي بعد خروجي من السجن في اول لقاء : « الا يكفي اننا تساهلنا معك واحتملناك مديونا طوال هذه المدة ،

حتى نستدعى من اجلك الى الامن العام فنستجوب بعد انتظار ثلاث ساعات ؟ لقد زادت ديونك وقيدينا عليك قيمة هذه الساعات .

لم يكن الاستجواب هينا ولا متساهلا . كان علي - وعلى كل القادة - ان نكون حذرين في الكر والفر ، فقاضي التحقيق سلاحه سوء الظن ، وبين يديه تقارير وتقارير . ولقد دار بيني وبينه ، كما افترض ان يكون قد قام بينه وبين باقي القياديين ، جدل حول موقفنا من فرنسا . قلت له اننا ضد الانتداب Anti-mandataires لا ضد فرنسا anti francais . لقد كنا جميعا في العموميات نستنير بالافاق التي فتحها لنا الزعيم ابان استجوابه في المحكمة المختلطة سنة 1936 . ولقد اضفت اننا تعلمنا الثورة في مدارس فرنسا وتاريخها ، تعلمنا الثورة من تاريخ الانتفاضة الشعبية سنة 1789 و 1848 ومن ثورة الكومونات سنة 1870 . وكان مسك الختام ما المحت اليه سابقا عن النائب الوطني ، الخطيب والاديب والشاعر الشيخ ابراهيم المنذر . كان صديقا عزيزا علي ، ونصيرا للحزب خاصة بعد انتماء ولده الاديب حافظ الى صفوفنا الحزبية .

لقد اهتم بي اثر اعلان الحرب - وقد ألمحت الى هذه الواقعة سابقا - وترك علي دفتين ورقتين يحذرني فيهما من أي نشاط قائلًا : عند تغيير الدول احفظ رأسك . والثانية لسانك حسانك ان صنته صانك ، وقد وقع علي الورقتين هكذا : المنذر . كان هكذا يوقع كل رسائله .

يبين ان الترجمان لم يكن قد سمع من قبل باسم الشيخ ابراهيم المنذر الشهير في لبنان والعالم العربي ، فاعتقد ان مرسلهما شخص لا يريد نكر اسمه وانه يكتفي بانذارني كأنما في الامر عملية تجسس خطيرة ، فترجم كلمة المنذر بالفرنسية Avertisseur عوضا عن ان يكتب اسم ALMOUNZER أي الشيخ ابراهيم المنذر وهو اشهر من نار على علم .

استبقى قاضي التحقيق هذه الورقة للاخير ، كانما كان يريد ان يأخذني على حين غرة ، فيفحصني بان كل ما قلته في التحقيق كاذب ، وان هذا المنذر L'avertisseur هو الذي سيفضح كل شيء والا فكيف يكون منذرا ولا يتجرأ على نكر اسمه !؟

رغم اني في حضرة قومندان ومحقق لم اتمالك نفسي من ضحكة بلغت حد القهقهة . فوقف حضرته عابسا وانتهرني : لا تنس انك في غرفة التحقيق . واستمررت ضاحكا دون قهقهة ثم رجوت المحقق المعذرة وفسرت له السبب : فراح يهقهه بدوره . وكانت مسك الختام بل ادت الى تنازل حضرة المحقق ليقدّم لي فنجان قهوة ..

فنجان قهوة في غرفة قاضي التحقيق يشريه متهم بالاعتداء على سلامة الدولة الداخلية والخارجية ، يعني ان كثيرا من عناصر الاتهام وادلته ذهبت ادراج الرياح . يعني بداية انتصار على الافتراءات والتقارير الكاذبة وانفضاح المزورين والمفتريين .

عودة الروح .. عودة الحرية

لا ازال اكتب ذكرياتي من أثينا - اليونان في شهر اب 1978، الذي لا يعرف لغة اهل البلاد حيث يقيم ، لا يمكن ان يستعمل الا عينيه للتفرج على الاثار والمناظر والناس ، ويديه ليتكلم بالاشارات والرموز كالاصم الابكم . من حسن حظي اني قادر على القراءة والكتابة . وقعت على مجلة الدستور الصادرة حاليا في لندن . وقرأت في اعداد حزيران وتموز من هذا العام فصولا من اوراق عبد الناصر السرية ، يكتبها الاستاذ عبد المجيد فريد . كم حسدت الكاتب وترحمت على المكتوب عنه . حسدت الكاتب لانه دون بالحرف اقوال عبد الناصر واحاديثه وتوجيهاته وقراراته . اما انا فاكتب متكلا على الذاكرة . والذاكرة خزانة مهما كانت قادرة ووفية . وترحمت على الرجل العظيم بعدما تابعت سياسة خلفه من بعده . فالسادات رفيق سلاح ورفيق ثورة عبد الناصر . ولكنه عدو افكاره واراته وخططه . لقد خانته كما خان مصر ، كما خان العرب . اراد ان يملأ اعمدة الصحف بصوره وباسمه وان يكون رجل العام 1978 ، فكان له ما اراد عند اعداء امتنا واعداء العرب . اما بالنسبة لنا وبالنسبة للعرب فهو الخائن . يملأ اسمه اعمدة صحفنا مشفوعا بهذه الجريمة الشنعاء التي يفضل العاقل الموت عليها . بعض الاعمال لا ينتظر فيها المفكرون حكم التاريخ ليحكموا . انهم يحكمون للتاريخ . وبهذا تكون المحاكمة التي تجري في بغداد باسم الشعب العربي هي التاريخ ، لانها تعبر عن ارادة الشعوب العربية الحرة . كم كنت اتمنى لو حكم السادات على نفسه ، فأعلن بشجاعة القائد العسكري فشل مبادرته ، واستقال ، وانزوى مؤثرا الصمت الكبير على التثرثرة والكلام الفارغ ، انن لانقذ رأسه وانقذ شرفه .. وترك على الاقل للاجيال الصاعدة امثلة كبيرة : الرجوع عن الخطأ خير من الاستمرار فيه . الرجوع عن الخطأ فضيلة من فضائل الرجال .

يرى القارئ انني عنونت هذا الفصل : عودة الروح ، عودة الحرية . اني اشبه عن سابق تصور وتصميم عودة السجين الى الحرية كقيامه الميت من بين الاموات . الروح عندي هي الحرية . الانسان بلا حرية انسان بلا روح . انسان آلة مهما تحرك وفكر وكتب وصرخ و .. احتج . انه آلة لا تتور بذاتها بل تتور بذات غيرها ، بذات جلاذيتها وانظمتهم وقوانينهم ومشيتتهم .

بعد التحقيق ، والهدوء الذي ساد الجبهة الغربية الاوروبية ، زال التشنج وعادت السلطات العسكرية الى المرونة .. والعقل ... بدأت قوافل السجناء تعود الى الحرية .. والشمس والهواء النقي . بدأ الانفراج . ذاب الجليد . الحقيقة سجلت اولى انتصاراتها على الباطل .

يفرح واحبنا نحن قادة الحزب عندما يرى رفقاءه من الاعضاء والمسؤولين الثانويين يخلون امكنتهم ويرحلون الى عائلاتهم ونوهم والنشاط الحزبي المحدود في زمن الحرب . ولكن مهما تجرد الانسان عن ذاته ، واحب النضال والاستشهاد ، يظل من بني الانسان ، يظل من لحم ودم ، يشعر بالغصة : لماذا كل هؤلاء سعداء بالحرية وانا وحدي الشقي في الظلام ؟ ..

مع السلامة .. سلموا على الرفقاء .. سلموا على الشمس والحرية . كنا بالفعل نحن الذين لانزال في الزنزانات نستعرض قوافل الراحلين ، نصفق لهم ، نحملهم اشواقنا وسلاماتنا ... واحيانا بعض التوجيهات . وكانت بعد قليل المفاجأة الكبرى .

لائحة جديدة من العائدين .. في رأسها اسم عبد الله قبرصي

نجحت النقابة ، نقابة المحامين - التي لم تتخل عني لحظة - ام نجحت انا في اقناع المحقق ببراءة الحزب وبراءتي .. فاذا كان الحزب بريئاً لماذا يبقى نعمة ثابت وجورج عبد المسيح وسواهم ؟ ..

اعرف ان اسمي كان على رأسلائحة المحررين . لم اصدق حتى جاء الابدجيدان مارتز بنفسه يهنؤني . عاد الي جناحاي . عادت الي روحي . وداعا ايتهالجرذان ، ويا بق وقمل .. وداعا يا حبس القلعة بكل ما فيك من اوبئة واوساخ وجراثيم ! .. والى اللقاء يا نعمة وجورج في دفء الحرية ..

سواسية امام القرار

كذلك الخارج من السجن ، اذا كان شاعرا - كما انا شاعر - يشعر بالغصة انه يخرج نون زملائه في القيادة . ما ننب نعمة ثابت وجورج عبد المسيح والآخرين ليقوا ، اذا خرجت انا ؟ . نحن متكافلون متضامنون ، تتفاوت نشاطاتنا بالطبع ، ولكننا في التقرير والتخطيط سواسية ، لكل منا صوته ورأيه . والقرار الذي يصدر يطبق على الموافق والرافض معا . ولم يقل احد منا انه كان معارضا لاي قرار ، علما بان

قراراتنا في غياب سعادة انحصرت كلها في الفترة القصيرة بين سفره ووقوع الحرب . في الاعمال الادارية ، اما السياسية فكانت روتينية باهتة .

المفاجأة انهلنتي ولكني لم أضع صوابي .
ودعت الاحباء والاصدقاء والزملاء وخرجت الى باحة السجن ثم الادارة لاتسلم الامانة المودعة باسمي : ساعة وحزام وقلم حبر ويضع بريهمات .
لم تكن حبيبتني تعرف اني عائد الى الحرية وصلت الى المنزل مفاجأة ، وكانت الفرحة الكبرى .

كان العناق الطويل مع الحبيبة وقلذتي الكبد والشمس والحياة . اقام لنا الاهل عرسا جديدا . كنت لكثرة ما اكلت من الرز والخبز والدهن قد انفلشت فصار وزني 54 كيلو لأول مرة في حياتي . ظننت اني عنتره زمانه ، انا الذي ما بلغ وزنه يوما اكثر من خمسين كيلوغراما ؟ ..

كل ما كنت احمل من ثياب بقي في الخارج لكي لا يهاجم البق والقمل اثاث المنزل ورأس الزوجة والطفلين .

ثم عادت الي الروح وزخم الحب والحياة .

ويا لقيمة الحياة والحرية والحب كم تعلقو وتتعاظم بعد فقدانها في غياهب السجون . كما ان الصحة تاج على رؤوس الاصحاء لا يراه الا المرضى ، كذلك الحرية تاج على رؤوس الاحرار لا يراه الا الراسفون في القيود .

ويا للخوف علي من العودة ثانية الى القلعة حتى من ولدي صباح البالغ انذاك (في 15 شباط 1940) الثلاثة اعوام ونصف من عمره . اذ صاح بي وانا احدث الناس عن آرائي في الحرب والسلم ، ذاكرنا المانيا وايطاليا : بابا . بابا . ما تقول المانيا وايطاليا . بكرا بياخدوك على الحبس !

قالها صباح بلهجة الامر لذلك لا استغرب ميله حتى الان لاعطاء الاوامر ! ..

كان همي ان ارمم اوضاعي المالية واعود الى مكتبي

وكان همي الثاني ان اعد نفسي لسجن اخر ، اكون قد هيات له كل عدته ، واولها اقامة علاقات صداقة وود مع الانجيدان مارتز وسائر الحراس ، لتنعكس معاملة حسنة لمن بقي من رفقائي القياديين ، ثم لاستفيد منها اذا صدرت الاوامر بالقاء القبض علي من جديد .

عن حقيقة مشاعري ، لا بد ان اعيد نشر مقالتي : « انا عائد من السجن » التي نشرت في جريدة « كل شيء » في اواخر 1949 او مطلع 1950 . فالواقع ان السجن قائم من بين الاموات . لا اتعب من تكرارها . في ايام حريته الاولى . فيبقى ليلا من حلم مزعج . ليرى اذا كانت الجردان لا ترقص على سيره . يسير في الشارع متلفتا امامه ووراءه ليرى اذا كانت عيون الحراس لا تلاحقه . يضع النقود في جيبيه وينفقها مستغربا مستعجبا ، اذ كيف تمت بهذه السهولة عملية انتقاله من عبد مأمور الى حر أمر . من مخلوق لا يملك حقا ولا يملك قرشا الى انسان يحسب نفسه مالكا الارض والسماء لامتلاكه الكنز المرصود : الحرية .

اما عن المحاماة ، فحدث ولا حرج . ينسى المحامي في غيبته الطويلة (ستة اشهر) كيف ينظم لائحة . القوانين التي صدرت في غيابه يجب ان يجدها وان يدرسها . القضاة الذين بدلوا او نقلوا يجب ان يتعرف اليهم . الزبائن الذين اصابهم الهلع لانهم زبائن متهم بالتعامل مع الالمان يخشون الرجوع بملفاتهم الى المكتب ، الا واحد لا انساه : عجاج الشويري . في اليوم التالي لعودتي الى المكتب كان هو وملفاته يذلف صباحا باكرا . اول موكل اوكل الي شؤونه سنة 1934 كان اول موكل وطأت قدماه مكتبي مع كل دعاويه . كان عجاج الشويري جريئا وكان صديقا صدوقا وكان وطنيا يحب الشعر والادب اذا لم يكن ادبيا وشاعرا .

ثم هل ننسى الزملاء المحامين ؟

هؤلاء الذين تحملوا معي كل همومي ، ولا يزالون يتحملون ، هل انسى الروح النقابية العالية التي تحلوا بها ولا يزالون - فيقفون - دون خشية ولا وجل - يطالبون لي بالحرية ، ويدفعون عني الافتراءات ، ثم لا ينسون عائلتي من معونات يقدمونها من صندوق النقابة او حتى من جيوبهم .

اهلي تخلوا عني ما عدا حنا طنوس قبرصي ، اما النقابة فما تخلت . رحمة الله على النقيب جان تيان . مرتين جاغني الى سجن القلعة واخرى سعى الي في معتقل المية ومية حاملا لي الهدايا والعزاء .

من سجن القلعة الى سجن المرض

لم يكن بالامكان ، التعرض للسجن ثانية ، ببذل اي نشاط حزبي ، في الايام الاولى من التحرر . ما افلتنا من القفص عبثا . بيتي كان فخا . عيون الامن العام تترصده وتترصدني من الخارج ، كما ترسل الي الجواسيس لاقتناص ما اقول . كان علي ان اكون حذرا وكان علي زائري ان يكونوا اكثر حذرا مني .

مأمون اياس وجبران جريج كانا لا يزالان طليقين . فالحزب بخير ، بقدر ما يمكن ان يكون الخير واردا في ايام المحن والشدائد .. والحروب العالمية .

همي الاكبر كان رفقائي الذين ما افرج عنهم . وظلوا يعانون مكابس سجن القلعة واجواء الموبوءة . كان علي ان انتشلهم من المقابر الي مكاتب السجن على الاقل . ان تكون لي عين على الحرية وعين عليهم .

ما الوسيلة ؟

وجدتها . كنت كلما صدفت احد الحراس . وكلهم اصدقاء كما اسلفت القول - ادعوه ، اما الي المطعم او الي المنزل . اشعره بأن له دينا في عنقي . احده عن عرفان الجميل واثبته بما تيسر من مبادرات الضيافة القومية .

ولجأت الي وسيلة اكثر براعة . قصدت منزل الاديديان مارترز - أمر السجن - مع زوجتي حاملا باقة من الزهر ، فتعرفنا الي عقيلته وكريمته ، وسهرنا برهة ، ثم وجهنا اليهم الدعوة الي حفلة نقيمها على شرفهم في اواخر شباط 1940 .

وبالفعل دعوت نقيب المحامين وعددا من رجال الفكر والسياسة ، وبعض الضباط من اصدقائي « الشجعان » ، والمطران بولس الخوري (كان لا يزال ارشمنديتا) وفؤاد سليمان . وكنت اترجم حيث دعت الحاجة ، لان اكثرية الحضور كانوا يتقنون اللغة الفرنسية .

القيت بالمناسبة كلمة كانت تعبيراً عن تقديري العميق لقائد السجن ورجاله الذين

وفقوا الى درجة الكمال بين شرفهم العسكري وبين انسايتهم . ولقد اجابني الاجيدان بكلمة اثنى فيها على مواقفنا الايجابية كأسرى ، وانضباطنا المثالي تطبيقاً للقوانين والانظمة ولم يفته ان يشير الى ان السجن عنده سجين فحسب بقطع النظر عن الجرائم المنسوبة اليه سياسية كانت او غير سياسية .

وكانت هذه البادرة - المبادرة - فاتحة عهد جديد بيننا . فالسجين ، مهما كتب او قال ، يظل سجيناً ، تتسم اقواله وكتاباتة ، بسمة القيود التي تغل يديه ، وتطبع حياته . اما السجن الحر ، فقد اصبح انسانا يصدق اذا انفلت لسانه ويده من الكوابيس والضغوط المادية والمعنوية .

ها ان الحراس يدعوننا - بمعرفة وتشجيع من الأمر - الى مطعمهم في السجن Popotte فنأكل ونشرب وتبادل الاراء . لسنا اعداء كما كان يتوهم الذين أمرؤ بسوقنا الى الدياجير . هؤلاء الحراس كانوا يمثلون وجه فرنسا الطيب ، وجه فرنسا الحضاري .

وبعد ، فهذا نعمة ثابت - بناء على هذا السلوك وهذا التصرف يدعى الى مكتب السجن ويوظف فيه ، فيبقى خارج القبر طوال النهار ، الامتيازات الممكنة منحت له . كل من بقي في السجن بمن فيهم جورج عبد المسيح - حصد نتائج الخطة التي اعطت ثمارها يانعات .

كل هذا بانتظار المستقبل . فلنتتظر المستقبل . كل هذا دون ان نحتكر الفضل في الامتيازات التي اعطيت الى رفقاءنا في سجن القلعة ، فقد كان هنالك من شارك بالمساعي الحميدة لنصل الى الغاية الحميدة : انتشار من يمكن انتشارهم من المقابر السوداء الى مكاتب السجن التي لا يمكن وصفها بأقل من المقابر ..
المرض .. والوسواس
نحن في الخامس عشر من نيسان 1940 .

لانزال في نشوة الحرية ، لانشبع ، لانرتوي ، لانهدأ . يخرج الانسان من السجن فكأنه ولد من جديد او كمن يريد ان يعوض في ايام ما خسره في اشهر .

كانت السمنة التي بدت على وجهي عند خروجي من السجن نوعا من الورم ، لا دليل عافية . الشوق الى الحياة مثل كل شوق طاغ عواقبه غير مأمونة . لا يدري الانسان متى تقتله التخمة حتى ولو نجا من غوائلها مرارا وتكرارا . اللائم عند الصحب والاهل

والرفقاء تتوالى بسمة ملونة بألف لون . لوسمينها مغريات لما قلنا بها سوءا :
وقليلا ما نستعمل عقلنا في مواجهة اطباق الطوى ، وشهي الماكل والمشرب . الخارج
من السجن اكثر الناس ضعفا ازاء رائحة الطعام والشراب ، كأنما هي غمزات عيون
دعجاء تدعوك الى موائدها ولا قدرة لك على الرفض .

السهرة تلو السهرة . والرحلة تلو الرحلة . حركة دائمة داخلا وخارجا . الارهاق
ليس له اسمان . انه ارهاق في السجن كما هو ارهاق خارجه . معدة السجن ليست
غريبة عن معدة المخل سبيله .

وكانت الخاتمة . نكسة . لا تقل هولاء عن الخطر السياسي المحقق . ففي الخامس
عشر من نيسان ، وانا في الحمام ، انحني لانظف قدمي ، دارت بي النوائر .
احسست بان الارض تمور ثم تدور ، ثم يكاد يغمى علي ، فافتح باب الحمام وأركض
الى سريري ، يخفق قلبي كما يخفق عصفور تحت سكين ذابحه !

افاقت الزوجة الحبيبة وكادت ان تولول . هدأت روعها وشريت ساخنأ وتمددت . ما
عرفت النوم في ذلك الليل الطويل . الدوار يستمر . كان دولابا للاقدار في ايام العافية
فصار دولابا في الرأس .

من هو الصديق الاقرب ، الذي كان لا يفارقني : فؤاد سليمان . جاءني ملهوبا اذ
هتفت به في الصباح الباكر . اراد نقلي الى المستشفى فورا . توافقنا على ان نبدأ
بصديقنا الدكتور عفيف مفرج ، احد اساتذة الطب في الجامعة الاميركية . واشهر
طبيب كوراني في بيروت ، والذي اصبح في ما بعد نقيب اطباء لبنان لانه من اعلاهم كعبا
واعلاهم اخلاقا .

لم تكن النتيجة سيئة . هبوط في الضغط وضعف عصبي عام لكي لا نقول انهيار .
المقويات والراحة هي الدواء . لا داعي للاستشفاء في مستشفى . العناية في المنزل
كافية . المهم تجنب الاجهاد في كل صغيرة او كبيرة . لا أزال اذكر وصفته Opotoni
(Merk) que هكذا اذا من سجن القلعة الى سجن المرض ، بدأت رحلة جديدة في
عالم .. المخاطر . الجسد مهما قاوم لا بد واقع تحت مطرقة الاجهاد والنهم . ورم
السجن انتهى عند أول وخزة من أول مسمار . المرض الان هو الشر المقيم . لعله أدهى
من السجن ، اذ يبقى الامل هناك بفتح الابواب فيما يفتح المرض افواه المقابر ..
ما هو العلاج : الراحة والمقويات .. والحرية . ماذا كانت النتيجة ؟ في الخامس

والعشرين من شهر ايار ، بعد الهجوم الالماني على الجبهة الغربية ، وتساقط خط ماجينو موقعاً بعد موقع ، وانهزام الجيوش الفرنسية جيشا بعد جيش ، صدرت الاوامر من القيادة العسكرية لجيوش الشرق باقتيادنا من جديد الى سجن القلعة .

هذه المرة لم تعد مذكرات التوقيف مزاحا خفيفا . وانتقلنا الى الدراما ، الى المؤسسة . وصلنا الى السجن ليلا . وزججنا مع الباقين كيفما اتفق . حشرنا كعلب السردين . من نام منا على جنبه الايمن لايمك ليقلب على الجنب الاخر الا ان يقف وينام من جديد .

المرض علاجه الهواء النقي والمرح والفرح والشمس والنور والاصضاء ، فاذا بنا دفعة واحدة في قلب الحوت : قلب السجن حيث لا هواء ولا مرح ولا شمس ولا اصضاء !.. وخاصة لا زوجة ولا اولاد يملأون النفس املا وبهجة وحنانا .

كان اول القادمين في الصباح السرجان دارسو : راني ففتح الباب وسلم علي قائلا :
« n'en reviens pas » اي اكاد لا اصدق . اني منذهل ان اراك هنا

ثم بعد التعداد استطاع الاتصال بالانجيدان مارتر فاذا به يرسل امرا باخراحي الى المكتب هنالك قدم لي القهوة وامر بنقلي الى زنزانة عبد المسيح ثم أوصاني بان اطلب ما اراه ضروريا من أدوية كما أمر الحراس باخراحي الى الباحة ساعة يطيب لي دون قيد او شرط .

هكذا قبضنا ثمن الاقرار بالفضل افضلا جديدة ، كان عبد المسيح ونعمة ثابت ومن بقي في السجن قد الفوا وجهه ووباءه. لم يعد له اي اثر على اعصابهم . اما نحن الذين القي القبض علينا من جديد فكان علينا ان نبدأ من اول الطريق . من الحرية الى السجن ، ليس العود احمد على الاطلاق . العود ابشع من البشاعة. .. هذا العود بالنسبة لي سيف نو حدين ، حد المرض وحد الظلام .

كنت وعبد المسيح رفيقين واميين وصديقين . ما كان بيننا الانسجام الروحي كما هي الحال مع نعمة ثابت ، الا ان طبعي المنفتح ، والتزامي الدقيق بقسمي الحزبي ، وعدم طمعي بأي مسؤولية او جاه او منصب . جعل مني صلة الوصل بين كل رفقائي قادة أو اعضاء . من القاعدة الى القمة كان يصعب ان تجد لي خصما او منافسا او موتورا .

كنت افضل الاقامة مع نعمة ثابت ولكني لم اكن مستاء من مشاركة عبد المسيح زنزانتة ، فالرجل في ايامه الاولى في الحزب كاد ان يكون لنا قنوة في الصبر والعطاء

والرجولة . كان بيته بكل أفراد عائلته من والديه الكريمين الى شقيقه الى شقيقاته بيتا قوميا اجتماعيا مفتوح الذراعين لاستقبالنا . فكلنا مهما كثر عددنا نلتقي في دار آل عبد المسيح فكاننا بالفعل لا بالقول أصحاب الدار .
من هنا ، كان مقامي مع جورج على الرحب والسعة ، يرعاني دون كلفة ولا تضنح ، كأنما انا قطعة من لحمه ودمه . كان قد صار بإمكاننا الكتابة والقراءة . فكان وقتنا لا يذهب هدرا كما في السابق . الكتاب خير انيس وخير جليس وخير صديق وبصورة خاصة في السجن الانفرادي .
يجب ان الاحظ ان ما حظيت به من امتيازات بسبب سوء صحتي ، وحسن معاملة لي لأمر السجن والسجان ، لم يحملني على التعالي ، ولا على الاغترار ولا على الانخداع بان امتيازاتي تعني الدلع او الاستهانة بالانظمة والقوانين . لقد نعمت بالامتيازات ، غير مسقط من حسابي ان ما يسدى الي ليس حقا بل منة وكرما . وان علي الا أسيء الى المنة والكرام .

جاء دارسو Darsault* يوما ليسري عني وعن عبد المسيح ، وفي يد جورج سيجارة اشعلها خلافا للنظام . لم يكن مباحا ان ندخن الا في الطلعة - الفرصة قبل الظهر وبعده .. ما كنا نريد كلانا ان نحرج السرجان ولانه يدخن لم يشم رائحة الدخان في الزنزانة فكان على جورج ان يطفئها بين اصبعيه وهي مولعة . ففعل واستبقاها في يمينه رغم انها احرقته . هذه ليست رواية . انها واقعة وانا عليها شاهد . وهي ليست من الخوارق ولكنها تدل على ان عبد المسيح كان قادرا على السير بين الالغام دون ان يتعثر كما كان قادرا ان يطفىء النار بين اصابعه دون ان يهتزله جفن ولو احترقت اصابعه .
لم اكن انا في هذه المرحلة قنوة في الصبر كما كنت في السابق . المرض وخاصة اذا فتك بالاعصاب يقلب طبائع الاشياء رأسا على عقب . لقد تعذبت وعذبت عبد المسيح كثيرا . كانت يدي دائما على قلبي . لا تهضم معدتي طعاما ولا تنوق عيني مناما عميقا ، ومع ذلك كنت اتحمل ولو متممرا شاكيا خائفا .
كان اخواننا الشيوعيون لا يزالون في القواويش .. وكانت العلاقات بهم جيدة . كانوا قد اوصوني بايصال بعض اخبارهم فقصدت بيت الشهيد فرج الله الطوق قرب مستشفى الروم كما قصدت بيت الاخ نقولا الشاوي في الزاهرية في طرابلس (بيت شقيقته على الارجح) واوصلت الامانة .
اما الرفقاء فبعضهم راوح مكانه والبعض الاخر مثلي ، شم رائحة الحرية و .. ها هم يعوبون قافلة وراء قافلة ولكنهم اصحاء لا مرضى مثلي .

وجاءتنا وجوه جديدة لم تكن بالحسبان . فهذا شارل شاوول ، وذاك قسطنطين بوتاري .. واخرون واخرون .

اما شارل شاوول فزنيه الاوحد ان زوجته المانية ، وان له علاقات تجارية بالمانيا ، واما قسطنطين بوتاري ، فرجل مصاب بالعتة القريب من الجنون . لا استبعد ان يكون « هتلريا » فيهدفون ان يحسب حسابا للعواقب . هایل هتلر Hile Hitler في وسط ساحة البرج او امام باب السراي الكبير .

شارل شاوول - توفي منذ مدة طويلة . كان رجلا في الخمسين من عمره . ثريا يملك العقارات والاموال الطائلة . السجن بالنسبة له اصعب من جهنم . في جهنم اثرياء كثيرون ينعم بلقياهم ، اما في سجن القلعة فليس فيه الا الفقراء الذين لا حول لهم ولا طول . لقد اثرت ان اربط من خاطره ، واحبب عليه ، لأن الرجل غير منذب ، وغريب عن عالم السجن غريبة كاملة . هذا الذي يسكن فيلا شارع جوستينيان (رأس بيروت) ولديه الخدم والحشم ، ورغباته اوامر كيف له ان يطبق السكنى في خشخاشة الاحياء ؟ .. كيف يعاشر ويزامل ويرافق ارباب الضمائر العفنة ؟

اصبح يلجأ الي ، ذلك الثري الامثل ، كما يلجأ الطفل الى ابيه ، مع اني كنت في عمر اولاده .. لقد ساعدته على اجتياز الايام الصعبة . وهونت عليه ما كان يستهوله من مخاوف على عائلته وثروته ، لم يطل به المقام ، حتى انتشله المحامي (كابوجال) من برائن الوشاة والجواسيس لان الرجل كان بالتاكيد ضحية من ضحاياهم .

لقد حفظ لي هذه الرعاية ، واصبحت بعد عودة الحياة الطبيعية الى العالم ، عند نهاية الحرب ، وكيله العام . ندمت اني تعرفت اليه ، فقد كان لديه ركام من الملفات ، يدعي على كل الناس ، او يدعون عليه ، لا يعطي حقا لاحد الا مرغما ، ويريد الا يأخذ حقوقه من الاخرين الا بالارغام القضائي c'était Un esprit processif .

لولا اني كنت اكاد اعض التراب من الحاجة بعد سنوات الحرب القاسية ، لرفضت ان اكون وكيلا عنه يوما واحدا في دعوى واحدة . حتى مع المحامين المفروض ان يساعده على تحصيل حقوقه ، كان يجب ان يتعامل كما يتعامل مع سائر خلق الله : دعوى على المحامي فلان ، ودعوى اخرى على المحامي فليتان . ونحن المحامين لانقبل دعاوى واحدا على الآخر . فكيف بمن كان مثلي مديونا منذ نشأته في نيا قصر العدل لزملائه المحامين ، الذين هددوا بالاضراب مرتين من اجل اخلاء سبيله !

رحمة الله على شارل شاوول وليته لم يدخل سجن القلعة لتتعرف اليه !

اما قسطنطين بوتاري ، فقد كانت له قصة اخرى .

إنه مصاب كما قلت بالعتة القريب من الجنون . ما ان وطأت قدماه ارض سجن القلعة حتى احس السجناء والسجان ان العصفورية تزحزحت من مكانها وانتقلت الى القلعة .

في القاوش معركة ، اذن بطلها قسطنطين بوتاري . من الضارب ومن المضروب . المضروب الشاكي كان دائما قسطنطين . المسكين . لو تضارب مع نملة لغلبتة النملة ، وجاء الى القضاء مدعيا عليها اذا لم يدع على مجهول !..

علق مع احد الحراس ، فشتمه او اهانه . فاقتاده الحارس الى الانفراد مكبل اليدين والقدمين .

من يستطيع في الزنانات ان ينام ، ان يرتاح ، ان يقرأ ، ان يفكر ، بعد وصول قسطنطين بوتاري ؟ كان يصيح بلا انقطاع : يا حبيب ابو شهلا يا بترو طراد . يا بشارة الخوري ، يا اميل اده ، يا نابليون بونابرت - يا جان دارك ، يا شارل ديغول ، دخلكم لي !

ولما حاولت مع عبد المسيح ونعمة ثابت انتهاره لاسكاته ، بالتني هي احسن : راح يكمل السلسلة : يا عبد الله قبرصي ، يا نعمة ثابت ، يا جورج عبد المسيح دخلكم لي !..

يومين او ثلاثة والرجل لا ينام ، لا يهدأ ، لا يأكل ، لا يرعوي رغم ان قائد السجن امر بضربه لاسكاته !..

ومع ذلك ، فقد كنا نحس انا ونعمة وجورج ان الرجل المعتوه لا يجوز ان يعامل كالعاقل المسؤول . يجب ان يعالج على يد طبيب نفساني . ان ينقل الى العصفورية او اي مكان اخر .. لا ان يضرب ويهان بغلاظة القلب وغلاظة العصا وغلاظة اللسان . واخيرا افرج عنه . الضرب والجوع والصراخ جعلت منه أوهن من بعوضة وأذل من وتد . وقد رقاداً قلنا من بعده انه يلفظ انفاسه ، او ان صوته دخل الى جوفه فما نسمع له من بعد ، لا صوتا ولا نامة ولا نقيقا .

ما مضت ايام على ارتداده الى صوابه ، حتى اصيب بنوبة جنون اخرى ، بعد

منتصف الليل ، افقنا على مثل العاصفة تهب في قلب القلعة . الحراس يتراخضون ، السجناء يتصايحون ويصيحون ، أقفال الحديد تتخلخل .. وسارع احد الحراس يناديني ويفتح لي الباب . قال لي صاحبك البوتاري انتحر !! ..

اصبت بذهول خاصة وانا استيقظ من نوم عميق بعد ان اعطيت المنومات لاغمض عيني . وسارعت الى قاووش قسطنطين . لم يكن يجرؤ احد على مسه او الاقتراب منه لئلا يتهم بقتله . وضعت رأسي على قلبه لأصغي الى صوت نبضاته فاذا به يدفعني بيده ويصيح بي بصوت جهوري بلغة فرنسية مكسرة : **ne touchez pas je suis mort** .

اي لا تمسني لأنني ميت **Ne touchez pas je suis mort** .

ليتصور القارئ انه راح ينجدرجلا ميتا منتحرا ، وان هذا الميت تعود اليه الروح فجأة فيصيح به : لا تمسني انا ميت !!

كاد السجن كله يستلقي على ظهره ضحكا وعبثا .

حمل قسطنطين من بعض حراس السجن ونقل في تلك الليلة نفسها الى .. العصفورية او أي مستشفى لا نعود نرى له وجهها .

لم يكن قد حاول الانتحار بل قدم لنا تمثيلية المنحرمهرجا ، اشد الحبل حول عنقه وعلقه الى خشبة ، ثم كوم الوسائد تحت قدميه ، وطوق خصره بأغطية اخفت الوسائد ، ففكر الزملاء والحراس ان رجليه في الهواء فيما كانتا على الوسائد مرتاحتين كل الراحة ! ..

الجنرال كايو واخلاء اسبيل

حالتي الصحية تسوء ، تتدهور . السجن . نقيض المستشفى ومعتل مفعول اي علاج . المقويات تصبح في مناخه الموبوء مضعفات . الطعام يأتينا بانتظام كل اسبوع ، يوم الاحد . الرفقاء والاصدقاء يحيطونني بما تيسر من عناية ، اخرج ساعة اشاء الى النزهة ولكن بون جدوى وبدون امل . نفضت يدي من اعصابي واعصابي نفضت يدها مني . وزني يتننى ، ينخفض يتقلص .
لا تطلب نفسي طعاما ، واذا اكلت مرغما ، فلا اهضم ، من خمسين كليو ، صار وزني 46 في اسبوعين فقط .

كانت تصيبيني فجأة اثناء النوم خفقات قلب مضطربة ، فافيق وكأنا اصحو من حلم مزعج وقلبي لا يزال يخفق فأرى بألم عيني الجراذين تلعب في زنرانتني وفوق اغطيبي ! ...

في أول النهار اصاب عند الصباح بتسارع في النبض مخيف . كل هذا وجورج عبد المسيح طبيبي الاوحد . الرجل الخشن بطبعه ، وتكوينه الفيزيولوجي والبسيكولوجي يصلح لكل الصعاب وكل المهن ، الا ان يكون طبيبا .

قلت له : يبدو انني لم اعد صالحا للحياة . اوصيكم بالحرب وبعائلتي . فاجابني الرجل الخشن بصوته الاجش : « موت ومعلکش » . اي مت ولا تهتم ! لغتنا الجريدية يلزمها احيانا نوع من التعريب او التفسير ! ..

والواقع ان كل الرفقاء والزلاء في السجن احسوا اني بلغت درجة الخطر . نعمة ثابت يستحث همة الابدجيدان مارترز ، فيحضر ساعة التعداد الصباحية الى زنرانتني ويسألني اذا كنت ارجب في الانتقال الى مستشفى سجن الرمل . الحقيقة ان الانتقال من سجن الى سجن ، ليس له كبير اثر على العافية ، ولكنه تغيير مناخ . قد يفيد فلماذا ارفض العرض . وبالفعل بسرعة تقرر نقلي .

توهمت اني رجعت الى الحرية . رغم الكآبة الصفراء التي ارتسمت على وجهي ، حاولت ان ابتسم وان اودع السجناء في زنزانتي وقواويشهم وداعا حارا . شعوري الخفي اني كنت اودعهم الوداع الاخير . ليس اسهل على السجين المريض من التوهم ان الموت قد يداهمه في اية لحظة ! ..

ليتصور القارئ ، ان حارس السجن دارسو Darsault هو الذي حمل ثيابي عني ، وساعدني على اجتياز الباب الداخلي الى واحة السجن الخضراء ، حيث ودعت نعمة ثابت ومن معه ، كما ودعت امر السجن وكتابه ، وانصرفت ، ما كنت احب ان اساق الى سجن الرمل في العربة المقفلة الابواب . انها تحملني على الاحساس بأني دفن حي . اني حي ميت . اريد سيارة تاكسي . بسرعة لبي السرجان دارسو طليبي . ركبنا التاكسي هو الى جانب السائق وأنا في المقاعد الخلفية .

وصلنا الى ثكنة في طريقنا كان ينقل اليها ملفات . نزل من التاكسي وتركني وحدي وانصرف . باشارة بسيطة كان بمقدوري ان اتوارى رغم اني كنت لم اتعلم هذا الفن بعد . الا اني رغم الانهيار العصبي والوهن ، لم احاول . خطرت الفكرة في بالي فرددتها بون تردد .

وعاد السرجان دارسو فاتجهنا من جديد الى سجن الرمل . حمل هنالك ايضا ثيابي وفراشي حتى مدخل المستشفى .

كنت حيا او كنت ميتا يا دارسو ، تأكد ان اي عمل فيه رفق بالانسان ، لا يمكن ان يضيع او ينسى ! ..

في مستشفى سجن الرمل

لم اكن قد تعرفت شخصيا الى النائب ضابط كمال الزاهد ، مدير مستشفى سجن الرمل . كنت قد قرأت اسمه في الصفحة الاولى من كتاب نشوء الامم ، حيث يذكره سعاده بالخير . لقد عاونه على اكمال الفصول الاخيرة من الكتاب . فلما التقينا وبادرني بابتسامة صديقة ، زالت عني نصف اوهامي وهمومي . انا قادم الى مستشفى سجن الرمل ، وحيدا ومريضا اكثر ما احتاجه الرعاية والدراية . فكان لي في شخص كمال الزاهد اكثر مما احتاج واكثر مما انتظر وأمل . وجاد القدر علي بمنة اخرى لم تكن في الحسينان . الرفيق اميل التركي في المستشفى ايضا . نحن القوميون معروف عنا اننا نقيم للعلاقة الرفاقية الوزن الكبير . يخير الواحد منا بين اخيه

ورفيقه ، فيختار الرفيق . ان وحدة الروح بيننا اهم من وحدة الدم ، وروابط القرى ، بل اهم من الصداقة نفسها ، كل رفيق هو صديق زائد رفيق . لقد تم لي في لحظات ، ما سد الفراغ الذي تركه في نفسي وداع نعمة ثابت وجورج عبد المسيح ، وشلة الرفقاء والاصدقاء في سجن القلعة ، وداع الحراس الذين كانوا قد اصبحوا لنا رسلا وندامى .

لم يكن اميل التركي مريضا بالمعنى الصحيح . ان مستشفى سجن الرمل هو مهرب من قذارات القواويش والزنزانات لكل صاحب نفوذ او جاه او مال . ليس من الضروري ان يكون اهل المستشفى من المرضى . بل الضروري او الاكثر من الضروري ان يكون لهم خارج السجن من يشد ازهم لدى الوزير او الطبيب او مدير السجن او مدير المستشفى نفسه . فالرفيق اميل التركي - على ما بدا لي - قدر بواسطة اخوانه في بيت شباب ان يتدبر اموره ، فاذا به ينتشل من القبر الى الحياة ففي المستشفى طعام مطبوخ وان رديئا . وفيه يسمح بالتدخين . وينام السجين على سرير وقراش وثير . ويستحم بالماء الساخن او البارد . وتصل اليه من الخارج بانتظام اذا شاء الماكل الساخنة الشهية ، متى كان من الموسرين .

اميل التركي كان منهم . ويبدو ان حسن طالعي سهل مجيئه ، لكي لا اكون فريسة الوحدة ، في حالة الانهيار العصبي التي بلغتها .

هنا يبرز دور كمال الزاهد الانسان . ادرك منذ اللحظات الاولى ان مرضي نفسي ، واني بحاجة الى الغذاء والهواء .. والصداقة . كل ما لديه من علاجات صارت ملكا لي حلالا . وقد اقنع الطبيب ان يأمر لي بكأس من الكونياك قبل الغذاء وقبل العشاء . كما افسح المجال لزوجتي ان تمدني بما لذ وطاب من الماكل والفاكهة . الا ان الاسر هو الاسر والحرية لا بديل عنها الا الحرية . لم اكن مريضا باي مرض ، ولا في جسمي اية جرثومة . كان مرضي هو الشوق الى الحرية والشمس .. والحياة . La nostalgie de la liberté .

لقد اكتشف ذلك ، النائب ضابط الانسان كمال الزاهد . ولكنه ادرك بثاقب نظره وصفاء وجدانه ، ان الشوق الى الحرية مرض واي مرض . قد يجد الخبراء علاجا للسرطان ، اما الشوق الى الحرية والحياة عند من يعرفون قيمة الحرية والحياة فلا علاج له ولا دواء الا ان تتفكك الاصفاذ وتنهيار الاسوار وتفتح الابواب الغليظة ! .

ما استغرب ان يكون مناضل مثلي ، صامد في ايمانه ، متشبث بقضيته ، مصابا بمرض الشوق الى الحرية . لكن استغرب لو كنت مصابا بالخوف من السجن او الخوف من الموت . ولكنه تاكد من بعد ما تداولنا من آراء في مكتبه - والمداولة والحوار كانا نوعا من العلاج حسب رأيه - تاكد من اني لا اهاب الموت ولا اخشاه ، بل اتمناه اذا كان السجن سيقويني الى الخوف منه ، ضعفا وهوانا .

لقد كان دأب الرجل الانساني ، الخلق الرصين المتحرر ، كمال الزاهد ، ان ينسيني انني سجين . وبالفعل عندما كان يحمى النقاش بيننا ، وتاخنني نشوة الحماس دفاعا عن قضيتنا ، انسى في المطلق ، اني وراء القضبان الحديدية . الا اني سرعان ما كنت اعود من الغيوم على بلاط المستشفى الساخن في ذلك الشهر من حزيران 1940 .

ان من يقدم لنا نحن القوميين الاجتماعيين كوبا من الماء ونحن عطشى او لقمة خبز ونحن جوع ، او يمد لنا يدا حنوننا ونحن في الازمات والشدائد والمحن ، يظل في وجداننا حيينا ، ونحاول ان ندخله تاريخنا الحزبي .

فكيف بكمال الزاهد ، الذي عاون زعيمنا في مده بما احتاج من كتب ووثائق لاكمال كتابه - الاساس « نشوء الامم » وكيف بكمال الزاهد ، الذي نسي انه مدير المستشفى ، لكي لا يكون له هم الاشفائي وراحتي . انه حي في وجداني ما دامت لي قدرة على التذكر او الاستنكار ! ...

ولم تكن رعايته لي بدافع التقدير والاخوة التي انعقدت بيننا وشائج محبة ووفاء ، بل كان بعضها عائدا الى قناعته بصواب مذهبنا القومي . لقد تسقط من فم سعادة الحجج البيئات على صحة عقيدتنا ، ومن النبع شرب فاستطاب وما كان ما ادلي به انا . الا المزيد من حرارة الايمان ، والمزيد من الحماس والحمية في الهاب حماسته وحميته .

كل ذلك ما منع ان اكتب وصيتي ، لان كل ظواهر « مرضي » كانت تتكرر صبيحة كل يوم . خفقان قلبي ، وفقدان قابليتي ، وغربتي الدائمة ، بين هؤلاء السجناء « المرضى » كانت كلها تقول لي : انك بلغت نهاية المطاف .

ما اتعس ما اذكر عن يوم كنت فيه مع الرفيق اميل التركي ، نتحدث ونقطع الوقت الطويل العريض ، فاشعر فجأة بخفقان قلبي ، فاتطلع في منبه الى جانب سريره لاعد نبضاتي في الدقيقة ، واذا بيدي تنزاح عن النبض فاصيح باميل :

يا اميل وقف قلبي !...

قلتها ، ورحت اضحك حتى كاد قلبي يقف عن الخفقان لكثرة ما ضحكت . والرفيق اميل التركي يضحك ضحكا اكثر جدية ، لانه خاف فعلا ان يكون وقف قلبي !..

ساعت حالي الى حد كبير طلبت لمقابلة زوجتي يوم الخميس في اوائل تموز .. ما كانت رجلاي تحملان بسهولة جسمي النحيل . دركيان تطوعا لمساعدتي على المسير من المستشفى الى مكان المقابلات .

شاهدت زوجتي هزالي فراحت تنتحب دون ان تستطيع مكالمتي .. لم يكن لدائي من نواء الا الحرية فأين اجدها .

الرجل الطيب كمال الزاهد لا يستطيع ان يقدم لي من العون الا المقدار الذي يقدم وكان مقدارا وافرا من الود والاهتمام والشعور الاخوي العطوف .

وفي الخارج ، لا نقابة المحامين مجتمعة ، ولا المحامون فرادى بقادرين على اية مبادرة . فالحرب هي الحرب .

لقد حزمت امري في احد الايام وقررت ان اقدم على خطوة ما رايت فيها مجازفة ولا رأيت فيها هوانا . انا سجين ومن حقي ان اطالب باخلاء سبيلي بداعي المرض . فقدمت هذا الطلب برقيا الى الجنرال كايو geréral caillault قائد جيوش الشرق .

Commandant supérieur des armées du levant

واني لا ازال انكر نص البرقية بحرفيتها :

اني محال امام المحكمة العسكرية لاحاكم بتهمتين هما الاعتداء على سلامة الدولة الخارجية والاعتداء على سلامة الدولة الداخلية ، كلتاهما تقضيان باعدامي . اني مصاب في السجن بمرض عضال يقتلني تدريجيا . ارجو ان تسمحوا لي بالموت بين زوجتي وصغيري الطفلين . ولكم شكري سلفا واحترامي .

تاريخ هذه البرقية العاشر من تموز ارسلتها لتعزية نفسي ولتغذية الامل والرجاء في اعماق ياسي .

ومضت ايام نسيت فيها اني ارسلت مثل هذه البرقية ، لشدة ما كنت اعتقد ان مصيرها الرفض القاطع . ولكن سرعان ما حدثت الاعجوبة .

كنت اجلس الى طاولة عليها بعض الماكل . نبتتها كلها الى الطرف وقربت مني بعض الفاكهة . وكنت اكل بلا شهية . طعم المرارة في حلقي كانما السجن مرض الملاريا والطعام هو الكينا . كان ذلك في 16 تموز 1940 .

فجأة يصل النائب - ضابط الصديق كمال الزاهد ، هاشا ، باشا ، يملأ الفرح عينيه ويبادرني : ما رأيك ان تكمل الغداء في البيت ؟

لم اتحرك . ظننته يمازحني ، ليولد بين الجد والمزاح القابلية والشهية . فقلت له : دعك يا اخي من الهزل فقد سئمت نفسي كل شيء .

قال لي جادا : اقسام لك انك حر . ودفع الي قرار اخلاء السبيل بدون كفالة . فاذا به صادر عن المحكمة العسكرية الفرنسية بتاريخ 16 تموز - اي نفس النهار - وهو موقع من الرئيس الكولونال كاربونييه colonel carbonnier .

قبلت الاخ كمال الزاهد ، وشكرته وانا لا اصدق اني سأعود حيا الى رحاب الحياة !

ثم قفزت الى فراشي ، وثيابي ، اجمعها واربطها بحبل .

ثم .. حملت - انا الذي كان لا يستطيع ان يمشي الا بمعونة الدرك - فراشي وثيابي في حزمة واحدة ، ورحت اسرع الخطى الى الادارة ، ليسمح لي بالخروج من وراء الاسوار .

ما كان احد يدري بهذه المفاجأة الاعجوبة .

لقد حصلت على اخلاء سبيلي من العدالة مباشرة ، دون اية وساطة او شفاعة .

وكان قرار اخلاء سبيلي هو الوصفة الوحيدة لاعادتي الى العافية .

استأجرت سيارة وذهبت الى منزلنا توا .. وفاجأت الجميع بحريتي . وكانت الفرحة وكانت .. الحياة من جديد .

لم امض في بيروت اكثر من اسبوع ، لاجراء فحوصات وتصوير على الاشعة ، ثم قصدت بتعبورة - الكورة بلدة زوجتي . لم اكن استطيع المسير على قدمي اكثر من خمسين مترا . امشي ثم ارتاح هكذا نمرن الاطفال على المشي .

لم يكن مرضي وهميا كما توهمت كنت مريضا بالفعل . الاطباء وصفوا لي الصيد والمقويات من جديد . انهض في الصباح الباكر واقصد حقول بتعبورة واوديتها

وروابيها . الزيتون والكروم كانت معشر اصدقائي . الينابيع على قلتها كانت تروي عطشي ، والطرائد كانت غذائي . اهل بتعبورة واهل القويطع الطيبون احاطوني بالكرم والمحبة واللهفة . ليس كالطبيعة ، كالهواء النقي ، كالماء النقي ، كالشمس النقية ، كالاصدقاء الانقياء بواء لمن اصيب في اعصابه ، لمن ابتلى بفقدان قدرته . ان بعضا من افتدائنا الحرية بدمائنا ، من تعلقنا بالحرية كقيمة عليا واسباسية في الحياة ، ليس نابعا فقط من احساسنا بكابوس الاستعمار على اعناقنا وصدورنا ، بل انه نابع ايضا من معاناتنا الفذة في غياهب السجون ، اثار وعواقب فقدان الحرية ، اثار وعواقب الظلام والقيود العبودية . يتعلم الانسان من الاختبار والتجربة ومن صميم التعاطي مع الحياة ، حب الحرية اكثر مما يتعلمه في الكتب والنظريات والاحساس الغريزي او الوجداني . الذي يتنازل عن حريته يتنازل في الوقت نفسه عن انسانيته .

ستظل عالقة في ذاكرتي ، مشاوير العشية الى « الروس » بين بتعبورة و « كفرحاتا » ولن تغرب عن بالي الامسيات البيضاء على دروبها البيضاء ، في ظلال القمر ورعايته .

ما كنت ابغي اكثر من العافية ، فقد اعتراني الخجل من نفسي ومن رفقائي . ان السجن رماني ارضا ، وانهك قواي الجسدية انهاكا مميتا . ان ايماني بنفسي ، وايماني بقضيتي ، وايماني بشعبي كان سيبقي ايمانا هدارا صاحبا يقدم ولا يتراجع ، يحتر ولا يبدر ، يبني ولا يهدم فكيف اذن انكسر امام وطأة السجن وقيوده وجلاديه .. كيف يرميني المرض ارضا ويمرغ كبريائي .. وسمودي !

مهما قيل ان التفاعل بين الجسد والروح قائم او غير قائم ، انه امر واقع . الجسد الواهي الضعيف المتراخي ، يفقد الانسان صلابة روحه وقدرتها على الاختراق والمغامرة .

اذن كان علي ان استعيد العافية ، ان يعود الي النبض الثوري بزخمه وجبروته . الطبيعة الحلوة ، والاهل الطيبون كانت كافية للعلاج . كانت الدواء الشافي . لم يكن بي حاجة للبحث عن الترياق في العراق . كان العلاج بين يدي وفي متناولني .

رحلات الصيد اليومية ، امتلأ الصدر بالنسمات الصباحية الحنون ، وامتلات العين ، على امتداد النظر ، بالوان الكورة والبحر القريب والجبال الشماء ، وامتلا القلب بالحب والايامن ، وحرية الحركة بعد القيود والاصفاد والوامر والنواهي ، كلها

كانت سلام نضعها درجة درجة للتعافي من برحاء الايام السوداء المساوية .

لم نكن ، لا كحزب ولا كافراد ، مرضى بالنقمة والحقد على فرنسا . فلم نتشف عند انكفاء جحافلها امام الهجمة الهتلرية . لم نفرح كما يفرح الحاقدون .. اننا لم نكن نتمنى لفرنسا ان تنهزم بقدر ما كنا نتمنى ان تعود الى ذاتها وتعتزف بحقنا الطبيعي في السيادة والاستقلال والوحدة ، وكذلك بحق كل الشعوب العربية وغير العربية التي كانت تحكمها بالحديد والنار .

ان سقوطباريس ، ما جعلنا نقيم اقواس النصر للامان . بل اعطانا فسحة من الامل ان الشعب الفرنسي لن يظل مكشرا عن انيابه ، يريد ان يستعبد الامم والشعوب . ان انكساره سيكون امثولة وعبرة وعودة الى ذاته في اصلتها . ان بلد الحرية لا يمكن ان يعيدها على ارضه ، وان يدوسها بقدميه في الخارج . ان حكام فرنسا سيتغيرون ، وان فرنسا الحرة ستحرر كل من استعبدتهم حكوماتها السابقة .

ان كل العوامل ، الطبيعية منها والنفسية والسياسية ، تضافرت ، لتقضي على انهيار اعصابي ، وتسترجعني الى احضان العافية ، والحياة العادية ، المتحررة من الخوف من الموت ، والخوف من الاغماء ، والخوف من الدوار .. هذا الخوف الذي ما فتىء يرافقتني هاجسا ووسواسا خناسا ! ..

ها انا استعيد وزني الطبيعي . انه وزن الريشة !

.. ولكنه وزني الطبيعي انذاك . ها انذا احمل بارودتي واسير ساعات اطارد العصافير والسمن . لم اكن اطاردها بلا احساس ، بلا انفعالات نفسية . كنت اشعر اني ارتكب جريمة ، فالعصافير والطيور يجب ان تتكاثر لا ان تصطاد وتؤكل فيما الطبيعة ملأى بالخضار والاثمار ! ..

اوجت لي رحلات الصيد كتابي « مصرع السمنة » الذي طبع بعد وحي الظلام - وهو مجموعتي الشعرية - وقبل كتابي « نحن ولبنان » فنجب الطيور وقتلها عن سابق تصور وتصميم كانت توقعني في ما يشبه ازمان الضمير . كنت اشعر وانا ازرد لحمها بعقدة الذنب . وكانت تتفاعل في اعماقي مشاعر واحاسيس وافكار ، تمكنت من الملمتها في معتقل المية ومية (الذي سيأتي الحديث عنه) وتبوينها في « مصرع سمنتي » . حدثت لي ، في هذه المرحلة بين 23 تموز واخره حادثة ارويتها باستغراب واسجلها هنا ، لعلها عنصر من عناصر التقدير للباحثين في علم النفس وعالم الارواح ، فقد افقت

يوم جمعة وأنا مضطرب خاطر ، قلق وسردت على مسمع زوجتي حلما شاهدته في تلك الليلة . ففي قريتي ومسقط رأسي دده الكورة فرن قديم اسمه فرن ريمي . رأيت في الحلم يحترق ، ويسارع اهالي القرية لاطفاء نيرانه ، وأنا اشترك معهم بالاطفاء .

سردت هذا الحلم فقالت زوجتي الحبيبة : انه اضغاث احلام . ويوم الاحد اي بعد يومين بالضبط ، يحضر من القرية ، احد احب الناس الي واقربهم الي قلبي ، ابن عمي حنا طنوس القبرصي ، يحمل على ظهره ما عز وهان من الهدايا . سألته بعد ان جلس وارتاح : هل من حادث في دده في هذه الايام ؟ فاجابني : لا حادث يذكر ، سوى ان فرن ريمي احترق ليل الخميس - الجمعة الماضي فسارعنا الي اطفائه ولم تحدث اضرار تذكر .

قلت له : شاهدتكم في منامي واطفات النار معكم بروحي .. أما زوجتي فقد سألتني ومتى تسمع هذا الحديث : الم تخبرني هذه الحادثة من قبل ؟ ..

هذه القصة واقعية . انها انتقال روحي لا جدال فيه . ولكن كيف نفسره ؟ ما هو تحليله وتعليقه . نترك ذلك للعلماء ، وللزمن ليكشف اسرار هذا الوجود الذي بعض حلواته ومفاتيحه انه طلاسم واسرار .. وعلامات استفهام ؟

● النكسة .. والاخرى .. مجموعها نكستان .

كان ذلك صبيحة احد ايام الاحاد من مطلع آب سنة 1940 . دعاني احد كرماء الاصدقاء والرفقاء الي حفلة مأكّل ومشرب . ومن عادة اهلنا في القرى والجرود ان يقدموا لضييف واحد ما يكفي لمئة . انه الكرم الحاتمي ، الذي له جوانبه السلبية ايضا . فالبلخ - بنظري على الاقل - افضل من التبذير والاسراف .

طاب لنا المقام ، فكل شيء يسير باتجاهات صاعدة . ما كان يخطر على بالنا اننا سنكبو كبوة اخرى ، سنصاب بنكسة . من فرط ما أعندق علينا المضييف من كرمه ، اصبنا بنوع من التخمة . عاد القلب الي الخفقان السريع . الحرارة لم تعد طبيعية . صعدت هي ايضا سريعا وعاليا .

قلق الاهل . دعوا طبيب المنطقة الدكتور جورج سابا وهو صديق العائلة الحميم . فوضع سماعته ، ونقر الصدر والظهر . تجهم وجهه . تقلصت اساريه . اصبت بصدمة ، انعكست على الاهل قلقا مخيفا ، قال الرجل اني مصاب بالسل . وان الاصابة بالرئتين معا . وان لا خوف من السل ، فهو قد اصبح سهل الاستئصال او

المعالجة .

بكى الاهل . ولولت زوجتي الحبيبة . هرعت القرية تستطلع تحولت من عيد الى مآتم . كيف يوفقون بين حبهم لي وخوفهم مني وخوفهم علي ؟ ..

تقرر الانتقال في اليوم التالي الى المستشفى الاميريكي في ميناء طرابلس ، مستشفى الدكتور بويز الشهير ، - Dr Boyes - لاستكمال الفحوص بواسطة الاشعة .

امضيت ليلة مضية . كل ما كنت اظنه اوهاما او توهما او تخيلا ، صار حقيقة . ان كل ما اصابني من خفق ، وهبوط وزن ، وضمور جسم ، لم يكن تعباً عصبياً ولم يكن مرده القيد والظلام . كان كما كنت اظن مرضاً كامناً في اطواء الجسد ! ها قد ظهر المرض الذي كنت اتوهمه .

صحيح ان السل في الاربعينات لم يعد مربعاً كما كان من قبل . الا ان كلمة سل ومسلول ، كانت تعني الوباء القاتل . ثم ان السلول يحمل الجراثيم في لعابه . يجب ان يعزل وان ينسلخ عن احبائه وان يظل يبصق دمه الى ان يبصقه العالم الى نيبا القبور ، وحيدا بلا انيس ولا جليس .

في تلك الليلة المضية واجهت الموت . لا يستهين بالموت الا من فقد عقله . لا يريد احد ان يموت . واذا كنا نحن العقائديين نقدم اعناقنا للقطع وصدورنا للرصاص ، فلاننا نحب عقيدتنا اكثر من الحياة نفسها ، لاننا نؤمن انها طريق الحياة لاننا لانخاف من الموت . اذا كنا لانخاف من الموت ، اي فضل لنا اذا قدمنا لعقيدتنا الدم والحياة ؟ ..

ما كنت احب ان اموت مسلولا . كنت احب ان اموت على خشبة رميا بالرصاص ، او في ساحة معركة ، او بأية وسيلة اخرى غير الموت على فراش اصفر بمرض اصفر ! ومع ذلك ، كان لا بد من مواجهة القدر ، بما تيسر من الشجاعة والصمود والصبر . لا يكسرنا المرض الا اذا مكناه نحن من كسرنا بالانكسار امامه .

افقت باكراً ارتدي ثيابي بسرعة . الحرارة ولت مع الليل . لا شيء غير طبيعي لا سعال . لا خفقان . لا دليل على ان المرض متغلغل في رئتي الاثنتين يتأكلهما هنيئاً وأنا لا ادري ولا احس .

كانت زوجتي قد سبقتني . البيت كله لم ينم . الدموع في المآقي . والناس عند

اليأس تدعو وتصلي . كل الناس يدعون ويصلون في وجوم .. وصمت .

الى المستشفى .

الدكتور جورج ضرب لنا موعدا في الثامنة من صباح اليوم التالي . في الثامنة كنا على المدخل . ولم يكن بعد قد وصل .

فجأة اطل من النافذة في الطابق الثاني وجه رفيق كان وجه الدكتور عفيف عبد الوهاب . ها قد اصبح طبيبا يتدرب في مستشفى الدكتور بويز (الدكتور عفيف تركنا من زمان) ..

انن نحن في دار صديقة طالما ان لنا فيها رفيقا .

في التاسعة كنا امام الاشعة تخرق بنورها الكشاف اخر خيط في الرئتين . الدكتور بويز بعد ان اوصاه الدكتور عبد الوهاب - اولانا عناية خاصة .

الورقة التي كنا نحملها من الدكتور سابا وفيها تشخيصه كانت امام الطبيب بويز . وكانت امامه ايضا رثائنا . ونواضيره تصعد وتنخفض . والرئتان سليمتان ، لا اثر للسسل ولا اي مرض فيهما .

في تلك اللحظات الحاسمات وصل الدكتور سابا ناداه الدكتور بويز : تعال يا جورج وانظر الى صدر مريضك « المسلول » كما هو نظيف وواضح Clear and clean .

سمعت .. فلم اغضب على الطبيب الصديق الذي استلبني النوم طوال ساعات . لقد كان حمل على كتفي وتزحزح . لم اعد جرثومة ولا ميكروبا . جسمي لا يزال انن في طريق العافية طبيبي المسكين كان مصابا بالطرش ، فاذا اخطأ التشخيص ليس الذنب ذنبه . انه ذنب اذنه الطرشاء !!

وداعا ايها المرض .. وداعا ايها السجن . نحن في الطريق الشاق الطويل . ونخوض معركة التحرير بلا اوهام ولا .. مخاوف من الموت .

الموت للموت وللمرض والسجن معا . وليسقط الاطباء الطرشان والسسل الذي ينبت من اذانهم الطرشاء ، ليموت امام عيون اشعة رنتجن !!

كان الدكتور بويز مغرما بذبح اللوزتين . يجب ان يستأصلهما من اي زلعم ،

لانهما تسببان امراضا لا تحصى . جاعني مهنتا ، وبالوقت نفسه ، يضغط على ان ابقى في مستشفى ليقطع لورتي ... الحقيقة انهما لم تكونا ملتبهتين ، فلم العملية وبيع الدم والمال معا ؟..

رفضت . وعدنا الى « بتعبورة » بلا سل ولا من يحزنون .

كانت الفرحة اكبر من فرحة العودة من السجن !..

العود من سجن السل احمد .

يومين او ثلاثة واذا بسيارة جيش فرنسي تطل على « الروس » ، لا بد انها تقصدني . فلاخنتف عند الجيران ولتقل زوجتي ومختار القرية اني مريض ، غادرت الى المستشفى في طرابلس وبيروت . دون تحديد اسم المستشفى .

بسرعة البرق نفذت هذه الخطة .

المختار جاهز وكل من في البيت جاهز .

صحت ظنوني ، فالسيارة عسكرية تنقل شرطيين من شرطة الجيش الفرنسي ، وهما ينقلان لي مذكرة جلب الى المحكمة العسكرية لحضور جلسة المحاكمة في 20 او 30 اب 1940 .

الجواب على مذكرة الجلب كان ان المطلوب ابلاغه نقل الى احد مستشفيات طرابلس او بيروت . انه مجهول الاقامة .

قبل الجلسة سارعت الى العاصمة . كان علي ان اجس النبض . ان اتحرى المناخ . الا نزال في عهد التصلب والتشدد والملاحقة الجدية ، ام نحن امام محاكمة سورية ، تصدر من بعدها احكام كاحكام محكمة البداية المختلطة : احكام رمزية تذكرك بالسجن دون ان تتدخلك في عفته .

اذكر القارئ ان اخلاء سبيلي لم يكن بكفالة . كان دون قيد ولا شرط .

جئت الى بيروت ، واقمت في بيت الدكتور يوسف داغر ، كان ولا يزال الصديق المحب الغيور ، عرضت عليه الخطة فتطوع هو والمطران فوتيوس خوري لمقابلة الكولونال فارح Farge مدعي عام المحكمة العسكرية لاستطلاع رأيه في امري : احضر او لا احضر .

وكانت المقابلة .

وكان جواب الكولونال : حضرام لم يحضر ، العقوبة ذاتها . تلك التي سننزلها
برفقائه .

استنتجت : ان الرجل يوصيني بالبقاء متواريا . وتواريت .. انا الان فار من
وجه العدالة .

السل الوهمي نكسة ولو لساعات .

المحاكمة نكسة وان غيابية .

فهل يكون الفرار النكسة الاخيرة بعد ان انتصرنا على النكستين معا ؟

تحت كل سماء.. والمسؤول الأول

تحت هذا العنوان اكتب عن ايام الفرار . الخبراء في « فن » الفرار في الحزب كثرة ، يأتي في طليعتهم جورج عبد المسيح ومأمون اياس وجبران جريج وعبد الله قيرصي وكامل ابو كامل وانيس فاخوري وسواهم . الا ان مدة فرار كل منهم ليست متوازنة . فقد استطعت ان اختفي عبر العالم ، حوالي الثلاثة عشر عاما ، بحيث لم أقص في السجن والمعتقل الا سنتين متقطعتين ، في الحرب الكبرى الثانية وفي ثورة

1949 . اسارع الى التأكيد ان فرارنا - في مجمله - لم يكن من وجه العدالة بل من وجه الجرائم السياسية كلها ويسميتها رجال القانون الجرائم المثالية ، من حق المتهم والمحكوم غيابا ان يتلافى الوقوع في قبضة ملاحقيه فكيف اذا كان الملاحقون مستعمرين بلاده وشعبه وهو يقاتلهم او يعارضهم او يقاومهم ، لتحرير بلاده وشعبه ؟ قد يكون القراء شاهدوا افلاما سينمائية عن فارين من وجه العدالة ، كجان فلجان ، في البؤساء ، « والهارب » Le fugitif وسواهما ، وواكبوا الفارين في مغامراتهم وما يتعرضون له من كمائن وارصاد وجواسيس .. ومشقات ومازق .

ان فرارنا من وجه المظالم هو احد هذه الافلام التي تنتظر من يخرجها . اسف ان أتناول في هذا الفصل موضوع فراري وحده ، مع من صدف ان التقيتهم من رفقائي ، في المغاور او العراء او البيوت الآمنة . ولكن عذري ان الانسان يسجل في ذاكرته ، ما يقع له ، ويفسي روايات او وقائع الآخرين . الذاكرة ليست انسانية في المطلق . انها انانية الى حد كبير !.. انها تلتقط وتحفظ ما يهم صاحبها

اولا !.. عدت الى القويطع ، وهو عبارة عن مجموعة من القرى تبدأ في كفريا وتنتهي في كفتون ، مارة ببدينايل وكفرحات ، منعطفة الى كلباتا ورأس نحاش واجد عبرين . كان القويطع في تلك الزمان - ولا يزال نسبيا - معقلا من معاقل النهضة القومية الاجتماعية . لا يرد لنا طلبا ولا يغلق في وجهنا بابا . ما كان لنا في الثلاثينات

والاربعينات خضع معلى في المنطقه ، والخضع المعلى كان يتصرف باحترار وخصومته
خجولة حيبه .

لماذا القويطع ، ولم اذهب الى مسقط رأسي دده ؟
كان لي دار في دار زوجتي اولا ، وكان القويطع قد وضع تحت الاختبار ، اذ جعل منه
الامينان جبران جريج ومأمون اياس مركزا لقيادتهما التي اختارا لها بتعبوره . لقد
اقاما على الرحب والسعة ، تحرسهما البنادق والانظار والكبار والصغار طوال ستة
اشهر ، فلماذا اختبار منطقة اخرى ، طالما ان هذه المنطقه مرت بالتجربة بنجاح
مبين ؟ ..

منذ عودتي ، بدأ الرفقاء وعلى رأسهم الرفيق الفقيد نقولا فرح ، يضعون الخطط
لحمائتي ، ورصد الغرباء الذين يروحون ويجيئون الى بتعبوره ، علما بأن اية قرية من
قرى القويطع كانت قرية مشرعة القلوب والابواب لاستقبالنا وحمايتنا وحراستنا .
لم يكن لي مأخذ على نقولا فرح الا انه مولع بالقمار . مخلص كريم مؤمن مندفع ،
حاضر الذهن والعزيمة لتنفيذ اية مهمة مهما كانت خطيرة وخطرة . يعد بأنه سينقطع
عن المقامرة – المنوعة حزيبا – ثم تأتي الاخبار عن نقضه لوعوده . يا للقمار من
مرض عصي الشفاء !

جاء هذا الرفيق المأسوف عليه جدا ، فور عودتي من بيروت ، يشير علي ان أهم
بأمري . الحيطه الشامله لتلافي الوقوع في يد السلطة ، وتأمين معيشة عائلتي فالرفقاء
يعرفون انني لا املك شروى نقير ، وان اهل زوجتي ليسوا من الاثرياء ليحتملوا الانفاق
علي وعليها في زمن الحرب !؟ ..

انكر الرفيق نقولا كما انكر الرفيق جورج الياس صعب ، لانهما توفيا . اما الاحياء
فلا انكرهم بالاسماء لئلا انسى احدهم ممن اعطوا وسهروا وضحوا . العالق في
ذهني ، ان ليس بين اهل المنطقه من يستحق الا ان انكره بالخير . الرفقاء جورج رشيد
شاهين وجورج الياس صعب والصديق الياس خليل فرح ، والرفيقات نبيهه واملين
وناهيل صعب والياس نصر وزوجته كتر .. وسواهم جعلوا من منازلهم مضافة
للامينين جريج واياس ، فلما جئت استمروا في هذا التقليد الذي اشتهروا به منذ بدء
رحلة الفرار ..

انا « المسؤل الاول »

مأمون وجبران اعتقلا في اواخر تشرين في بيروت ، فلم يبق في رحاب الحرية من قادة

الحزب الا انا ، فأطلقت على نفسي صفة « المسؤول الاول » ، ورحت بالاستناد الى اسباب موجبة تسلسلية متماسكة ، اصدر المراسيم (١) والتعاميم على ان مسؤولياتي - صلاحياتي - متحدرة من الزعيم نفسه الذي عينني في المجلس الاعلى ، صاحب السلطة العليا ، والذي لم يبق من اعضائه حرا الا انا . فالواقع يفرض - عند استحالة الاتصال بالمسؤولين - ان يتسلم كافة المسؤوليات من بقي من اجزاء السلطة ، وان لم يكن على ذلك نص دستوري ، بوصفه الحائز الوحيد الشرعي على كل حقوقها وصلاحياتها . كان يجب ان نجد مخرجا دستوريا فوجدناه وان يكن لا نص عليه منذ ان اتفقت مع الرفقاء في بتعبيرة خاصة والقويطة عامة ان اكون في منطقتهم ، حملتهم مسؤولية صيانة حرיתי ، ومعاونتي في ممارسة صلاحياتي ، فكان اول المتطوعين نقولا فرح الذي ارسلته في مهمات صعبة وبعيدة ، فنفذ الاوامر بروحية رسولية .

« المسؤول الاول » كان مسؤولا اولاً عن استعادة قواه كاملة . كيف يقود حزبا تمتد فروعه عبر الشام ولبنان ، وفي زمن الشدائد والاهوال والخوف من الجوع والموت ، اذا لم يكن ممتلكا كل طاقته على التفكير والتحرك ؟ !

الهاجس والوساوس ، بعد اخر هزة ، في مستشفى الدكتور بويز ، خفت وطأتها وهي في طريق التلاشي ، لتدخل من بعد في النسيان والعمتة . الا ان الاعصاب ليست ملكا كاملا لصاحبها فالاحداث الجارية والعوامل النفسية والمحيط كله ، تؤثر في انتظامها او اختلالها ، تؤثر مباشرة . لولا ذلك ، اي لو كان الامر يتعلق بالارادة وحدها ، لكان يجب ان تكون شمس الحرية شمس الشفاء التام لان الاعصاب ما وهنت الا في ظلام السجن .

هنا اعترف ، بدون مواربة ، ان الهموم العائلية وخاصة المعيشية منها ، تلعب نورا اساسيا . لقد ذكرت سابقا وكرر ان المعلم ، كان يريدنا ان نقتدي به جميعا ، فنرفض ان نبذل اي جهد الا من اجل الحزب والقضية ، كان يريدنا رهبانا مجندين لخدمة الحزب والقضية ، واما المال فتانوي ، لان الخزانة العامة لا بد ان تمتلئ بالاشراكات ، تبعا لنمو الحزب واتساع رقعته وتكاثر عدد اعضائه . اما نحن فما كان بإمكاننا ان ننتظر الخزانة العامة لنعيش ، فقد سبق ورويت ان امرنا بالصراف صدر للخازن العام بان يدفع لي خمس ليرات سورية ، مقابل نفقات اقامتي وتنقلي في دمشق مع العميد زكي النقاش سنة 1935 ، بقي في حوزتي مؤجل التسديد

حتى سنة 1956 حيث فقد مني .. وضاع .

لهذا السبب ورغم اني في بتعبورة عند اهل زوجتي كنت قلقا على معيشتنا ، فلا انا ولا هي ، نرضى ان نكون عائلة عليهم ، خاصة ونحن في زمن الحرب ، والبنات التي تزوجت لا يسأل عن معاشها ومعاش اولادها الا زوجها ، صعب على المرأة ان تطلب من ابوها ما تطلبه من الزوج . تلك طبيعة الحياة ولا يمكن تغييرها بمرسوم ! ..

لمعلومات من يهتموننا بالتعامل مع الالمان والاطليان انكر ان المبلغ الذي استطاع المسؤولون تخصيصه لي - انا المسؤول الاول - كان خمس عشرة ليرة سورية في الشهر . في مثل هذه الظروف الصعبة كان علي ان انتج ، فاخبط واوقود الحرب ، وعيني على زوجتي وطفلي ، كيف يعيشون على حساب الجد والجدة والاحوال والاعمام ! ...

مركز القيادة

كان اسمي قد اصبح جورج دوماني بانتظار ان يصبح جميل حوراني ومعروف حمدان وعبد السلام النابلسي . واتخذت مقرا للقيادة حيث كان العميدان جبران جريج ومأمون اياس ، منزل جورج وحنا والياس رشيد وربة البيت المناضلة الغيورة دبية رشيد .

البيت بيت قومي اجتماعي حتى كتابة هذه المذكرات ، الا ان كل الذين كانوا يقيمون فيه ، يؤمنون لي الزاد والحراسة اصبحوا في المكسيك فجورج رشيد ودبية رشيد واولادها هاجروا بعد الحرب توا . يقع هذا البيت على مطل لجهة « الروس » يتحكم بالقرية من كل جوانبها ، كأنما الذي بناه كان قائدا عسكريا يخطط لاحتلالها .

وبالنسبة لفار من وجه المظالم مثلي ، كان نقطة استراتيجية ممتازة . فالوصول اليه يتم عن طريقين ، كلتاهما كانتا تحت الحراسة بجميع الوسائل المتوافرة لدي . ثم عندما كانت تنق صفارة الانذار ، وكان عندها صفارات للانذار على قدينا - كنت اسارع للخروج من احدى النوافذ ، فاذا انا مخفي بين اشجار الزيتون والكروم ، وفي لحظات اصبح في الوادي ، اختار طريق الهرب اما الى الكورة واما الى بلاد البترون واما الى الساحل .

سيده البيت دبية رشيد تحسب في تاريخ الحزب من المناضلات القوميات الاجتماعيات ، فهي كانت العين الساهرة علينا ، ورغم تقدمها في السن الآن في مكسيكو العاصمة لا تزال على ايمانها ، بعد ان ربت للحزب ثلاثة اعضاء عاملين البكر بينهم انطون ورفيقتين مناضلتين انيسه و .. يحمل المسؤولية الاولى هناك وقد رشح

مؤخرا لرتبة الامانة .

لم يكن ال رشيد من الاثرياء كما هي حالهم اليوم في المغربيات . ولكنهم كانوا في طليعة اهل بتعبورة كرما وايماننا .. لقد كنا نشعر – نحن المطاربون الهاريون من وجه العدالة حسب التعريف القانوني – اننا لسنا فقط محتضنين ، مغمورين بكل الحنو وكل الرعاية وكل المحبة ، بل اننا نحن اصحاب الدار ، ما كانت تطالعنا وجوها الا بالترحاب والتأهيل ، في اية لحظة نفاجؤها ، ليلا او نهارا . انها مقر القيادة بحق وحقيق ، بلا خوف ولا خشية ، بل بطواعية محبة ولهفة مؤمنة .

هذا البيت – وكل بيوت بتعبورة ومن بعدها القويطع كانت تمثل لنا نحن القوميين الاجتماعيين بيوت بلاننا . كنا نعتبر ان كل بلاننا بيوت مفتوحة لاستقبالنا وحمائتنا ورعايتنا ، لاننا لم نؤمن بقضية تهم طائفة او فريقا او منطقة ، بل آمننا بقضية جامعة شاملة ، ترفع من شأن الوطن والمواطن ، في كل زاوية من زواياه وكل جهة من جهاته لتحقيق بالنتيجة وحدته الكبرى ، مبنية على اركان ابدية وحدة الحياة ووحدة المصير ووحدة المصالح المادية والنفسية .

كنا احيانا نهبط الدار ومعنا بعض المتطوعين للحراسة ، فاذا كان الصغار لا يزالون مستيقظين كانوا يتصايحون : أجا العسكر ...

اجل نطق الاطفال بحق . اننا عسكر الوطن ولا نزال تشهد على ذلك حفلة تخريج كتيبة سعيد العاصى احدى فرق الجيش القومي الاجتماعي ، جيش الشعب والامة ، لا جيش طائفة او فئة او عائلة ، الكتيبة التي خرجناها منذ ايام قليلة .

لقد اوحى لي ، الصبية انيسة ، ابنة هذا البيت السمرء المقطع التالي من كتابي مصرع السمنة – الطبعة الثانية :

« اي شيء احب في الكون من « انيسة »

« تلك الحمامة الوديعه الصبور

« تحمل سلتها وسكينها

« تصطاد الهندياء من قلب الحقول والادوية

« وهي تغني ،

« ثم تحملها الى البيت

« وهي تغني »

« وتطعمها الى اخوتها الصغار »

« بينما امها تجهد نفسها في العمل »

« حفاظا عليهم جميعا .. »

« اي فضيلة اثن من فضيلة العمل بالغناء والمحبة » ؟ ! .. »

من بيت آل رشيد (آل شاهين) مركز قيادة مأمون وجبران ، ثم مركز « المسؤول الاول » كانت الخطة الامنية للفارين من وجه المظالم ، ان ينتقلوا من دار الى اخرى ، فينامون لا يدري احد اين ينامون الا الحراس من الرفقاء والمواطنين ، الذين كانوا يتناوبون طوال ساعات الليل على الحراسة اليقظة وان تحت الامطار !

شتان ما بين الفرار تحت رعاية الاهل الخيرين والرفقاء الخمسين المؤمنين الغياري وبين الاقامة في سجن الجردان والفئران .. والجراثيم ... سجن القلعة او سجن الرمل .

انها لنعمة - مهما كانت نسبية - ان يظل الانسان حرا طليقا بين الاودية والحقول والروابي يلتقي ساعة يشاء وزوجه واولاده واصدقائه ورفقائه، مقابل النعمة في الاسر ، النعمة الفاخرة فاها ابدا لا يتلذذ اي لحظة فرح او هدوء او طمأنينة تخطر في دهاليز السجن او بال السجين ! .. »

(١) اثباتنا لهذا القول عثرت عن الامين جبران جريج على وثيقتين انشرهما ملحقا لهذا الفصل وقد اصدرتهما بوصفي المسؤول الاول

الحزب السوري القومي

مكتب المسؤول الاول

مرسوم

ان المسؤول الاول ،

بناء على الصلاحيات التامة المتحصرة الينا من حضرة الزعيم الجليل عن طريق المجلس الأعلى ،
وبناء على المرسوم السابق الصادر بتعيين مجلس العمدة برئاسة السيد معروف حمدان .

ولما كانت الصعوبات المادية ووسائل النقل وحالة المنفى القسرية تمنع

المسؤول الأول من الوجود الى جانب المجلس المذكور لممارسة صلاحياته .
ولما كانت الاعمال الحزبية الناشطة في الآونة الأخيرة الى تنظيم القوميين في
مختلف المناطق في جبهة منيعة استعدادا للطوارئء توجب السرعة في حل المشاكل
العارضة وتتطلب تمركز الصلاحيات في مكان واحد .

يرسم ما يأتي :

مادة اولى - يخول مجلس العمدة المؤلف برئاسة السيد معروف حمدان
الصلاحيات التشريعية والتنفيذية .
مادة ثانية - يبقى حق البت في سياسة الحزب العامة منوطا بالمسؤول

الأول .

مادة ثالثة - ان مجلس العمدة مسؤول في ممارسة اعماله التنفيذية
والتشريعية امام المسؤول الأول .

المسؤول الأول

28 مايو 1941

الحزب السوري القومي

مكتب المسؤول الأول

صادرة رقم 9

ايها الرفقاء :

الى حضرة نائب رئيس مجلس وكلاء العمدة واعضاء وفد المفاوضات المحترمين
ايها الرفقاء ، علمت انكم اجتمعتم وقررتم انتداب وفد برئاسة السيد ا . . لمفاوضة
لجنة منتدبة عن الهيئة الشعبية « حزب الدكتور شهبندر » للاتفاق معها .
اني اريد ان ألفت نظركم الى ان قراركم لا ينطبق على تقاليد الحزب السوري
القومي الدستورية . فان المسائل العقائدية والسياسية انما يناط امر البت بها
بالسلطة التشريعية ولما كانت الصلاحيات التشريعية منوطة بنا كما تعلمون ، فان
البت في القضايا العقائدية والسياسية راجع الينا . فكان يجب قبل أي شيء آخر ،
ان تعرضوا علينا - بالرغم من كل الصعوبات - القضية التي وصلت اليكم من
دمشق لنقرر إذا كان هناك من موجب للمفاوضة اولا . اما وقد وضعتكم المسؤول
الأول امام امر واقع فاني اطلب اليكم ان تتقيوا بالخطوط الآتية :

ان المجلس الأعلى للحزب السوري القومي الحائز على الصلاحيات التشريعية
والتنفيذية كافة كان قد اجتمع بكامله ، الى الدكتور شهبندر في اواخر يناير 1939
وتباحث معه في نقاط سياسية وعقائدية شتى وقد فوض المجلس يومئذ كاتب هذه
السطور لتدوين تقرير يضاف عن المقابلة واستنتاجاته منها وفي الواقع وضعت تقريرا

مسهبها ارسل الى حضرة الزعيم في البرازيل انتهيت بنتيجته الى القول ان الدكتور شهبندر شخصية تماشي الظروف دون ان يكون لها هدف الا تهديم بعض رجالات الكتلة الوطنية من اعدائه القدماء كجميل مردم وشكري القوتلي .

ومن البديهي ان الذين يتسلمون زمام الهيئة الشعبية من بعده سوف يدرجون على غراره وقد زيد على اهدافهم الان هدف جديد الانتقام لدم الشهبندر المهودر .

هذا من جهة داخلية اما من جهة خارجية فان الشهبندر كان من مؤيدي الانكليز وعملائهم في بلاد الشام . وقد قرأ الرئيس ثابت احد تصريحاته في جريدة البيرق وهو في السجن فاخذ ينثر على شخصه الحمم مستشيطا غضبا وحنقا ولو ما .

فمن الوجهة الداخلية ومن الوجهة الخارجية لا تتفق اهدافنا - حتى المستعجل منها - مع اهداف اتباع الشهبندر . بقي ان نحل مع العقدة الحالية ، عقدة المفاوذة .

لقد انتدبني الزعيم الجليل في فبراير 1938 لمفاوضة المعارضة والكتلة في دمشق . وقدمت له بيانا حينذاك مفصلا عن الجبهتين المتناحرتين في دمشق وقلت ان الحياذ النزيه المدرك كان اوفق خطة ينهاجها الحزب السوري القومي بانتظار انتهاز الفرصة الملائمة لتزعم الحركة الوطنية في دمشق . واليوم لا اقول بأن رأيي ما زال مستقرا عند ذلك الحد فقد تبدلت الظروف وانا اعرف ان الحزب القومي المزمع ان يتسلم زمام الامر في الامة السورية يجب ان يكتسب العدد الاكبر من الهيئات الشعبية وان يكتنز قوى يصح الاعتماد عليها عندما تحين ساعة العمل الحاسم . ولكن هذا المبدأ لا يجوز ان يصطدم بمبدأ آخر هو المبدأ المقدم على كل شيء بل هو عند وجود الحزب السوري القومي : مبدأ ان لا نضحى بعقيدتنا او نظامنا او تقاليدنا في سبيل اي ربح مستعجل . فيجب ان تكون أسس المفاوضة مرتكزة على هاتين النقطتين الرئيسيتين .

ومن الوسائل التي تدعم مركز المفاوض القومي على النظام الحزبي : فالمفاوض القومي لا يستطيع ان يبرم اتفاقا بل ان يضع مشروع اتفاق . فاذا رأيتم ان وجهات النظر تتقارب وان حسن النية رائد المفاوض الشهبندري لا الاستفادة واللعب فيمكن ان توضع أسس اتفاق لا يصبح نافذا الا متى عرض على المسئول الاول واقره .

بقيت نقطة توجيهية هامة : لقد كان الزعيم الجليل يكتب لنا من البرازيل
ورسائله لا تزال محفوظة في اماكن مجهولة ، ما يلي :

« فاوضوا الدكتور شهيندر على أساس ان يساعدنا بكل قوة وكل اخلاص
وتعهدوا له باسم الحزب السوري القومي بانه يكون هو رئيس الجمهورية في
المستقبل والزعيم رئيس الحكومة » .

فمن هذا التوجيه يستفاد امر لا مناص من التقيد به : جعل الدكتور شهيندر
وجماعته تحت تسلط الحزب السوري القومي لا الحزب السوري القومي تحت
تسلط الشهيندر وجماعته .

اني ساع جهدي لتدبير بعض المال والحضور اليكم بصورة سرية وسريعة
ومتى وصلت اكون الى جانبكم وتسير المفاوضات في الطريق المرسومة من قبل الهيئات
الشرعية الفاهمة في الحزب السوري القومي والا فلتكن هذه الرسالة امامكم في كل
ما تقولون وتقررون لنظل جميعا في مأمن من العثرات وتبقى مقرراتنا خاضعة
للمجرى التقليدي في الحزب السوري القومي ولتحي سوريا وليحي سعادته .

6 يناير 1941

المسؤول الأول

اثبات الوجود في ميادين النضال

كما انه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، كذلك لا يحيا النضال فقط بالفداء وارهاب الخصوم والاعداء . النضال قد يكون من وجوهه الصالحة الصبر والاحتمال والصمود واثبات الوجود بشتى الوسائل ومنها تحدي الاعداء المستمر ومقابلة الاتهم الحربية وسلطانهم بما أسميه العصيان السلمى على طريقة غاندي .

ان تراثنا النضالي نحن القوميون الاجتماعيين ، لم يكن ثورات ومحاولة انقلاب واعمال عنف فقط ، لقد كان تحديات ... وكان صمودا . وتبدو قيمة هذا النضال التاريخي على حقيقتها - نون مبالغات ولا مباحاة - اذا قارنا تمسكنا بعقيدتنا ومناقبنا ، في زمن الانانية الفردية ، التي تكاد تكون الطابع البارز في تصرفات وسلوك سواد شعبنا الاعظم ، مجبرانا ان اردد بعض العبارات التي شدد عليها سعادته ليصف الاوضاع النفسية للامة عندما اقدم على تأسيس الحزب ، ومنها العين لا تقاوم المخرز ومن بعد حصاني لا يثبت حشيش ومن أخذ أمي صار عمي ، والايدي المافيك ليها بوسها ودعي عليها ... بأسف وألم نقول ان الاكثرية من بني قومنا كانت - ولا تزال نسبيا - على هذا المذهب المنفلت من أي ضابط أو رادع او ... اخلاقية اجتماعية القادر - الذي يطلق عليه اسم الزعيم بمعنى المترجم - هو الذي يمكنه ان ينقذ اعوانه ومناصريه وأتباعه من عدالة القانون ، بل هو الذي يتمكن من اخضاع كل القوانين لمشيئته ورغباته .

في هذا المناخ تأسس الحزب ، وفيه استمرينا في غياب المعلم ، ننشط ونثابر عاملين على التوسع والتبسط ، في كل مناطق لبنان وما انفتح علينا من الكيانات السورية .

لقد كان موضع اعجاب المواطنين بنا واقبالهم علينا اننا مارسنا عقيدتنا بلا

خوف ولا وجل ، واقدمنا على التضحيات الجسام بلا تردد ، انطلاقا من ان حق الامة علينا هو ان نفتديها بالدماء التي في عروقنا .

لقد اعجب الناس ، في زمن الانانية والانتهازية ، ان يقوم حزب بهذه المثالية الفذة .

بدأت مدرسة العطاء والفداء تفعل في نفوس المنتمين الى الحزب . طبعاً تفاوتت درجات التلبية والبذل والصمود عندهم . الكثرة ظلت في موقع الثبات والقلة سقطت على جوانب الطريق . الا ان الصفة الملازمة للاعضاء كانت التلبية ، وتنفيذ قرارات وتعليمات القيادة . من هنا ، لم نكن نضع خططا من اجل الخط . كنا نضع خططا ، وكلنا يقين ، ان القوميون الاجتماعيين سيتوافرون على تطبيقها والتقيدها تقيدا تاما .

روح العطاء والانضباط والسرعة في التلبية ، كانت الاسباب الرئيسية ، لبناء تراثنا النضالي ، واغناثه باستمرار . ان ينابيع النضال في الحزب السوري القومي الاجتماعي - ينابيع لا يمكن ان تنضب ، ولا يمكن ان تتجمد .

يخطر لي ، في هذه المرحلة الشاقة ، حادثتان بارزتان . الاولى جرت سنة 1937 ، عندما صدرت اوامر القيادة الى القوميون الاجتماعيين بالتوجه الى مخافر الشرطة والدرك ، على اثر ما أشيع عن اساءة معاملة الزعيم والتسويق في محاكمته والطلب الى امار هذه المخافر قبولهم سجناء طوعيين لأنهم لا يطيقون ان يكون زعيمهم اسيرا وهم طلقاء . انهم يريدون من السلطة ان تجد أي مادة قانونية لتودعهم السجون ، وانهم باقون في المخفر ، لا يخرجون منه الا بقوة السلاح .

بعض قادة المخافر استقبلوا المبادرة الفريدة في تاريخ لبنان - والعالم العربي اجمع على ما اتصور - في ان يطالب فريق من الشباب المثقف ايداعه السجن ، فيما يخشى الناس كلمة سجن ، ويتهربون منها بأي ثمن ولقاء أي تنازلات ، استقبلوا هذه المبادرة الفريدة بروح رياضية ، بحكمة ومحبة لهؤلاء الشباب واعجاب بهم ، فعالجوا معهم الموقف بالحوار مع مسؤوليهم ، واستطاعوا اقناعهم بالعودة الى مدارسهم وجامعاتهم او منازلهم ، لأن القانون لا يخول رجال الضابطة العدلية ان يأمرؤا بحبس أي مواطن نون مذكرة توقيف من القضاء .

اما البعض الاخر ، والارجح ممن يكرهون الحزب لأنه سوري وقومي

ومطالب بالاستقلال والسيادة والوحدة ، فقد صبوا نار غضبهم على القادمين وخرجوا اليهم بالبنادق ورؤوس الحراب ، كما جرى في اميون - وكان رئيسنا الحالي الدكتور سعادة مع المهاجمين وبهزاد نصار وحنا الرمادي ابراهيم بشارة واديب بربر وميشال خوري والفقيه الغالي يعقوب جبور وسواهم وشباب القويطع والسهل الكوراني - فتصدى لهم الرفقاء بالحجارة والعصي و ... الايدي . فوقع بعض الجرحى وادخل عدد منهم الى سراي اميون قيد التوقيف .

وجرت المحاكمات عن هذه البادرة الفريدة . الا ان طرافتها وسن القائمين بها واهدافها السلمية دفعت بالقضاء ، بين الشمال وبيروت والجبل ، الى انزال عقوبات رمزية بالفاعلين : ثلاثة اسابيع سجن وبعض الجزاء النقدي غير الباهظ . عندما جاءني الدكتور سعادة والباقون لادافع عنهم في محكمة استئناف جزاء بيروت قلت لهم : طالبوا بتصديق الحكم وكونوا سعداء اذا صدق . سجل القوميون احتجاجا ، تقريبا في كل مناطق لبنان ، على اعتقال سعادة واساءة معاملته ، واثبتوا ان الحزب صار كائنا حيا سواء كان زعيمه سجيئا او طليقا ، كما اثبتوا انهم قادرون على تنفيذ اي امر ، ولو اقتضى ان يبذلوا دمهم في سبيل تنفيذه .

اهم مظاهر النضال ، الرفض . واهم مظاهر التخاذل الاستسلام . وقد رفض القوميون واحتجوا . فكان رفضهم لبنة جديدة في بناء تراثهم النضالي ، اثباتا لوجودهم في زمن الخوف والرعب من حراب السنغاليين ورضاصهم ومن تأمر بعض رجال قوى الأمن مع الاجنبي ضدهم .

وفي الساعة نفسها والنهار ذاته ، كان الامين عبد الله سعادة باسم جلال طالب يقف في ساحة الشويفات فيلقي نفس البيان ، كما كان يلقيه الامين نجيب صعب في عفصديق وواخرون في امكنة اخرى .

في وقت كان السلطات والمواطنون يعتقدون ان قادة الحزب ومناضليه في السجون ، لا حول له ولا طول ، ينيري القائدان المتواريان جريج واياس ، ينظمان بيانا يقول للسلطات الانتدابية لا ، كما يقول لها نحن هنا . ان الحزب ، مهما تكن الحرب ونتائجها ، ومن يكن المتحاربون واهدافهم ، يتمسك بقضيته القومية ، ويعتبرها قضية الخلاص من الانتداب والضعف والتراجع والاستسلام ، ويعمل لها ، غير مكترث بما كان يلاقي من اضطهاد وملاحقات واتهامات .

انا نفسي لم اشعر ان اجتماعا يعقد في باحة كنيسة بتعبورة الخارجية . تم القاء البيان ، في بتعبورة ، كما تم في سائر المناطق اللبنانية بسرعة غريبة . ما ان اعطي رجال الامن خبر الاجتماع وتحضروا لتفريقه بقوة السلاح ، بعد الاتصال برؤسائهم طبعاً ، حتى كان الخطيب والسامعون ، قد تفرقوا دون أن يعرف احد من هو هذا الخطيب ولا من اين اتى ، ولا اين هو قاصد ...
كان مأمون وجبران يبتكران اساليب للعمل الحزبي ، يوماً بعد يوم ، فلا يهدمان ولا يتركان الاعضاء في اي مكان يهدأون او يستسلمون للراحة او للاستكائة .
ما هو القاء بيان باهمية القاء قنبلة او خطف طائرة او احتجاج اعداء ، الا ان طريق النضال الطويلة ، لا بد ان تبدأ بالاحتجاج والرفض ، لتصل الى الكفاح المسلح ! ...

المحاكمات العسكرية :

انا اذن مجهول محل الإقامة ، ساحاكم كفار من وجه العدالة . اما الباقر فسيمثلون امام المحكمة العسكرية الفرنسية ، ليحاكموا باسم الشعب الفرنسي ، على الأرض اللبنانية بتهم محاولة اسقاط الحكومات الواقعة تحت الانتداب الفرنسي ، وتغيير شكل الحكم واثارة الحرب الاهلية ومقاومة السلطة المنتدبة وتآليف جمعية سرية الخ ...
لم اكن الغائب الوحيد ، الزعيم نفسه الذي كان موجودا بارجتين حوكم بنفس التهم ، كفار من وجه العدالة ايضا . هكذا يشاء القانون ولا مرد لمشيئته !
لقد شغلت وزارة الخارجية الفرنسية بناء على طلب القضاء العسكري الفرنسي سفاراتها في البرازيل والارجنتين لمعرفة محل اقامة المعلم . كان المحقق يعتقد انه في المانيا او ايطاليا يعد العدة للدخول مع جيوش المحور الى البلدان الواقعة تحت الانتداب الفرنسي والبريطاني ، ليحقق الغاية التي رسمها لحزبه .
لم يصدق القضاء العسكري ان سعادة موجود في الارجنتين الا بعد ان ارسلت السفارة الفرنسية فيها صورته واقراراً منه بخط يده انه هو انطون خليل سعادة مقيم في بوانس ايرس ، في شارع كذا رقم كذا
نصف الضغط الذي كان ينيخ على صدورنا ونصف التهم التي كانت تنصب على رؤوسنا زالت عند وصول هذه الوريقة الى مكتب قاضي التحقيق وبؤائر الاستخبارات في المفوضية العليا ...
خصومنا واعدائنا هم هم في كل مكان تحت الشمس . ان سعادة الذي كان

معروفا في البرازيل والارجنتين واميركا الجنوبية كصحافي نابغة ورجل فكر متفوق ، رغم انه في مطالع شبابه ، سجن في سان باولو (او ريو دي جانيرو) مع مرافقيه اسد الاشقر وخالد اديب بسبب وشايات هؤلاء الخصوم الاعداء . انهم « الانعزاليون » الذين يحاربوننا اليوم بالسلاح والارهاب والتحالف مع اسرائيل هم انفسهم الذين وشوا به غدرا ، على انه نازي او فاشستي ، وانه متحالف مع المانيا وايطاليا ... ثلاثة اشهر قضاها في السجن البرازيلي مع مرافقيه لتثبت براءته الناصعة بعد تحقيق دقيق قامت به السلطات البرازيلية . في المحكمة العسكرية الفرنسية كان اسم انطون سعادة على رأس لائحة المتهمين . التحقيق كان يدور حول علاقات اجنبية ، واموال اجنبية وكانت التهمة – المحور هي ان الحزب عميل فاشي او نازي . فلما انتهى التحقيق – وكان القومندان فيتي كما اسلفنا القول هو المحقق – ما استطاع رغم الضغط الذي غرقنا به فيما بعد ، ان يحيلنا وسعادة على رأسنا بتهمة الاعتداء على سلامة الدولة الخارجية (اي التعاون مع العدو في زمن الحرب) واكتفى بالاعتداء على سلامة الدولة الداخلية ، اي العمل ضد الدولة المنتدبة لازالة الانتداب وقلب الحكومات اللبنانية والشامية التي كانت صنيعة الفرنسيين وخامة مآربهم .

لقد ثبت للمحقق يقينا بطلان التهمة ومنع المحاكمة عنا في تلك الظروف الحرجة التي كان مطلوب فيها رأس زعيمنا ورأس كل واحد منا خاصة نحن القيايين . العلاقات الاجنبية امام القضاء العسكري كما امام القضاء المدني ايام القاضي روسا اندحرت الى غير رجعة . الالة التي لدى الفرنسيين ضدنا ، كانت فقط نصوص دستورنا وبعض تقارير الامن العام ونظامنا المركزي التسلسلي ، وبعض ما ورد في بياناتنا الداخلية عن انشاء ميليشيا قومية ، والى جانب ذلك مناشير صادرة عن الحزب في لبنان سنة 1938 او عن الزعيم في الارجنتين سنة 1939 .

ان الامين جبران جريج لا يزال يحتفظ في جعبته بقرار الاتهام الصادر ضده وضد اسد الاشقر ومأمون اياس وفارس معلولي وعبد الله ايوب في تشرين الثاني سنة 1940 وسينقل تفاصيل محاكمته مع رفقاءه في محاولته الجدية لكتابة تاريخ الحزب . لست متأكدا من موعد المحاكمة العامة سنة 1940 . لقد جرت اما في 20 آب او في الثلاثين منه . ارجح الثلاثين على العشرين ويمكن استثبات الموعد من الصحف الصادرة آنذاك .

لا استطيع ان أنشر شيئا اكيدا عن المحاكمات العسكرية لاني كنت غائبا عنها ، كما ذكرت فوق ، الا ان ما رشح الينا عنها ، وهو قليل جدا ، يتعلق بالمحامين الذين

تطوعوا للدفاع عن المتهمين - أي عن الحزب - وهم الاستاذ الكبير جان فران ، استاذي في معهد الحقوق الفرنسي في الثلاثينات ، والاستاذان شفيق ناصيف وكابد وجمال .

كان موقف المتهمين كالعادة موقفا شجاعا ، ربوا فيه على التهم المساقة ضدهم ردا مفحما . والذي هز المحكمة والحضور معا كان الاستاذ جان فران ، فقد فند في مرافعته قرار الاتهام ومطالعة مفوض الحكومة الكولونال فارغ تفنيدا دقيقا وشاملا ، فما ابقى على شاردة أو واردة الا تناولها وحطمها ورمها في وجه المحكمة كوما من التراب او الركام . طلاقة الاستاذ فران وعلمه الواسع وهدوء اعصابه كانت ميزاته الاساسية كمعلم وكمحام .

بعد صدور الحكم - تقدم الاستاذ فران غاضبا من الرفقاء المحكومين ، وقال لهم علنا : صحيح ان فرنسا حكمت عليكم ولكن ارجو ان تتذكروا دوما ان فرنسا - بشخصي - دافعت عنكم ايضا . كان يشير الى انه فرنسي ، وانه دافع عن الحزب . اما الاحكام التي صدرت فاذا قارناها بتلك التي اصدرها في ما بعد قضاتنا الوطنيون تبدو احكاما خفيفة . فسعادة حكم بعشرين سنة اشغال شاقة وعشرين سنة نفي ، والباقيون من القادة حكموا عشر سنوات اشغال شاقة وعشر سنوات نفي . والاعضاء قضي عليهم بمدد تتراوح بين الخمس والثلاث سنوات .

لم اكن اتصور ان محكمة عسكرية فرنسية ، في زمن الحرب ، يمكن ان تكون اكثر عدلا . لقد كنا بالفعل نعد العدة لمقاومة الانتداب بثورة شعبية عارمة ، كما نعد العدة لقلب الحكام العملاء الذين كانوا يتحكمون بشرقنا العربي مدعومين بسلاح فرنسا وبريطانيا ونفوذهما واموالهما . ان مبادئنا وغاية حزيننا المنصوص عليها في المادة الاولى من دستورنا ، تنص بصراحة على هذه الغاية - الدليل ان دستورنا ، الا اننا كنا نعد الشعب لقبول عقيدتنا والانضواء تحت لوائها ، اما الوسائل فقد كنا بانتظارها . الوسائل كانت تنقصنا . ولذلك فان القول باننا شرعنا في تنفيذ المحاولة الانقلابية ضد الانتداب مخالف للقانون . المشروع يتعلق عضويا بالوسائل . اما الغاية فعقيدة نحن احرار باعترافها والتبشير بها . اما الاعمال - والشروع بالاعمال - فلم تتعد نطاق نطاق المعارضة والتبشير السلمي . انشاء الحزب واعداده للثورة نفسيا - دون اعداد الوسائل - ليس جرما رغم ذلك مرة اخرى نكرر حتى القضاء العسكري الفرنسي لم يكن في ملاحظتنا القضائية ظالما او مستبدا ... لاننا كنا نتوقع احكاما بالاعدام ...

روميل في العشرين - 1941

شئنا ام ابينا كانت اعتقالنا واحكام السجن بحقنا قد صنفتنا « حلفاء » لدول المحور اعداء للحلفاء . كان بنو قومنا في كل مكان ، يعتبرون ان انتصارات هتلر وموسوليني هي انتصارات لنا . يجيرونها لامرنا نون اجراء حساب دقيق لمصالح الدول واعتمادها في تحالفاتها تأمين هذه المصالح مخضعة مصلح الاخرين لا خاضعة لمصالحهم !...

من هذا المنطلق ، يمكن للقارىء ، ان يستنتج سائر مواقفنا وتصرفاتنا . كنا على يقين ان سعاده لم يبرم اي اتفاق مع دول المحور . ولكن مروره بايطاليا والمانيا وحده كان كافيا للتدليل على التعاطف اذا لم يكن دليلا على التحالف . ثم لا يجوز ان ننسى ان اكثرية الوطنيين في الهلال الخصيب والعالم العربي ، كانت تتجه الى دول المحور منقذة من الاستعمار البريطاني - الفرنسي . اليس وجود الحاج امين الحسيني في برلين دليلا كافيا ؟ اليس ثورة رشيد عالي الكيلاني دليلا كافيا . اليس كره الالمان والاطليان لليهود سببا كافيا لذلك ، علما باننا كنا ولا نزال نعتقد - والواقع اثبت هذه الحقيقة - ان الصهاينة هم اعدى اعدائنا !...

ان نداء الجنرال ديغول تاريخ 17 حزيران 1940 لم يؤلب القوى الفرنسية الموجودة في لبنان والشام الى جانبه . كان يجب ان تشن حرب سنة 1941 من الديغوليين والانكليز ضد جيوش فيشي لتمكينهم من السيطرة على البلدان الواقعة تحت الانتداب ، لان الفيشيين جماعة المرشال باتان Retain كانوا يتعاونون - حتى في لبنان والشام - مع الالمان عبر فان هانتيك وفان روزر الالمانيين اللذين كانا الى جانب المفوض السامي دانتر يشرفان على شؤون الدولتين .

ان احتلال فرنسا من قبل جيوش هتلر ووصول ممثليه الى لبنان والشام ما جلب لنا الحرية ولا وضعنا في واجهة السياسة اللبنانية - الشامية . ظللنا نعامل كأعداء . وهذا - لو كان الناس يعقلون - حجة دامغة على اننا لم نكن حلفاء المحور ، ولا داخلين في حساباته . الاجانب الغزاة او المستعمرون ، لا يمكن ان يتوافقوا - الا في ماندر - مع العقائديين المثاليين . انهم يريدون اتباعا لا حلفاء ، والاحرار - والقوميون

الاجتماعيون في طليعتهم – يرفضون بالفعل ان يكونوا تابعين لدولة او لنظام ما . ان استقلاليتنا كحزب شرط اساسي لوجودنا ، ولتمكيننا من الوقوف مع شعبنا ، في وجه الوعود والعهود الكاذبة التي يقدحها المستعمر ، حتى اذا استتب له الامر ، تصرف بعقلية الفاتحين لا بعقلية المنقذين .

ولكن رغم ان هذه القاعدة اساسية في حياتنا السياسية ، داخلا وخارجا ، كان لا بد لي انا المسؤول الاول بعد دخول كل رفقائي الى السجن ، من ان اتصرف ضمن امكانياتي على الاستشراف والرؤية ، ومن ان اعطي الحزب دفعة من الحيوية والنشاط والامل ، مستفيدا من انتصارات المحور . كنت اريد ان اصيب عصفوريين بحجر واحد . وان احرك القوميين الاجتماعيين بعد فترة الملاحظات والجمود ، وان اترك ورقة بيد الحزب يمكن ان يستغلها لصالح شعبنا في حال رحيل الفرنسيين والبريطانيين . ان السياسة هي فن اغتنام الفرص كما هي فن الممكن ، كما هي فن يخدم غاية كما قال سعادته . ولقد مارست السياسة من ضمن هذا المفهوم .

لقد ثبت فيما بعد من محاكمات سعادته نفسه سنة 1949 انه لم يكن يسلك طريقا واحدة . لقد كان دائما يمسك بعدة خيوط ، وصفه المدعي العام التمييزي شربل بالانتهازي فيما اعتقد ان اسلوبه هذا ، هو الاسلوب الصحيح . ان المسؤول عن قضية لا يمكن ان يتصرف كالمسؤول عن شركة تجارية . لا يمكن ان يتصرف كرجل عمل . انه مضطر ان يخرق حجب المستقبل ، واذا لم يستطع ، فعلى الاقل ان يراهن على شتى الاحتمالات والتوقعات . رجل القضية كانطون سعادة كان يجب ان يكون رجل بولة من طراز مميز . ولقد كان رجل بولة مميّزا . كان يحسن الامساك بكل الخيوط وكل الاوراق ، لدعم حركة التحرير والنهوض التي أسسها وقادها .

وكان رومل قد ضرب ضربيته في العلمين وتوقف سنة 1941 . وكانت جيوش المحور تضرب حتى اليونان . كان هنالك اذن احتمال في ان يصبح الشرق الاوسط ساحة قتال . كان على الحزب ان يكون مستعدا لان يقاتل .

ماذا قررت ؟

قررت التعبئة العامة . الاستنفار العام . وضع كل قومي اجتماعي قادر على حمل السلاح في حالة التأهب . وبدأت في المنطقة التي جعلت منها مركز القيادة . لا ازال اذكر ، كيف جمعت رفقاء بننايل وكلباتا وكفريا وراس نحاش في ليلة عاصفة في منزل الرفيق نديم جواد عدريه وطلبت ان يوفدوا لي رفيقا شجاعا يؤمن وصولي سيرا على الاقدام ، من بتعبورة الى كفريا ، الى مكان الاجتماع ، شددت على السرية والانضباط والتلبية .

كان ذلك حوالي اواخر شباط من سنة 1941 . المرافق الذي اختاره الرفيق نديم

جواد عدده. كان الرفيق فوزي عدده . (الامين حاليا) كان عمره دون العشرين في ذلك الزمان .

مشينا والعاصفة تنذرنا بالهبوب ، والمطر ينذرنا بالتدفق ، مشينا كلانا نقطع الطريق بأقل من ساعة . لنصل في الليل الدامس الى منزل المسؤول فنجد ان الاكثرية الساحقة من الرفقاء تنتظر بما عرف عن القومييين من انضباط واستعداد .

وقفت اتلو بيان الاستنفار والتعبئة العامة . الخطوط العريضة كانت كما يلي :

اولا : هناك خطر مدهام ان تصبح بلادنا مسرح قتال ، اذا استطاع المحور خرق حدود تركيا واخضاعها او ربحها الى جانبه ، واذا استطاع رومل ان يهزم الجيوش البريطانية في العلمين وطبرق ومن ثم مصر .

ثانيا : ان كل قومي اجتماعي يجب ان يكون بانتظار اوامر القيادة فيندفع الى تنفيذ الاوامر ، مهما كانت خطيرة ، لأننا - كما قلت بالحرف - جيل الضحايا والشهداء اننا نقدم جماجمنا سلما تصعد عليه الاجيال القادمة الى الحرية والنهوض والمجد .

ثالثا : ان هذا الامر يجب ان يكون مكتوما عن اي كان ، لأن تسريه قد يوقع اضرارا شديدة بالموقفين في سجون الانتداب (كان قادة الحزب الذين حكموا قد اصبحوا في بيت الدين على ما اذكر) .

رابعا : ان القيادة تسعى لتأمين كل لوازم القتال .

واضح ان الهدف كان التحرير والنهضة ، لا استبدال فاتح بفاتح . وكانت الخطوة الثانية ، بعد نجاح هذه الخطوة ، والابقاء على السراطي الكتمان ، دعوة عامة لكل رفقاء البترون والكورة وطرابلس ، للاجتماع في اودية كفر حزير - فيع (اودية الصفاء) وهي الفاصلة بين القويطع والكورة والتي لم يكن قد شق فيها طريق تصل المنطقتين كما هي الحال الان .

الذين اشرفوا على تنظيم هذا الاجتماع الذي اسميته اجتماع « النفير » وفقوا الى حد بعيد في تأمين سلامته ، وتأمين نجاحه .

وقف الرفقاء صفوفًا بديعة في قلب ذلك الوادي ، الذي اقامت عليه حراسا في كل جوانبه ومرتفعاته ، وحفظت خطأ للانكفاء في حال حدوث اي تصادم ، او في حال اطلالة اية قوة امن مدهامة ! ... كان الرفقاء الحراس مجهزين بصفارات

الانذار ، يراقبون على ظهور الخيل . وعلى مسافات بعيدة كل غاد ورائح . كما كان الحراس مجهزين في مرتفعاتهم بالنواشير ترصد البحر والجبل وكل المنافذ الى الوادي الحصين ! ...

كل الرفقاء في القويطع لبوا الدعوة ، فما بقي احد منهم ، لا فتيانا ولا فتيات ، الا وحضر . ومن الكورة من اعاليها الى ساحلها ، ومن قلعتها الى روابيها ، اقبل المشتركون في الاجتماع ، وجه لا يغادر خاطري هو وجه هاشم حديد من كفر قاهل ، كان بثياب الميدان . الفروسية تشع من جبهته السمراء وعينيها الحادتين ! ... ووجه آخر وجه نحاسي دائم التجهم تنضح الرجولة من تقاطيعه هو وجه الرفيق حبيب ملكي . كلا الوجهين غابا عنا الى الابد .

لقد القيت كلمة مكتوبة . اضفت بعض الفقرات على اعلان النفير الذي تلوته في كفريا . ثم تلوت « الاعلان » بصوت جهوري خطابي احسست وانا القيه اني قائد عسكري يخاطب جنوده . ما كان عددا كبيرا ولكنه تجاوز حسبا اذكر الخمسمية رفيق ورفيقة .

قلت ان القصد المباشر من هذا الاعلان كان تعبئة الرفقاء نفسيا ، تحريضهم على الترقب والاستعداد ، دفعهم من حالة الجمود الى وضع ديناميكي متحفز ، حتى اذا دقت الساعة ، كانوا لها فلا يتخاذلون ولا يتهاونون . كان يجب ان نتحرك ، ان نثبت وجودنا ، مهما كانت النتائج .

لم اكن ادري ان خبر الاجتماع سينتشر ولكنه انتشر . اخذت كل الاحتياطات ، فانطلقت من بتعبورة الى القرى المجاورة تحت جنح الدجى . كنت انام ليلة في كل قرية ، ادخل القرية ليلا واغادرها ليلا ، فيما الرفقاء يحرسون المرات ويراقبون باستمرار ويقظة .

الحادثة الطريفة التي حدثت لي ، في يوم اعلان النفير ، اني جئت ممتطيا صهوة جواد ، يليق بالقائد الثوري ، فلما انتهى الاجتماع ، نادى الرفقاء على الحصان وصاحبه ، فكان الحصان والصاحب قد رحلا . صاحب الحصان كان رفيقا يدعى الياس صعب من بتعبورة . توفي منذ مدة . كان مدمنا على الخمرة ،

فاذا دارت في رأسه ، طار من قلبه الحزب والواجب الحزبي معا . عدت على قدمي مع رفقاء النفير ، ومشيت ساعة ونصف الساعة دون ان اشعر بالتعب ، الحماس الذي اشعته في نفوس الرفقاء المناضلين ، انطلق من اعماق نفسي . وكان لا يزال يهدر فيها . الحماس يدفع بالانسان الى عطاء ذاته ، فيعطيه دون تردد ودون حساب ، اذا كان حماس المؤمن لا حماس الانتهازي ! ...

الخوري جرجس

كاهن كفرحاتا القويطع الجليل الخوري جرجس ، كان رجل الله ورجل الحزب معا . كان الدليل الحي على الانسجام بين الايمان الديني والايمان الحزبي ، لان الاول علاقة بالخالق والثاني علاقة بالمجتمع . والخالق ما خلق الانسان الا لحياة سعيدة على الأرض ولحياة ما بعد الموت سعيدة هائلة اذا حفظ الوصايا ونفذها .

الخوري جرجس ، كان ابا لثلاثة ابناء كلهم اقسماو اليمين وناضلوا وصموا ، كما كان جدا لاحفاد اقسماو اليمين وناضلوا . الا ان ايمانه بالنهضة كان يفوق ايمانهم جميعا بل ان هذا الايمان كان يتعمق في ضمائرهم ، لان تياره الابوي كان يتدفق بحرارة لا مثيل لها من الرأس الساهر .

بلغ من العمر ما فوق الثمانين . ولكنه بقي شابا في همته ، يطالعك الورد من وجهه ، كأنما يصطبغ ذلك الوجه بلون الشباب وطهارة الايمان معا .

لم يكن عالما ولا ادعى العلم . ولكنه كان يحمل السنين الطويلة في ذاكرته وعلى كتفيه ولديه منها شهادة جامعية ، ما تجلس اليه الا لتسمع نتقا من التاريخ الماضي ، لا محفوظة بل معاشة . ولا تقترب منه الا لتشعر ان البركة تقترب منك ، فالرجل كان فلاحا لبنانيا في ثوب كاهن ... فلاحونا في الجبال والسهول هم بركة هذا الوطن ... لولا انه بلغ من العمر عتية ، لكان حضر اجتماعاتنا واشترك في مناقشاتنا وافادنا ... وكان قدوة . ولكن سنه المتقدمة ابقته خارج العمل الاداري . الا انه ما كان ليعتذر او يستتكمف عن اية مساعدة او معونة او مهمة يؤديها للحزب طائعا مختارا .

كان علي ان ابلغ فروع الحزب النائبة من حلب الى الجزيرة الى العلويين ، اعلان النفير ، وبعض الترتيبات الادارية . كان علي ان اتصل بمنفذ حلب الاديب الشاعر الفنان الذي فقنناه اورخان ميسر . افضل من يحمل الوراق ويخفيها ويوصلها دون مخاطرة او خطر ، كان الخوري جرجس .

كلفته بالمهمة دون وسيط . بل تعمدت تكليفه للسفر الى حلب ، دون ان يدري احد من معاوني او من اولاده ، ما تردد ولا تلكأ .

اتفقنا ان يقول انه مسافر ليوم او يومين بامر من المطران وانه لا بد خاضع للامر .
وانطلق للمهمة ، لا يحسب لشيء حسابا . الشجاعة تولد على الروابي وفي الجرد
نقية اكثر منها على السواحل او في المدن حيث تتغلب الروح الماركنتيلية وحسابات الربح
والخسارة .

غاب يومين وعاد .

عاد كمن انتصر في معركة ... فاصلة ...

امنا خطة الاتصال بالشمال السوري ، وانتظمت علاقاتنا كما انتظم العمل الحزبي
واتسع . الرفيق النشيط فؤاد شلبي ، راح من بعد ، يلحق بنا من واد الى واد ومن قرية
الى قرية ، ليظل هذا الاتصال ... غير منقطع .

الخوري جرجس - كفرحاتا ، اسم يستحق منا التخليد ، انه رمز للمؤمنين ، وقوة
لكل مواطن في الاقدام على المخاطر ، بروح الفدائي المعطاء ، نذكره بالخير ، لانه قهر
شيخوخته بارادة المصمم على التضحية في سبيل القضية ولا غرو في ذلك فالايامن الذي
ينقل الجبال ويصنع المعجزات ، هو نفسه الذي اعاد الكاهن الجليل الى شبابه ليخدم
قضية الامة التي لا يمكن الا ان يباركها الله لانها قضية تحرير المجتمع والانسان ،
قضية امة وشعب !

قاضيان وقائد درك

من طرابلس الشمال قدم الي الى مقر القيادة في بتعبورة قاضيان وقائد للدرك . كنت
اعرف الثلاثة ، بل كانت بيني وبينهم روابط صداقة وان غير مشدودة الى العمق .
الزمن : خريف 1940 ، الخريف الذي لا يزال ذيلا للضيف ... تداولنا في اوضاع
البلاد والعالم . تحدثنا عن الحرب والانتصارات والانكسارات . انا ملاحق من قبل
السلطات المنتبة ، اذن انا في خانة المحور . في خانة هتلر وموسوليني والميكالور .
عقلية شعينا تربط بمنطقها كثيرا من الاباطيل بالحقائق ، فتصبح الاباطيل لديها
حقائق . لم اكن في محكمة لادافع عن سياسة الحزب الخارجية . كنت في موقع المباشر
الذي يفرح اذا تصيد قاضيين وقائد درك . حزبي حزب ثورة ونهضة وتحرير شعب
وتوحيده . فهل يتردد في ادخال مواطن ذي شأن بين صفوفه البشرية ؟ ... الحزب كله
كان سريرا فلما انكشف ، استبقى فرعا سريرا او فروعا سرية تستوعب كل الذين في ظهور
اسمائهم في سجلاته يعرضهم لفقدان موارد رزقهم ، الشاعر محمد يوسف حمود كان
لفترة غير قصيرة عضوا سريرا في خلية سرية . كثير من الاسماء المعروفة في عالم
السياسة والاب مرت في خلايانا السرية ولن نكشف عنها .

اذن ركزت ، بعد جولة في آفاق الحرب ، على العقيدة والنظام ، ركزت على ما نسليه
مفهومنا العلمي للامة والقومية . لم نكن بعد قد اوضحنا حويدنا الشرقية فلم يكن
العراق قد دخل في وطننا . احد القاضيين الدكتور ج . أ . خ . (لا يزال حيا وعاملا)

نقض هذا القول ، وشرح لي وللآخرين انه يستحيل الا ان يكون العراق ارضا سورية عربية ، لان التقاء الفرات بدجلة يتم عند الخليج ، اذن ارض بين النهرين كلها من الوطن السوري العربي . كنت ابشر الدكتورج . فراح يبشرنى ، واشهد انى سررت لأن عدم نكر العراق في قاموسنا العقائدي كان اكبر عقبة واجهتنا في عملنا الازاعي التبشيري . وبعد عودة سعادة كما يعرف الجميع اوضح حوبنا الشرقية ، فاذا العراق من ارضنا والعراقيون من شعبنا ، والهلال الخصيب كله ترابنا القومي .
المهم ان حوارنا طال واثمر . الثلاثة ابوا رغبتهم في اداء القسم والانضمام الى صفوفنا . الا ان احدهم وهو الاستاذ ش . س . تحفظ وكتب رسالة يعلن فيها ايمانه بالعقيدة والنظام ، مؤجلا اداء القسم .

الثلاثة كتبت اسماؤهم والى جانبها ارقام . اعطوا كل واحد رقما . القاضي الاكبر 40 الاصغر 41 ، قائد الدرك 42 . وانكر ان الرفيق ا . نصار هو الذي اؤتمن على الاسماء والارقام فاخفاها في حائط بناية خربة . ليعبد الشبهات عنها ، ويحصنها بحيث لا يخترق سرها اي طامع او فضولي . الرفيق نصار كان امين سرى واقرب الناس الى قلبي طوال مدة وجودي في القويطع .

والذي يؤكد دراية الحزب وحرصه ، هو ان القاضيين احيلا الى التقاعد وقائد الدرك احيل الى التقاعد وتوفي ولولا هذه الذكريات ما اكتشف احد ان الحزب كان يضم في صفوفه قضاة وقادة للدرك رغم ثورته 1940 ومحاولته الانقلابية سنة 1961 .
ان فروعنا السرية ضمت اسماء لشخصيات لعبت ادوارا رئيسية في السياسة اللبنانية ، في الحكومة ومجلس النواب والوظائف على اختلافها ، بحيث يمكننا القول ، ان مدرستنا خرجت عددا كبيرا من رجال السياسة والفكر ولكنهم مع الأسف عند احتكاكهم بمصالحهم الخصوصية اسقطوا الحزب وعقيده - طريق الخلاص - وغلبوا خصوصياتهم والا لما غرق لبنان كما هو غارق الآن ... في ظلمات الجهول !
الا ان بعضهم صامد حتى يومنا الحاضر ، لانه مؤمن ، وبعضهم الآخر اذا كان غير ملتزم بعقيدتنا فهو ملتزم على الاقل بنوع من الصداقة المتعاونة التي نكتفي بها ، لأننا نقدر ظروف الناس ولا نحب ان نظلمهم ، اذ لولا ظروف الناس ، واحوالهم العائلية والعيشية واطواعهم المحلية ، لما كان لاحد اي عذر ان يقلب لنا ظهر المجن . ثم نحن لا نلوم ولا نظلم ، لأن حزبنا سلك الطريق الوعر ، وفي محاولاته البطولية لاستلام السلطة او تسجيل المواقف التاريخية ، حصد الفشل تلو الفشل ، والناس لا يحبون الفاشلين ، هذا اذا لم يهربوا منهم ، او يناصربوهم العداء كما فعل البعض .

اننا بانتظار المستقبل ، فاذا حققنا نجاحا ما سرى القراء كيف يتهافت علينا من كان ازورارهم قاعدة حياتهم وكم من الاسماء المخبأة في البيوت الخربة ستظهر للنور ؟

رجال الدرك .. والبوسطجي

يعتقد الناس ان الفرار من وجه المظالم – او من وجه العدالة احيانا – امر هين بسيط ، انا الذي عانيته اجزم انه اصعب من السجن ، عندما يضيق الجواسيس الخناق على الفار يصب مطوقا ، وعليه ان يفتح ثغرة في الطوق ينفذ منها الى بلاد الله الواسعة . بل اذهب الى ابعد من ذلك ، فان الفرار فن قائم بذاته . انه يشبه الى حد كبير لعبة الشطرنج بل انه سباق بين رجال الامن والثائر على الامن ! ... او نوع من المعركة الدائمة سلاح السلطة فيها ، ما تملك من اموال وعتاد وعدد ، وسلاح الفار من وجهها الدهاء والشطارة وسرعة القرار والتحرك ، وحب الشعب الذي يقف معه ضد السلطة وعملاتها وانابها من الجواسيس والمخبرين وبعض النواظير ... وبعض المخاتير .

حب الشعب ، انه رأس الخطط ورأس العمليات . الناس في القويطع صغارا وكبارا ، اطفالا ومراهقين ، كانوا مجندين لحمايتي وحماية رجال الحركة القومية من قبلي ومن بعدي . لم يكن هذا الحب الا خالصا نقياً . كان خاليا من اية نزعة للانتفاع كان خاليا من اية شائبة . كان حبا لوجه القضية القومية وقد ادرك عظمتها بعض ابناء شعبنا بعقولهم وضمائرهم وادركها البعض الاخر بغرائزهم وقلوبهم .

مقابل جيش السلطة التي كانت تلاحقنا – بكثير من الحشمة والخجل – بين آب 1940 وحزيران 1941 ، كان سنندا وظهيرنا وخطنا الامامي والخلفي ، جيش الشعب في القويطع العزيز . سيصبح جيشنا اكبر واوسع عندما تمتد حدود مشارنا الى بلاد البترون . هناك كما سنرى في حينه التقينا الفنان القومي الاجتماعي الكبير يوسف الحويك ، في عورا ، وهناك التقينا المطران العلامة عمانوئيل فارس في صورات ، كما التقينا النائب الراحل جان حرب واخوانه الاكارم في تنورين .

كان من الضروري ، عندما نتحسس خطر المداهمة ، ان نكون في مأمن من التطويق . الطريقة الفضلى كانت ان ننام في العراء . في منحدر ، في كرم ، في حقل زيتون ، تحت الحفافي او بين الصخور ، او على اكتاف نهر الجوز او نهر العصفور .

ما بقي من اهل بتعبورة وكفرحاتا وكفتون وكفريا وبناييل وراس نحاش ، رفيق او صديق الا وتطوع لمرافقتنا في هذه المحطات العرائية . نحمل بارودة صيد ، ومسدسالا نحسن استعماله ، وكتبا للقراءة ، ومعلبات وكعكا لحين الحاجة ، وأحرمة واغطية لاتقاء الندى او اتقاء البرد في اواخر الخريف وعلى ابواب الشتاء .

قليلا ما لجأنا الى تغيير الزي والقيافة . مرة او مرتين البسنا الرفقاء سروالا وعباءة وكوفية وعقالا . مثل هذا الزي القديم كان مجالا للانفضاح اكثر منه وسيلة للتستر والتخفي .

كنا نسمع احيانا ، ونحن نفيق مع الفجر (يا للنوم تحت لحاف السماء كم هو منعش) عجائز القرية الزاحفات الى العين يملأن جرارهن ، او صباياها يحملن السلال الى الكروم لقطف العنب والتين ، او نساءها ورجالها يسرحون زرافات الى حقول الزيتون لللملة ما سقط منه ابان ايلول واورئل تشرين ، كنا نسمعهم احيانا يقرعون صدورهم ويصلون : يا رب فك اسر هؤلاء المشردين ! ... يا رب خلصهم من اعدائهم ! ... الله يظلم الذين يظلمونكم ! ...

نفهم هذه العواطف القروية العفوية ، بل نفهم هذه المشاعر الحنونة ، لان مثلنا من ربي في احضان المدن والرفاه النسبي ، كان يستثير اشفاق ابناء شعبنا ، الى اية حال صرنا ، نلجأ للرقاد الى الحفاقي وظلال الزيتون لنتقي الجواسيس ورجال الامن .

الان وقد مر ما يقارب الاربعين عاما على تلك الحال ، نذكرها بالخير ... بل نحن اليها اشتياقا . اليس افضل للمرء ان يتيه في الروابي والتلال والادوية ، فيغنيها مع جبران والريحاني ونعيمه وزيادة ، من ان يتيه في الشوارع والملاجيء هربا من قذائف الغدر بعد ان تحول لبنان الى مجازر ومقابر !

حانتان في ذلك العام نافرتان .
بطرس ابو عسلي ويسطجي أميون سمعان الرمادي .

بطرس ابو عسلي أمر مخفر أميون - كان يقوم بين الفينة والفينة بكبسات على المنطقة خفيفة الوطاء ولكن مخيفة ، فكم من صدفة غير ملائمة اوقعت انسانا او جماعة في فخ او كمين او كارثة . !!

صدف زوجتي وهي حامل في شهرها السابع ، فسألها عني فقالت انه في بغداد .
قال لها ومن اين الجنين القادم الينا بعد شهرين على الاكثر ؟

اجابت : لقد سافر منذ ستة اشهر فقط . واستطاع ان يحبط كل مساعيكم وكل خططكم لالقاء القبض عليه .

فقال : تصورين زوجك وكأنه بطل من الابطال ، وهو في الحقيقة كما وصفوه لنا طوله طول شبيرين ؟

فاجابته : ان الرجال لا تقاس بالطول والعرض ، بل بمساحة الدماغ والعقل !
فهز برأسه متوعدا ، وراح يضاعف كبساته على غير طائل ، لان فن الفرار بعد هذا الحديث الساخن كان يفرض اتخاذ اقصى درجات الحيطة والحذر ... والاختفاء الكلي .
اما الحادثة الثانية ، فهي كبسة حقيقية مثيرة .

كنت وزوجتي وبعض الاهل مدعويين الى الغداء في دار عمها ابي حسيب يوسف بربر ، وكانت ام حسيب تحافظ على تقاليد الدار المفتوحة الابواب للضيوف ليل نهار ، فكيف بالاهل والاصهار ؟

وفيما نحن في غمرة من البهجة - الايام العصبية لا تلغي البهجة من قلوب المؤمنين - تنادي احدي السيدات على ام حسيب ، بما فهمنا منها ان رجال الدرك قادمون ... الى الدار .

تسللت الى غرفة النوم ، وقد الصقت جسمي النحيل بطبقات الفرش المرصوفة فوق بعضها ، وراحت ام حسيب تضع فوق رأسي الشراشف تلو الشراشف ، حتى اصبحت جزءا من الفراش او قل فرشاة مغمورة بالاعطية .

واقبل الدركيان ، والمائدة سخية ، ومغرية ، فدخلا وجلسا بون كلفة ولا انتظار دعوة ، يشريان ويأكلان . ثم اقبل بوسطجي المنطقة سمعان الرمادي وهو انسان خفيف الظل من اميون وراح الجميع يشربون ويهزجون وانا اسمع واتلظى والجوع يكويني والاعطية فوقي تكاد تزهب روجي .

وراحت الانخاب تتوالى والبوسطجي التمل يقف ليقول :

فلنشرّب سر الذين يروننا ولا نراهم ويسمعوننا ولا نسمعهم ووقف طالبا من الجميع الوقوف ، فوقفوا وشربوا ... بعضهم فهم ما يقصد والبعض الاخر ما فهم .
اما انا فسمعت وكدت اقهقه من الضحك فسمعان الرمادي يشرب سري ، وانا اكاد

اشرب سر الموت اختناقاً !

كيف عرف البوسطجي اني مختبئ في الدار .. لا ادري ! كان يشم رائحة
الفارين !

الدركيان كانا ينويان البقاء لاحتساء القهوة واختتام المائدة بالفاكهة . فما كان من
ام حسيب الا ان ارسلت احدى النسوة تناديها من الفرن ، عجلي والابيروح نورك ،
فاستأننت ام حسيب ، من الضيوف الاعزاء ، ووضعت حدا لاختناقي ... وجوعي .
لم يفت الدركيان ان القيا نظرة على غرفة النوم ، بحجة اوباخرى ، ولكن الله وحده
كان يعرف اني وراء الاغطية والاحرمة قابع بلا حراك ، تكاد انفاسي لا تصعد من
صدري ! ...

أسد الأشقر وجمال طالب

علاقتي الروحية بأسد الأشقر تعود الى قراءتي انتاجه الادبي الطري القلم وهو في المهجر الافريقي . كان يكتب - على ما انكر - في مجلة « العاصفة » لصاحبها كرم ملحم كرم احد آباء الادب القصصي في العالم العربي ، وفي جرائد ومجلات اخرى . نفسه كان نفسا ثوريا . ابنه كان ابنا شعيبا ، بعيدا عن اناقة تعابير امين نخله ومدرسته الاببية الارستوقراطية ... الجاحظية ، مدرسة البلاغة والبيان والتجديد .

فجأة بلغنا انه دخل في الحزب في اكر - او كوماسي - الشاطيء الذهبي (غانا) وادخل معه رهطا من الشباب المتحرر . كان المبشر والرسول القومي هناك الرفيق المناضل المأسوف عليه جدا رفيق الحلبي (بشامون) . على يده دخل اسد الأشقر والرعييل الاول في افريقيا السوداء من الشهيد نسيب عازار الى الامين السابق امين الأشقر وفارس تلحوق وابراهيم دانيال والفقيد الغالين ميشال كرم وعبد اللطيف جعجع وروكز كرم وسواهم . وعثرت في جريدة النهضة ، صوت الحزب السوري القومي ، العدد 80 تاريخ 20 يناير 1938 ، نموذجا عن خطب اسد الأشقر في بدء حياته الحزبية في المغتربات ، اليكم بعض فقراته وقد القاها بمناسبة حفلة تكريمية اقيمت على شرف ناموس الزعيم آنذاك خالد اديب (طرابلس) .

« من لم يكن اليوم قوميا فسيهتدي غدا بنور القومية الساطع ومن لم يهتد غدا ستبرهن له الاعمال في المستقبل فيقتنع بامر الواقع الذي لا مجال لكرانه والوجود به ... اليوم اشعر لاول مرة بيقظة العالم السوري . العالم السوري هو نحن ، نحن الذين ، لا يتجاوزون الخمسين عددا ... »
« ... اما نحن ، نحن السوريين الذين فتحنا العالم بالمنية التي لا تزال تتطور حتى اليوم ، نحن الذين لنا ولن ينادينا وليتحرق لفراننا ، فقد كدنا ننسى ذلك الوطن ونهمل كل مساعدة لتحريره وبقظته » .
« لقد شاعت سنة التجدد وعبقرية الزعيم بعث الامة السورية فبعثت حية تجاهد

وتستमित . لقد قلت سنة التجدد لا سنة التطور لان المدنية السورية التي نشرت اعلامها في الشرق والغرب من الوف السنين والتي رقدت او قهرت منذ نحو الفي سنة تسعى لتتجدد في الجيل العشرين . انها اذن تتجدد لا تتطور .

« والذين ينتظرون تطور الامة السورية لتصل الى مدنية هذا العصر هم مخطئون ، لان التطور العقلي والسمو الفكري عندنا هما على القمة وهما موجودان ابدا وسرمدا في سورية » .

« لا ، نحن لم نخلق لنكون عالة على احد ، نحن لا نكون مجموعا ثانويا في الحياة تتلوب عناصرنا في هذه الامة او تلك بل سنبقى ابدا عنصرا حيا ناميا له تاريخه المجيد ومستقبله الباسم » .

« القضية السورية هي قضية شعب واحد مزقته الطوائف شر تمزيق واستعبده الطائفيون ، افضع استعباد ... شعب واحد مزقه الطائفيون الى قبائل تشن الغارات على بعضها لارضاء شهوة اقطاعي ظالم ولأرواء غليل تعصب نميم ، شعب واحد اصبح بين ظهرانيه يخاف الجار جاره والاخ اخاه ... »

ويلاحظ في هذه الكلمات الاخيرة ان اسد الاشقر يصف في سنة 1938 حالتنا الحاضرة المؤلمة والحزنة منا .

ما كان يخطر ببال احد ، ان اسد الاشقر سيركب المركب الخطر الى لبنان ، والحرب قد شرعت ابوابها ، وشبت نيرانها . ولكنه ركب هذا المركب ... من طبع اسد انه مغامر من الطراز الاول . لعله ايضا مغامر في كتابه تاريخ سوريا ، الذي صدر الجزء الاول منه منذ ثلاثة اشهر فقط ، والذي يصدر منه خمسة او ستة اجزاء اخرى في المستقبل القريب .

القدر شاء ان يعتمد اسد الاشقر بمعمودية الظلام . استعمل هذا التعبير تشبيها لمعمودية السجن بمعمودية النار فقد دخل سجن القلعة عندما بوهم مع الامينين جريج واياس والامين فارس معلولي والرفيق عبد الله ايوب في 23 تشرين الثاني 1940 في احد منازل بيروت .

الا ان اسدا يعرف من اين تؤكل الكتف . فرغم انه تسلم مسؤولية عمدة الاذاعة فور وصوله ، هو الاديب والخطيب ، استطاع اقناع المحقق الفرنسي Vitu اياه بانه كان مغتريا وعاد ولا شأن له في كل ما عزي للحزب السوري القومي من « تهم » و

« جرائم » ! ... وهكذا صدر قرار بمنع محاكمته فيما احيل المتهمون الآخرون ليحاكموا ويحكم عليهم بالسنوات الطويلة من الأشغال الشاقة (قرار الاتهام بحوزة الأمين جبران جريج ينصه وفضه) .

بعد ان خرج من السجن ، لم ينم اسد على زند الحرية . راح يعمل عميدا للاذاعة في مجلس عمد برئاسة معروف حمدان (محسن سليم) ، بالاشتراك مع جلال طالب (الأمين عبد الله سعاده) عميدا للداخلية . ولكن مشكلة دستورية نشبت بيني وبين المجلس الجديد ، فقد اصدرت مرسوما بوصفي المسؤول الاول ، كما نكرت أنفا ، بتعيين الرفيق نصار منفذا عاما للقويطع فيما صدر عن مجلس العمد الذي لم ابلغ رسميا بتشكيله مرسوم بتعيين منفذ عام آخر .

لا احد يشك في اني ، رئيسا او مرؤوسا اتمسك بالانضباط . اقدس الدستور . احترم مرؤوسي كما احترم رؤسائي . الا اني ، من هذه الزاوية حريص على ممارسة صلاحياتي حيث أوئن ان لي صلاحيات ، حرصي على الدستور والنظام .

لقد كنت اعلنت نفسي المسؤول الاول ، اي صاحب الحق في تولي المسؤوليات القيادية ومنها تعيين مجلس العمد ، الذي يجب ان يكون مسؤولا امامي ، اما الامناء المحكومون والمسجونون في بيت الدين ، فقد استطاعوا ان يسربوا مرسوما بوصفهم رئيس واعضاء المجلس الاعلى ، باجراء التعيينات التي نكرت . اي معروف حمدان الاستاذ (محسن سليم) رئيسا للمجلس واسد الاشقر عميدا للاذاعة وجلال طالب (عبد الله سعاده) عميدا للداخلية وكان عميد الداخلية الرفيق سعاده (لم يكن قد اصبح امينا آنذاك) هو الذي اصدر المرسوم المخالف للمرسوم الصادر عني .

احسست بان خنجرا اغمد في ظهري .

اذا كنت المسؤول الاول ، الممارس خارج السجن صلاحيات القيادة العليا ، فمن حقي اصدار المرسوم بتعيين المنفذ العام ، طالما اني لم ابلغ عن تعيين عميد للداخلية .

واذا كنت لست المسؤول الاول ، فكان حقي على الاقل ان ابلغ ان الاتصال بالامناء في السجن متيسر وان مراسيم صدرت عنهم ، فاخضع واستريح .

اما اني لم ابلغ ، فقد رفضت رفضا باتا الرجوع عن المرسوم الصادر عني .

هنا جاءني العميد عبد الله سعاده ، كان لا يزال طالب طب سنة 1940 وراح

يقنعني بالتساهل فكان لكلامه المنطقي وحجته الدامغة فعل السحر في نفسي . فاجزينا تسوية وانهيينا الاشكال القائم بون ان نمس القاعدة الاساسية في الحفاظ على هوية المسؤولية والمسؤول . انكر ان ضغطي كان ضعيفا جدا ، فاذا بالعميد سعاده يشد من عزمي بالقول ، ان كل طياري (الشتوكا) طيارة الانقضااض الالمانية يختارون من اصحاب الضغط المنخفض وان زوجته نفسها لا يعلو ضغطها عن السبعة . شفاني بهذه الكلمات من وهم انخفاض الضغط وخطره على حياتي ...

وجاء الرفيق اسد الاشقر ، يقوم بزيارة اذاعية الى المنطقة الكورانية . كان قد مر بي قبل اعتقاله لحظات عابرات ونقني ليرتين ذهبيتين (كانت الليرة الذهبية تشتري قصرا في ذلك الزمان) وتعارفنا بعد ان كان تعارفنا عبر الصحف والمجلات او الرسائل الحزبية وخاصة عن طريق التنويه به من الزعيم في مقدمة نشوء الامم ان ساهم اسد في نفقات طبعه .

طلب العميد اشقر ان يجمع الرفقاء والرفيقات ، فخطب فيهم ، وكانت المرة الاولى التي اسمعه . عدا ان كلماته كانت كلمات مؤمن ، وكلام المؤمن يدخل اطواء النفس الباطنية فقد كانت نبرته وبلاغته تنبئان ان له مستقبلا قياديا وانه خطيب متفوق .

انكر عبارة وردت في خطابه لا تمحوها الايام من انني ولا من ذاكرتي : قال للرفقاء : « القيادة تخطط وانتم انوات التنفيذ » . ليس للخطة قيمة اذا بقيت خططا « القيادة والسوريون القوميون الاعضاء كل متكامل » ، « لا قيمة لاحدهما بون الاخر » .

وكانت لنا على سحاء آل بتعبيرة ادلة جديدة . فمن دار السيد جرجس قسطنطين والرفيقة ناهيل ، الى دار آل بربر ، راح العميد يتغزل بالكرم الكوراني وخاصة بالخبز المرقوق الذي لا مثيل له في العالم .

كنت انتظر ، وحاجتنا الى المال ماسة في تلك الظروف العصيبة ، ان العميد سيكون بنا رفيقا وعلينا سخيا ، فلم نر في هذه الرحلة الناجحة حزبيا لون ليراته الذهبية . ما من مشكل في العالم الا وله حل اذا صفت النوايا وسكنت الاهواء والغايات الخصوصية . ما من مشكل ينشعب في العائلة او في الامة او في الحزب الا وله حل ، بشرط واحد الا يكون الحل على حساب الحق القومي او على حساب الكرامة والشرف او على حساب الدستور .

حل الخلاف بيني وبين مجلس العمدة على تضارب الصلاحيات حلا وسطيا ، وبمقدم العميدين اشقر وسعاده الى بتعبيرة يعلنان قيام التنظيم الاداري الاتي من سجن بيت الدين ! ... مثل هذا الاعلان لم يعطل صلاحياتي بل اصبح من الواجب الا يحدث اي تصادم او اي تناقض وهكذا كان .

أول آذار - 1941 - في بتعبورة

منذ آذار 1935 كان اول آذار قد اصبحت عيد الحزب بانتظار ان يصبح من اعياد الامة . في السجون عيدناه ، في المنافي عيدناه ، وعيدناه في ايام الفرار في بتعبوره - الكورة . ما كان للذكريات عنه اي معنى ، لو انه في تلك العام ما تميز بفرحة شعبية منظمة ، صورة عن افراح شعبنا في مقبلات الايام ، قريت اوبعدت ، صحيح ان قانتنا كانوا لا يزالون في السجن ولكن كانت لنا قيادة في الخارج تتحرك . لا يهمننا اننا ملاحقون ، لا بد ان نعيد عيد مولد فتى الربيع . القوميون في الوطن والمغتربات يحيون امسيات اجتماعية ممتعة . يستنكرون اول آذار يوم كان سعادة حاضرا بيننا بالجسد وخطابه التاريخي في دار آل اللبابيدي سنة 1938 . يشعلون الزيت على السطوح وعلى رؤوس التلال والروابي والجبال . نواليب الكاوتشوك القديمة تحرق حيث وجدت مديرية او مفوضية للحزب . يجب على القوميين واصدقائهم ان يكتنزوا اكبر كمية من الفرح ، زادا لاياام الاتراح ولحن الاتية مع سنوات الكفاح الطويلة الشاقة .

مدرسة بتعبورة - الكورة القائمة قرب كنيسة مار رومانوس ، وقرب مقابر البلدة - تتألف من قاعتين كبيرتين ، اصبحتا الان اكثر عددا . تطل على سهول الزيتون في المينا ، كما تشرف على كفتون واجد عبرين .

المدرسان كانا في ذلك الزمان الياس نصر واسد نصار . كلاهما كانا من الرفقاء العاملين وان فترت همتهما في ما بعد بسبب السن او بسبب العمل . المدرسة انن بتصرف الحزب ، بتصرف المسؤول الاول ، الهارب من وجه المظالم ، المفروض عليه التستر والتخفي والتواري وبالوقت نفسه المجابهة والتحدى .

لا احب المغامرات ولا المجازفة وان اكن معجبا بهما ... صممت ذلك الاول من آذار ان اغامر واجازف وان اتحدى . كانت « الكبسات » قد صارت نادرة ، ولولا بعض الحنر لكان بالامكان الاجتماع برجال الدرك دون خوف منهم ولا خوف عليهم .

صممت ان اقيم عيداً احتفالياً ، وان اقدمه ، نمونجاً لاعياد القرية عند افترار الربيع عن ازهار اللوز والمشمش ومروج الاقحوان وشقائق النعمان في كروم العنب والزيتون وحقول التبغ الخضراء ... في القويطع الابيض .

دعوت القرية بيتا بيتا .

علمت ليلى ونازك بربر وجمال صعب وعددا من عرائس بتعبورة الصغيرات ، من الحلوات نوات الصوت الكناري ، بعض الاناشيد « الاذارية » اتيت بالصبايا والبستهن الثياب البيضاء الناصعة حملتهن السلال مليئة بورود وازهار ربيع الكورة الفتان . اما حليم بربر الذي كان قد بدأ يطل على الحياة فقد كان بصوته الساحر بلبل الاحتفال الحاشد .

كان الشباب قد تعلموا والمتقون منهم كتبوا كلمات للمناسبة اطلعت عليها قبل القائها ...

كانت بتعبورة في عرس تنتظر احتفالاً لم تألفه من قبل ... مع مسؤولي المنطقة تدارسنا البرنامج واتفقنا على كل خطوطه وخطواته . امانا حراسة مداخل القرية كما امانا حراسة الممرات المؤدية الى المدرسة . جننا بكل كراسي البلدة لتتسع لكل الضيوف خاصة الكهول والعجائز ... من كل قرى المنطقة .

تدبرنا من ينشد سوريا لك السلام نشيد الحزب الرسمي . ناظر تدريب المنفذية اخذ على عاتقه اعطاء الاعاز عند وصول موكب المسؤول الاول . كان قد تقرر ان يتألف هذا الموكب من المنفذ العام وهيئة المنفذية والمديرية وكان يجب ان يتقدم هذا الموكب شلة من الفتيات - الحمايم البيضاء - يحملن سلال الزهر وينثرن منها ازهارهن على الحضور يمينا وشمالا .

لا ازال اذكر حلوات بتعبورة الحمايم البيضاء يتقدمن المركب الرمزي ، السلام والزهور من سلالهن تملأ رؤوس الحاضرين . ومنشادات سوريا لك السلام والمنشدون تتردد اصدااء اصواتهم في الاودية القريبة في تلك الليل الربيعي المقمّر ! ...

لم يكن في بتعبورة كهرياء ، فنورنا الساحة والقاعات بقناديل اللوكس الوهاجة . العيد وحده نور ، فما بالك اذا اضيفت الى نوره انوار اللوكس الوهاجة ؟

دخل الموكب القاعة ، وقف الحضور من كل انحاء القويطع ، ادى الرفقاء التحية فاداهما معهم كل من حضر دون استثناء . منظر الشيوخ والعجائز يرفعون ايديهم

بالتحية يسترد دموع الفرح . ومشهد الفتيات ينثرن الزهور يهز عواطف البهجة في الاعماق . وسوريا لك السلام تنشدها الفتيات والفتيان في جو من الغبطة والحماس والايمان تفيض روعة وجمالا .

وقف الموكب يؤدي التحية حتى نهاية النشيد الرسمي . ثم تقدم الى الصفوف الامامية واعتلى المسؤول الاول المنبر . وبدأ عريف الحفلة يقدم المتكلمين .

لا انكر من خطب ومن انشد شعرا زجليا . انكر اني كتبت خطابا طويلا ، وصفت فيه الزعيم بشعره المنم ، وقامته الراحية ، ووجهه النحاسي وتقطبية حاجبيه السحرية وعينيه الفارضتين ومشيته كأنما مارء يمشي هادئ الخطى جبارا .

ورحت انكر تعاليمه ومبادئه ، منكرنا الحضور بطلته على بتعبورة في ايلول 1937 . ولن انسى عبارة ما برحت اردنها :

« لقد طبع سعادة نفسه في تعاليمه ومبادئه . فجاءت وكأنها من لحمه ومن نمه . ان ميلاد سعادة رمز لميلاد الأمة الجديدة . ان نكرى ميلاد المعلم هي نكرى ولانتنا الثانية فهو مؤسس حزيننا وياعث نهضتنا وخالق القضية التي من أجلها نحيا ومن أجلها نموت » .

بعد الخطاب الطويل ، خرج الحضور الى ساحة المدرسة ودارت حلقات الدبكة والرقص على انغام « مجوز » ابراهيم سويد ، ابو الشهداء اليوم – وحليب السباع خمرتنا القومية كان يدور على الحضور وفي رؤوسهم معا .

كان العيد عيدين : عيد القرية مع سعادة ، وعيد تحدي السلطات الحاكمة . ييثون علينا الارصاد والجواسيس ونحن نعيد في مدرسة القرية ، لا نخشى ارضاهم ولا الجواسيس . التحدي : تلك طبيعة الثورة والثوار . الثائر يتحدى الاقدار احيانا ولو كفروه !...

بمثل هذه الحفلات كنا نجمع القرية – وبعض اهالي المنطقة احيانا – لشد روابط الوحدة الروحية بينهم ، ولتمكين الالفة والمحبة والتعاون ، ليكون الريف خلية نحل قومية اجتماعية ، يهتم الى جانب المدرسة والحقل والزرع والقطاف ، بشؤون بلاده ويتحد حول قضيتها المقدسة .

اعيادنا القومية ، وقد اصبحت الآن اربعة ، اول اذار – مولد سعادة والربيع –

اول ايار عيد العمل ، 8 تموز استشهد سعادة يوم الفداء ، 16 تشرين ثان عيد التأسيس ، ليست طقوسا ولا مراسم . انها مناسبات للفرح الشعبي او للذكرى التثقيفية . انها مناسبة لتجديد العهد وتغذية الفكر والعزيمة . انها ايضا تكريم للمعلم القائد القدوة ، لننهل من ينبوع شخصيته ومواقفه التاريخية ما يؤهلنا باستمرار للسير على خطاه واكمال الطريق التي شق وتعبئة النفوس بحبه وحب القضية التي وضع وعلم .

واما حياة القرية فقد جعلناها صورة عن حياة امتنا ، متى اصبحت كلمتنا فيها مسموعة ، وتوجيهاتنا مستجابة ، اننا نريدها كما قلت خلية نحل تنتج الانتاج الطيب الثمين ، لا مستراحا ومقمره ، ونوادي للثرثرة والفساد والتامر والاعتياب . لقد قضينا على المنافسات العائلية البغيضة والتناحر الطائفي المقيت والفساد الاخلاقي والميعان والترهل والتخاثل . لقد علمنا الناس الفرحة الحقيقي العميق بالتلاقي والانصهار والتضامن والتعاون في سبيل الخير العام . ما رضينا ان يكون في القرية وفي المنطقة عائلية ولا طغيان-لمتزعجين او مستوجهين . وساوينا بين الناس ، فالعامل والمعلم والغني والفقير والفلاح والملاك يشتركون في تناغم عز نظيره في كل هموم القرية ومطالبها وافراحها واتراحها . لقد انسجموا فكرا ورأيا ، فكأنما كلمة خلاف وتحزبات ضيقة الغيت من قاموسهم . لقد حققنا بالفعل حب الحرية والتفاني في سبيلها حتى الاستشهاد ، كما حققنا الاخاء والمساواة حياة قائمة لا شعارات زائفة .

ان القرية في وطننا والريف بوجه عام يجب ان يتحول الى مشغل كبير ، فالتبغ والكروم والزيتون والتفاح ، يجب ان تستغل الى جانب قيام بعض الصناعات المحلية التي يبرز فيها وجه القرية الفولكلوري الخلاق . ان للريف دورا غير دور الحفاظ على تقاليدنا القومية في الرجولة والكرم والفروسية . انه دور المساهمة في الانتاج القومي بكل اشكاله وميادينه ونور ربط المواطن بالارض والوطن .

عيد اول اذار في القويطع عام 1941 ذكرى ميلاد سعادته ، كان ايضا عيد التفاف القرية والمنطقة حول حزب الحياة والنهوض ، الحزب السوري القومي الاجتماعي ، الحزب الذي علم الناس كيف يحيون وطنهم وكيف يموتون في سبيله ، في سبيل استقلاله وسيادته ، في سبيل ترابه وارضه ، في سبيل نهوضه وتقدمه وازدهاره .

لا بمسعى Van Roser فان روز ولا بمسعى Van Heintic فان هانتيك ، ممثلي الحكم الالماني لدى سلطات فيشي في لبنان ، حصلنا على العفو عن احكام آب « 1940 » العسكرية ، وقد مضى على سجن رفقائنا ما يقارب السنتين بل حصلنا عليه بمسعى من اصنقاء لنا وللحزب كان في طليعتهم الشيخ ابراهيم المنذر والمطران ايليا كرم وسواهم من ابناء بلاننا . الفوا وفدا وطلبوا موعدا وعرضوا امر العفو عنا بسبب الحرب القائمة بين الديغوليين يساندهم البريطانيون وبين الفيشيين . فقد تدرع الوقد بالخطر المحقق بنا من جراء حرب الطيران ، وان وجوبنا في السجن لم يعد له مبرر ، وان الافضل الا يتحمل المفوض السامي وفرنسا مسؤولية دمننا .

في 13 حزيران 1941 - على ما انكر اصدر الجنرال دانز - المفوض السامي - قراره باعفائنا من المدة المتبقية من العقوبات المحكوم بها علينا . وشمل العفو المحكومين والمتوارين عن الانظار خاصة وان الديغوليين والبريطانيين كانوا قد اعدوا لهجوم خاطف وراحوا ينفذونه بما توفر لديهم من قوات ، جمعوها من اطراف الدنيا ونظموها في فلسطين لتكون جيش الحلفاء . طلب اليها بلغة او باخرى ان نساند في بعض الامكنة التي لنا فيها وجود كثيف . كان قرارنا بالرفض لاننا لا نريد ان نزرع في صراعات فرنسية - فرنسية مهما كان المقصود منها ، لأنها تعبير عن موقف يترجم بالتالي انحيازاً للمحور او للحلفاء . نعمة ثابت يعرف كل التفاصيل عن هذه المفاوضات . بلغني امرها بعد وقوعها وبعد رفضها . لم يكن كميل شمعون القريب من آل ثابت عبر زوجته الراحلة السيدة زلفا ، ابنة عم نعمة ، غريباً عن محاولة زج الحرب في تلك الصراعات . علاقاته ببريطانيا شهيرة ومتداولة . وتاريخه السياسي حتى يومنا هذا محكوم بعلاقات خارجية ما كنا نتصور انها ستصل الى التحالف مع « اسرائيل » نكاية بالعرب ، هو الذي بدأ حياته « عروياً » كما يشهد الدكتور الرئيس عبد الله اليافي في حديث له اخيراً لمجلة الحوادث صدر في غضون الشهر الماضي (ايلول 1977)

وكما يشهد ايضا الوزير السابق الاستاذ النقيب فؤاد خوري في كتاب تاريخ النيابة في لبنان وما نكره عن مواقف كميل شمعون تأييدا لفلسطين ودفاعا عن قضيتها .

المهم اننا عننا الى الحرية . عاد من سجن بيت الدين كل اولئك الذين كملت لهم التهم جزافا ، بانهم يعنون لانقلابات داخلية ضد السلطات الحاكمة في الشام ولبنان ، ولحروب اهلية وتغيير النظام واستلام الحكم . عادوا كلهم الى بقاء العائلة ، الى قيادة الحزب ، دون ان يسقط منهم احد او يتخاذل او يتراجع : جبران جريج ، جورج عبد المسيح ، نعمة ثابت ، مأمون اياس ، اديب قدورة ، انيس فاخوري ، فارس معلولي ، عبدالله ايوب ، وكثيرون ممن تفوتني اسماؤهم الآن .

رغم الحرب الفرنسية - الفرنسية ، بين الديغوليين والفيشييين ، لم نشعر باننا محاصرون او ان الحرب شاملة . دار القتال عنيفا في قضاء مرجعيون ثم في الدامورخط الدفاع الاخير للقوات الفيشية . واصلت بيروت مدينة مفتوحة فما ضرب فيها مرقق حيوي ولا شعرت بان الحرب مشتعلة ، لأنها بالفعل لم تكن شاملة ، ولا كانت ضارية . لولا سقوط بعض الضحايا وبعض الغارات الجوية ، لظن اللبنانيون ان الحرب رواية لا واقعة ، وان الفرنسيين يشربون الخمر عوضا عن الاقتتال . وعندما تكون الحرب بعيدة عنك تسمع بها ولا تراها تكون في ذهنك مثل الخوف .. من الموت تخافه فيما يكون لا يزال بعيدا .

ورحنا نتداول في كيفية الرجوع الى الحياة الطبيعية ، كيف اغادر القويطع واعدت الى المدينة والحمامة ... التي اشتقت اليها كثيرا مهما كان للبرية من سحر وجمال بحقولها واوديتها ولطف اهلها وكرمهم ، الا ان السأم ينترقرنه اذا طالت الاقامة في اي مكان . الروتين عدو الجمال وعدو الصداقة وعدو الحياة ، الحركة والتنوع والتجدد والتنقل والانتاج هي حلاوة الحياة . النضال نفسه لا يجوز ان يتخذ اسلوبا او طريقة او شكلا واحدا . النضال الشاق الطويل مثل نضالنا يجب ان يكون مبدعا وخالقا ، وان يبدي لكل حالة الشكل المناسب للتحرك فلا يظل حربيا وسجنا ... وكفاحا بالفكر والصبر والاحتمال .

كان لا بد من اعادة فتح بيتي واعادة فتح المكتب . فاستاجرنا منزلا قرب منزل آل رحال وراء شركة ايطاليا في اول شارع الحمراء ودفعنا بدل ايجاره سلفا عن ثلاثة اشهر استئناها من الاهل والاصدقاء وفرشنا بما كان قد حفظ لنا من اثاثنا القديم . اما المكتب فكان لا يزال محجوزا على اسمنا بفضل الخال الراحل الاستاذ فهمم الخوري .

وابتدأنا العمل . عجاج الشويري ، صاحب لاغروت او بيجون ، (توفي منذ بضع سنوات) حمل الي ملفات دعاوية وكان قد سلمها لمحامين آخرين ، فاستعادها واعادها الي . المحامي كاطبيب يجتذب زبائنه بعامل الثقة . بدون الثقة بالطبيب لا تشفي العقاقير مريضاً وبدون الثقة بالمحامي لا يكسب صاحب الحق دعواه قضاء .. الثقة قوة للطبيب والمريض ، للمحامي والموكل معا .
وانطلقنا الي العمل . ما شعرنا اننا غبنا زمنا طويلا ، ما شعرنا بالاغتراب . لا تزال وجوه قصر العدل هي عينها ، الشجرة والمقهى الصغير مكانه وصوت ابو علي ينادي على المحامين قائماً مقام مكبر الصوت ، فيهدر صوته في ارجائها كما يهدر الرعد ! ...
القضاء المختلط باق . ما تبدلت الدنيا في سنتي الحرب ولا تغيرت سحنتها . اجور المنازل ارتفعت . الاسعار ارتفعت . الغلاء يطل كالغول الجائع والا من اين يثري اثرياء الحروب !

لم يكن شارع الحمراء قد بسط سطوته على راس بيروت ... وبيروت ، كان لا يزال اطلالة وفجرا . ربما كان بتعبير آخر لا يزال جنينا او حلما .

بيروت بعد غياب سنتين بقيت بيروت ساحة البرج وسوق الطويلة ومطعم فيصل قبالة الجامعة الاميركية الترامواي العتيق العجوز جدد شبابه بعض الطلاب على بعض عرباته ، اعطاه شيئاً من رونق الجدة او التجديد .

المكتب كان لا يزال في شارع المعرض مقابل الجامع العمري الكبير في بناية العبد . تركناه الي حبس القلعة ، ثم الي دنيا الفرار والتلطي والتخفي ، فاذا به بعد غياب سنتين قاعاً صافصفا . المهم انه باق بحوزتنا فلا نفتح مكتبا في الشارع كباعة البسطات في سوق الخضار .

كان في جوارنا جمعية مستخدمي التجارة يرأسها النائب الحالي الاستاذ فريد جبران . كان شابا طموحا ومتابعاً يتحلى بروح نقابية ممتازة ، جرت بيننا وبينه علاقات ود ، كان من نتيجتها ان توافقنا بعد قليل ان اكون مستشارا قانونيا للجمعية .

ليست العودة من الفرار كالعودة من السجن . الفرار متعبة والسجن مقصلة . الفرار لا يقيدك بقيود ، لا يرميك في الظلام عبداً مأمورا . الفرار يملأ وجودك بالقلق . يفسح المجال لتسليمك او استسلامك ، يقطع عنك موارد رزقك . اما السجن فيقتلعك من عالمك ، من جنور شخصيتك ، ويستبد بك استبداد طاغيا ، حتى يحرمك التنفس

بحرية ... السجن اوساخ ومرض والفرار نظافة وعافية . فتأمل البون الشاسع بينهما .

ومع ذلك ، فالعودة الى المهنة ، الى قصر العدل ، الى الرفقاء والزملاء والاصدقاء والجيران الى التنزه على الروشة ، الى الصعود الى الجبل ، الى التقرير والتنفيذ ، او الاحجام عن التقرير والتنفيذ ، العودة هذه متعة ثمنها ليس بالثمن البخس ومربودها ليس مربودا رمزيا .

لو اننا نضفي على هذه النكريات طابع الشمول ، لسمحنا للقلم ان يتحدث عن لقاءات بعد طول غياب مع القضاة ، مع الزملاء مع الجيران . مع الامل ، ولا شربنا الى آرائهم وخواطرهم او الى عواطفهم ومشاعرهم . فهل يستطيع المناضل ان ينسى انه بعد صمود سنتين بين السجن والمشارد ، يلقي الناس لا ليشجعوه ، لا ليرفعوا معنوياته ، بل ليقولوا له بكل صفاقة - كي لا نقول وقاحة - « شو لازمتك هالشغلة ! اهتم بمكتبك وعائلتك . انت وحزبك ما بتشيلو الزير من البير» .

اسأل القارئ المنصف ، كم يعود كئيبا الى داره وعائلته ، كسيف البال ، كسيح الفكر ، كسيح القدمين ، بعد مثل هذه الكلمات المنهكة للقلب والعقل ، القائلة للطموح ، وقد كان ينتظر ان يبارك الناس جهاده وان يحفزوه للمزيد من البذل والمزيد من العطاء ، اذ كيف تتحرر الاوطان وترتقي الشعوب والامم ، الا بالنضال والكفاح ! وهل غير وجه التاريخ من ناموا على حرير النعم ، واستسلموا لمطامح العيش الرخيصة ومغريات الدنيا الزائلة ! ... هل غير التاريخ الا المناضلون بالفكر والسلاح معا ؟

عائلتي الحقيقية كانت رفقائي . ما ان عدنا الى الحرية حتى عدنا الى العمل . كان علينا ان نعد العدة لمرحلة جديدة . جورج عبد المسيح بعد دخول الانكليز كتب رسالة لاحد كبار قادتهم الكولونال فيرلونج - اذا لم اكن مخطئا باسمه - كنا نريد ان نأخذ فترة سلام . ولكن الانكليز كالفرنسيين خيبيوا آمالنا . لا تزال علامات الاستفهام عندهم رغم كل تعقلنا وحكمتنا واسلوبنا الرصين في التعامل معهم بسبب الحرب ، تحوم حول حزينا انه الحزب الوحيد الخطر لأنه متعاون مع الالمان والاطليان ! ...

كيف يكون الاستبداد اذا لم يكن هذا استبدادا . وكيف تكون العداوة اذا لم يكن هذا السلوك عداوة بحد ذاته .

من السجن الى المعتقلات

اكتب هذا الفصل في 5 تشرين الأول 1978 . هدير المدافع المزمجرة يدق ابوابي ويطلق انني . على بعد امتار مني سقطت قذيفتان قادمتان من المنطقة الشرقية . الجيش الشامي قرر ان يقيم شريعة الامن في معاقل الانعزاليين بعد ان اقاموا شريعة الغاب فيها . نحن في المنطقة الغربية ما حركنا ساكنا ، سوى ان انفطرت قلوبنا على الابرياء الذين يسقطون ضحايا التعنت الشمعوني - الكتائبي ، وعلى المنازل والمصانع تنهار تحت القذائف بلا حساب فتوقع بالمواطنين خسائر لا تعوض . .

انهم اهلنا هؤلاء الذين يموتون او يجرحون ، اقتصادنا هذا الذي يشل ويدمر ... والمسيحيون الابرياء الذين يقتلون اليسوا اهلنا ، اليسوا سوريين عربا ؟ ماذا اقول ؟ هل تفرق القذائف بين مسيحي ومحمدي وملحد ؟

يصاب الانسان بالشلل لشدة قهره وتحسره وعذابه . يكاد يسقط صريع الالم والكآبة والحزن . ولكن ماذا يمكن ان نفعل ؟ هل كان بالامكان ان تفعل الشام اكثر مما فعلت لمنع شمعون والجميل من التحالف مع اسرائيل ؟ الا ينتظرون منها العون والفرج ؟ ...

هل يجوز ان نسمح ببقاء لبنان شرقية وغربية ؟ هل يجوز ان نسمح بتقسيم هذا الوطن الصغير الذي هو نفسه جزء من سوريا الطبيعية غير قابل للحياة بدون التعاون معها والترابط بها . الم تعلمنا عقيدتنا انهما شعب واحد وامة واحدة ..؟

اننا مضطرون ان نصمت . بل اننا مستعدون للحرب . عندما نقول لبنان الواحد نعني ما نقول . في سبيل لبنان الواحد لا يجوز ان نحسب حسابا للخسائر . المهم الا نخسر لبنان . في سبيل لبنان الواحد لا يجوز ان نحسب حسابا للموت والحياة . كلنا مستعدون ان نموت ليبقى هذا اللبنا الطلوحا حرا ، ولكي يكون ديموقراطيا علمانيا ، فلا تتكرر كل عشر سنوات مأساته واقتتاله وخرابه على يد الطائفية والطائفيين ، الذين يعتصمون بالخوف فيما هم الذين يخيفون الاخرين ويمعنون فيهم تقتيلا وتمثيلا ؟

في سبيل انقاذ لبنان ما يجري من احوال . فلنقبل كل الاحوال لكي لا نقع في الخطر

الأكبر : التقسيم او التدويل او الامن الذاتي الذي لا يقل خطرا عن التقسيم .

لنستمر في الكتابة . هذه الذكريات قد تعيد ضميرا واحدا الى الصواب . نكون قد قبضنا الثمن ، ثمن ما نعاني ونتكبد ونحن نتذكر ونكتب بين يوي القنابل والقذائف والمدافع ، وبين ما نتصور لنرى ويلات يكابدها اهلنا الاحياء في مناطق القتال الساخنة الداميات ؟! الدماء التي تتزف من صدورهم تتزف من صدورنا عليهم حزنا والمنا .

للتاريخ نقول : ان الشمعونيين والكتائبيين هم الذين يستحقون الموت والدمار والخراب ، لا هذا الشعب اللبناني الطيب النكي المقدام الذي ضلل وحقق بالتعصب والخوف ... وعقد الامتيازات والاستعلاء ...

عودة الى الذكريات

نحن اذن في آخر حرب الفيشيين والديغوليين . انهزم الفيشيون ومنهم من استسلم ومنهم من فر عبر تركيا الى فرنسا . وبدأت حرب سياسية جديدة بين النفوذ البريطاني والنفوذ الفرنسي . الفرنسيون يريدون ان يمنحوا لبنان والشام استقلالاً على نوقهم ، والانكليز على نوقهم الآخر ، والغاية واحدة ابقاء النفوذ الغربي عبر بريطانيا او عبر فرنسا مسيطرا على الشرق الاوسط من بوابات الساحل السوري في بيروت واللاذقية وحيفا ويافا ...

الانكليز ارادوا ان يستقبطوا الشام ولبنان بالاعتراف باستقلالهما التام الناجز . اما الفرنسيون فكانوا يصرون على معاهدة توليهم مركزا ممتازا ونوعا من ابدال انتداب بانتداب .

موقفنا المحايد في حرب الفيشيين والديغوليين ما طرد شبح المحور عنا وعن حزبنا . اعفاؤنا من الاحكام الصادرة بحقنا من قبل الجنرال دانز ، وقد تابع القارىء ، انه تم بناء على وساطة لبنانية من رجال الدين والدنيا ، كان قرينة جديدة ضدنا . عندما يهتم الله على بصائر الدول بالظلام والعممة لا يرون الا ما تشتهي العممة ان يروا . لذلك كان على ما يببو في طليعة اهتمامات السلطات الديغولية - البريطانية اعادتنا الى السجن ...

ما ان اقبل تشرين الاول 1941 حتى كانت ملفاتنا جاهزة . بدأت الاعتقالات وفق الاحكام التي اوقف تنفيذها بقرار من الجنرال دانز ، اعتبر قراره باطلا ويجب الاستمرار بالتنفيذ . الا ان البريطانيين عارضوا ، وتآلفت لجنة من الحقوقيين في المفوضية العليا ، افقت بان العفو قانوني ، و اشارت بوضعنا في المعتقلات . يقول الخبراء ان كلمة البريطانيين هي التي سمعت ووجهت الموقف هذا الاتجاه . من سجن القلعة حيث كان الرفقاء قادة واعضاء قد رجوا من جديد ، نقلوا الى معتقل

الميه وميه قرب صيدا . جورج عبد المسيح استطاع الفرار ولم يقع في قبضة الظالمين .
اعتصم في احرار بيت مري واوديتها ، ولم يعد بالامكان العثور عليه الا بسحر ساحر .
جورج كان اكثرنا اتقاناً لفن الفرار كما سيظهر من سياق هذه التذكارات او قل
المنكرات !

اما انا فقد نجوت باعجوبة .

كنت قد اتفقت مع الأمين الراحل بشير فاخوري احد اصحاب صيدلية فاخوري على
باب الدريس - هي اليوم اثر بعد عين - ان اصطحبه معي الى قصر العدل القديم لدراسة
ملف يخصه . مررت به حوالي التاسعة . منزلي الجديد في رأس بيروت كان مجهولاً .
القوة التي اوكل اليها القبض علي توجهت الى منزلي السابق ، فلم تجد احداً ، كنا قد
هجرناه قسراً . فاحالت المنكرة بتوفيقي الى أمر فصيل الكورة او الى الامن العام في
الشمال .

ماكدت اصل الى الصيدلية ، حتى بادرنى محيي الدين ، شقيق الامين بشير قائلاً :
اهرب فوراً ، صباح هذا النهار القوا القبض على بشير واستاقوه الى جهة مجهولة .

تسللت مهولاً الى سوق الفرنج. مررت بمحل السادة فتوح اخوان - من عشراء
شبابي واصدقائي الاوفياء - واختفيت وراء صناديق الويسكي والمشروبات
الكحولية . كنت الهت وقلبي يخفق بسرعة . الصدمة اصابتني في الصميم .

لم ابدأ حياتي المهنية بعد . دفعت اجرة المنزل . انفقت كل ما استندت . الى اين
الفرار ؟ الم يشبع الناس منا ونشبع نحن من سلخ جلود الناس ؟

يبحث الانسان احياناً عن نفسه في اطواء نفسه . يضع في اعماق ذاته . يغوص الى
القعر ثم يطفو على السطح ، تماماً كالغريق بلا حول ولا طول ، تتقاذفه امواجه
الداخلية ، هموما وشجوناً وقلقاً ... وبحثاً عن حل للنكبة الجديدة . هل من خشبة
خلاص ؟

وراء صناديق الويسكي والجن والنبيذ والعرق ، كان علي ان اختفي وان افكر .
الاصدقاء في المدن كغيرهم في الجبل . في المدينة ، حيث الحس التجاري هو السائد لا
مكان للتضحية في سبيل الآخرين الا نائراً . آل فتوح من الحلوة - قرنة الروم -
جيبيل ، فيهم من اصالة اهل القرى قدر كبير ، ولكن لا يمكنهم استيعابي اكثر من
ساعات . بعد ساعات تغيب الشمس فأين المهرب ؟

فجأة خطر في بالي اوتيل اورويبا على المرفأ . كنت مدعوا الى الغداء هنالك عند
« العم » عجاج الشويري ، وشريكه شاهين وخليل نجيم ، انن وجدت ملجأً اميناً .
انطلقت في زواريب سوق الجميل ، وصلت الى مقهى العجمي ، كان لا يزال مطعماً

معتدل الحجم ، معقول الاسعار . نزلت الى سوق الخشب ، تسلكت الى محطة سكة الحديد . وقبل بلوغ المرفأ في آخر نزلة شارع فوش ، منحرفا الى اليمين قليلا ، يقع باب اوتيل اورويا . كنا نسميه البابور ، لأن شكله بالفعل من الداخل شكل بابور !....

لم اخبر مضيقي باني مطلوب من العدالة . الناس في زمن الحرب يصلبون بمرض الذعر . « عند تغيير الدول احفظ رأسك » . صدق الشيخ ابراهيم المنذر يوم كتبها على اثر اعلان بدء المعارك في الجبهة الغربية من اورويا .

في المساء - وكانت زوجتي الحبيبة قد وصلت - رويت ما حدث ، وطلبت اعترابي لاجئاً في اوتيل اورويا . وقبلني الاخوة بالترحاب المشوب بالحذر . ليس كل الناس قوميين اجتماعيين او من اصديقاتهم . كل عائلة في لبنان « حزب » قائم بذاته والتحزب اكثر الاحيان مصالح ومنافع . العقائديون كانوا ومايزالون قلة . هم الجواهر في عالم التراب والتجارة والانانية الفردية والتعصب الطائفي ... هم البطولة في عالم الخوف والارتعاب والتسكع والمسكنة والتدجيل .

زوجتي عادت الى منزلنا وبقيت انا ضيفا على آل الشويري وآل نجيم ، في الاوتيل - البابور ، كنا نتداول في حال كيسة ما اين يمكن ان اخفي فقالت الصغيرة منى ، ان افضل مكان هو البراد !... كان الفصل فصل الخريف ، الاختفاء في البراد يعني موتا صاعقا باردا . الا ان الامر ما احتاج « لكبسات » .

الفارون من وجه العدالة يسقطون في الفخ بخطأ احيانا لا يشعرون انهم يرتكبونه ، وحيانا بمجرد صدفة او سوء حظ او لعنة من القدر . لقد ارتكبت خطأ كاد يؤدي بي الى جهنم مرة اخرى . دخلت الى غرفتي واوصدت الباب ورأني ، دون ان انتبه الى اني احكمت ايصاده . وجلست مستغرقا بالقراءة او الكتابة . فجأة سمعت وقع اقدام . التفت فاذا رجل من الامن العام ، عرفني وعرفته . لم يتظاهر بانه فوجيء ولا انا تظاهرت . كنت اسرع من لمح البصر في ارتداء ثيابي والتسلل الى الشارع وركوب عربات خيل والتوجه الى رأس بيروت ، الى شارع عمر بن عبد العزيز الى دار صديقنا كرم كرم ، والد الدكتور الشهير حاليا فريد كرم ، الاختصاصي في جراحة الاذن والحنجرة وامراض الرأس .

لا يستقبل الفار من وجه العدالة ببشاشة ولو من اصديقاته الاقربين الا في دنيا الريف والقرى . في المدن التحفظ والعبوس والحذر اسبق من اللهفة . السيد كرم كان امين صندوق الجامعة الاميركية ، عنوان الامانة ، والصدق والصراحة ، بقي في وظيفته الى ان احيل الى التقاعد . وزوجته كريمة ولطيفة . اقمت ما يقارب الاسبوعين في ضيافتهم ، ما ازعجتهم ولا ازعجونني الا ان الفرار في بيت واحد ، هو فرار في سجن نظيف . ان تظل في غرفتك ، مقفلة عليك الابواب ، سجن من نوع آخر ، لا ينقصه الا

الحراس والأمر .

قررت ان اعود الى ساحتي القديمة . لم اعد الآن المسؤول الاول ، تسلم المسؤولية جورج عبد المسيح ، ان ساعده اشد ورجليه اقوى . انه رجل السير على الاقدام اياما وليالي . وهو الى ذلك رجل الاحتمال والجلد ، ينام على الجوع والعطش كأنما شرب ماء الانهر كلها واكل طعام البر والبحر !...

في الصباح الباكر ، كانت سيارة تقلنا صغارا وكبارا بعد ان سلمنا المنزل الى المطران بولس الخوري - كان يومئذ ارشمنديتا - ليسلمه الى اصحابه . لم اتخذ من الحيطه سوى لبس الطربوش واخذ جريدة فتحتها اقرأ فيها لآخفي وجهي وراءها . لم يكن البحث عني قد بلغ حرارته القصوى . لم يكن في طريقنا حواجز ولا مراصد .

قلت في الصباح الباكر انطلقنا ولم اقل ان ملامح الفجر لم تكن بعد لمعت . كانت اميل الى الليل منها الى النهار . الناس نيام والعيون الراصدة نائمة فالطريق سالك والوصول بالسلامة مؤمن . عندما قطعنا « التونال » بعد البترون ، كنا قد كسرنا شوكة المخاطر . ها هي نسמת الشمال الصباحية تلفح اوجهننا ، فتبدد المخاوف والقلق . ونحيي ضحكات الصغار والكبار . ما احلى النجاة من قبضة الجواسيس ورجال الامن ، عندما تكون قبضاتهم تجرك الى سجن القلعة من جديد لتموت من جديد سبع مرات في النهار !...

ملاحظات

في ختام هذا القسم من المذكرات ، نسجل الملاحظات التالية :
اولا : اننا توقفنا عند 23 نيسان 1948 لأن الاتكال على الذاكرة وحدها لم يعد كافيا . لقد كان سعادته والحزب ملء عين الصحافة .
والصحفيون في لبنان وخارجه يكادون يحصون علينا انفاصنا ، فلم يعد بالامكان تسجيل الوقائع والحوادث الا بعد مراجعة وثيقة لما كتب حولها او قيل ، لتأتي ذكرياتنا وكأنها نوع من محاكمة او تقويم ما كتب وما قيل اما تأكيدا واما تكذيبا .

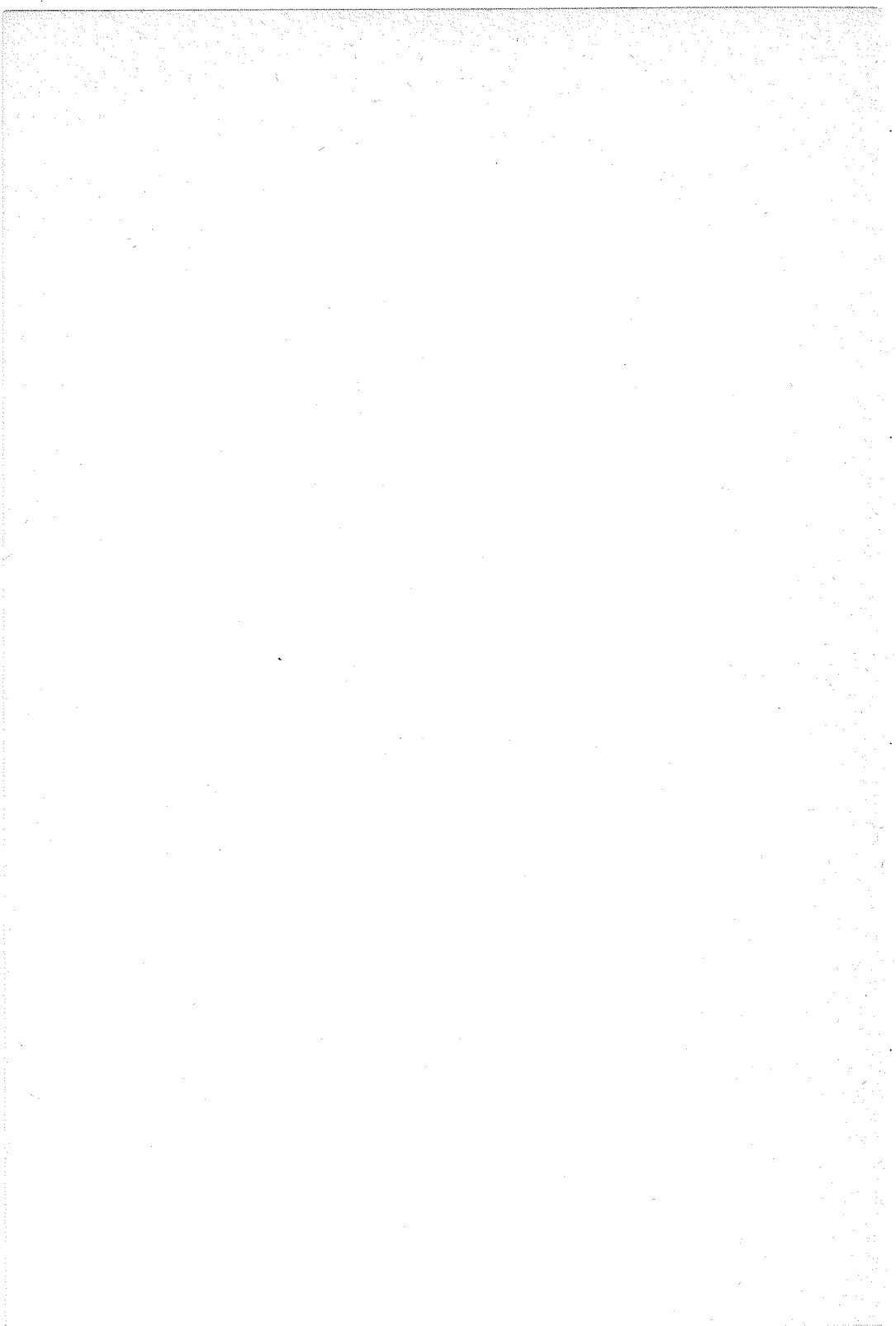
ثانيا : ان بعض الاسرار الحزبية تدفن مع صاحبها ، لأن نشرها قد يؤدي بعض الاشخاص او قد يفسر تفسيراً خاطئاً من قبل القارئ ، خصوصا اذا كان خصما عقائديا .

ثالثا : اذا سمحت لنا الحرب القائمة في لبنان ان نعود الى الكتابة ، فسنتألف كتابة ذكرياتنا ، سواء ما تعلق منها بحياتنا الحزبية ، في أشهر سعادته الأخيرة ، او ما تعلق منها بالسيرة الحزبية بعد استشهاده . لكي يعرف الرفقاء والمواطنون ومحبو الاطلاع ، على الادوار التي لعبها قادة الحزب وانعكاساتها الايجابية او السلبية على المؤسسة التي كان لصمودها ويطولاتها الأثر الأكبر في الأحداث التي عصفت بلبنان ، وأدت الى ما أدت من تقدم وتطور .

والى الجزء الثاني

في ايار 1981

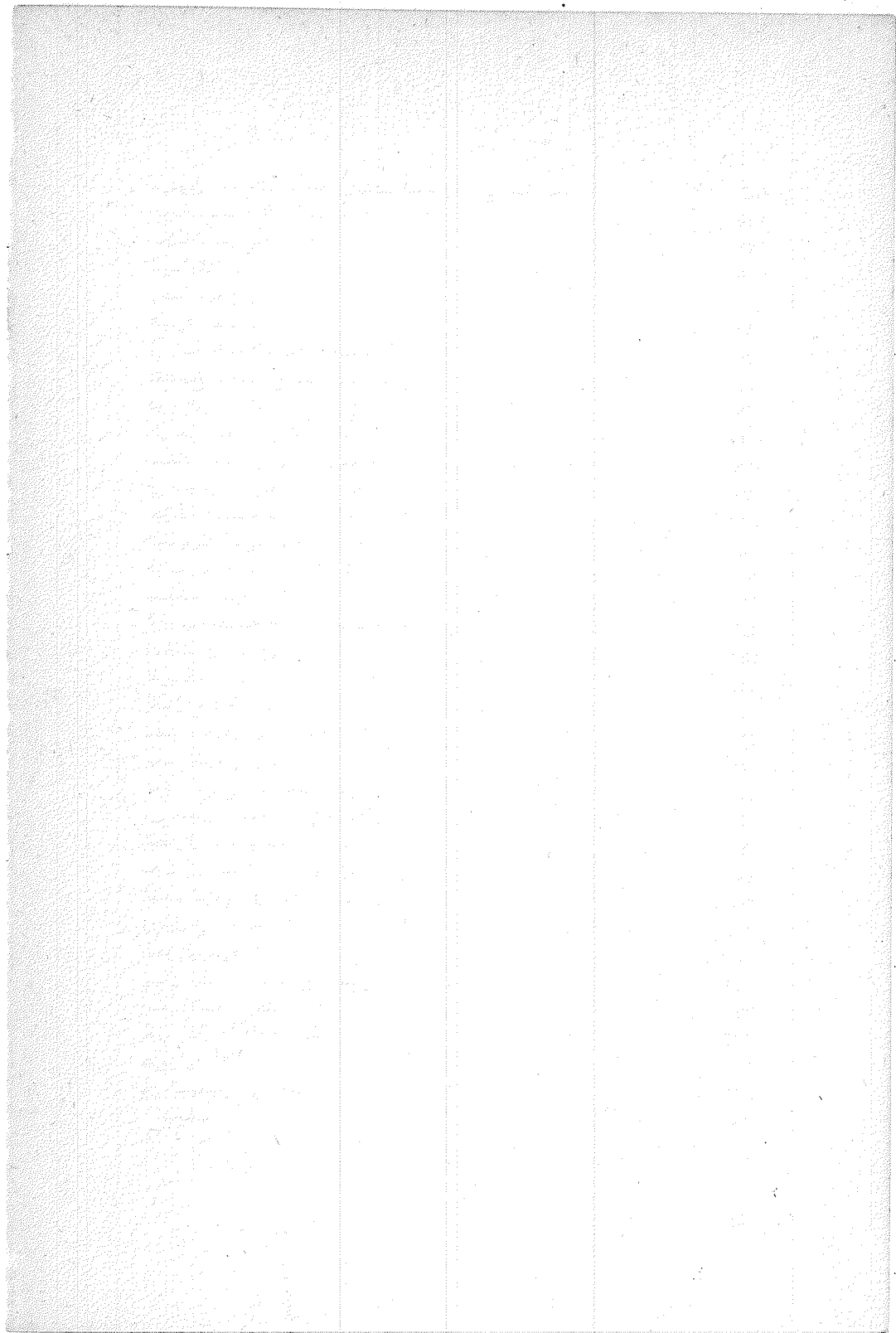
عبد الله قبرصي



فهرس

9	كلمة رئيس الحزب في تقديم المؤلف
11	مدخل
15	مقدمة
26	من عمدة الإذاعة الى وضع مشروع الدستور
30	الزوبعة — علم الحزب ورموزها
34	سعيد تقي الدين في الحزب السوري القومي الاجتماعي
41	دخول الدكتور زكي النقاش الحزب والايمان الديني
49	النظام المركزي وأول محاكمة في الحزب
53	دخول الشاعر صلاح لبكي الحزب وخروجه
57	الغنى والثالية قلما يجتمعان
63	نشاط عمدة الإذاعة بين الكورة والشوير
68	سعيد عقل ولبنان الأكبر : كيف أسسنا عيد أول آذار
73	آذار عيد البهجة كما عيد التحدي
78	في اجتماع بعقلين اكتمل ايماني بالزعيم
83	سعاده : نظام الحزب ليس هتلياً ولا فائسياً بل نظام قومي اجتماعي بحث
88	ذكريات عن مرحلة التأسيس
92	في السجن ليلة عرسي
99	من السجن الى نقابة المحامين
109	ذكرى ابرام الدستور الاولى في السجن
113	نقابة المحامين تهدد بالاضراب
116	في بتعبوره تحول عرسي الى مظاهرة علنية للحزب والزعيم
119	« خسرنك »
122	سألني « تمبال » كيف يمكن أن يحقق حزبك وحدة سوريا
125	وهي تحت انتداب أقوى دولتين في العالم !
134	نعاجاً أم اسوداً ؟ 25 رفيقاً في البسطة خلال ساعة واحدة

137	بردويل : « اننا سنحقق بالدم المبادئ التي بها آمانا »
140	عودة سعاده الى الحرية
143	علاقتنا بفرنسا
146	عود على بدء
152	رحلة الطويين
158	الندوة الثقافية
165	في رتبة الامانة وأمناء سعاده
174	لقاء مع سعاده في بيت صلاح لبكي
179	دور المرأة في تأسيس الحزب
186	الزعيم والقوميون أمام القضاء
192	سعاده الانسان .. والهجوم على حماه
198	في صوفر .. مع رياض الصلح
200	جريدة النهضة تشرين الاول 1937
205	البطيريك عريضة ومي زيادة
209	الزعيم في وجدان الكورة الخضراء
217	سعاده رفض التسوية
226	الحرب العالمية الثانية .. والاعتقالات
234	تأملات في السجن .. والعقاب
241	الرسالة ... البلية
248	الصراع داخل الزنزانة
254	طعام وحمام ومرض ولقاء
260	عالم السجن والسجناء
269	عودة الروح .. عودة الحرية
275	من سجن القلعة الى سجن المرض
283	الجنرال كايو واخلاء السبيل
296	تحت كل سماء .. والمسؤول الاول
305	اثبات الوجود في ميادين النضال
311	روميل في العلمين 1941
315	الخوري جرجس
318	رجال الدرك .. والبوسطجي
322	أسد الاثغر وجلال طالب
327	أول آذار 1941 في بتعبوره
331	حزيران 1941
335	من السجون الى المعتقلات
340	حظات



هذا الكتاب

ليس تاريخاً لحزب • انه تدوين
لوقائع حفرها التاريخ في ذاكرة المؤلف ،
ومن هنا اختار لكتابه عنوان « عبدالله
قبرصي يتذكر » • يتذكر الصراع في
حياة أولى سماتها الصراع ايماناً
وممارسة • ألم يضع المؤلف كتابه خلال
هذه الحرب المدمرة ؟ أليس ذلك دليلاً
على أنه لم يذق طعم الراحة حتى أثناء
الكتابة ؟

ولكن ، لعل القارئ سيحظى في
الكتاب بحظوتين : حظوة الادب وحظوة
النضال •

